«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
٢٠٢٨٥٢

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء التاسع

تحقيق وتعليق

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد ابراهيم

طبع على نفقة
صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

٢٧٦٧٥

« تفسيرُ ابن عطية خيرُ من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع .... بلْ هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » .

(ابن تيميـة)

« لـمَّا رجع النَّاسُ إلى ٱلتَّحقيق والتَّمحيص ، وجاءَ أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلدون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء التاسع

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٧) سُورَةُ الإِسْرَاءِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَة

تفسير سورة الإسراء *

هذه السورة مكيَّة إلَّا ثلاث آيات (١) : قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ، وقوله : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ، نزلت حين جاءَ

(*) الذي في الأصول : (تفسير سورة سبحان) ، وقد آثرنا الاسم المألوف الذي سميت به في المصاحف المطبوعة . وتُسمى أيضاً سورة (بني إسرائيل) ، وبه سمَّاها الطبري في تفسيره ، وقد أخرج النحاسُ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : نزلت سورة بني إسرائيل بمكة .

(١) المذكور هنا أربع آيات لا ثلاث ، ولعله اعتبر الآيتين الأولى والثانية بمثابة آية واحدة ، والقرطبي والشوكاني في (فتح القدير) لم يذكرا الآية الأولى هنا ، واكتفيا بذكر الثلاث الباقية ، أما أبو حيان في (البحر المحيط) فقد نقل كثيراً من الأقوال ، نقل عن صاحب (الغنيان) الإجماعَ على أن السورة مكية ، ونقل قولا بأن المدني فيها آيتان فقط ، هما الأولى والثانية من المذكور هنا ، ثم نقل قولاً ثالثاً بأن المدني أربع آيات هي التي ذكرها ابن عطية هنا ، وأرقام الآيات المدنية المذكورة هنا هي على الترتيب الذي ذكره المؤلف : (٧٣ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٧) ، وقد قيل أيضاً : إن المدنيَّ فيها هو الآيات : (٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧) ، وهذا مذكور في المصاحف المطبوعة .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وفدُ ثقيف ، وحين قالت اليهود : « ليست هذه بأَرض الأَنبياء » ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية ، وقال ابن مسعود : في بني إسرائيل والكهف : « إنهن من العتاق الأُول ، وهنَّ في تلادي »(١) ، يريد أنَّهُنَّ من قديم كسبه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

لفظ الآية يقتضي أن الله عزَّ وجلَّ أسرى بعبده ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، قال المفسرون : معناه : سَرَى بعبده ، ويظهر أن [أَسْرَى] مُعَدَّاة بالهمز إلى مفعول محذوف ، تقديره : أَسْرَى الملائكة بعبده ، وذلك لأنه يقلق أن يُسْند [أَسْرى] - وهو بمعنى (سَرَى) - إلى الله عزَّ وجلَّ ، إذْ هو فعل يُعطي النقلة كَمَشَى وجَرَى وأحضر

(١) أخرجه البخاري ، وابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، واللفظ « الدُّرّ » يذكر ثلاث سور هي : بنو إسرائيل والكهف ومريم ، وذكر ذلك الشوكاني في « فتح القدير » ، وزاد محقق القرطبي أيضا سورة « مريم » .

وانتقل ، فلا يحسن إسناد شيءٍ من هذا ونحن نجد مندوحة ، فإذا صرحت الشريعة بشيءٍ من هذا النحو كقوله تعالى في الحديث : (أَتَيْتُه سعياً ، وأَتَيْتُه هَرْوَلَةً) (١) حُمل ذلك بالتأْويل على الوجه المخلِّص من نفي الحوادث ، و [أَسْرى] - في هذه الآية - تخرج فصيحة كما ذكرنا ، ولا تحتاج إلى تَجَوُّز قَلق في هذا اللفظ ، فإنه أَلزم للنقلة من (أَتَيْتُه) (٢) و ﴿أَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ﴾ (٣) . ويحتمل أَنْ يكون [أَسْرَى] بمعنى : (سَرى) على حذف مضاف ، كنحو قوله تعالى : ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ

(١) ورد هذا في حديث قدسي رواه البخاري في التوحيد ، ومسلم في التوبة والذكر ، والترمذي في الزهد والدعوات ، وابن ماجه في الأدب ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في مسلم ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عزَّ وجلَّ : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم ، وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرَّب إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرْوَلةً) .

(٢) يريد (أَتَيْتُه) التي في الحديث القدسي ، وفيها مع الانتقال والحركة .

(٣) من الآية (٢٦) من سورة (النحل) ، وقد نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هذا عن (أَسْرَى) ، ثم عقَّب عليه بقوله : « وإنما احتاج ابن عطية إلى هذه الدعوى اعتقاداً منه بأنه إذا كان (أَسْرَى) بمعنى (سَرَى) لزم من كون الباء للتعدية مشاركة الفاعل للمفعول ، وهذا شيءٌ ذهب إليه المبرد ، فإذا قلتَ : « قمتُ بزيد » لزم منه قيامك وقيام زيد عنده ، وهذا ليس كذلك ، التَبَسَتْ عنده باءُ التعدية بباءِ الحال ، فباءُ الحال يلزم فيه المشاركة ، إذ المعنى : قمتُ مُلْتَبِساً بزيد ، وباءُ التَّعدية مرادفة للهمزة ، فقولك : « قمتُ بزيد » والباءُ للتعدية مثل قولك : « أقمتُ زيداً » ، ولا يلزم من إقامتك إياه أن تقوم أنت ، اه بتصرف .

بِنُورِهِمْ ﴾ (١) . ووقع الإسراءُ في مُصنَّفات الحديث ، ورُوي عن الصحابة في كل أَقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش مَّمن رواه عشرين صحابيًّا ، فروى جمهور الصحابة ، وتَلَقَّى جلُّ العلماءِ منهم أن الإسراءَ كان بشخصه صلَّى الله عليه وسلم ، وأنه ركب البراق من مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه . وروى حذيفة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينزل من البراق في بيت المقدس ولا دخله ، ـ قال حذيفة : ولو صلَّى فيه لكُتب عليكم الصلاةُ فيه ـ وأنه ركب البراق بمكة ولم ينزل عنه حتى انصرف إلى بيته إلَّا في صعوده إلى السماءِ . وقالت عائشة ومعاوية : إنما أُسري بنَفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفارق شخصُه مضجعه ، وإنها كانت رؤْيا رأى فيها الحقائق من ربِّه عزَّ وجلَّ . وجوَّزه الحسن وابن إسحٰق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والحديث مطوَّل في البخاري ومسلم وغيرهما فلذلك اختصرنا نصَّه في هذا الكتاب ، وركوب البراق على قول هؤلاءِ يكون من جملة

---

(١) من الآية (١٧) من سورة (البقرة) . قال أبو حيان في البحر : « يعني أن يكون التقدير : سرت ملائكته بعبده ، فحذف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وهذا مبني على أنه يلزم المشاركة والباءُ للتعدية » .

ما رُئي في النوم ، قال ابن المسيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري : البراق هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريدان : يجيءُ من يومه ويرجع ، وذلك من مسكنه بالشام . والصحيح ما ذهبَ إليه الجمهور ، ولو كانت منامية ما أمكن قريش أن تُشَنِّع ، ولا فُضِّل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق ، ولا قالت له أمُّ هانيءٍ : لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك ، إلى غير هذا من الدلائـــل .

واحتُجَّ لقول عائشة رضي الله عنها بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يحتمل القول الآخر ؛ لأنه يقال لرؤية العين : رُؤْيا . واحتُجَّ أيضاً بأن في بعض الأحاديث : (فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام) ، وهذا يحتمل أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم . واعترض قول

(١) من الآية (٦٠) من هذه السورة (الإسراء) .

عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت ، غير مشاهد للحال ، صغيراً ، ولم يحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : [سُبْحَانَ] مصدر غير متمكن ؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب ، ولا تدخل عليه الألف واللام ، ويجيءُ منه فعل ، وسبَّح معناه : قال سبحان الله ، فلم تستعمل سبَّح إلَّا إشارة إلى سبحان ، ولم يتصرف لأن في آخره زائدتين ، وهو معرفة بالعلمية ، وإضافته لا تزيده تعريفاً ، هذا كله مذهب سيبويه فيه . وقالت فرقة : نصبه على النداء ، كأنه قال : يا سبحان الذي أسْرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، ومعناه : تنزيهاً لله . وروى طلحة بن عبيد الله الفيَّاض أحد العشرة (١) أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى

(١) هوطلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني ، وهو أحد العشرة المُبَشَّرين بالجنة ، وأحد السِّتَّة أصحاب الشورى ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، كان من دهاة قريش ، وكان يقال له ولأبي بكر : القرينان ، ويقال له : « طلحة الجود » و « طلحة الخير » ، و « طلحة الفيَّاض » ، وكل ذلك لقَّبه به النبي صلى الله عليه وسلم في مناسبات مختلفة ، ودعاه مرة : « الصبيح المليح الفصيح » ، أصيب في أحُد بعد أن ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم بأربعة وعشرين جرحاً ، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة رضي الله عنهما ، ودفن بالبصرة ، له ٣٨ حديثاً .

(سبحان الله) ؟ فقال : (تنْزِيه الله من كُلِّ سُوءٍ) ، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعْلُ الذي هو من معناه لا من لفظه إذ لم يَجْرِ من لفظه فعل ،وذلك مثل : «قَعدَ القُرْفُصاءَ واشْتَمَل الصَّمَّاءَ»(١) ، فالتقدير عنده : أُنَزِّه الله تنزيهاً ، فوقع [سُبْحَانَ] مكان قولك : تنزيهاً . وقال قوم من المفسرين : [أَسْرَى] فعلٌ غير مُتَعَدٍّ ، عَدَّاه هنا بحرف الجَرِّ ، تقول : أَسْرَى الرجل وَسَرَى إذا سارَ بالليل بمعنى . وقد ذكرتُ ما يظهر في اللفظة من جهة العقيدة . وقرأ حذيفة وابن مسعود : «أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام» .

قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ . قال أنس بن مالك : أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها ، ورجّحه الطبري ، وقال : هو الذي يُعرف إذا ذُكر هذا الاسم ، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (بينما أنا عند البيت بين النائم

---

(١) القُرْفصاءُ : جلسة المحتبي بيديه ، وهي أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه . والصماءُ : ضرب من الاشتمال ، واشتمالُ الصماء أن تُجَلِّل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ، وهو أن يردَّ العربي الكساء من ناحية يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً .

واليقظان)(١) ، وذكر عبد بن حميد الكمشي في تفسيره ، عن سفيان الثوري أنه قال : أُسْري بالنبي صلى الله عليه وسلم من شِعْب أَبي طالب . وقالت فرقة : «المسجد الحرام» مكَّةُ كلها ، واستندوا إلى قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾(٢) ، وعُظم المقصد هنا إنما هو مكة . ورَوَى بعض هذه الفرقة عن أُم هانىء أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراءِ في بيتي(٣) ، وروى بعضُها عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (فُرِج سقف بيتي) ، وهذا يلتئم مع قول أُم هانىء رضي الله عنها .

وكان الإسراءُ فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام ، وقاله قتادة ، وقيل : بعام ونصف ، قاله عروة عن عائشة رضي الله عنها ، وكان ذلك في رجب ، وقيل : في ليلة سبع عشرة من ربيع الأَول ، والنبي

---

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، قال في (الدرّ المنثور) : «عن الحسن بن الحسين رضي الله عنه» ، والذي في تفسير ابن جرير : «عن الحسن بن أبي الحسن» — واللفظ فيهما : «بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني برجله فجلست» ... الخ .

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح) .

(٣) أخرجه الطبراني ، وابن مردويه ، عن أم هانئ رضي الله عنها ، وأخرج نحوه أبو يعلى وابن عساكر ، وأخرج أيضاً نحوه ابن إسحق ، وابن جرير (الدر المنثور) .

صلى الله عليه وسلم ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة (١) ، وقيل : بيعة العقبة ، ووقع في الصحيحين لِشُرَيْك بن أبي نمر وَهْمٌ في هذا المعنى ، فإنه روى حديث الإسراءِ وقال فيه : «وذلك قبل أن يوحى إليه» . ولا خلاف بين المحدِّثين أن هذا وهم من شريك (٢) .

و «المسجدُ الأَقْصى» مسجد بيت المقدس ، وسمَّاه «الأَقصى» أي في ذلك الوقت ، كان أَقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة ، ويحتمل

---

(١) روى ابن إسحق أن قريشاً حين رأت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وبعد إسلام عمر وحمزة ، فاجتمعت قريش ، وائتمرت على أن تكتب فيما بينها كتاباً تتعاقد فيه قبائلها على بني هاشم وبني المطلب ، على ألا يُنْكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم وكتبوا ذلك في صحيفة ، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة . وهذه الصحيفة كانت موضع نقد من أهل العقل في قريش ، وانتهت إلى أن شقت ومزقت .

(٢) حديث شريك بن نمير هذا أخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وقال فيه الحافظ عبد الحق رحمه الله في كتابه (الجمع بين الصحيحين) : «هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، وقد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى حديث الإسراءِ جماعة من الحفاظ المتقنين ، والأئمة المشهورين ، كابن شهاب ، وثابت البناني ، وقتادة — عن أنس — فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث» . وقد انتقد رواية شريك هذه أيضاً سنداً ومتناً الشهابُ الخفاجي في كتاب (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض) .

أن يريد بـ [الأَقْصَى] : البعيد ، دون مفاضلة بينه وبين سواه ، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراءِ إلى هذا البُعْد في ليلة .

والبَرَكَة حوله من جهتين : إحداهما النبوة والشرائع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه ونواديه ، والأُخرى النِّعَمُ من الأَشجار والمياه والأَرض المفيدة التي خصَّ الله الشَّام بها ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (إن الله بارك فيما بين العريش والفرات ، وخصَّ فلسطين بالتقديس) .

وقوله تعالى : ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ يريد : لنري محمداً بعينيه آياتنا في السموات ، والملائكة ، والجنة ، والسِّدرة ، وغيرذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب ، ويحتمل أن يريد : لنري محمداً صلى الله عليه وسلم للناس آية ، أي : يكون النبي صلى الله عليه وسلم آية في أن يصنع اللهُ لبشرٍ هذا الصُّنع ، وتكون الرُّؤْية – على هذا – رؤْية قلب .

ولا خلاف أن في هذا الإسراءِ فُرضت الصلواتُ الخمس على هذه الأُمة . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وعيدٌ من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم في أمر الإسراءِ ، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك ، أي : هو السميع لما تقولون ، البصير بأَفعالكم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

عطف قوله تعالى : [وآتَيْنَا] على ما في قوله : ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ من تقدير الخبر ، كأنه قال : أَسْرَيْنَا بعبدنا وأريناه آياتنا ، و [ٱلْكتَاب] : التوراة ، والضمير في [جَعَلْنَاهُ] يحتمل أن يعود على [ٱلْكِتَاب] ، ويحتمل أن يعود على [مُوسَى] عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير : كراهية ، وأن يكون في موضع خفض بتقدير : بأَلَّا تَتَّخذُوا ، ويجوز أن تكون [أَنْ] مفسِّرة بمعنى : أيْ ، كما قال : ﴿أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا﴾(١) ، فهي في هذا مع أَمْرٍ ، وهي في آيتنا هذه مع نَهْي ، والمعنى في هذه التقديرات :

(١) من الآية (٦) من سورة (ص) .

جعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذُرِّيَّةَ ، ويحتمل أن تكون [ذُرِّيَّةَ] مفعولاً ، ويحتمل أن تكون [أنْ] زائدة ، ويضمر في الكلام قول تقديره : قلنا لهم : لا تتخذوا ، وأمَّا أن يُضمر القول ولا تجعل [أنْ] زائدة فلا يتَّجه ؛ لأَن ما بعد القول إمَّا أن يكون جملة يُحْكَيَ ، وإمَّا أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه ، فيعمل القول في الترجمة ، كما تقول ـ لمنْ قال لا إله إلَّا الله ـ : قلْت حقًّا ، وقوله : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ ليس بواحد من هذين ، قاله أبو علي . وقرأ جمهور الناس : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو وحده : ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ بالياء على لفظ الغائب ، وهي قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعيسى ، وأبي رجاء . و «الْوَكيلُ» هنا فعيل من التوكل ، أي : مُتوَكَّلاً عليه في الأُمور ، فهو يؤلهه بهذا الوجه ، قال مجاهد : [وَكيلاً] : شريكاً .

وقرأ جمهور الناس : [ذُرِّيَّةَ] بضم الذال ، وقرأ عامر بفتحها ، وقرأ زيد بن ثابت ، وأبان بن عثمان ، ومجاهد أيضاً بكسرها ، وكل هذا بشد الراءِ والياءِ ، ورُويت عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الراءِ وشدِّ الياءِ ، على وزن فَعيلَة ، و (ذُرِّيَّة) وزنها فعولة ، أَصلها (ذُرُّورَة) ، أُبدلت الراءُ الثانية ياءً وأُدغمت ثم كسرت الراءُ لتناسب الياءَ . وكل هؤلاءِ قرؤوا : [ذُرِّيَّةَ] بالنصب ، وذلك مُتَّجه ،

إمَّا على المفعول بـ [تَتَّخِذُوا] ، ويكون المعنى : أَلَّا تتخذوا بشراً إلٰهاً من دون الله ، وإمَّا على النداء ، أي : يا ذُرِّيَّةَ ، فهي مخاطبة للعالَم – قال قومٌ : وهذا لا يتَّجه إلَّا على قراءة من قرأ : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ بالتاء من فوق ، ولا يجوز على قراءة من قرأ بالياء من تحت ؛ لأَن الفعل لغَائبٍ والنداءَ لمخاطب ، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يُسْتَسْهل مع دلالة الكلام على المراد ، وفي النداء لا دلالة إلَّا على غاية التكلف – ، وإمَّا على النصب بإضمار أَعْني ، وإمَّا على البدل من قوله : [وكيلاً] ، وهذا أَيضاً فيه تكلُّف . وقرأَت فرقة : [ذُرِّيَّةُ] بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في [تَتَّخِذُوا] ، وهذا أَيضاً يتوجه على القراءة بالياء ، ولا يجوز على القراءة بالتاء ؛ لأَنه لا يبدل من ضمير مخاطب ، لو قلت : «ضربتك زيداً» على البدل لم يجز . وقوله : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنما عبَّر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية بحسب الخلاف المذكور ، ولأَن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاءِ المؤَدِّي إلى وجودهم ، ويقبح الكفر والعصيان مع هذه النعمة ، والذين حُملوا مع نوح عليه السلام وأَنْسَلوا هم بنوه لصُلْبه ؛ لأَنه آدم الأَصغر ، وكل من على الأَرض من نسله ، هذا قول الجمهور ، وذكره الطبري عن قتادة ومجاهد ، وإن كان معه

غيره فلم يُنْسل . قال النقاش : اسم نوح عبدُ الجبار ، وقال ابن الكلبي : اسمُهُ فرج ، ووصفه بالشكر لأنه كان يحمد الله في كل حالٍ ، وعلى كل نعمة ، على المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ، صلى الله عليه وسلم . قاله سلمان الفارسي ، وسعيد بن مسعود ، وابن أبي مريم ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿وقضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائيلَ﴾ الآية ، قال الطبري : معنى [قَضيْنَا] : فَرَغْنَا ، وحكى عن غيره أنه قال : [قضَيْنَا] هنا بمعنى : أخبرنا ، وحكى عن آخرين أنهم قالوا : [قَضَيْنَا] معناه : في أُم الكتاب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما يُلْبِس في هذا المكان تعديةُ [قضَيْنَا] بـ [إلى] ، وتلخيص الكلام عندي أن هذا الأَمر هو مما قضاه الله تعالى في أُم الكتاب على بني إسرائيل وأَلزمهم إيَّاه ، ثم أَخبرهم به في التوراة على لسان موسى ، فلما أَراد هنا الإعلام بالأَمرين جميعاً في إيجاز جعل [قضَيْنَا] دالَّةً على النفوذ في أُم الكتاب ، وقَرَن بها [إِلَى] دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل ، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ ، ولهذا

فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما مرَّةً بأَن قال : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناه : أَعلمناهم ، وقال مرَّةً : معناه : قضينا عليهم و «ٱلْكِتَابُ» هنا التوراة ؛ لأَن القَسَم في قوله تبارك وتعالى : [لَتُفْسِدُنَّ] غير متوجِّه مع أَن يُجعل «الكتَابُ» هو اللوح المحفوظ . وقرأَ سعيد بن جبير ، وأَبو العالية الرياحي : ﴿في ٱلْكُتُب﴾ على الجمع ، قال أَبو حاتم : قراءة الناس على الإِفراد . وقرأَ الجمهور : [لَتُفْسِدُنَّ] بضم التاءِ وكسر السين ، وقرأَ عيسى الثَّقفي [لَتَفْسُدُنَّ] بفتح التاءِ وضم السين والدال ، وقرأَ ابن عباس ، ونصر بن عاصم ، وجابر بن زيد : [لَتُفْسَدُنَّ] بضم التاءِ وفتح السين وضم الدال . وقوله تعالى : [وَلَتَعْلُنَّ] أَي : لَتَتَكَبَّرُنَّ عن طاعة الآمرين بطاعة الله ، وتطلبون في الأَرض العلوَّ والفساد ، وتظلمون من قدرتم على ظلمهم ، ونحو هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أَنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرُّسل والكتب وغير ذلك ، وأَنه سيرسل عليهم أُمَّةً تغلبهم وتقتلهم وتذلهم ، ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكَرَّة ويردُّهم إِلى حالهم الأُولى

من الظهور ، فتقع منهم المعاصي وكُفْر النعم ، والظلمُ والقتلُ ، والكفرُ بالله من بعضهم ، فيبعث الله عليهم أُمَّةً أُخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاءً مبرحاً (١) ، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأَمر كله ، وقيل : كان بين المرَّتَيْن : آخر الأُولى وأول الثانية مائتا سنة وعشر سنين (٢) ملكاً مُؤيداً بأَنبياءَ ، وقيل : سبعون سنة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [أُولَاهُمَا] عائد على قوله : [مَرَّتَيْن] ، وعبَّر عن الشَّرِّ بالوعد لأَنه قد صرَّح بذكر المعاقبة ، وإِذا لم يجىء الوعد مطلقاً فجائز أَن يقع في الشَّرِّ .

---

(١) أي شاقـّاً قاسياً .

(٢) في إحدى النسخ : « وعشرين سنة » ، وما في البحر المحيط يوافق ما أثبتناه .

وقرأ علي بن أَبي طالب ، والحسن بن أَبي الحسن : [عَبيداً] ، واختلف الناس في العبيد المبعوثين وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً . عُيُونه أَن بني إسرائيل عَصَوْا وقتلوا زكريا عليه السلام فغزاهم سَنْحاريب مَلك بابل(١) ، كذا قال ابن إسحق ، وابن جبير . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غزاهم جالوت من أَهل الجزيرة ، وروي عن عبد الله بن الزبير أَنه قال في حديث طويل : غزاهم آخراً ملك اسمُه خردوش ، وتولَّى قتلهم على دم يحيى بن زكريا قائدٌ لخردوش اسمه هورزادان ، وكف عن بني إسرائيل وسكن برعاية دم يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وقيل : غزاهم أَولاً صخابين ملك رومة ، وقيل : بختنصر ، ورُوي أَنه دخل قبْلُ في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك ، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس ؛ لأَنه كان يُداخلهم ، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأَعظم ، فلما كان بعد مدة جعله رئيس الجيش وبعثه ، فخرب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم ، ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك موضعه ، واستمرت حاله حتى ملك الأَرض بعد ذلك .

---

(١) ملك آشور ، وهو سنحاريب بن سنجور وخليفته ، حمل على بلاد الكلدانيين وأرمينية .

وقالت فرقة : إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عصَوْا وقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وصورة قتله أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك ، فعزَّ ذلك على امرأته ، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر ، وقالت لها : إذا راودك عن نفسك فتمنَّعي حتَّى يعطيك ما تَتَمَنَّىْ ، فإذا قال لك : تمنَّيْ عليَّ ما أردت فقولي له : رأْس يحيى بن زكريا ، ففعلت الجارية ذلك ، فردَّها الملك مرتين ، وأَجابها في الثالثة ، فجيءَ بالرأس في طَسْت ولسانه يتكلم ويقول : لا تحلُّ لك ، وجرى دم يحيى عليه السلام فلم ينقطع ، فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث ، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم – بحسب الخلاف فيه – قتل منهم على الدَّم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً . وهذا مقتضى هذا الخبر ، وفي بعض رواياته زيادة أو نقص ، فَرَوَتْ فرقة أَن أَشعياءَ النبي عليه السلام وعَظَهم وذكَّرهم الله ونِعَمَه في مقام طويل نصَّه الطبري ، وذكر أَشعياءُ في آخره محمداً صلى الله عليه وسلم وبشَّر به ، فابتدره بنوا إسرائيل ، فَفَرَّ منهم ، فلقي شجرة فتفلَّقت له حتى دخلها فالتأَمت عليه ، فعرض الشيطان عليهم هُدْبَةً من ثوبه ، فأَخذوا منشاراً فنشروا الشجرة وقطعوه في وسطها فقتلوه ، وحينئذ بعث الله عليهم في المرة الأَخيرة .

وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً أن زكريا هو صاحب الشجرة ، وأنهم لمَّا حملت مريم قالوا : ضيَّع بنت سيدنا حتى زنت ، فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه . وروت فرقة أن بختنصر كان حفيد سَنْحاريب الملك الأَول ، وروت فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأَكتاف (١) . وقال أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما : سلَّط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس : سَنْدبَادان وشَهْرَيَازَان وآخر . وقال مجاهد : إنما جاءهم في الأُولى عسكر من فارس فجاسَ خلال الديار وتقلَّب ، ولكن لم يكن قتال ولا قتل في بني إسرائيل ، ثم انصرفت عنهم الجيوش ، وظهروا وأُمدُّوا بالأَموال والبنين حتى عَصَوْا وطغوا ، فجاءهم في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر .

قوله تعالى : ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ﴾ ، وهي المنازل والمساكن ، وقوله تعالى : ﴿وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يردُّ على قول مجاهد : إنه لم يكن في المرة الأُولى غلبة ولا قتال ، وهل يدخل المسجد إلَّا بعد غَلبة وقتال ؟ وقد قال مؤرج : جاسوا خلال الأَزقَّة . وقد ذكر الطبري في هذه الآية قَصَصاً طويلا ، منه ما يخص الآيات ،

---

(١) هذا لقبٌ لُقِّب به سابور لأنه أمر بفكِّ أكتاف الأسرى في الحرب ، وقد حارب العرب لأنهم حالفوا الروم ضد فارس .

وأكثره لا يخص ، وهذه المعاني ليست بالثابتة فلذلك اختصرتها .

وقوله تعالى : [بَعَثْنَا] يحتمل أن يكون الله تعالى بعث إلى ملك تلك الأُمة رسولًا يأمره بغزو بني إسرائيل ، فتكون البعثة بأَمر ، ويحتمل أن يكون عَبَّر بالبعث عمَّا أَلْقى في نفس الملك الذي غزاهم . وقرأ الناس : [فَجَاسُوا] بالجيم ، وقرأ أبو السَّمال : [فَحَاسُوا] بالحاءِ ، وهما بمعنى الغلبة والدخول قَسْراً ، ومنه الحَوْس ، وقيل لأَبي السَّمَّال : إنما القراءة (جَاسُوا) بالجيم ، فقال : جاسوا وحاسُوا واحد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا يدل على تَخَيُّر لا على رواية ، ولهذا لا تجوز الصلاة بقراءته وقراءة نظرائه (١) .

وقرأ الجمهور : [خلَالَ] ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [خَلَلَ] ، ونصبه في الوجهين على الظرف .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عبارةٌ عما قال الله تعالى لبني إسرائيل في التوراة ، وجعل [رَدَدْنَا] في موضع

---

(١) القراءة سُنَّة مُتَّبعة ، وهي كلها مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا قامت قراءة القارئ على الاختيار لا الرواية فهي قراءة غير صحيحة .

(نَرُدُّ) إذْ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد ، لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبَّر عن مستقبله بالماضي ، وهذه الكَرَّة هي بعد الجلوة الأُولى كما وصفنا ، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه ، وحسنت حالهم برهة من الدهر ، وأَعطاهم الله الأَموال والأَولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أَمر أَكثرالناس ، قال الطبري : وصيَّرناكم أَكثر عدد نافر منهم . قال قتادة : كانوا أَكثر نَفيراً في زمن داود عليه السلام . و [نَفيراً] يحتمل أَن يكون جمع نَفْر ، كَكَلْب وكليب ، وعبْد وعبيد ، ويحتمل أَن يكون فعيلًا بمعنى فاعل ، أَي : وجعلناكم أَكثر نافراً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعندي أَنَّ النَّفير اسم للجمع الذي يَنْفِرُ ، سُمِّي بالصدر ، وقد قال تُبَّع الحمْيَري :

فَأَكْرِمْ بقَحْطَانَ منْ وَالـِدٍ   وبالْحِمْيَرِيِّينَ أَكْرِمْ نَفيراً (١)

(١) تُبّع الحِمْيري هو حسَّان بن أسعد أبي كرب الحميري ، من أعظم تبابعة اليمن ، و (تُبّع) لَقَبٌ كان يلقب به الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية في اليمن . والمظنون أنه كان في القرن العاشر قبل الهجرة ، قيل : إنه هو الذي قضى على قبائل جديس باليمامة . وغزا كثيراً من البلاد ، ووصل إلى سمرقند ، ودمشق ، ومرَّ بمكة . ونفر من عبادة الأصنام . =

وقالوا : «لَا في العير ولا في النفير»(١) ، يريدون جمع قريش الخارج من مكة إلى بدر .

فَلَمَّا قال الله تعالى لهم : إنِّي سأَفعل بكم هكذا عقَّب ذلك بوصيتهم في قوله سبحانه : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ، والمعنى : إنكم بعملكم تؤخذون ، ولا يكون ذلك ظلماً ولا تشرعاً إليكم ، و ﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ معناه : من المرتين المذكورتين ، وقوله تعالى : ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ، اللام لام أمر ، وقيل : المعنى : بعثناهم ليسُوءُوا ، فهي لام (كَيْ) كلها ، والضمير للعباد أُولي البأْس الشديد ، وقرأ الجمهور : [لِيَسُوءُوا] بالياءِ ، جمع وهمزة بين واوين ، وقرأ عاصم – في رواية أبي بكر – ، وابن عامر : [لِيَسُوءَ] بالياءِ وهمزة

=وقد ثار عليه جماعة من قومه فقتلوه . وقحطان : أبو اليمن ، وحِمْيَر : أبو قبيلة من اليمن ، من نسل قحطان ، ومنها كانت الملوك في الزمن القديم . وتُبَّع يمدح آباءه وأجداده ، والشاهد أن نفيراً اسم للجمع الذي ينْفِر .

(١) وأول من قال هذا المثل هو أبو سفيان بن حرب ، وذلك أنه أقبل بالعير التي لقريش عائداً من الشام ، فلما علم بخروج المسلمين له ضرب وجوه العير فساحَلَ بها وترك بدراً على يساره ، وكانت قريش قد أقبلت من مكة لنجدته ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا بالعير ويطلب منهم العودة ، ولكن القرشيين أبوا الرجوع ، ورجعت بنو زهرة فقط ، وصادفت أبا سفيان في عودتها من طريق الساحل ، فقال أبو سفيان : يا بني زهرة ، لا في العير ولا في النفير ، قال الأصمعي : يُضرب هذا للرجل يُحَطُّ أمره ويصغر قدره .

مفتوحة على الإفراد (١) ، وقرأ الكسائي – وهي مروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه – : [لِنَسُوءَ] بنون العظمة ، وقرأ أُبيٌّ بنُ كعب : [لِنَسُوأَنْ] بنون خفيفة ، وهي لام الأمر (٢) ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [لَيَسُوأَنَّ] بفتح اللام – وهي لام القَسَم – والفاعل الله عزَّ وجلَّ ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : [لِيُسيءَ] بياءٍ مضمومة بغير واو ، وفي مصحف أنس : ﴿لِيَسُوءَ وَجْهَكُمْ﴾ على الإفراد ، وخصَّ بالذكر الوجوه لأنها المواضع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شَرٍّ . و «المسجد» : مسجد بيت المقدس . و «تَبَّر» معناه : أفْسَد وأهلك بغشم ، وقوله : ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي : ما تغلبوا عليه من الأَقطار وملكوه من البلاد (٣) ، وقيل : [ما] ظرفية ، والمعنى : مُدَّةَ عُلُوِّهم وغلبتهم على البلاد . و «تَبَّر» تحريره : ردَّ الشيءَ فُتَاتاً كتِبْر الذهب والحرير ونحوه ، وهو تفتيته .

---

(١) ومعنى هذا أن الفاعل مضمر ، ويعود على الله تعالى ، أو على الوعد ، أو على البعث الدالّ عليه جملة الجزاء المحذوفة .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني : «كما تقول : إذا سألتني فلأعطِكَ ، كأنك تأمر نفسك . ومعناه : فلأعطينك ، واللامان بعده للأمر أيضاً : وهما : ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ ، [وَلْيُتَبِّرُوا] ، ويقَوِّي ذلك أنه لم يأت لإذا جواب فيما بعد ، فدلَّ على أن تقديره : فَلْنَسوأَنْ وجوهكم» .

(٣) معنى هذا أن [مَا] مفعول به في هذا التقدير ، أما في التقدير التالي فهي ظرفية كما قال ابن عطية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول الله تعالى لبقية بني إسرائيل : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ إنْ أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ ، و «عَسَى» ترجٍّ في حقهم ، وهذه العِدَة ليست برجوع دولة ، وإنما بأن يرحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة اتِّباعهم لعيسى عليه السلام ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يفعلوا ، وعادوا إلى الكفر والمعصية ، فعاد عقاب الله تعالى ، فضرب عليهم الذلَّ وقتلهم ، وأذلَّهم بيد كل أُمة ، وهنا قال ابن عباس رضي الله عنهما : سلَّط عليهم ثلاثة ملوك .

و «الْحَصِير» فَعيل من الحصر ، فهي بمعنى السجن ، أي : تَحْصُرُهم ، وبنحو هذا فسَّر مجاهد وقتادة وغيرهما ، ويقال : الحصير أيضاً

من الحصْر للْمَلِك ، ومنه قول لبيد :

وَمَقَامَةٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ   جِنٌّ لَدَى بابِ الْحَصِير قيامُ (١)

ويقال لجَنْبَي الإنسان : حصيران لأنهما يحصرانه ، ومنه قول الطِّرِمَّاح:

قَليلاً تَتَلَّى حاجَةً ثُمَّ عُولِيَتْ   عَلَى كُلِّ مَفْرُوشِ الْحَصِيرَيْنِ بادِنِ (٢)

وقال الحسن : « (الْحَصيرُ) في الآية أراد به ما يُفْتَرش ويُبْسَط كالحصير المعروف عند الناس (٣) .

جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المكتبة
رقم الكتاب : ٢٨٥٢٠

(١) البيت من قصيدة قالها لبيد يفتخر ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (حَصَر) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، ورواية اللسان (وَقَماقِم غُلْبٍ) ، ورواية الديوان : (لَدَى طَرَف الحَصير) . والمقامَةُ : أهل المجلس ، وغُلْبُ الرقاب : غلاظُ الأعناق كالأسود ، والحصيرُ : الْمَلِكُ ، قيل له : حصيرٌ لأنه محجوبٌ عن الناس ، وهذا موضع الاستشهاد هنا . أما كلمة (قماقم) فمعناها العدد الكثير . وقد أشار في اللسان إلى الرواية الأخرى ، قال : «الجوهري : ويُرْوَى (ومَقَامَة غُلْب الرقاب) على أن يكون (غُلْب الرقاب) بدلاً من (مَقَامَةٍ) ، كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب» .

(٢) البيت للطِّرِمَّاح بن حكيم ، ومعنى الطرِمَّاح : الطويل القامة ، وهو من فحول الشعراءِ الإسلاميين ، نشأ بالشام ، وانتقل إلى الكوفة ، واعتقد مذهب الأزارقة الشراة ، وهم من الخوارج . والبيت في الديوان ، وتَتَلَّى : تَتَبَّع ، يقال : تَلَّى الرَّجل صلاتَه : أتبع المكتوبة التَّطَوُّع ، أو أتبع الصلاة الصلاة . وتَتَلَّى أيضاً : بقي بقية من دينه (راجع اللسان) ، وَعُلِيَت : ذهب بها إلى العالية . والحصيران : جَنْبا الانسان ، سُمِّيَا بذلك لأنهما يحصرانه ، وهذا موضع استشهاد ابن عطية بالبيت ، والبادِنُ : السمين ، يقال للذكر والأنثى ، وقد يقال للأنثى : بادنة ، والجمع بُدْنٌ وبُدَّنٌ .

(٣) وهو الذي يُبْسَط في البيوت ، وهو منْسُوجٌ من بَرْدِيٍّ وأَسَل ، سُمِّي حصيراً لأنه حُصِرت طاقَتُه بعضها مع بعض ، ولهذا أشار المؤلف في كلامه ، وفي الحديث الشريف=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك الحصير مأْخوذ من الحصر .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ الآية . [يَهْدي] في هذه الآية بمعنى : يُرْشد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى : يدعو ، و [الَّتِي] يريد بها الحالة والطريقة . وقالت فرقة : ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ هي لا إلٰه إلَّا الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَول أَعم ، وكلمة الإِخلاص وغيرها من الأَقوال والأَفعال داخلة في الحال التي هي أَقوم من كل حال تجعل بإِزائها ، والاختصار على [أَقْوَم] ولم يذكر : «من كذا» إيجازٌ ، والمعنى مفهوم ، أي : لِلَّتي هي أَقوم من كل ما غايرها ، فهي النهاية في القوام ، وقيَّد المؤمنين بعمل الصالحات إِذْ هو كمال الإِيمان وإِن لم يكن في نفسه ، والمؤمن المفرط في العمل له بإِيمانه حظٌّ في عمل الصالحات ، و «الأَجْرُ الكبيرُ» : الجنَّةُ ، وكذلك حيث وقع في كتاب الله تعالى : «فَضْلٌ كبيرٌ وأَجْرٌ كبيرٌ» فهو الجنَّة .

=أنه صلى الله عليه وسلم قال لأزواجه : (أفضل الجهاد وأكمله حجٌّ مبرور ثم لزوم الحصير) ، أي لزوم البيوت بعد أداء فريضة الحج . ويجمع الحصير على حُصُرٍ . وعلى هذا المعنى في (الحصير) يكون معنى الآية أن جهنم صارت للكافرين فراشاً ومهاداً . قال الثعلبي ، وهو وجْهٌ حسن .

وقوله تعالى : [أَنَّ] الأُولى في موضع نصب بـ [يُبَشِّرُ] ، و [أَنَّ] الثانية عطف على الأُولى ، وهي داخلةٌ في جملة بشارة المؤمنين . بَشَّرهم القرآن بالجنة وبأَن الكفار لهم عذاب أَليم ، وذلك أَن علْم المؤمنين بهذا مسرَّة لهم ، وفي هذه البشارة وعيدٌ للكفار بالمعنى ، وهذا الذي تقتضيه أَلفاظ الآية . وقرأَ الجمهور : [وَيُبَشِّرُ] بضم الياءِ وفتح الباءِ وكسر الشين ، وقرأَ ابن مسعود ، ويحيى بن وثاب ، وطلحة : [وَيَبْشُرُ] بفتح الياءِ وسكون الباءِ وضم الشين . و [أَعْتَدْنَا] معناه : أَحضرنا وأَعددنا ، ومنه العتاد . و «الأَليمُ» : الموجع .

قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ . سقطت الواو من [يَدْعُ] في خط المصحف لأَنهم كتبوا المسموع ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : هذه الآية نزلت ذامَّةً لما يفعله الناسُ من الدعاءِ على أَموالهم وأَولادهم في وقت الغضب والضجر ، فأَخبر الله تعالى أَنهم يدعون بالشَّرِّ في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت ، فلو أَجاب الله دعاءَهم لأَهلكهم ، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاءَ الضَّجِرِ المستعجل . ثم عذر بعض العذر في أَن الإِنسان له عجلة فطرية ، و [ٱلْإِنْسَانُ] هنا ، قيل : يراد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك . قاله مجاهد وغيره . وقال سلمان الفارسي ، وابن

عباس : إشارته إلى آدم عليه السلام في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر ، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقيه أعجبته نفسه فذهب يمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر ، فأشارت ألفاظ الآية إلى ذلك . والمعنى : فأنتم ذوو عجلة موروثة من أبيكم ، ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أسيراً في قيد في بيت سودة بنت زمعة ، فسمعت سودةُ أنينه فأشفقت ، فقالت له : ما بالك ؟ فقال : ألَم القيد ، فقامت فأرخت من ربطه فسكت ، ثم نامت ، فتحيَّل في الانحلال وفرَّ ، فطلبه النبيُّ صلى الله عليه وسلم عند الصبح فأُخبر الخبر ، فقال : (قطع الله يديها) ، ففزعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قد جعل دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو له ؛ لأنِّي بشر أغضب وأعجلْ ، فَلْتَرُدَّ سودةُ يديها) (١) .

وقالت فرقة : هذه الآية نزلت في شأْن قريش ، قالوا : ﴿ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الآية (٢) ،

(١) ذكر القرطبي هذا الخبر ثم قال : « ذكره القُشيري أبو نصر رحمه الله » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اللَّهم إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تُخْلِفَنيه ، فأيّما مؤمن آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعلها له كفارةً وقُرْبة تقربه بها إليك يوم القيامة) .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) .

وكان الأَولى أَن يقولوا : «فاهدنا إليه وارحمنا به» ، فذمَّهم الله تعالى في هذه الآية .

وقالت فرقة : معنى هذه الآية معاتبة الناس على أَنهم إذا نالهم شرٌّ وضرٌّ دعوا ولجُّوا في الدعاءِ الذي كان يجب أَن يدعوه في حالة الخير ويلزمه الكل ، من ذكر الله تعالى وحمده والرغبة إليه ، لكن الإنسان يقصر حينئذ ، فإذا مسَّه الضُّرُّ أَلحَّ واستعجل الفرج ، فالآية ـ على هذا ـ نحو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

(١) من الآية (١٢) من سورة (يونس) .

«الآيةُ» : العلامة المنصوبة للنظر والعبرة ، وقوله تعالى : [فَمَحَوْنَا] ، قالت فيه فرقة : سبب تعقيب الفاءِ أَن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيئين ، فَمَحَا بعد ذلك القمر ، محاه جبريل عليه السلام بجناحه ثلاث مرات ، فمن هنالك كَلَفُه وكونه منيراً فقط وقالت فرقة – وهو الظاهر – : إن قوله تعالى : [فَمَحَوْنَا] إنما يريد : في أَصل خلقته ، وهذا كما تقول : «بنيتُ داري فبدأْت بالأُس (١) ثم تابعت» ، فلا تريد بالفاءِ التعقيب ، وظاهر لفظ الآية يقتضي أَربع آيات ، لاسيما لمن بنى على أَن القمر هو المَمْحُوُّ ، والشمس هي المبصرة ، فَأَمَّا من قدَّر أَن المَحْوَ في ظلام الليل والإِبصَار في ضوءِ النهار أَمكن أَن تتضمن الآية آيتين فقط ، على أَن يكون فيها طرف من إِضافة الشيءِ إِلى نفسه . وقوله تعالى : [مُبْصِرَةً] مثل قولك : «ليلٌ نائم وقائم» ، أَي : يُنَام ويُقام فيه ، وكذلك : «آيةٌ مُبْصِرة» أَي : يبصر فيها ومعها .

وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أَنه قال : قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : سَلُوا عما شئتم ، فقال ابن الكواءِ : ما السواد الذي في القمر ؟ فقال له علي : قاتلك الله ، هلَّا سأَلت عن أَمر دينك وآخرتك ؟ ذلك مَحْوُ الليل .

(١) الأَسُّ ، والأُسُّ ، والإِسُّ : الأَساسُ ، وهو قاعدة البناء التي يُقام عليها .

وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق وفضل الله ، وجعل القمر مخالفاً لحال الشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأَشهر والأَيام ، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه الظاهر ، تقديره : وفصلنا كل شيءٍ تفصيلا ، وقيل : [وَكُلَّ] عطف على [وَٱلْحِسَابَ] ، فهو معمول [لِتَعْلَمُوا] ، و «التَّفْصِيلُ» : البيانُ بأَن تُذكر فصول ما بين الأَشياءِ وتُزَال أَسْبَابُهَا حتى يتميز الصواب من الشبهة العارضة فيه .

قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الآية . قوله : [كُلَّ] منصوب بفعل مقدر ، وقرأَ الحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وابن مجاهد ﴿طَيْرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : «طَائِرَهُ» : ما قُدِّرَ عليه وله ، وخاطب الله تبارك وتعالى العربَ في هذه الآية بما تعرف ، وذلك أَنه كان من عادتها التَّيَمُّن والتَّشاؤُم بالطير في كونها سانحة وبارحة [١] ، وكثر ذلك حتى فعلته بالظباءِ وحيوان الفلوات ، وسمَّت

(١) السَّانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن سارك .

كل ذلك تطيراً ، وكانت تعتقد أن تلك الطِّيَرَة قاضية بما يلقى الإنسانُ من خير وشر ، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقى الإنسان من خير أو شرٍّ قد سبق به القضاءُ ، وأُلزم حظَّه وعمله وتكسبه في عنقه ، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ ، فعبَّر عن الحظ والعمل – إذ هما متلازمان – بالطائر ، قاله مجاهد وقتادة ، بحسب معتقد العرب في التطَيُّر ، وقولهم في الأُمور : «على الطَّائر الميمون» ، و «بأَسْعَد طائر» ، ومنه ما طار في المحاصة والسَّهْم (١) ، كقول أُمِّ العلاءِ الأَنصارية : «فطار لنا من القادمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة عثمان بن مظعون» (٢) ، أي : كان ذلك حظَّنا ، وأصل هذا كله من

(١) أي في الاقتسام والتخصيص ، أو في الاختيار وفي حديث رُوَيْفع : إن كان أحدنا ليطير له النَّصْل وللآخر القِدْح ، معناه أن الرجلين كانا يقتسمان السهم ، فيقع لأحدهما نَصْله وللآخر قِدْحهُ .

(٢) حديث أم العلاء أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير ، وأحمد (٦–٤٣٦) ، ففي البخاري ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء – امرأة من الأنصار – بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرته أنه اقْتُسِم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون ، فأنزلناه في أبياتنا ، فوَجع وجعه الذي تُوُفِّي فيه ، فلما تُوفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، =

الطير التي تقضي عندهم بلقاء الخير والشر ، وأبطل ذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (لا عدوى ولا طيرة) [١] .

وقوله تعالى : ﴿في عُنُقِهِ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب ما كان إلزاماً ، وقِلادةً ، وأَمانةً ، ونحو هذا – إلى العُنُق ، كقولهم : «دَمي في عُنُق فلان» ، وكقول الأعشى :

قَلَّدْتُكَ الشِّعْرَ يَا سَلَامَةَ ذا الـ تَّفْضَالِ ، والشيءُ حَيْثُمَا جُعِـلَا [٢]

=فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكْرمه الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أمَّا هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفْعَل بي ، قالت : فوالله لا أُزَكّي أحداً بعده أبداً .

(١) أخرجه البخاري في الطب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في الطب ، وابن ماجه في المقدمة والطب ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في بعض روايات مسلم ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (لا عَدْوى ولا طِيَرَةَ ويُعجبني الفألُ ، قال : قيل : وما الفألُ ؟ قال : الكلمة الطيبة) ، وفي رواية : (وأُحبُّ الفأل الصالح) .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى يمدح سلامة ذا فائش ، ومطلعها :

إنَّ مَحَلاً وَإنَّ مُرْتَحَـلا وإنَّ في السَّفْرِ ما مَضَى مَهَـلاَ

وقبله يقول :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطِيَّ وَلا يَشْرَبُ كَأساً بِكَفِّ مَنْ بَخِـلاَ

والتَّفْضَال : الإحسانُ ، وأن يكون للإنسان فضل على غيره في القدر والمنزلة .

وهذا كثير ، ونحوهُ جَعْلُهم ما كان تكسُّباً وجنايةً وإثماً منسوباً إلى اليد ؛ إذ هي الأَصْلُ في التَّكَسُّب .

وقرأ أبو جعفر ، ونافع ، والناسُ : [وَنُخْرِجُ] بنون العظمة [كِتَاباً] بالنصب ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن محيصن : [يَخْرُجُ] بفتح الياءِ وضم الرَّاءِ على الفعل المستقبل - [كِتَاباً] ، أي : طائرهُ الذي كنَّى به عن عمله يَخْرُجُ له ذا كتاب ، وقرأ الحسن - من هؤلاءِ - : [كِتَابٌ] بالرفع ، وقرأ أبو جعفر أيضاً : [وَيُخْرَجُ] بضم الياءِ وفتح الراءِ - على ما لم يُسَمَّ فاعله - [كِتَاباً] ، أي : طائرُهُ . وقرأ أيضاً : [كِتَابٌ] ، وقرأت فرقة : [وَيُخْرِجُ] بضم الياءِ وكسر الراءِ ، أي : يُخْرِجُ اللهُ ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : «في عنقه يقرأه يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً» . وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته (١) .

وقرأ الجمهور : [يَلْقَاهُ] بفتح الياءِ وسكون اللام وخفَّة القاف ،

---

(١) قال الطبري : «وأولى القراءات في ذلك بالصواب قراءةُ من قرأ : [ونُخْرِجُ] بالنون وضمها ؛ لأن الخبر جرى قبل ذلك عن الله تعالى أنه الذي ألزم خلْقه ما ألزم من ذلك ، فالصواب أن يكون الذي يليه خبراً عنه ، أنه هو الذي يخرجه لهم يوم القيامة ، أن يكون بالنون كما كان الخبر الذي قبله بالنون» .

وقرأ ابن عامر وحده (١) : [يُلَقَّاهُ] بضم الياءِ وفتح اللام وتشديد القاف ، وهي قراءة الحسن – بخلاف – وأبي جعفر الجحدري .
وقوله : ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ حُذِفَ من الكلام «يُقَالُ لَهُ» اختصاراً لدلالة الظاهر عليه . و«الحَسِيبُ» : الحاسِبُ ، ونصبه على التمييز . وأسند الطبري ، عن الحسن أنه قال : «يا بن آدم ، بُسطت لك صحيفة ، ووكل بك مَلَكَان كريمان ، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك ، فامْلِك ما شئت أو أَقْلِلْ أَوْ أَكثر ، حتَّى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، اقرأْ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، قد عدل والله فيك مَنْ جَعَلَكَ حسيب نفسك» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع ابن آدم من عمله في قبره ، فتأَمَّل لفظه ، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ : إنه سيقرأُ يومئذ من لم يكن يقرأُ .

(١) أي : قرأ وحده من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها غيره كالحسن ، والجحدري .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره ، ورُوي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكَّةَ : اكفروا بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وإثْمُكُم عليَّ ، فنزلت هذه الآية ، أي : إن الوليد لا يحمل آثامكم ، وإنما إثْم كلِّ أحد عليه . وقالت فرقة : نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سَلَمَة بن عبد الأَسد (١) ، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة .

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد ، بن هلال ، بن عبد الله ، بن عمر ، بن مخزوم ، المخزومي ، أحد السابقين إلى الإسلام ، اسمه عبد الله ، وأُمه برَّة بنت عبد المطلب بن هاشم ، كان ممن هاجر بامرأته أم سلمة بن أبي أمية إلى الحبشة ، ثم شهد بدراً بعد أن هاجر الهجرتين ، ومات من جرح جرحه يوم أُحد ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأته أمَّ سلمة رضي الله عنهما (الإصابة والاستيعاب) .

و «وَزَرَ» معناه : حَمَل ، و «الْوِزْرُ» : الثِّقل (١) ، ومنه : وَزير السلطان ، أي : الذي يحمل ثقل دولته ، وبهذه الآية نزعت عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها في الردِّ على من قال : إن الميت يُعَذَّب ببكاءِ الحيِّ عليه ، ونكتة ذلك المعنى إنما هيَ أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاءُ من سنَّة الميت وتَسبُّبه ، كما كانت العربُ تفعل (٢) .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ، قالت فرقة هي الجمهور : وهذا في حكم الدنيا ، أيْ أن الله لا يُهلك أُمة بعذاب إلا من بعد الرسالة والإنذار ، وقالت فرقة : هذا عام في الدنيا والآخرة .

---

(١) في بعض النسخ : و «وَزَرَ» معناها : حَمَلَ الوِزْرَ ، أي : الثقل .

(٢) الذي قال : إن الميتَ يُعذَّب ببكاءِ أهله عليه هو ابن عمر رضي الله عنهما . قال العلماء : ولا وجه لإنكار السيدة عائشة رضي الله عنها ؛ فإن الرواة لهذا المعنى كثير ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابنه ، والمغيرة بن شعبة ، وقَيْلة بنت مخرمة ، وهم جازمون بالرواية فلا وجه لتخطئتهم ، ولأنه لا معارضة بين الآية والحديث ، فإن الحديث محمول على ما إذا كان البكاءُ من وصية الموت وسنته كما كانت العرب تفعل ، وقد ذكر ابن عطية هذا ، ومنه قول طرفة :

إذا متُّ فانْعيني بما أنا أهْلُـــــهُ وشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يا بِنْتَ مَعْبَدِ

وقول غيره موصياً بأن يمتد البكاءُ عليه حولا كاملا :

إلى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُما ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملا فقد اعتَذَرْ

وقد نحا إلى هذا الرأي الإمام البخاري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلامُ بعبادة الله تعالى مع الأُمم في الدنيا ، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكّة . ويؤيد هذا ما يجيءُ بعْدُ من وصفه ما يكون عند إرادة الله إهلاك قرية ، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون ، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله تعالى في غير هذا الموضع ، ومن النظر ، أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل ، كقوله تعالى : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى﴾ (١) ، وظاهر [كُلَّمَا] الحَصْر ، وكقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢) ، وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد ، وبعث المعتقدات في بنيه ، ونصب الأدلة الدَّالَّة على الصانع ، مع سلامة البصر ، يوجب على كل أحدٍ من العالم الإيمان واتباع شريعة الله ، ثم تجدَّد ذلك من مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار ، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا ، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالةٌ ، ومنهم أهل الفترات الذين قد قدَّرَ

---

(١) من الآيتين (٨ ، ٩) من سورة (المُلْك) .
(٢) من الآية (٢٤) من سورة (فاطر)

وجودَهم بعضُ أهل العلم ، وأما ما رُوي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال ، فحديثٌ لم يصح ، ولا يقتضيه ما تقضيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية . هي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «بَعَثْنَا أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» ، و «الْقَرْيَةُ» : المدينة المجتمعة ، مأخوذٌ من : قَرَيْت الماءَ في الحوض ، إذَا جمعته ، وليست من (قرأ) الذي هو مهموز ، وإن كان فيهما جميعاً معنى الجمع . وقرأ الجمهور : [أَمَرْنَا] على صيغة الماضي ، من : أَمَر ضِد نَهَى ، وقرأ نافع ، وابن كثير – في بعض ما رُوي عنهما – : [آمَرْنَا] بمدِّ الهمزة ، بمعنى : كَثَّرْنَا ، ورُويت عن الحسن ، وهي قراءة علي بن أبي طالب ، وابن عباس – بخلاف عنه – ، وعن الأعرج ، وقرأ بها ابن أبي إسحق ، وتقول العربُ : «أَمِرَ الْقَوْمُ» إذا كثروا ، وآمَرَهُمْ الله تعالى فيتعدى بالهمزة . وقرأ أبو عمرو – بخلاف – : [أَمَّرْنَا] بتشديد الميم ، وهي قراءة أبي عثمان النهدي ، وأبي العالية ، وابن عباس رضي الله عنهما ، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقال الطبري : القراءة الأُولى معناها : أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها ، وهو قول ابن عباس ، وابن جبير ، والثانية معناها : كثَّرناهم ، والثالثة هي من الإمارة ، أي : ملَّكْناهم على الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال أَبو عَليٍّ الفارسي : « الجيِّد في [أَمَرْنَا] أَن تكون بمعنى : كَثَّرْنَا ، يتعدى الفعل بلفظ غير متعدد ، كما تقول : رَجَع وَرَجَعْتُه ، وشَتِرَتْ عَيْنُه وشَتَرْتُهَا (١) ، فتقول : أَمِرَ القومُ وأَمرهم الله ، أَي كثَّرهم (٢) ، وآمَرْنَا مبالغة في أَمَرْنَا بالهمزة ، وأَمَّرْنَا مبالغة فيه بالتضعيف ، ولا وجه لكون أَمَّرْنَا من الإمارة ؛ لأَن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد ، والإهلاكُ إنما يكون في مدة واحد منهم » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأَن الأَمر وإن كان يعُمُّ المترف وغيره ، فخَصَّ المترف بالذكر إذْ فِسْقُهُ هو المؤثر في فساد القرية ، وهم عُظْم الضلالة وسواهم تبع لهم . وأَمَّا أَمَّرْنا من الإمارة فمتوجه على وجهين : أَحدهما أَلَّا يريد إمارة المُلْك ، بل كونهم

---

(١) شَتِرَتْ عينُه : انْشَقَّتْ ، وشَتَرْتُها : شَقَقْتُهَا وجعلتها شَتْرَاءَ .

(٢) استدل أبو عبيدة على صحَّة هذه اللغة بما جاء في الحديث الشريف : (خيْرُ المال مُهْرَةٌ مَأمورة أوْ سِكَّةٌ مأبورة) ، أي : خير المال مُهْرَةٌ كثيرة النَّسْل ، وسِكَّةٌ — أيْ طريقة مُصْطَفَّة من النخل — مأبُورةٌ ، أيْ مُلْقَحَةٌ . وقد أنكر بعض العلماءِ هذا ، وقالوا : إنما قيل : (مَأمورة) . على الإتباع ، لمجيءِ (مأبورة) بعدها . كما جاء : (ارْجِعْنَ مأزوراتٍ غيرمأجورات) ، فقد همزت (مأزورات) لأن (مأجورات) جاءت بعدها مهموزة .

يأْمرون ويُؤْتمر لهم ؛ فإِنَّ العرب تقول لمن يأْمر الإِنسان ـ وإن لم يكن ملكاً ـ : هو أَمير ، ومنه قول الأَعشى :

إذا كان هادي الْفَتَى في الْبـــلا د صَدْرَ الْقَنَاةِ أَطَاعَ الأَميرَا (١)

ومنه قول معاوية لعمر رضي الله عنه حين أمره بالاستقادة من لطمة عمرو بن العاص : إنَّ عليَّ أَميراً لا أَقطع أَمراً دونه ، أَراد معاوية أَباه ، وأَراد الأَعشى أَنه إذا شاخ الإنسانُ وعَمِـي واهتدى بالعصى أَطاعَ كلَّ من يأْمره ، ومنه قول الآخر :

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الأَميرَ إِذَا هُمُ خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلَا يُلَامُ الْمُرْشِدُ (٢)

وأَيضاً فلو أَراد إمارة المُلْك في الآية لَحَسُنَ المعنى ؛ لأَن الأُمَّةَ إذَا مَلَّك الله تعالى عليها مُتْرَفاً ففسق ، ثم ولَّى مثله بعده ، ثم كذلك ،

(١) البيت من قصيدة للأعشى يمدح هَوْذة بن علي الحنفي ، وفي مطلعها يقول :

غَشِيتَ لِلَيْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وطَالَبْتَهَا وَنَذَرْتَ النُّذُورَا

والهادي : المرشد ، والقَنَاةُ هنا : العَصَى التي يحملها الأعمى ليَتَحَسَّس بها الطريق ، يقول : إذا كبر الفتى وأصابه العَمَى ، واعتمد على عصاه في سيره فإنه يطيع كلَّ من يأمُرُه أو ينصحه بأمرٍ في سَيْرِه . فقد جعل النصيحة هنا أمراً ، وجعل المرشد الناصح أميراً ، لأنه يأمر فيطاع .

(٢) يَلْحَوْنَ : يَلُومُونَ ويشتمون أو ينازعون ويخاصمون ، وفي الحديث : (نُهيت عن مُلاحاة الرجال) ، أي : نهيت عن مخاصمتهم ومنازعتهم . وخَطِئَ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطْأً عَلى فِعْلَةٍ : أذنب . يقول : إن الناس يلومون الناصح الذي يرشدهم عندما يخطئون ، وهذا عيب كبير فيهم فإن من العقل ألا يلام الناصح المرشد ، فقد سمَّى الناصح أميراً .

عَظُمَ الفَساد وتوالى الكُفْر واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأَخير من ملوكهم (١) ، وقرأ الحسن ، ويحي بن يَعْمَر : [أَمِرْنَا] بكسر الميم ، وحكاها النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا أَتَحَقَّقُ وجهاً لهذه القراءة ؛ إلا إن كان (أَمِرَ القَوْمُ) يتعدى بلفظه ، فإِنَّ العرب تقول : «أَمِرَ بَنُو فلان» إذا كثروا ، ومنه قول لبيد :

إنْ يُغْبَطُوا يُهْبَطُوا وإنْ أَمِـرُوا يَوْماً يَصيرُوا للْقُلِّ والنَّفَدِ (٢)

ومنه : (لَقد أَمِر أَمْرُ ابنُ أَبي كَبْشَة) (٣) ، وردَّ الفراءُ هذه القراءة ،

---

(١) في صحيح الترمذي : (إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) ، ورَوَى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم) ، فالعذاب يَعُمُّ ، وهو للفاسقين نقمة ، وللمؤمنين طُهْرة .

(٢) قال لبيد هذا البيت من قصيدة يرثي بها أربد بن قيس بن جزء ، وكان أخاً للبيد من الأم ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ، وجابر بن سلمى ، وعرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فلم يسلموا ، وتوفي عامر بالطاعون ، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته . ويروى البيت : «يصيروا لِلْهُلْك والنَّكَد» ، ويروى : «يوماً فهم للفناء والنفَد» ، والغِبْطة : تمني مثل ماللإنسان من النعمة من غير أن يُراد زوالها عنه . ويُهْبَطوا : يموتوا ، وأَمِرُوا : كثروا ، والقُل : القِلَّةُ ، والنَّفَد : الفناء . والشاهد أن أَمِرُوا بمعنى : كثروا .

(٣) كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم «ابن أبي كبشة» ، شبهوه بأبي كبشة ، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان ، أو هي كُنْية وهْب بن عبد مناف جدِّه صلى الله عليه وسلم لأمِّه ؛ لأنه كان ينزع إليه في الشَّبَه ، وقيل : هي كُنْية زوج حليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم . والذي قال ذلك هو أبو سفيان بن حرب ، قال : «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة وارتفع شأنه» .

وقد حكي (أَمِرَ) متعدياً عن أَبي زيد الأنصاري ، و «الْمُتْرفُ» : الغني من المال المَتَنَعِّم ، والتُّرْفَةُ: النَّعْمةُ ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «قرية بَعثْنَا أَكَابر مُجْرميها فمكروا فيها» . وقوله تعالى : ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أيْ وعيدُ الله لها الذي قاله رسولهم . و «التَّدْميرُ» : الإهلاكُ مع طمس الآثار وهدم البناءِ ، ومنه قول الفرزدق :

وكَانَ لَهُـمْ كَبَكْرِ ثَمُــود لمَّا رَغَا ظُهْراً فَدَمَّرُهُمْ دمَــارَا (١)

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا منَ ٱلْقُرُونِ﴾ الآية ، [كَمْ] في موضع نصب بـ [أَهْلَكْنا] ، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثالٌ لقريش ووعيد ، أي : لستُم ببعيد ممَّا حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتم نبيكم ، واختلف الناس في القرن ـ فقال ابن سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم : أَربعون ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وقال عبد الله بن أَبي أوفى (٢) : القَرْن مائة وعشرون سنة ،

---

(١) البيت من قصيدة قالها يردُّ على جرير فيناقضه ، وقبله يقول ـ وهو مطلع القصيدة : ـ

جرَّ المُخْزيَات علَى كُلَيْـب جَرير ثمَّ ما مَنَعَ الذِّمَـارَا

والبَكْرُ : الفَتيُّ من الإبل ، ويريد به هنا الفصيل الذي خرج لثمود بعد أن عقروا أُمَّه الناقة التي جعلها الله هي وابنها آية لثمود ، وجعل الماء قسمة بينهم وبين الناقة ، فلما عقروها خرج عليهم الفصيل فرغا ، وكانت النتيجة هي دمارهم عن آخرهم ، يشبِّه جريراً في قومه كليب بهذا الفصيل في ثمود .

(٢) عبد الله بن أَبي أَوْفَى ، اسمه علقمة بن خالد الحارث الأسلمي ، صحابي ، شهد الحديبية ، وعمِّر بعد النبي صلى الله عليه وسلم . مات سنة سبع وثمانين ، وهو آخر من مات بالكوفة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . (تقريب التهذيب) .

وقالت طائفة : القرن مائة سنة ، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم : (خير الناس قرني) (١) . وروى محمد ابن القاسم في ختنه عبد الله بن بُسْر قال : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي وقال : (سيعيش هذا الغلام قرناً) ، قلت : كم القرن ؟ قال : (مائة سنة) ، قال محمد بن القاسم : فما زلنا نعُدُّ له حتى أكمل مائة سنة ، ثم مات رحمه الله (٢) ، والباء في قوله تعالى : [بِرَبِّكَ] زائدة ، والتقدير : كفى ربك ، وهذه الباء

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ، وفضائل الصحابة ، والرقاق ، والإيمان ، وأخرجه الترمذي في الفتن ، والشهادات ، والمناقب ، وابن ماجه في الأحكام ، والإمام أحمد في أكثر من موضع ، ولفظه كما جاء فيه (١-٣٧٨) ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ تسبق شهاداتهم أيمانهم وأيمانهم شهاداتهم) .

(٢) أخرج أحمد في مسنده ، عن أبي عبد الله الحسن بن أيوب الحضرمي ، قال : أراني عبد الله بن بُسْر شامة في قرنه ، فوضعتُ إصبعي عليها ، فقال : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعه عليها ثم قال : (لتبلُغَنَّ قَرْناً) ، قال عبد الله : وكان ذا جُمَّة . وروى البخاري في التاريخ الصغير ، عن عبد الله بن بُسْر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (يعيش هذا الغلام قَرْناً) ، فعاش مائة سنة ، وروى البخاري في الصحيح من طريق حريز بن عثمان : سألتُ عبد الله بن بُسْر : رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : كان في عنفقته شعراتٌ بيض . هذا والخَتَنُ : كلٌّ من كان من قِبَل المرأة كأبيها وأخيها وكذلك زوج البنت ، وزوج الأخت .

إنما تجيءُ في الأَغلب في مدح أَو ذم ، وكأَنها تعطي معنى : اكتف بربِّك ، أَي : ما أَكفاه في هذا ، وقد تجيءُ (كفى) بدون باءٍ ، كقول الشاعر :

. . . . كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ للْمَرْءِ نَاهيَا(١)

وكقول الآخر :

ويُخْبرُني عنْ غائب الْمَرْءِ هَدْيُهُ كَفَى الْهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا(٢)

---

(١) هذا عجز بيت قاله سُحَيم عبْد بني الحَسْحَاس ، والبيت بتمامه :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَــا كَفَى الشَّيْبُ والإسْلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيا

وهو في الديوان ، وابن يعيش ، وشرح شواهد المغني ، والعيني . وعُمَيْرَةَ : تصغير عَمْرة وهي مؤنث عَمْر واحد عُمور الأسنان أي أصولها . وقيل : إن العَمْرَةَ هي الشَّذْرة من الخَرز يُفَصَّل بها النظم ، وبها سميت المرأة عَمْرَة ، وقيل : العَمْرَةُ : خَرَزَةَ الحُبِّ ، وفي (طبقات ابن سلام) أن الشاعر أنشد عمر بن الخطاب بيته هذا ، فقال له : لو قلتَ شعرَك مثل هذا أعطيتك عليه ، فلما قال الأبيات التي بعده وفيها من الغزل الحنسي ما فيها قال له عمر رضي الله عنه : ويلك إنك مقتول . وروي عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بهذا الشعر فقال : «كَفَى بالإسلام والشيب للمرءِ ناهيا» ، فقال له أبو بكر : إنما قال الشاعر : كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا ، فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم كالأول ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أشهد إنك لرسول الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ .

(٢) هذا البيت لزيادة بن زيد العَدَوِيِّ ، والهَدْي : الطريقةُ والسِّيرَةُ ، يقال : فلانٌ حَسَنَ الهَدْي والهَدِيَة ، أي : الطريقة والسيرة ، يقول : إنَّ فِعْلَ الإنسان وسيرته في الحياة يرشداني عما يخبئه في سريرته ، والشاهد أن (كَفَى) جاءت بدون الباء .

• قوله عزَّ وجلَّ :

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

المعنى : من كان يريد الدنيا العاجلة ، ولا يعتقد غير هذا ، ولا يؤمن بآخرة ، فهو يُفَرِّغ أمله ومعتقده للدنيا ، فإن الله تعالى يعجل لمن يريد من هؤلاءِ ما يشاءُ هذا المريد ، أو ما يَشاءُ الله تعالى – على قراءَة من قرأ : [نَشَاءُ] بالنون – وقوله سبحانه : ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ شرطٌ كاف على القراءتين ، ثم يجعل الله تعالى جهنم لجميع من يريد العاجلة – على جهة الكفر – مَنْ أعطاه فيها ما يشاءُ ومَنْ حرمه . وقال أبو إسحق الفزاري : لمن نريد هلكته . وقرأ الجمهور : [نَشَاءُ] بالنون ، وقرأ نافع أيضاً : [يَشَاءُ] بالياءِ . و «الْمَدْحُورُ» : المُهَانُ المُبْعَد المذلَّل المسخوط عليه .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ الآية . المعنى : ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وبالله وبرسالاته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك كلُّه مرتبط بتَلازُم .

ثم شرط في مُريد الآخرة أن يسعى لها سعيها ، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه ، فأُولئك يشكر الله سعيهم ، ولا يشكر الله تعالى عملاً ولا سعياً إلَّا إذا أثاب عليه وغفر بسببه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش ، فشكر اللهُ له ، فغفر له (١) .

قوله تعالى : ﴿كُلاًّ نُمِدُّ﴾ الآية . نصب [كُلاًّ] بـ [نُمِدُّ] . وأَمْدَدْتُ الشيءَ إذا زدت فيه من غير نوعه ، ومَدَدْتُ إذا زدتَ فيه من نوعه ،

---

(١) حديث الكلب أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في الجهاد ، ومالك في موطئه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحمد في مسنده (٣ـ٣٧٥ ، ٥١٧) ، ولفظه كما في مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلَغ هذا الكلْبَ من العطش مثْلُ الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماءً ثم أمسكه بفيه حتَّى رقي فسَقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له) ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في هذه البهائم لأجراً ، فقال : (في كل كبد رطبة أجْرٌ) .

وقيل : هما بمعنى واحد ، يقال : مَدَّ وأَمَدَّ . و [هَؤُلاءِ] بدلٌ من [كُلاًّ] ، فهو في موضع نصب ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد : من الطاعات لمن يريد الآخرة ، والمعاصي لمن يريد العاجلة ، ورُوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد بالعطاءِ رزْق الدنيا ، وهذا هو تأْويل الحسن بن أَبي الحسن ، وقتادة ، أَي أَن الله تبارك وتعالى يرزق في الدنيا مُريدي الآخرة المؤمنين ، ومُريدي العاجلة الكافرين ، ويُمدهم بعطائه منها ، وإنما يقع التفاضل والتَّباين في الآخرة ، ويتناسب هذا المعنى مع قوله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ ، أَي أَنَّ رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر وقلَّما ، تصلح هذه العبارة لمن يُمد بالمعاصي التي تُوبقُه . و «المَحْظُورُ» : الممنوع .

وقوله تعالى : ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آيةٌ تدلُّ دلالةً على أَن العطاءَ في الآية التي قبلها هو الرزق ، وفي ذلك يترتب أَن ينظر محمد صلى الله عليه وسلم إلى تفضيل الله تبارك وتعالى لبعض على بعض في الرزق ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ ، وبيِّنٌ أَن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن أَعطى اللهُ قوماً الطاعة المؤدية إلى الجنَّة ، وأَعطى آخرين الكفر

المؤدي إلى النار ، وهذا قول الطبري ، وهذا النظر في تفضيل فريق على فريق ، وعلى التأْويل الآخر فالنظرُ في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين كيفما قرنتهما . ثم أَخبر عزَّ وجلَّ أَن التفضيل الأَكبر إنما يكون في الآخرة ، وقوله : ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ ليس في اللفظ : «من أيِّ شيءٍ» ، لكنه في المعنى – ولا بد – أَكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أَو بالفَرْض إليها ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورأَى بعض العلماءِ أَن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين ، وأَسند الطبري في ذلك حديثاً نصُّه : (إنَّ بين أَعلى أَهل الجنة درجة وأَسفلهم كالنجم يُرى في مشارق الأَرض ومغاربها)(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

قيل : وقد رضَّى(٢) الله الجميع فما يغبط أَحدٌ أَحداً ولا يتمنى ذلك بدلاً .

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، وذكره في (الدر المنثور) ، وفي ابن كثير ما يأتي : «وفي الصحيحين أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أُفق السماء»

(٢) رضَّى بمعنى : أرضى

قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ الآية . الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد : جميع الخلق ، قاله الطبريُّ وغيره ، و « الذَّم » هنا لا حق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عُوداً أو حجراً أفضل من نفسه ، ويخُصُّه بالكرامة ، وينسب إليه الأُلوهية ، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه . و « الخذلان » في هذا يكون بإسْلام الله تعالى ، وألا يكفل له النصر ، و « المخذول » : الذي لا ينصره من يجب أن ينصره ، و « الخاذلُ » من الظباء التي تترك ولدها ، ومن هذه اللفظة قول الراعي :

قَتَلُوا ابْن عَفَّانَ الْخَليفَةَ مُحْرِماً   وَدَعَا فَلَمْ أَرَ مثْلَهُ مَخْذُولاً (١)

(١) الرَّاعي اسمه : حصين بن معاوية ، من بني نمير ، وقيل له الرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره ، وولدُه وأهل بيته بالبادية سادة أشراف ، وقيل: اسمه عبيد بن حصين ابن معاوية النميري ، والبيت في اللسان (حَرَمَ) ، والرواية فيه : (مقتولا) بدلا من (مَخْذولاً) والحُرْمَةُ : الذمَّةُ ، وأحْرَمَ الرجلُ فهو مُحْرِم إذا كانت له ذمَّةٌ ، وعلى هذا جاء بيت الراعي كما ذكر صاحب اللسان ، فالمعنى أنهم قتلوه وهو صاحب ذِمَّةٍ ، وقيل : قتلوه صائماً، والصيام إحرام ، ويقال للصائم : محرم . وقال ابن بِرِّي : ليس مُحْرِماً في بيت الراعي من الإحرام ولا من الدخول في الشهر الحرام ، قال : وإنما هو مثل البيت الذي قبله ، وإنما يريد أن عثمان في حرمة الإسلام وذمَّته لم يُحِلَّ من نفسه شيئاً يُوقِعُ به ، والمخذول : الذي لم يَنْصُرْهُ من يجب أن ينصره ، ويقال للظبية إذا تخلفت عن صواحبها : خاذلٌ وخذولٌ ، قال طرفة :

خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَباً بِخَميلَـةٍ   تنَاوَلُ أَطْرَافَ البَريرِ وتَرْتَـدي

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

[قَضَى] في هذه الآية بمعنى : أمر وألزم وأوجب عليكم ، وهكذا قال الناس . وأقول : المعنى : وقضى ربك أمره ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، وليس في هذه الألفاظ إلَّا أمر بالاقتصار على عبادة الله ، فذلك هو الْمَقْضِيُّ ، لا نفس العبادة . و (قَضَى) في كلام العرب : أَتَمَّ الْمَقْضِيَّ محكماً ، والْمَقْضِيُّ هنا هو الأمر [1] ، وفي مصحف ابن مسعود :

---

(١) قال أبو حيان في البحر تعقيباً على كلام ابن عطية هذا : «كأنه رام أن يترك [قَضَى] على مشهور موضعها بمعنى : قَدَّر ، فجعل مُتَعَلَّقه الأمر بالعبادة لا العبادة نفسها ؛ لأنه لا يستقيم أن يقضي شيئاً بمعنى أن يُقَدِّر إلا ويقع ، والذي فهم المفسرون غيره أن مُتَعَلَّق [قَضَى] هو ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ سواءٌ كانت [أَنْ] تفسيرية أم مصدرية» . (البحر المحيط ٦–٢٥) .

« وَوَصَّى » ، وهي قراءَة أَصحابه وقراءَة ابن عباس ، والنَّخَعي ، وسعيد بن جُبَيْر ، وميمون بن مهران ، وكذلك عند أُبيٍّ بن كعب . وقال الضحاك : تصحَّف على قوم (وَصَّى) بـ (قَضَى) حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتْب المصحف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وإنما القراءَة مَرْوِيَّةٌ بسند ، وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثل قول الضحاك ، وقال عن ميمون ابن مهران : إنه قال : « إنَّ على قول ابن عباس رضي الله عنهما لنوراً ، قال الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (١) » . ثم ضعَّف ابن حاتم أَن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك ، وقال : « لو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا ». والضمير في [تَعْبُدُوا] لجميع الخلق ، وعلى هذا التأْويل مضى السلف والجمهور ، وسأَل الحسنَ بن أَبي الحسن رجلٌ فقال : إنه طلَّق امرأَته ثلاثاً ، فقال له الحسنُ : عصيت ربك وبانتْ منك امرأَتك ثلاثاً ، فقال له الرجل : قضى الله ذلك عليَّ ، فقال له الحسن ـ وكان

(١) من الآية (١٣) من سورة (الشورى)

فصيحاً ـ : ما قَضَى اللهُ ، أي : ما أمر الله ، وقرأ هذه الآية ، فقال الناسُ ، تكلَّم الحسن في القدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن تكون [قَضَى] على مشهورها في الكلام ، ويكون الضمير في [تَعْبُدُوا] للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة ، لكن على التأْويل الأَول يكون قوله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ عطفاً على [أَنْ] الأُولى ، أي : أمر الله أَلَّا تعبدوا إلَّا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ مقطوعاً من الأَول ؛ فإنه أَخبرهم بقضاءِ الله تبارك وتعالى ، ثم أَمرهم بالإحسان إلى الوالدين .

و [إِمَّا] شَرْطِيَّةٌ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : [يَبْلُغَنَّ] ، ورُوي عن ابن ذكوان [يَبْلُغَنْ] بتخفيف النون ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [يَبْلُغَانِّ] ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن ، ويحيى ، وطلحة ، والأَعمش ، والجحدري ، وهي النون الثقيلة دخلت مُؤَكِّدَة ، وليست بنون تثنية ، فعلى القراءتين الأُولَيَيْن يكون قوله : [أَحَدُهُمَا] فاعلاً ، وقوله : ﴿أَوْ كِلاَهُمَا﴾ معطوفاً عليه ،

وعلى هذه القراءة الثالثة يكون قوله : [أَحَدُهُمَا] بدلاً من الضمير في [يَبْلُغَانِّ] ، وهو بدل مُقَسِّم كقول الشاعر :

وكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ : رِجْلٍ صَحِيحَةَ ورجل رَمَى فيها الزَّمَانُ فَشَلَّتِ (١)

ويجوز(٢) أن يكون : [أَحَدُهُمَا] فاعلاً ، وقوله : ﴿أَوْ كِلاهُمَا﴾ عطف عليه ، ويكون ذلك على لغة من قال : «أكلوني البراغيث» ، وقد

---

(١) البيت لِكُثَيِّر عزّة ، وهو في الديوان ، والكتاب لسيبويه ، وخزانة الأدب ، وشرح شواهد العيني ، وابن يعيش ، وقبله يقول :

فَلَيْتَ قَلُوصي عِنْدَ عَزَّةَ قُيِّدَتْ بِحَبْلٍ ضَعِيفٍ عَزَّ مِنْهَا فَضَلَّتِ

وغُودِرَ في الحَيِّ المُقيمينَ رَحْلُهَا وكَانَ لَهَا بَاغٍ سِوَايَ فَبَلَّتِ

تمنّى أن تشل إحدى رجليه وهو عندها ، وأن تضل ناقته فلا يرحل عنها ، فيكون قوله : (وكنتُ كذي رجْلَيْنِ ...) معطوفاً على قوله : (قُيِّدَتْ) ليدخل في التمنّي . وقال ابن سيدة : لما خانت عزة العهد ، وثبت هو عليه ، صار كذي رجلين : رجل صحيحة وهي ثباتُه على العهد ، ورجل مريضة وهي خيانتها وزَلَلُها عن العهد ، وقال بعضهم : معنى البيت أنه بين الخوف والرجاء والقرب والتنائي . وقيل غير هذا في معنى البيت ، وهذا البيت من شواهد النحويين ، فيروى (رِجْلٍ) بالجرّ على أنه بدلٌ مع أُخرى مفصَّل من (رِجْلَيْنِ) ، ويجوز أن يكون الجرُّ على الصفة ، ويروى بالرفع على القَطْع وأنَّهُ خبر مبتدإ محذوف ، والتقدير : هما رجلٌ صحيحة ورجلٌ أُخرى ، أو إحداهما صحيحة والأخرى رجْلٌ ... والبيت في هذا كقوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ ، أي : إحداهما فئة تقاتل ... الخ .

هذا وقد علّق أبو حيان الأندلسي على قول ابن عطية هنا : «وهو بدلٌ مقسِّم» بقوله : «هذا ليس من بدل التقسيم ؛ لأن شرط ذلك العطف بالواو ، وأيضاً فالبدل المقسم لا يصدق المبدل فيه على أحد قسميه ، و [كِلاَهُمَا] يصدق عليه الضمير ، وهو المبدل منه ، فليس من المقســم» .

(٢) أي على هذه القراءة الثالثة .

ذكر هذا في هذه الآية بعضُ النحويين ، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدخلاً في القرآن الكريم .

وقرأ أبو عمرو : [أُفِ] بكسر الفاء وترك التنوين ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وعاصم – في رواية أبي بكر – ، وقرأ نافع ، والحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعيسى : [أُفٍّ] بالكسر والتنوين ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [أُفَّ] بفتح الفاء ، وقرأ أبو السَّمال : [أُفُّ] بضم الفاء(١) ، وقرأ ابن عباس : [أُفَ] خفيفة ، وهذا كله بناءٌ ، إلَّا أن قراءة نافع تعطي التنكير ، كما تقول : « إيه » . وفيها لغاتٌ لم يُقْرأْ بها : « أُفٌّ » بالرفع والتنوين ، على أن هٰرون حكاها قراءة – و « أُفًّا » بالنصب والتنوين ، و « أُفي » بياءٍ بعد الكسرة ، حكاها الأخفش الكبير ، و « أُفَا » بألف بعد الفتحة ، و « أُفْ » بسكون الفاءِ المشددة ، و « أُفْ » مثل رَبْ ، ومن العرب من يُميل « أُفَا » ، ومنهم من يزيد فيها هاءَ السَّكْت فيقول : « أُفَاهُ » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى اللفظة أنها اسم فعل ، كأن الذي يريد أن يقول : أَضْجَرُ ، أو : أَتَقَذَّرُ(٢) ، أو : أَكْرَهُ ، أو نحو هذا ، يُعبِّر إيجازاً بهذه اللفظة

(١) قال في البحر المحيط : « بضم الفاء من غير تنوين » .

(٢) يتَقَذَّرُ منهما لما يجد في حال كبرهما من نزول لعاب ، أو ظهور مُخاط ، وفي حال مرضهما من بَوْلٍ ونحوه .

فتعطي معنى الفعل المذكور ، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلاً لجميع ما يمكن أن يقابَل به الآباءُ مِمَّا يكرهون، فلم تُرَدْ هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثالُ الأَعظم منها والأَقل، فهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور .

و «الانْتِهَارُ» : إظهار الغضب في الصوت واللفظ . و «القولُ الكريم»: الجامعُ للمحاسن ، من اللِّين وجودة المعنى وتَضَمُّن البر ، وهذا كما تقول : ثوبٌ كريم ، تريد أنه جَمُّ المحاسن . و «الأُفُّ» : وسَخ الأَظفار ، فقالت فرقة : إن هذه اللفظة التي في هذه الآية مأْخوذة من ذلك ، وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ : معناه : إذا رأيت منهما في حال الشيخ [١] الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر ، فلا تَقْذَرْهُمَا [٢]، ولا تقل : أُفٍّ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والآية أَعمُّ من هذا القول ، وهو داخلٌ في جملة ما تقتضيه . قال أَبو السَّراج التُّجِيبي [٣] : قلت لسعيد بن المسيب : كلُّ ما في القرآن

(١) الشَّيْخُ : الشَّيْخُوخَةُ ، وهما مصدر «شَاخَ» إذا أَسَنَّ وكبر .
(٢) أي : لا تكْرَهَهُمَا ولا تجتنبهما لِقَذَرٍ أوْ وساخة .
(٣) في بعض النسخ : «أبو الهدّاج» ، وهو موافق لما في الطبري ، والدرّ المنثور . وفي القرطبي : أبو البدّاح

من بِرِّ الوالدين قد عرفته إلَّا قوله : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ ، ما هذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيب : قولُ العبد المذنب للسيد الفَظِّ .

وقوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ استعارة ، أي : أَقطعهما جانب الذل منك ، ودَيِّثْ (١) لهما نفسك وخُلُقك . وبُولغ بذكر الذُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ، وذلك بحسب عِظَم الحق هنا . وقرأ الجمهور : [ٱلذُّلِّ] بضم الذال ، وقرأ سعيد بن جبير ، وابن عباس ، وعروة بن الزبير : [ٱلذِّلِّ] بكسر الذال ، ورويت عن عاصم ابن أبي النجود ، و «الذِّلُّ» في الدواب ضدُّ «الصُّعوبة» ، ومنه : الجَمَلُ الذَّلُول (٣) ، والمعنى يتقارب . وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفْسه مع أبويه في حيِّز ذلَّة في أقواله وسَكَنَاتِهِ

(١) أي : اجعل نفسك لينة سهلة ، يقال : ديَّثَ الأمْرَ : ليَّنَهُ ، وديَّثَ الطريقَ : وطَّأه ، وفي كلام الإمام عليٍّ كَرَّم الله وجهه : « « ودُيِّثَ بالصَّغَارِ » أي : ذُلِّلَ . وقد نقلت الكلمة محرفة في (البحر) إلى : دمث

(٢) الآية (٢١٥) من سورة (الشعراء) ، ومثلها قوله تبارك وتعالى في الآية (٨٨) من سورة (الحِجْر) : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(٣) ومن هذا المعنى قوله تعالى في الآية (٧١) من سورة (البقرة) : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ . وقوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (يس) : ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ .

ونظره ، ولا يُحِدُّ لهما بصره ، فإن تلك هي نظرة الغاضب . وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أبعده الله وأسحقه ، قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له) (١)

قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ، [مِنْ] هنا لبيان الجنس ، أي : إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس ، لا بأن يكون ذلك استعمالاً ، ويصح أن تكون لابتداء الغاية .

ثم أمر الله تعالى عباده بالتَّرَحُّم على آبائهم ، وذكر مِنَنهما على الإنسان في التربية ؛ ليكون تذكُّر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما ، وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين المؤمنين ، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أُولِي قُرْبى ، وذُكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ ، وليس هذا موضع نَسْخ .

قوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي : من اعتقاد الرحمة بهما والحُنُوِّ عليهما ، أو من غير ذلك ، ويجعلون ظاهر بِرِّهِمَا رياءً . ثم وَعَدَ سبحانه وتعالى في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأَوبة إلى طاعة الله . واختلفت عبارة الناس في «الأَوَّابِين» ـ فقالت

---

(١) أخرجه أحمد ، والبيهقي ، عن أبي مالك رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : (من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار بعد ذلك فأبعده اللهُ وأسْحَقَه) ، والأحاديث الصحيحة في هذا كثيرة ، ومنها المشهور المتداول بين الناس .

فرقة : هم المصلحون ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم المسبِّحون ، وقال أيضاً : هم المطيعون والمحسنون ، وقال ابن المنكدر (١) : هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال : (تلك صلاة الأَوَّابين) (٢). وقيل غير ذلك من المستغفرين ونحوه . قال عَوْن العَقِيليّ (٣) : هم الذين يصلون صلاة الضحى . وحقيقة اللفظة أنها من : آبَ يَؤُوبُ إذا رَجَع ، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله تبارك وتعالى ، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح . قال ابن المسيب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وفسَّر الجمهور «الأَوَّابين» بالراجعين إلى الخير ، وقال ابن جبير : أراد بقوله : «غَفُوراً للأَوَّابِين»

---

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر – بالتصغير – التيمي ، المدني ، ثقة حافظ ، مات سنة ثلاثين أو بعدها . (تقريب التهذيب) .

(٢) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن ابن المنكدر ، وقال عنه : إنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن في صحيح مسلم ، وفي مسند أحمد عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفصال) ، قال النووي في شرح صحيح مسلم : «هو بفتح التاء والميم ، يقال : رَمِضَ يَرْمَضُ كعَلِم يَعْلَم ، والرَّمضاء : الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس ، والمعنى : حين تحترق أخفاف الفصال ، وهي الصغار من أولاد الإبل ، جمع فصيل» .

(٣) هو عَوْن بن أبي شداد العَقِيليُّ ، وقيل : العبدي ، أبو معمر البصري ، مقبول ، من الخامسة . (تقريب التهذيب)

الزَّلَّة والفَلْتَة تكون من الرجل لأَحد أبويه ، وهو لم يُصِرَّ عليها بقلبه ، ولا علمها اللهُ من نفسه . وقالت فرقة : «خَفْضُ الجناح» هو ألاَّ يمتنع من شيءٍ يريدانه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

اختلف المتأَولون في «ذي القُرْبَى» ـ فقال الجمهور : الآية وصيَّةٌ للناس كلهم بصلة قرابتهم ، خوطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمراد الأُمة . و «الْحَقُّ» في هذه الآية ما يتعيَّن له من صلة الرَّحِم ، وسَدِّ الخُلَّة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه ، قال بنحو هذا الحسنُ ، وعكرمة ، وابن عباس ، وغيرهم . وقال عليٌّ

ابن الحسين في هذه : هم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقهم من بيت المال .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والقول الأَول أَبين ، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل . و «ابْنُ السَّبيل» هنا يعم الغني والفقير ؛ إِذْ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا ، و «ابنُ السبيل» في آية الصدقة أَخصُّ .

و «التَّبْذِيرُ» : إنفاق المال في إفساد ، أَو في سرف في مباح ، وهو من البذر ، ويحتمل قوله تعالى : [ٱلْمُبَذِّرِينَ] أَن يكون اسم جنس ، ويحتمل أَن يعني أَهل مكة مُعَيَّنِين ، وذكره النقاش . وقوله تعالى : [إِخْوَانَ] يعني : في حكمهم ؛ إذ المبذر ساعٍ في فسادٍ ، والشيطان أَبداً ساعٍ في فسادٍ ، والإخوان : جمع أَخٍ من غير النسب ، وقد يشذُّ ، ومنه قوله تعالى في سورة النور : ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ (١) ، والإِخْوَةُ : جمع أَخٍ في النسب ، وقد يشذُّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٢) ، وقرأَ الحسن ، والضحاك : ﴿إِخْوَانَ ٱلشَّيْطَانِ﴾

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (النور) .
(٢) من الآية (١٠) من سورة (الحجرات) .

على الإفراد ، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك . ثم ذكر تبارك وتعالى كُفْر الشيطان ليقع التحذير من التَّشَبُّه به في الإفساد مستوعباً بَيِّناً .

قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ الآية . الضمير في [عَنْهُمْ] عائد على من تقدم ذكره من المساكين وبني السبيل ، فأمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ـ إذا سأله منهم أحدٌ فلم يجد عنده ما يعطيه ، فقابله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالإعراض تأدُّباً منه في أن يردَّه تصريحاً ، وانتظاراً لرزق من الله تعالى يأْتي فيُعطي منه ـ أن يكون يُؤنسه بالقول الميسور ، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله ، والتأْنيس بالميعاد الحسن ، والدعاءُ في توسعة الله تعالى وعطائه . ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد نزول هذه الآية ـ إذا لم يكن عنده ما يُعطي ـ : (يرزقنا الله وإياكم من فضله) (١) ، فالرَّحْمة ـ على هذا التأْويل ـ الرزقُ المنتظر ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقال ابن زيد : الرَّحمة : الأَجر والثواب ، وإنما

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ ، قال : « قولاً جميلا ، رزقنا الله وإياكَ ، بارك الله فيك » ، هكذا ذكره السيوطي ولم يرفعه ابن زيد .

نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأبى أن يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد ، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم ، لئلا يعينهم على فسادهم ، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقال بعض أهل التأويل الأول : نزلت الآية في عمّار بن ياسر وصنفه ، و «الْمَيْسُورُ» مفعولٌ من لفظة اليُسْرِ ، تقول : يَسَّرْتُ لك كذا إذا أعددته .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية ، رُوي عن قالون : ﴿كُلَّ ٱلْبَصْطِ﴾ بالصاد ، ورواه الأعمش عن أبي بكر ، واستعير لليد المقبوضة جملةً عن الإنفاق المتَّصِفَةِ بالبخل الغلُّ إلى العنق ، واستعير لليد التي تستنفد جميع ما عندها غاية البسط ، ضد الغل ، وكل هذا في إنفاق الخير ، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام .

وهذه الآية ينظر إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَثَل البخيل والمتصدق ...) الحديث[1] بكماله . والملامة هنا لاحقة ممن

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والزكاة والطلاق واللباس ، ومسلم والنسائي في الزكاة ، وأحمد في مسنده (٢–٣٨٩ ، ٥٣٣) ، ولفظه كما أخرجه مسلم ، عن أبي هريرة ، قال :=

يطلب من المستحقين فلا يجد ما يُعطى . و «الْمَحْسُورُ» : المقعد الذي قد استُنْفِذت قُوَّتُه ، تقول : حَسَرْتُ البعير إذا أَتْعَبْتَهُ حتَّى لم يبق له قوة ، فهو حسير ، ومنه قول الشاعر :

لَهُنَّ الْوَجَا لِمْ كُنَّ عَوْناً عَلى السُّرَى ولا زَالَ مِنْهَا طَالِـعٌ وَحَسِيرُ (١)

ومنه : البصر الحسير ، وهو الكالُّ . وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه الآية: لا تُمْسك عن النفقة فيما أَمرتك به من الحق ، ولا تبسطها كل البسط فيما نهيتك عنه . وقال قتادة : التبذيرُ : النَّفَقَةُ في معصية ،

= قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (مَثَل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جُبَّتَان من حديد ، إذا همَّ المتصدق بصدقة اتَّسعت عليه حتَّى تُعَفِّي أثره ، وإذا همَّ البخيل بصدقة تقلَّصت عليه ، وانضمت يداه إلى تراقيه ، وانقبضت كل حلقة إلى صاحبتها) ، قال : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (فَيَجْهَدُ أَنْ يُوَسِّعها فلا يستطيع) . ومعنى (تُعَفِّي أثَرَهُ) : تمحو أثر مشيه على الأرض لطولها وسبوغها عليه . ومعنى (تَقَلَّصَت) : ضاقت وانضمَّ بعضها إلى بعض وارتفعت .

(١) لم أقف على قائله ، والوَجَا : الحَفَا ، وقيل : شِدَّة الحَفَا ، وقيل : الوَجَا قَبْل الحَفَا ، ثم الحَفَا ثم النقَبُ ، والسُّرَى : سير الليل عامته أو كُلِّه ، تذكِّره العرب وتُؤنِّثه ، والطالع من الإبل : أوَّلها ، والحَسِير : الذي وصل إلى درجة الإعياء من التعب ، يقال : دابةٌ حاسِرٌ وحَسِيرٌ وحاسِرَةٌ ، الذَّكر والأنثى سواءٌ ، والبيت شاهد على أن الحسير هو المُتعب الذي لم يبق له قوة ، وفي الحديث الشريف (الحَسِيرُ لا يُعْقَر) ، أي : لا يجوز للغازي الذي تعبت دابته أن يعقرها خوفاً من أن يأخذها العدوُّ ، بل عليه أن يتركها سليمة دون عقر .

وقال مجاهد : لو أَنفق الإنسانُ ماله كلَّه في حق لم يكن تبذيراً ، ولو أَنفق مُدًّا في باطل كان تبذيراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا فيه نظر ، ولا يُعطي البَسْط معنى لم يُبح فيما نهي عنه ، ولا يقال في المعصية : «وَلَا تُبَذِّرْ» ، وإنما يُقَال : «ولا تُنفق ولو باقتصاد وقوام» ، ولله درُّ ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهما فإنَّهما قَالا : «التبذير : الإنفاق في غير حق» ، فهذه عبارة تَعُمُّ المعصية والسَّرف المباح ، وإنما نبَّهَت هذه الآية على استفراغ الجهد[1] فيما يطرأُ أولاً من سؤال المؤمنين ؛ لِئَلَّا يبقى من يأْتي بعد ذلك لا شيءَ له ، أَو لِئَلَّا يُضَيِّع المنفقُ عيالاً ، ونحوُه من كلام الحكمة : «ما رأَيتُ سرفاً قط إلَّا ومعه حق مضيَّع» ، وهذا من آيات فقه الحال ، ولا يبين حكمها إلَّا باعتبار شخص شخص من الناس .

قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ، المعنى : كن أَنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد وإنفاق القوام ، ولا يهمنك فقر من تراه كذلك ، فإنه بِمَرْأًى من الله وبِمَسْمَع ، وبمشيئته . و [يَقْدِرْ]

---

(١) في بعض النسخ «استفراغ الوَجْد» ، والوَجد مثلة الواو بمعنى : السَّعة واليسار .

معناه : يُضَيِّق . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ ، أَيْ : يعلم مصلحة قوم في الفقر ، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى . وقال بعض المفسرين – وحكاه الطبري – : إن الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يُصلحها الفقر ، وكانت إذا شبعت طغت وقتلت غيرها وأغارتْ ، وإذا كان الجوع والقحط شغلهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

قرأ الأَعمش ، وابن وثاب : ﴿وَلَا تُقَتِّلُوا﴾ بتضعيف الفعل . وهذه الآية نهيٌ عن الوَأْد الذي كانت العرب تفعله ، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ (١) ، ويقال : كان جهلهم يبلغ إلى

(١) الآية (٨) من سورة (التكوير) .

أَن يُعِزَّ واحدٌ منهم كلبه ويقتل ولده ، و [خَشْيَةَ] منصوب على المفعول لأَجله ، و «الْإِمْلَاقُ» : الفقر وعدم المال ، أَمْلَقَ الرجلُ : لم يبق له إِلَّا المَلَقَاتُ ، وهي الحجارة العظام المُلْس السُّودُ . وقرأَ الجمهور : [خِطْئاً] بكسر الخاءِ وسكون الطاءِ ، وبالهمز والقصر ، وقرأَ ابن عامر : [خَطَأً] بفتح الخاءِ والطاءِ والهمزة مقصورة ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وهاتان قراءَتان مأْخوذتان من : خَطِيَ إذ أَتى الذنب على عمد ، فهي : كحِذْر وحَذَر ومِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه اسم مصدر ، ومنه قول الشاعر :

الْخِطْءُ فَاحِشَةٌ والبِرُّ نَافلَـــةٌ ٭ كَعَجْوَةٍ غُرِسَتْ في الأَرْض تُؤْتَبرُ(١)

قال الزجاج : خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطْئاً ، مثل : أَثِمَ يَأْثَمُ إِثْماً ، فهذا هو المصدر ، وخَطَأٌ اسمٌ منه ، وقال بعض العلماءِ : خَطِئَ معناه واقع الذنب مع التعمد ، وأَخطأَ إذا واقعه من غير تعمد ، ومنه

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الخِطْء بكسر الخاءِ وسكون الطاءِ قد وردت في اللغة مثل الخَطَأِ بفتح الخاءِ والطاءِ ، وقال : إنهما في ذلك مثل : شِبْهٍ وشَبَهٍ ، وحِذْرٍ وحَذَرٍ ، ومِثْلٍ ومَثَلٍ . والفاحِشَةُ : القبيح الشنيع من قول أو فعلٍ ، والنافِلَةُ : ما زاد على النصيب أو الحقِّ ، والعجوة : نوع جيِّد من تمر المدينة ، وتُؤْتَبَرُ : تُلَقَّحُ ، يقال : أَبَرَ النَّخْلَ وَأَبَّرَهُ : لَقَّحه . والبِرُّ هو الخير ، وقد جعله الشاعر مقابلاً للخطأِ ، وجعل الخير مصدراً للمنفعة .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(١) ، وقال أبو علي الفارسي : قد يقع هذا موضع هذا ، وهذا موضع هذا ، فأَخطأَ بمعنى تعمَّد في قول الشاعر :

عِبَادُك يُخْطِئُـــونَ وَأَنْتَ رَبٌّ كَرِيمٌ لَا تَليقُ بكَ الذُّمُـــومُ(٢)

وخطئَ بمعنى لم يتعمد في قول الآخر :

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الأَمِيرَ إذا هُمُ خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلَا يُلَامُ المُرْشِدُ(٣)

---

(١) من الآية (٢٨٦) آخر آية في سورة (البقرة) .

(٢) هذا شاهد يذكره ابن عطية نقلا عن الفارسي دليلاً على أن (أَخْطَأَ) قد تأتي إذا فعل الإنسان الذنب مع التعمد ، أي : تأتي في موضع (خَطِيءَ) ، والبيت في اللسان ، وقد ذكره شاهداً على أن (خَطِيءَ) بمعنى : أَثِمَ ، وضبط الفعل بفتح الياء والطاء (يَخْطَئُونَ) على أنها مضارع (خَطِيءَ) ، كذلك ذكره ابن جني في المحتَسَب ، والرواية فيه «وأنت ربٌّ بكفَّيك المنايا والحتوم» وهي جمع حَتْم ، وهو القضاء وإيجابه ، أما أبو علي الفارسي فيجعلها مضارع (أخطأ) ، وتبعه ابن عطية ، وعلى كلا الفهمين فإن الخطأ في البيت بمعنى الإثم ، والذُّمُومُ : العيوب ، وقد أنشد سيبويه لأمية بن أبي الصلت :

سَلَامَكَ رَبَّنَا في كُلِّ فَجْـــرٍ بريئاً ما تَغَنَّثُكَ الذُّمُـــومُ

أي : ما تُنْسب إليك العيوب . ومعنى بَيْتِنَا هنا : إن عبادك يا رب يرتكبون الآثام وأنت ربٌّ رحيم كريم لا تلحق بك العيوب .

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ، وكان شاهداً على أن كلمة (الأمير) تأتي بمعنى المرشد والناصح ، وهو هنا شاهد على أن (خَطِيءَ) قد تأتي بمعنى مواقعة الذنب دون تعمد على خلاف المشهور في اللغة .

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : [خَطْأً] بفتح الخاءِ وسكون الطاءِ وهمزة ، وقرأ ابن كثير : [خِطَاءً] بكسر الخاءِ وفتح الطاءِ ومدِّ الهمزة ، وهي قراءة الأَعرج - بخلاف - وطلحة ، وشبل ، والأَعمش ، وعيسى ، وخالد بن إلياس ، وقتادة ، والحسن - بخلاف - ، قال النحاس : ولا أَعرف لهذه القراءة وجهاً ، وكذلك جعلها أَبو حاتم غَلَطاً ، قال أَبو علي الفارسي : هي مصدر خاطأ يخاطئُ ، وإن كنّا لم نجد خاطَأَ ، ولكن وجدنا تخاطأَ ، وهو مضارع خاطأَ ، فَدَلَّنا عليه ، ومنه قول الشاعر :

تَخَاطَأَتِ النَّبْلُ أَحْشَـــاءَهُ وَأَخَّر يَوْمِي فَلَمْ أَعْجَـلِ (١)

(١) هذا بيت قاله أَوْفَى بن مَطَر المازني ، قال ذلك في اللسان (خَطَأَ) ، وذكره مع بيت قبله ، قال : «وتَخَاطَأَهُ وتَخَطَّاهُ أي أخطأه ، قال أَوْفَى بن مَطَر المازني :

أَلاَ أَبْلِغَا خُلَّتِـي جابِـــــراً بِأَنَّ خَلِيلَكَ لَمْ يُقْتَــــلِ
تَخَطَّأَتِ النَّبْـلُ أَحْشَــاءَهُ وَأَخَّرَ يَوْمِـي فَلَمْ يَعْجَــلِ

هكذا بلفظ (تَخَطَّأَت) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه لأبي علي الفارسي ، فقد ذكره شاهداً على أن (تَخَاطَأَ) مضارع (خاطأً) قد سُمع عن العرب ، وأنه دليل لنا على أن (خَاطَأَ) موجودة ، ومصدرها (خِطَاءٌ) التي قرأ بها ابن كثير وغيره . أما كلمة (أَخَّر) فمعناها : تأخَّرَ ، ويجوز ضبطها (أُخِّر) بضم الهمزة وكسر الخاءِ المشددة ، ورواية اللسان (يَعْجل) يريد اليوم ، ورواية ابن عطية (أَعْجل) يريد نفسه ، يبشر خليله بأن النبال قد أخطأته أو تَخَطَّته فلم تصبه ، وأن يومه قد تأجل .

وقال الآخر في صفة كمأة :

تَخَاطَأَهُ الْقَنَّـاصُ حَتَّى وَجَدْتُـهُ   وَخُرْطُومُهُ في مِنْقَعِ الْمَاءِ رَاسِبُ (١)

فكأن هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل . وقرأ الحسن – فيما رُوي عنه – : [خَطَاءً] بفتح الخاءِ والطاءِ والمدِّ في الهمزة . قال أبو حاتم : لا يُعرف هذا في اللغة ، وهي غلط غير جائز ، وليس كما قال أبو حاتم . قال أبو الفتح : الخَطَاءُ من «أَخْطَأْتُ» بمنزلة العَطَاءِ من «أعطيت» ، هو اسمٌ بمعنى المصدر . وقرأ الحسن – بخلاف – : [خَطَاً] بفتح الخاءِ والطاءِ مُنَوَّنةً من غير همْز . وقرأ أبو رجاءٍ ، والزهري : [خِطاً] بكسر الخاءِ وفتح الطاءِ كالتي قبلها ، وهاتان مخففتان من : خَطَأٍ وخِطَأٍ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ تحريم ، والزنى يُمَدُّ ويُقصر ، فمِنْ قَصْرِهِ الآية ، وهي لغة جميع كتاب الله ، ومِنْ مَدِّه قول الفرزدق :

---

(١) وهذا أيضاً شاهد على أن (تَخَاطَأَ) موجودة ، وهي مضارع (خَاطَأَ) ، وعلى هذا جاءت قراءة ابن كثير [خِطَاءً] التي هي مصدر خاطأ . والقَنَّاصُ : الصائد ، والخُرْطوم : الأنف ، أو طَرَفُه ، وقيل : الوجه كله . ومِنقَع الماء : المكان الذي اجتمع فيه الماءُ وثَبَتَ . والرُّسوبُ : الذهابُ في الماءِ سُفْلاً . وقد ذكر ابن عطية هنا وأبو حيان في البحر أن البيت في صفة كمأة ، وهي اسم للجمع من الكَمْءِ ، وهو فُطْر من فصيلة أرضية تنتفخ في باطن الأرض . وتجمع وتؤكل مطبوخة ، ويختلف حجمها بحسب الأنواع . وقال في القرطبي إن البيت في وصف مهاة .

أَبَا حازِمٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤُهُ وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرَا (١)

ويُرْوى : أَبا خالد ، و «الْفَاحشة» : ما يُستتر به من المعاصي لقبحه . و [سَبِيلًا] نصب على التمييز ، والتقدير : وسَاءَ سبيلُه سبيلا ، أي لأَنه يؤدي إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ وما تقدم قبله من الأَفعال جزم بالنهي . وذهب الطبري إلى أَنها عطف على قوله : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، والأَول أَصوب وأَبرع للمعنى .

والأَلف واللام التي في [ٱلنَّفْسَ] هي للجنس ، و «الحَقّ» الذي تقتل به النفس هو ما فسَّره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (لا يُحِلُّ دمَ المسلم إلَّا إحدى ثلاث خصال : كفرٌ بعد إيمان ، أَو زنى بعد إحصان ، أَو قتل نفس أُخرى) (٢) .

---

(١) البيت في اللسان (سَكَرَ) ، والرواية فيه : أبَا حاضرٍ ، والخُرْطوم : الخمر السريعة الإسكار ، وقيل : هو أوَّل ما يجري من العنب قبل أن يُداس ، وفي «المُحْكم» : وأنشد أبو حنيفـة :

وكأنَّ ريقَتَهـا إذا نَبَّهْتُهَـا بَعْدَ الرُّقادِ تُعَـلُّ بالخُرْطُـومِ

والمُسَكَّرُ : المخمور . والشاهد في البيت أن الزنى جاءَ ممدوداً في قوله : «يعرف زناؤُه» ، ومثله في ذلك قول النابغة الجعدي :

كانَتْ فَرِيضَةُ ما تَقُـولُ كَمَـا كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيضَـةَ الرَّجْـمِ

(٢) أخرجه البخاري في تفسير المائدة . وفي الديَّات ، وأخرجه مسلم وأبو داود في الحدود ، والنسائي في التحريم . وابن ماجه في الحدود ، وأحمد في مسنده (١-٦١) ، ولفظه =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتتصل بها أشياءُ هي راجعة إليها ، فمنها قَطْعُ الطريق لأنه في معنى قتل النفس ، وهي الحِرَابَة ، ومن ذلك الزندقة ، ومسألة ترك الصلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان ، ومنه قَتْلُ أبي بكر رضي الله عنه مَنَعَةَ الزكاة ، وقتل من امتنع في المدن من فروض الكفاية . وقوله : [مَظْلُوماً] نصب على الحال ، ومعناه : بغير هذه الوجوه المذكورة . و «الْوَلِيُّ» : القائم بالدَّم وهو من وَلَدَ المَيِّتَ ، أَوْ وَلَدَهُ الْمَيِّتُ ، أَوْ جَمَعَهُ وإياه أَبٌ ، ولا مدخل للنساء في ولاية الدم عند جماعة من العلماء ، ولهُنَّ ذلك عند آخرين . و «السُّلْطَانُ» : الحجة والملك الذي جعل الله إليه من التَّخيير في قبول الديَّة أو العفو ، قاله ابن عباس والضحاك . وقال قتادة : السلطانُ : القود .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ بالياء ، وهي قراءة الجمهور ، أي الولي ، لا يتعدى أمر الله ، والتَّعَدِّي

=كما جاء في مسند أحمد ، عن أبي أُمامة بن سهل قال : كنا مع عثمان رضي الله عنه وهو محصور في الدار ، فدخل مدخلاً كان إذا دخله يسمع كلامه من على البلاط ، قال : فدخل ذلك المدخل وخرج إلينا فقال : إنهم يتوعدونني بالقتل آنفاً ، قال : قلنا يكفيكهم الله يا أمير المؤمنين ، قال : وبم يقتلونني ؟ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يحل دم امرئٍ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً فيقتل بها) ، فوالله ما أحببت أن لي بديني بدلاً منذ هداني الله ، ولا زنيت في جاهلية ولا في إسلام قط ، ولا قتلت نفساً ، فبم يقتلونني ؟ .

هو أن يقتل غير قاتل وَلِيِّه من سائر القبيلة ، أو يقتل اثنين بواحد ، وغير ذلك من وجوه التعدي ، وهذا كله كانت العرب تفعله ، فلذلك وقع التحذير منه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ من أَعْتَى الناس ثلاثة : رجل قتل غير قاتل وليّه ، أو قتل بدخن الجاهلية ، أو قتل في حَرَم الله) (١) . وقالت فرقة : المراد بقوله تعالى : ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ القاتلُ الذي يتضمنه الكلام ، والمعنى : فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً ، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿فَلَا تُسْرِفْ﴾ بالتاء من فوق ، وهي قراءة حذيفة ، ويحيى بن وثاب ، ومجاهد - بخلاف - و الأعمش ، وجماعة . قال الطبريُّ : على معنى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأُمته بعده ، أي : فلا تقتلوا غير القاتل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويصحُّ أن يراد به الوليُّ ، أي : فلا تسرف أيها الوليُّ في قتل أحد متحصل في هذا الحكم . وقرأ أبو مسلم السَّراج صاحب الدعوة

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، والدَّخَن : الفساد والاختلاف .

العباسية (١) : ﴿فَلَا يسْرِفُ﴾ بضم الفاء ، على معنى الخبر لا على معنى النهي . والمراد – على هذا التأويل – الوليُّ فقط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر . وفي قراءة أُبي بن كعب « فلا تُسرفوا في القتْل إنَّ وليَّ المقتول كان منصوراً » (٢). والضمير في قوله تعالى : [إِنَّهُ] عائد على الوليِّ ، وقيل : على المقتول ، وهو عندي أرجح الأقوال ؛ لأنه المظلوم ولفظة النصر تقابل أبداً الظلم ،

(١) هو أبو مسلم الخراساني ، عبد الرحمن بن مسلم ، اتصل في شبابه بإبراهيم بن الإمام محمد (من بني العباس) ، فأرسله إلى خراسان داعية ، فأقام فيها واستعمل أهلها ، ثم وثب على والي نيسابور (علي بن الكرماني) فقتله واستولى على نيسابور ، ثم سيَّر جيشاً لمقاتلة مروان ابن محمد آخر ملوك بني أمية ، فلما هزمت جيوش مروان فرَّ إلى مصر ، وقتل هناك ، وصفا الجو للسفاح العباسي ، فلما مات خلفه أخوه المنصور الذي خاف من أبي مسلم فقتله ، وكان أبو مسلم فصيحاً بالعربية والفارسية ، فارساً ، داهية ، حازماً ، كان أسمر قصير القامة ، رقيق البشرة ، حلو المعشر ، وهو صاحب الفضل في قيام الدولة العباسية . وفي هامش النسخة التونسية بالخط الكبير أمامَ قوله : أبو مسلم السَّراج عنوان كبير يقول : أبو مسلم الخراساني ، وقال الزمخشري : « أبو مسلم صاحب الدولة » .

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : « الأولى حمل قوله : (إن وليّ المقتول) على التفسير لا على القراءة ؛ لمخالفته السواد ، ولأن المستفيض عنه ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ كقراءة الجماعة .

كقوله عليه الصلاة والسلام : (وَنَصْرِ المظلوم وإبْرَار القَسم)(١) ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) (٢) ، إلى كثير من الأمثلة . وقيل : على القتل ، وقال أبو عبدة : على القاتل ؛ لأنه إذا قُتلَ في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف بعيد المقصد .

وقال الضحاك : هذه أول ما نزل من القرآن بشأن القتل ، وهي مكّيّة .

---

(١) أخرج هذا الحديث البخاري في الجنائز والنكاح والأشربة والأدب والاستئذان ، وأخرجه مسلم في اللباس ، والترمذي في الأدب ، والنسائي في الإيمان ، وأحمد في مسنده (٤-٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩) ، ولفظه كما في كتاب الجنائز في البخاري ، عن البراء رضي الله عنه قال : أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بسبع ، ونهانا عن سبع ، أمرنا باتباع الجنائز ، وعيادة المريض ، وإجابة الداعي ، ونصر المظلوم ، وإبرار القسم ، وردّ السلام ، وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب ، والحرير والديباج والقَسّيّ والاستبرق . (القَسّي : نوع من الحرير) .

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير بلفظ : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل : كيف أنصره ظالماً ؟ قال : تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره) ، وقال : أخرجه أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، وهو عن أنس رضي الله عنه ، ثم رمز له بالصحة ، ثم ذكر رواية أخرى عن جابر رضي الله عنه ، أخرجها الدارمي وابن عساكر ، ورمز لها السيوطي بالحسن ، ولفظها : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، إن يك ظالماً فاردده عن ظلمه ، وإن يك مظلوماً فانصره) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

الخطاب في هذه الآية للأوصياءِ الذين هم مُعَدُّونَ لقُرْبِ مال اليتيم ، ثم هي لمن تَلَبَّسَ بشيءٍ من أَمْرهم من غير وصيٍّ ، و «الْيَتِيمُ» : الفَرْدُ من الأَبناءِ ، واليُتْمُ : الانفراد ، يقال : يتَمَ الصبيُّ يَيْتِم إذا فقد أَباه . وقال ابن السكيت : اليُتْمُ في البشر من قِبَل الأَب ، وفي البهائم من قِبَل الأُم . وفي كتاب الماوردي : إنَّ اليُتْمَ في البشر من قِبَل الأُم أَيضاً ، وجمع اليتيم أيتام ، كشريف وأشراف ، وشهيد وأشهاد ، ويُجمع يَتَامَى كأَسير وأَسَارَى ، كأَنها في الأُمور المكروهة التي تدخل على المرءِ غلبة . قال ابن سيدة : وحكى ابن الأَعرابي (يَتْمَان) في (يَتيم) ، وأَنشد في ذلك :

فَبِتُّ أُشَوِّي صِبْيَتِي وَحَلِيلَتِـي طَرِيًّا وجرْوُ الذِّئْبِ يتمانُ جَائِـعُ (١)

(١) البيت لأبي العارم الكِلابي ، وهو في اللسان (يَتَمَ) . وأُشَوِّي : أُطعم الشِّواء ، والصبيُّ : الصغير الذي لم يُنْمْطم ، أو الصغير دون الغلام . وحليلةُ الرجل : زوجُهُ ، والطرِيُّ :=

ويجوز أن يكون (يَتَامَى) جمع (يتْمَان) . وفي الحديث : (لا يُتْمَ بَعْدَ حُلُم) (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يريد : إلَّا بأحسن الحالات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذلك في الوصيِّ الغنيِّ ، أن يُثَمِّر المال ويحوطه ، ولا يحبس منه شيئاً على جهة الانتفاع به . هذا هو الورع ، والأَولى ألا يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح عليه ، فالفقه أن تفرض له أُجرة . وأَمَّا الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه ، فاختلف الناسُ في أكله منه بالمعروف ، كيف هو ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يتسلَّف منه ، فإذا أَيْسَرَ ردَّ فيه ، وقال ابن المسيّب : لا يشرب الماءَ من مال اليتيم ، قيل : فما معنى : ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢) ؟ قال : إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه ، وقال مجاهد : لا يَقْرَبُ إلا بتجارة ولا يستقرض منه ، قال : وقوله تعالى : ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من مال نفسه . وقال أَبو يوسف : لعلَّ قوله : ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

= اللَّيِّن الغَضُّ ، وجَرْوُ الذئب : صغيره ، واليَتْمان: لغة في اليتيم ، وهي موضع الشاهد في البيت .

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا ، ولفظه فيه : (لا يُتْمَ بعد احتلام) ، أي : بلوغ .

(٢) من الآية (٦) من سورة (النساء) .

منسوخٌ بقوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾(١) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يأْكل منه الشَّرْبَة من اللَّبن ، والطُّرْفة من الفاكهة ، ونحو هذا مما يخدمه ، ويَلُوط الحوض(٢) ، ويَجذُّ النَّخْل (٣) ، ويَنْشُد الضَّالَّة (٤) ، فيأْكل غير مُضِرٍّ بِنَسْل(٥) ، ولا ناهِك في الحلب (٦) ، وقال زيد بن أَسلم : يأْكل منه بأَطراف أَصابعه بُلْغَةً (٧) من العيش بتَعَبِه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه استعارة للتَّقَلُّل (٨) ، وقال مالك رحمه الله ، وغيره : يأْخذ منه أُجرة بقدر تعبه ، فهذه كلها تدخل فيما هو أَحْسَن . وكمال تفسير هذه المعاني في سورة النساءِ بحسب أَلفاظ تلك الآيات (٩) ، وفي الخبر

(١) من الآية (١٨٨) من سورة (البقرة) .
(٢) لاط الحوض بالطِّين : طلاه وملَّسَه به .
(٣) جذَّ النخل جذّاً : قطع ثمره وجناه .
(٤) نَشَد الضَّالةَ : طلبها وبحث عنها .
(٥) النَّسْل : الولد والذُّرِّيَّة ، وجمعه أَنْسَال ، والمراد هنا : النتاج .
(٦) أي : غير مبالغ في الحلب بحيث يجهد الدابة المحلوبة ، يقال : نَهَكَ الضرعَ إذا بالغ في حلبه حتّى استوفى جميع ما فيه .
(٧) البُلْغَةُ : ما يكفي لِسَدِّ الحاجة ولا يفْضُل عنها .
(٨) أي : لا يأخذ إلا أقل شيء .
(٩) راجع الجزء الثالث صفحة ٤٩٨ وما بعدها .

عن قتادة أَن هذه الآية لما نزلت شَقَّت على المسلمين ، وتجنبوا الأَكل معهم في صحيفة ، فنزلت : ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم ، ثم بعد الغاية قد سنَّتْهُ آية أُخرى ، وما بعد هذه الغايات أَبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي ، أَو يقتضي ذلك الإنصاف في النازلة ، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها : « أَنا فَتَلْتُ قلائد هَدْي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، وبعثت بها ، فلم يحرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيءٌ أَحلَّه اللهُ له حتَّى نحر الهدي » .

و « الأَشُدّ » : جمع (شَدٍّ) عند سيبويه (٢) ، وقال أَبو عبيدة : لا واحد له من لفظه ، ومعناها : قُوَاهُ في العقل والتجربة والنظر لنفسه ، وذلك لا يكون إِلَّا مع البلوغ ، فالأَشُدُّ في مذهب مالك إقران البلوغ بالاحتــلام أَو ما يقوم مقامه حسب الخِـلاف في ذلك ، والرُّشد في المال . واختلف ، هل من شروط ذلك الرُّشد في الدِّين على قولين :

---

(١) من الآية (٢٢٠) من سورة (البقرة) .

(٢) في اللسان (شـدد) : « قال أبو عُبَيْد : واحدها شَدٌّ في القياس ، قال : ولم أَسمع لها بواحدة ، وقال سيبويه : واحدتها شِدَّةٌ ، كنِعْمَة وأَنْعُم ، ابن جني : جاءَ على حذف التاءِ كما كان ذلك في نِعْمَة وأَنعم » ، تأمل هذا وتأملْ قول ابن عطية عن سيبويه .

فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله ، وراعاه غيره من أصحاب مالك ، ومذهبُ أبي حنيفة أن الأَشُد هو البلوغ فقط ، فلا حجر عنده على بالغ إلَّا أن يعرف منه السَّفَه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولستُ من هذا التقييد في قوله على ثقة .

وقال أبو إسحق الزَّجاج : الأَشُدُّ في قول أن يأْتي على الصبي ثمان عشرة سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما أراد أنه بعض ما قيل في حدِّ البلوغ لمن لا يحتلم ، وأمَّا أن يكون بالغاً رشيداً فلا يدفع إليه مالُه حتَّى يبلغ هذه المدَّة فَشَيْءٌ لا أحفظ من يقوله .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه ، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أيْ : مطلوباً ممن عُهد إليه أو عوهد ، هل وفَّى به أم لا ؟

قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الآية . أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التَّجر والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم

ووزنهم ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقف في السوق ويقول : يا معشر الموالي ، إنكم وليتم أمرين بهما هلاك الناس قبلكم ، هذا المكيال وهذا الميزان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع ؛ لأن المشتري لا يقال له : « أَوْف الكيل » ، هذا هو ظاهر اللفظ والسابق منه ، و « ٱلْقِسْطَاسُ » ، قال الحسن : هو القَبَّان ، ويقال فيه : القَفَّان ، وهو القاسْطُون ، ويقال القَرْطَسُون ، وقيل : القِسْطَاسُ الميزان كان صغيراً أو كبيراً ، وقال مجاهد : القِسْطاسُ : العَدْلُ ، وكان يقول : هي لغة رومية ، فكأَنَّ الناسَ قيل لهم : زنُوا بمعدلة في وزنكم . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم – في رواية أبي بكر – : [بالْقُسْطَاسِ] بضم القاف ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [بِالْقِسْطَاسِ] ، وهما لغتان ، واللفظة منه للمبالغة من القِسْط [1] ،

(١) علّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على ذلك فقال : « ولا يجوز أن يكون من القِسْط لاختلاف المادتين ، لأن القِسْط مادّته (ق َ س َ ط َ) ، وذلك مادته (ق َ س ْ ط َ س َ) ؛ إلا إن اعتقد زيادة السين آخراً (كسين قَدْمُوس وضَغْبُوس) فيمكن ، لكنه ليس من مواضع زيادة السِّين المقيسة » .

والمراد بها في الآية جنس الموازين العدْلة على أي صفة كانت . قال أبو حاتم : «إنَّما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة ، وكلُّ قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقرأ بغيرها» . وقرأت فرقة : [بِالْقِصْطَاسِ] بالصاد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان مذهب مجاهد في هذا ، وفي ميزان القيامة ، وكل ذلك ، أنها استعاراتٌ للعدل ، وقوله : «ميزان القيامة» مردودٌ ، وعقيدة أهل السُّنَّة أنه ميزان له عمود وكفَّتان . وسمعت أبي رضي الله عنه يقول : رأيت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناسَ في الوزن ، فقال في جملة كلامه : إنَّ في هيئة اليد بالميزان عظةٌ ، وذلك أن الأَصابع يجيءُ منها صورة المكتوبة : أَلِفٌ ولامان وهاءٌ ، فكأَن الميزان يقول : الله الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا وعظٌ جميلٌ .

و «التَّأْويلُ» في هذه الآية : المآلُ ، قاله قتادة ، ويحتمل أن يكون «التَّأْويلُ» مصدر تأَوَّل ، أي : يتأَول عليكم الخير في جميع أُموركم إذا أَحسنتم في الكيل والوزن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والغرض من الكيل والوزن تحرّي الحق ، فإن غلب الإنسان بعد تَحَرِّيه لشيءٍ يسير من تطفيف شاذٍّ ، أو لم يقصده ، فذلك نزرٌ موضوعٌ عنه إثْمُه ، وذلك مالا يكون الانفكاك عنه في وُسْع .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه : وَلَا تَقُلْ ولا تَتَّبِعْ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (نحن بنو النضر لا نَقْفُو أُمَّنَا ولا ننتفي من أبينا) (١) ، وتقول : فلان قِفْوتي ، أي : موضع تُهْمَتي ، وتقول : «رُبَّ سامِع عِذْرَتي ولمْ يسْمَع قِفْوَتِي» (٢) أي : ما رميت به ، وهذا مثل للذي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الحدود ، وأحمد في مسنده (٥–٢١١ ، ٢١٢) ، ولفظه كما في المسند ، عن الأشعث بن قيس قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفْدٍ لا يَرَوْنَ أني أفضلهم ، فقلت : يا رسول الله ، إنَّا نزعُم أنكم منَّا ، قال : (نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقْفُو أُمَّنا ، ولا نَنْتَفي من أبينا) ، قال : فكان الأشعث يقول : لا أُوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلاّ جلدته الحدّ . ومعنى (لا نَقْفُو أُمَّنا) : لا نسُبُّ أُمَّنا .

(٢) العِذْرة : المعذرة ، والقَفْوَة : الذَّنْب ، يقال : قَفَوْتُ الرَّجُلَ إذا قذفته بفجور صريحاً ، وفي الحديث الشريف : (لا حدَّ إلاّ في القَفْوِ البيِّن) . وهذا المثل يقوله الرجل يعتذر من أمر شتم به إلى الناس ، ولو سكت لم يعلم به . ويروى هذا المثل : «رُبَّ سامع قَفْوتي ولم يسمع عِذْرتي» ، قال الأصمعي : معناه : سمع ما أكره من أمري ، ولم يسمع ما يغسله عني .

يُفْشي سرَّه ويعتذر من ذنب لم يسمعه المُعْتَذَرُ إليه . وقد قال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد : ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه : لا تَرْمِ ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

وِمثْلُ الدُّمَى شُمُّ العَرَانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الْحَيَاءُ لا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا (١)

وقال الكميت :

وَلَا أَرْمِـي الْبَرِيءَ بِغيْرِ ذنْب وَلَا أَقْفُو الحواصِنَ إنْ قُفِينَا (٢)

---

(١) هذا البيت للنابغة الجعدي ، وهو عبد الله بن قيس ، أبو لَيْلَى ، وقد استشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن على أن معنى التَّقَافي : التَّقاذف . وقد نقل صاحب اللسان عن أبي عبيد أن الأصل في القَفْو والتَّقَافي : البهتان يَرْمي به الرجلُ صاحبَهُ ، ويقال : قَفَا فلانٌ فلاناً : أتبعه أمراً كلاماً قبيحاً ، وقال الفراءُ عن هذه الآية : أكثر القُرَّاء يجعلونها من قَفَوْتُ ، والدُّمَى : جَمْعُ دُمْية ، وهي التمثال من العاج أو المرمر ونحوهما . والعَرَانين : جمع عِرْنين ، وهو ما صلُب من عظم الأنف ، أي القصبة ، والشَّمَمُ في العرانين هو ارتفاعها ، وهو من علامات الجمال ، يصفهن بالجمال فيشبههن بالدمى ، وبجمال الأنوف المرتفعة ، وبالحياء الذي يكسبهن الوقار والكمال ، ثم يختم ذلك بأنهن لا يعرفن تَتَبُّع الأقاويل ، ولا يبحثن عن عيوب الناس وأخبارهم .

(٢) هذا البيت شاهد أيضاً على أن القَفْو هو تتبع عورات الناس وعُيُوبهم . ورَمَى فلانٌ فلاناً بأمر قبيح : قذفه به ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ ، وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ ، يقول : إنه لا يرمي بريئاً ولا يقذفه بأمر قبيح وهو لم يرتكب ذنباً ، والحواصِنُ : جمع حاصِنٍ من النساء ، يقال : حَصُنت المرأة تَحْصُن حِصْناً وحُصْناً إذا عفَّت عن الريبة ، وقيل : الحواصِنُ من النساء : الحبالى : فهو أيضاً لا يَتَّهم المحصنات من النساء إذا تتبعهن غيرُه من الناس ، وظاهرٌ من بيت الكميت أنه تأثر كثيراً بالقرآن الكريم ، لفظاً ومعنى .

وأصل هذه اللفظة من اتِّبَاع الأَثَر ، تقول : قَفَوْتُ الأَثر ، ويُشْبِه أن هذا مأْخوذ من «الْقَفَا» ، ومنه قافية الشِّعر لأَنها تقفو البيتَ ، وتقول : «قُفْتُ الأَثَر» ، ومن هذا : هو القائف ، وتقول : «فُقْتُ الأَثر» بتقديم الفاءِ على القاف ، ويشبه أَن يكون هذا من تلعُّب العرب في بعض الأَلفاظ ، كما قالوا : «رَعَمْلِي» في «لَعَمْرِي» ، وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت : قَفَا وقَافَ ، مثل عَتَا وعاتَ ، فمعنى الآية : ولا تتبع لسانك من القول مالا علم لك به ، وذهب مُنْذر بن سعيد إلى أَن قفا وقاف مثل جَذَب وجَبَذَ ، فهذه الآية بالجملة تنهى عن قول الزُّور والقذف وما أَشبه ذلك من الأَقوال الكاذبة الرديئة . وقرأَ الجمهور : ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ، وقرأَ بعض الناس – فيما حكى الكسائي– : ﴿وَلَا تَقُفْ﴾ بضم القاف وسكون الفاءِ ،

وقرأَ الجراح : [وَٱلْفَوَادَ] بفتح الفاءِ ، وهي لغة ، وأَنكرها أَبو حاتم وغيره (١) ، وعبَّر عن «السَّمع والبصر والفؤاد» بـ [أُولئك] لأَنها

(١) قال أبو الفتح ابن جنِّي : «لم يذكر أبو حاتم هو ولا ابن مجاهد الهمز ولا تَرْكه ، وقد يجوز ترك الهمز مع فتح الفاء ، كأنه كان (ٱلْفُؤَادَ) بضم الفاء وبالهمز ، ثم خففت فخلصت في اللفظ واواً ، وفتحت الفاءُ على ما في ذلك . فبقيت واواً» ، ومعنى ذلك أنه يختار مع فتح الفاءِ تَرْكَ الهمز .

حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية مسئولة فهي حالة من يعقل ، فلذلك عبَّر عنها بـ [أُولَئِكَ] ، وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى : ﴿رَأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِينَ﴾(١) : إنه إنما قال : [رَأَيْتُهُمْ] في نجوم لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبَّر عنها بكناية من يعقل . وحكى الزجاج أن العرب تعبِّر عما يعقل وعما لا يعقل بالإدراك ، وأنشد هو والطبري :

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْـدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... والْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّـامِ (٢)

فأَمَّا حكايةُ أَبي إسحق عن اللغة فأَمْرٌ يوقف عنده ، وأَمَّا البيت فالرواية «الأَقوام» . والضمير في [عَنْهُ] يعود على ما ليس للإنسان به علم ، ويكون المعنى : إن الله تعالى يسأَل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به ، فيقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخِزْي. ويحتمل أَن يعود الضمير في [عَنْهُ] على [كُلٌّ] التي هي للسمع والبصر والفؤاد ، والمعنى : إن الله تعالى يسأَل الإنسان عما حواه

---

(١) من الآية (٤) من سورة (يوسف) .

(٢) هذا البيت لجرير ، قاله من قصيدة يجيب بها الفرزدق ، ومطلعها :

سَرَتِ الْهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَـامِ ... وَأَخُو الْهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَـرَامِ

والشاهد فيه عند الزجاج والطبري هو الإشارة إلى الأيام بأُولئك ، وابن عطية يقول : إن الرواية هي الأقوام بدلا من الأيام ، وعلى هذا فلا شاهد في البيت .

سمعه وبصره وفؤاده ، فكأنه قال : كل هذه كان الإنسان عنه مسئولاً ، أي عمّا حصل لهؤلاء من الإدراكات ، ووقع منها من الخطايا ، فالتقدير : «عن أعمالها مسئولاً» ، فهو على حذف مضاف .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [مَرَحاً] بفتح الراءِ ، مصدرٌ من : مَرِحَ يَمْرَحُ إذا تبختر مسروراً بدنياه مقبلاً على راحته ، فهذا هو ٱلْمَرَحُ ، فَنُهِيَ الإنسانُ في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه ، ثم قيل له : إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك ، ولن تبلغ أطوال الجبال فتنالها طولاً ، فإذا كنت لا تستوي في الأرض بمشيك فقصرُكَ نفسك على ما يوجبه الحقُّ من المشي والتّصرف أوْلى وأحق . وخوطب النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية والمراد الناسُ كلهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية ، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه فيجمُّ فيها نفسه في التفرج والراحة ليستعين بذلك على شغل من البِرِّ كقراءة عِلْم أو صلاةٍ ، فليس ذلك بداخل في هذه الآية .
وقرأت فرقة – فيما حكى يعقوب – : [مَرِحاً] بكسر الراء على بناء اسم الفاعل ، وهذا المعنى يترتب على هذه القراءة ، ولكن يحسُنُ معها معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة الأُولى ، وهو بهذه القراءة أَلْيَق ، وهو أن قوله : ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً﴾ أَراد بذلك : أَيها المرح المختال الفخور ، لا تخرق الأَرض ، ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك ، وذهب بالأَلفاظ إلى هذا المعنى ، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح ؛ لأَن الإنسان نُهي حينئذ عن التَّخلُّق بالمرح في كل أَوقاته ؛ إذ المشي في الأَرض يفارقه ، فلم يُنْهَ إلَّا عن أَن يكون مرحاً ، وعلى القراءة الأُخرى إنما نُهِيَ من ليس بمرح عن أَن يمشي في بعض أَوقاته مرَحاً ، فيترتَّب في المرِح – بكسر الراء – أَن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال ،

وخَرْقُ الأَرض : قطعها ، والخرق : الواسع من الأَرض ، ومنه قول الشاعر :

وخَرْقٍ تَجَاوَزْتُ مَجْهُـــولَهُ بِوجْنَاء خرْقٍ تَشَكَّى ٱلْكَلالَا(١)

ويقال لثقب الأَرض : خَرْق ، وليس هذا المعنى في الآية ، ومنه قول رؤْبة بن العجاج :

وقَاتِمُ الْأَعمَــاقِ خَاوي المُخْتَــرقْ (٢)

وقرأ الجراحُ ، والأَعرابي : ﴿لَنْ تَخْرُقَ ٱلْأَرْضَ﴾ بضم الراءِ ، قال أبو حاتم : لا تُعرف هذه اللغة .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وأَبو جعفر ، والأَعرج : [سَيِّئَةً] ،

---

(١) الخَرْقُ : الأرض البعيدة ، مستوية كانت أو غير مستوية ، وقيل : هي الفلاة الواسعة ، سميت بذلك لانخراق الريح فيها ، وأراد هنا المكان من الأرض الذي تنطبق عليه هذه الصفات . وتَجَاوَزَهُ : قَطَعَه ومَرَّ منه سالماً ، وناقَةٌ وجناءُ : تامة الخَلْق ، غليظة لحم الوجنة صُلْبة شديدة ، أو هي : العظيمة الوجنتين . والناقة الخرقاءُ : التي يقع منسمها بالأرض قبل خفها ، أو لا تتعهد مواضع قوائمها . والكلال : التعب ، يقول : إنه قطع هذا المكان الواسع من الأرض بهذه الناقة الوجناء التي تضرب في الأرض بسرعة وتشتكي التعب والكلال .

(٢) هذا مطلع قصيدة قالها رؤبة في وصف المفازة ، وفيها يقول :

وقاتِمِ الأعْمَاقِ خَاوي المخْتَــرَقْ مُشْتَبِهِ الأعْلامِ لمَّاعِ الْخَفَقْ

وهي قصيدة طويلة محبوكة ، وقد أكثر اللغويون من الاستشهاد بأبياتها . وقاتم الأعماق : واد مظلم الجوانب لما فيه من غبار كثيف ثائر يكاد يحجب الرؤية . والخاوي : الخالي ، والمُخْتَرَق : الممر والمقطع . وهذا هو موضع الشاهد ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على ذلك ، قال بعد أن روى البيت : «أي : المقطع» . والأعلام : العلامات التي يهتدي بها المسافرون في الصحراء الواسعة ، يقول : إنها متشابهة لا تساعد المسافر على معرفة الطــريق .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، ومسروق : [سَيِّئُهُ] على إضافة (سَيِّئ) إلى الضمير ، والإشارة – على القراءة الأُولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه ، كقول : أُفٍّ ، وقَذْف الناس ، والمرح ، وغير ذلك ، والإشارة – على القراءة الثانية – إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من بِرٍّ ومَعْصية ، ثم اختصَّ ذكر السَّيِّئ منه بأنه مكروه عند الله تعالى ، فأمَّا من قرأ : [سَيِّئُهُ] بالإضافة إلى الضمير فإعرابُ قراءته بيِّنٌ ، و [سَيِّئُ] اسم [كَانَ] ، و [مَكْرُوهاً] خبرُه ، وأما من قرأ : [سَيِّئَةً] فهي الخبر لـ [كَانَ] (١) . واختلف الناس في إعراب [مَكْرُوهاً] – فقالت فرقة : هو خبرٌ ثان لـ [كَانَ] حمله على لفظ [كُلُّ] ، و [سَيِّئَةً] محمول على المعنى في جميع هذه الأشياءِ المذكورة قبْلُ ، وقال بعضهم : هو نعتٌ لـ [سَيِّئَةً] ، لأنه لما كان تأْنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وضعَّفه أبو علي الفارسي ، وقال : إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفْقه ، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى

(١) قال الزمخشري : « السَّيِّئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب ، والاسم زال عنه حُكْم الصفات ، فلا اعتبار بتأنيثه ، ولا فرق بين من قرأ : [سَيِّئَةً] ومن قرأ : [سَيِّئاً] ، ألا تراك تقول : الزِّنى سيئة ، كما تقول : السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث » . وهذا تخريج جيد .

المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكَّر ، ألا ترى أن قول الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَـــا وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَـــا (١)

مُسْتَقْبَح عندهم ؟ ولو قال قائل : أَبْقَلَ أَرْضٌ لم يكن قبيحاً . قال أَبو عليٍّ : ولكن يجوز في قوله تعالى : [مَكْرُوهًا] أن يكون بدلًا من قوله : [سَيِّئَةً] ، قال : ويجوز أَن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله : ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ، ويكون قوله : ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في موضع الصفة لـ [سَيِّئَةً] . وقرأ عبد الله بن مسعود : «كَانَ سَيِّئَاتُهُ» ، وروي «كان سَيِّئَاتُ» بغير هاءٍ ، ورُوي عنه «كَانَ خَبِيثُهُ» . وذهب الطبري إلى أَن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، وليس ذلك بالبَيِّن .

---

(١) البيت لعامر بن جُوَيْن الطائي ، وهو في الخزانة ، والكتاب ، وابن يعيش ، وهمع الهوامع ، والعيني ، والمغني ، وابن الشجري ، يصف أرضاً بالخصب لكثرة الغيث ، والمُزْنة : واحدة المُزْن وهو السحاب يحمل الماءَ ، والوَدْق : المطر ، وأبْقَلَت : أخرجت البقل ، وهو ما ليس بشجر من النبات ، والبيت شاهد عند النحويين على حذف التاء من (أبْقَلَتْ) لضرورة الشعر ، ويُسوِّغ ذلك أن الأرض بمعنى المكان . وقد يُعَبَّر عن ذلك بأنه تذكير الصفة للمؤنث حملا على المعنى للضرورة . وهو قبيح كما قال أبو علي . وهناك تخريجات كثيرة للبيت غير ما أشرنا إليه . وعامر بن جُوَيْن هذا واحد من الخُلَعَاءِ الفُتَّاك ، وقد تبرأ قومه من جرائره ، وقد نزل به امرؤ القيس . وقد قُتل حين غزت كلبٌ بني جَرْم فجعل بعض فرسانها يدفعونه ، فقال لهم : لا يكن لعامر بن جُوَيْن الهوانُ ، فقالوا : وإنك لَهُوَ ؟ قال : نعم ، فذبحوه ومضوا ، وجاء ابنه واسمه الأسود بن عامر وتتبعهم وأخذ منهم ثمانية ، وقتلهم واحداً واحد أخذاً بثأر أبيه .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية . الإشـارة بـ [ذَلِكَ] إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآياتُ المتقدمة ، أي : هذه من الأفعال المُحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده وخلقه لهم محاسن الأخـلاق . و «الحكمة» : قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة ، ثم عطف قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ على ما تقدم من النواهي . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر ، و «الْمَدْحُورُ» : الْمُهَانُ الْمُبْعَد .

وقوله تعالى : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ الآية ، خطاب للعرب التي كانت تقول : الملائكة بناتُ الله ، فَقَرَّرَهم الله تعالى على هذه الحجة ، أي : أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل ولله البنات ؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قلوبهم عظّم الله عليهم فساد ما يقولونه وشُنعته ، ومعناه : عظيماً في المنكر والوخامة . و [أَصْفَاكُمْ] معناه : جعلكم أصحاب الصفوة . وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال : نزلت هذه الآية في اليهـود لأنهم قالوا هذه المقالة ، من أن الملائكة بنات الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [صَرَّفْنَا] بتشديد الراءِ ، على معنى : صرفنا فيه الحِكَم والمواعظ . وقرأ الحسن : [صَرَفْنَا] بتخفيف الراءِ ، على معنى : صَرَفنا فيه الناس إلى الهدى بالدعاءِ إلى الله ، وقال بعض من شَدَّد الراءَ : إن قوله : [في] زائد ، والتقدير : صَرَّفْنَا هذا القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف .

وقرأ الجمهور : [لِيَذَّكَّرُوا] ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [لِيَذْكُرُوا] بسكون الذَّال وضم الكاف ، وهي قراءَة طلحة ، ويحيى ، والأَعمش . وما في ضمن الآية من ترجٍّ وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا .

و «النُّفُورُ» عبارة عن شِدَّة الإِعراض ، تشبيهاً بنفور الدَّابة ، وهو في هذه الآية مصدرٌ لا غير .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورُوي أَن في الإِنجيل في معنى هذه الآية : «يا بني إِسرائيل ، شوَّقناكم فلم تشتاقوا ، ونُحْنَا لكم فلم تبكوا» .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ الآية ، إِخبار بالحجة . واختلف الناس في معنى قوله : ﴿لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ — فحكى الطبري وغيره من المفسرين أَن معناه : لَطَلَبَ هؤلاءِ الآلِهَة الزُّلْفَى إِلَى ذي الْعرش ، والقُرْبة إِليه بطاعته ، فيكون «السَّبِيلُ» — على هذا التأْويل — بمعناها في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(١) ، وقال سعيد بن جُبَيْر ، وأَبو علي الفارسي ، والنقاش — وقاله المتكلِّمون ، أَبو منصور وغيره — : إِن معنى الكلام : لابْتَغَوْا إِليه سبيلاً في إِفساد مُلْكِهِ ومُضَاهاته في قدرته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا التأْويل تكون الآية بياناً للتمانع ، وجاريةً مع قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢) ، وتَقْتَضِبُ شيئاً

(١) تكررت في الآيتين (١٩) من سورة (المزمّل) ، و (٢٩) من سورة (الإنسان) .
(٢) من الآية (٢٢) من سورة (الأنبياء) .

من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره ، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره : إنَّا لَوْ فَرَضْنَاهُ لَفَرَضْنَا أن يريد أحدهما تسكين جسم ، والآخر تحريكه ، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان ، ومستحيل أَلَّا تنفذا جميعاً ، فيكون الجسم لا متحركاً ولا ساكناً ، فإذا تمت إرادة أحدهما دون الآخر فإن الذي لم تتم إرادته ليس بإله ، فإن قلنا بفرضهما لا يختلفان ، قلنا : اختلافهما جائز غير ممتنع عقلاً ، والجائز في حكم الواقع . ودليلٌ آخر ، لو كان الاثنان لم يمتنع أن يكونوا ثلاثة ، وكذلك إلى مالا نهاية له ، ودليل آخر : إن الجزءَ الذي لا يتجزَّأُ من المخترعات لا تتعلق به إلا قدرة واحدة لا يصح فيها اشتراك ، والآخر كذلك ، والآخر كذلك دأباً ، فكل جزءٍ إنما يخترعه واحد ، وهذه نُبْذَة شَرْحُهَا بحسب التقصي يطول .

وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ الجمهور : ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ بالتاء .

و [سُبْحَانَهُ] مصدرٌ لفعل متروك إظهاره ، فهو بمعنى التنزيه ، فموضعها هنا موضع (تَنَزَّهَ) ، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله : [وَتَعَالَى] . و «التَّعَالي» تفاعلٌ ، أما في المشاهد في الأَجرام فهو من اثنين ؛ لأَن الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل ، فكأَن ذلك يُعاليه وهو

يُعالي ويرتقي ، وأما في جهة الله عزَّ وجلَّ فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيءٍ آخر . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿عَمَّا تَقُولُونَ﴾ بالتاء من فوق . و [عُلُوًّا] مصدرٌ على غير الفعل ، فهو كقوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾(١) ، وهذا كثير .

قوله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآية . المعنى : يُنَزِّهه عن هذه المقالة التي لكم ، والإشراك الذي أَنتم بسبيله ، السمواتُ السبعُ والأَرضُ، ثم أَعاد على السموات والأَرض ضمير من يعقل لمَّا أَسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح ، وقوله : ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمَّ بعد ذلك الأَشياءَ كلَّها في قوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ، أي : يُنَزِّهُ الله ويمجده .

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح ـ فقالت فرقة : هو تجوُّز ، ومعناه أَن كل شيءٍ تبدو فيه صنعة الصانع الدَّالَّة عليه ، فتدعو رؤْية ذلك إلى التسبيح من المُعْتَبِر ، ومن حُجَّة هذا التأْويل قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ﴾(٢) .

وقالت فرقة : قوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ عموم ومعناه الخصوص في كل حيٍّ ونام ، وليس ذلك في الجمادات البحتة ، فمن ذلك

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح) .
(٢) من الآية (١٨) من سورة (ص) .

قول عكرمة : الشجرة تُسَبِّح ، والاسطوانة لا تُسَبِّح . وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان : أَيُسَبِّح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ قال : قد كان يُسبِّح مرة ، يريد أن الشجرة في زمان نموها واعتدالها كانت تسبح ، فمذ صارت خِواناً مدهوناً ونحوه صارت جماداً .

وقالت فرقة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيءٍ على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهونه ، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أَثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً ، والآية تنطق بأَن هذا التسبيح لا يُفْقَـــهُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وينفصل عن هذا الاعتراض بأَن يريد بقوله سبحانه : [لَا تَفْقَهُونَ] الكفار والغَفَلة ، أَي أَنهم يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تبارك وتعالى في الأَشياءِ .

وقال الحسن : بلغني أَن معنى هذه الآية في التوراة ، ذكر فيه أَلف شيءٍ مما يُسبح ، سبحت له السموات ، وسبَّحت له الأَرض ، سبَّح كذا ، سبَّح كذا .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم — في رواية أَبي بكر — وابن عامر : ﴿يُسَبِّح لَهُ﴾ بالياءِ ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم — في رواية حفص — وحمزة والكسائي ، : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاءِ . والقراءتان حسنتان .

وقرأ عبد الله بن مسعود ، وطلحة ، والأعمش : «سَبَّحَتْ لَهُ السَّموات» .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ فيه تنبيه على إملائه لهم ، وصَفْحه عنهم في الدنيا ، وإمهاله لهم ، مع شنيع هذه المقالة ، أي : تقولون قولاً يُنزِّهه عنه كل شيء من المخلوقات ، إنه كان حليماً غفوراً ، فلذلك أمهلكم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

هذه الآية تحتمل معنيين : أحدهما أن الله تعالى أخبر نبيَّه صلى الله عليه وسلم أنه يحميه من الكفرة أهل مكة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد ، ويريدون مدَّ اليد إليه ، وأحوالهم في هذا المعنى مروية مشهورة . والمعنى الآخر أنه تعالى أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرؤُه محمد صلى الله عليه وسلم حجاباً ،

فالآية ـ على هذا التأْويل ـ في معنى التي بعدها ، وعلى التأْويل الأَول هما آيتان لمعنيَيْن .

وقوله : [مَسْتُوراً] أَظهر ما فيه أَن يكون نعتاً للحجاب ، أَي مستوراً على أَعين الخلق ، فلا يدركه أَحد برؤْية كسائر الحُجُب ، وإنما هو من قدرة الله وكفايته أَو إضلاله بحسب التأْويلين المذكورين ، وقيل : التقدير : مستوراً به ، على حذف العائد ، وقال الأَخفش : «مَسْتُور» بمعنى : ساتر ، كَمَشْئُوم وميمون ، بمعنى : شائم ويامن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ـ لغير داعية إليه ـ تكلُّف ، وليس مثاله بمُسَلَّم . وقيل : هو على جهة المبالغة ، كما قالوا : شعرٌ شاعرٌ ، وهذا معترض بأَن المبالغة أَبداً إنما تكون باسم الفاعل ومن اللفظ الأَول ، فلو قال تعالى : «حجاباً حاجباً» لكان التنظير صحيحاً .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية . «الأَكِنَّةُ» : جمع كنان ، وهو ما غطَّى الشيء ، ومنه كنانة النبل ، و «الوَقْرُ» : الثقل في الأُذن المانع من السمع ، فهو الصمم ، وهذه كلها استعاراتٌ للإضلال الذي حفهم الله به ، فعبَّر عن كثرة ذلك وعِظَمه بأَنهم بمثابة من غُطِّي قلبه وصُمَّت أُذنه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ ﴾ الآية ، يريد : إذا جاءَت مواضع التوحيد في القرآن أثناءَ قراءَتك فرَّ كفار مكة من سماع ذلك إنكاراً له واستبشاعاً ، إذ فيه رفْضُ آلهتهم واطراحها . وقال بعض العلماءِ : إنَّ ملأً قريش دخلوا على أَبي طالب يزورونه ، فدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأَ ومرَّ بالتوحيد ، قال : يا معشر قريش : قولوا : «لا إلٰه إلَّا الله» تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم ، فَوَلَّوْا ونفروا ، فنزلت هذه الآية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَن تكون الآية وصف حال الفارِّين عنه في وقت توحيده في قراءَته أَبْيَن وأَجرى مع اللَّفظ .

وقوله تعالى : [نُفُوراً] يصحُّ أَن يكون مصدراً في موضع الحال ، ويصح أَن يكون جمع نافر ، كشاهد وشهود ؛ لأَن فُعولا من أَبنية فاعل في الصفات ، ونصبه على الحال ، أَي : نافرين . وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ، [أَنْ] نصب على المفعول ، أَي : كراهة أَن ، أَو منع أَنْ ، والضمير في [يَفْقَهُوهُ] عائد على القرآن . وحكى الطبريُّ عن فرقة أَنها قالت : إنما عنى بقوله : ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ الشياطين ، وأَنهم يفرون من قراءَة القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يريد أَن المعنى يدل عليهم وإنْ لم يَجْر لهم ذكْرٌ في اللفظ ، وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطانُ له حُصاصٌ) (١) .

قوله تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ الآية . هذا كما تقول : فلان يستمع بحرص وإقبال ، أَو بإعراضٍ وتغافل واستخفاف ، فالضمير في [بِهِ] عائدٌ على [ما] وهي بمعنى (الذي) ، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض ، فكأَنه قال : نعم أَعلم بالاستخفاف والاستهزاءِ الذي يستمعون به ، أَي هو ملازمهم ، يفضح الله بهذه الآية سرَّهم ، والعامل في [إِذْ] الأُولى وفي المعطوف عليها [يَسْتَمِعُونَ] الأُولى ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ وصفهم بالمصدر ، كما قالوا :

(١) أخرجه البخاري في الأذان ، والعمل في الصلاة والسهو ، وبدء الخلق ، وأخرجه مسلم في الصلاة ، والمساجد ، وأخرجه أبو داود ، والدارمي في الصلاة ، والنسائي في الأذان ، والسهو ، ومالك في النداء في موطئه ، وأحمد في مسنده (٢–٣١٣ ، ٤٦٠، ٥ ، ٥٢٢) ، واللفظ هنا لفظ مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والحُصاصُ : شدة العَدْو ، وقيل : هو الضراط ، وإنما ضرط لثقل الأذان عليه ، كما يضرط الحمار من ثقل الحمل ، قاله ابن مالك . وفي رواية أخرى : (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتَّى لا يسمع التأذين ، فإذا قُضي التأذين أقبل . حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر . حتَّى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرءِ ونفسه ، يقول له : اذكر كذا ، واذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل ، حتى يظلَّ الرجل ما يدري كم صلى) . (راجع مُسْلم في الصلاة) .

قوم رضًى وعدْلٌ ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ اجتماعهم في دار الندوة ، ثم انتشرت عنهم .

وقوله تعالى : [مَسْحُوراً] الظاهر فيه أَن يكون من السِّحْر ، فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم وأَقواله الوخيمة برأْيهم بما يكون من المَسْحور الذي قد خبل السِّحْر عقله ، وأَفسد كلامه . وتكون الآية ـ على هذا ـ شبيهة بقول بعضهم : «بِهِ جِنَّةٌ» ونحو هذا ، وقال أَبو عبيدة : [مَسْحُوراً] معناه : ذا سَحْر ، وهي الرئة ، يقال لها : «سَحْر وسُحْر» بضم السِّين ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها : «توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْري ونَحْري» (١) ، ومنه قولهم للجبان : «انْتَفخَ سحْرُه» لأَن الجازع تنتفخ رئته ، فكأَن مقصد الكفار بهذا التشبيه على أَنه بشر ، أَي : ذا رِئَة ، قال : ومن هذا يقال لكل من يأْكل ويشرب من آدمي وغيره : «مَسْحور ومُسحَّر» ، ومنه قول امرئ القيس :

. . . . ونُسْحَر بالطَّعَام وبالشَّـــراب (٢)

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، ولفظه كما في مسند أحمد (٦ــ١٢١) ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : (قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسُه بين سحري ونحري ، قالت : فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً أطيب منها) .

(٢) هذا عجز بيت جعله امرؤ القيس مطلع أبيات يتعجب فيها من صروف الدهر ومن أحوال الزمن معه ، والبيت بتمامه :

=

وقول لبيد :

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فيمَ نَحْنُ فَإِنَّنَـــا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَام المُسَحَّرِ (١)

ومنه : السَّحور ، وهو إلى هذه اللَّفظة أقرب منه إلى السِّحْر ، ويشبه أن يكون من السَّحَر كالصَّبُوح من الصباح ، والآية التي بعد هذا تُقَوِّي أن اللفظة التي في الآية من السِّحْر بكسر السِّين ؛ لأن (......) (٢)

= أرَانا مُوضِعِينَ لأمْرِ غَيْـــبٍ ونُسْحَـــرُ بالطَّعَامِ وَبالشَّـرَابِ

وموضعين : مُسرعين ، وأمر الغيب هو الموت ، ونُسْحَر : نُغَذَّى ، وهو الشاهد هنا ، وقيل : نُسْحَرُ : نَلْهُو ، ومن أبيات هذه القصيدة البيت المشهور :

وقَدْ طوَّفْتُ بالآفَــاقِ حتَّـى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بالإيَــابِ

والبيت في اللسان ، ومجاز القرآن ، والبيان والتبيين ، والحيوان ، وتفسير الطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وأمالي المرتضى . ويروى : (أرَانا مُرْصَدِينَ لأمر غيب) .

يقول : إننا في هذه الدنيا نُسرع إلى شيءٍ رهيب هو الموت ، أو شيءٍ مجهول لا ندري عنه شيئاً ، ونحن نُعلَّل بالطعام وبالشراب عن هذا الشيء المجهول ، أو نعلل باللهو عن الموت ، فكأنه يقول : كيف يستمتع باللهو أو بالطعام والشراب من هو ماضٍ في سرعة نحو هذا المجهول المخيف ؟

(١) البيت من قصيدة له يذكر فيها من فقد من قومه ومن سادات العرب ، ويتأمل في سطوة الموت وضعف الإنسان أمامه ومطلعها :

أعَاذِلَ قُومي فاعْذُلِي الآنَ أوْ دَعِـي فَلَسْتُ وإنْ أقْصَرْتِ عَنِّي بِمُقْصِرِ

وعصافير معناها : ضعاف لا حول لنا ولا قوة أمام الموت وجبروته ، والمُسَحَّر : الذي يُعَلَّل بالطعام والشَّرَاب ، والأنام : جميع ما على الأرض من الخلق . والبيت في فكرته كبيت امرئ القيس السابق ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ من هذا المعنى . والبيت كذلك في اللسان ، ومجاز القرآن ، والبيان والتبيين ، والحيوان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط .

(٢) في جميع الأصول يوجد بياض بين قوله : لأن ، وقوله : حينئذ . وقد نقل أبو حيان في البحر المحيط هذه العبارة كاملة عن ابن عطية ، وفيه أيضاً إشارة إلى هذا البياض في الأصول ؛ والأقرب أن تكون الكلمة الساقطة من الجملة هي « مَسْحُوراً » .

حينئذ في قولهم ضَرْبُ مثل له ، وأما على أنها من السَّحْر الذي هو الرِّئة ، ومن التَّغذِّي ، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر ، فلم يُضرب له في ذلك مثل ، بل هو صفة حقيقية له .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾

ضَرْبُ المثل له هو قولهم : مسحور ، ساحر ، مجنون ، متكهن ؛ لأنه لم يكن عندهم مُتَيَقَّناً بأحد هذه ، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه ، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب الأُمور على تخيُّل الطارئين عليهم هو أنه ساحر ، ثم حكم الله تبارك وتعالى عليهم بالضلال .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ يحتمل معنيَيْن : أحدهما : لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المُؤَدِّي إلى الإيمان ، فتجري الآيةُ

مجرى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ (١) ونحو هذا . والآخر : لا يستطيعون سبيلاً إلى إفساد أمرك ، وإطفاء نور الله بِضرْبهم الأَمثال لك ، واتباعهم كل حيلةٍ (٢) في جهتك .

وحكى الطبري أَن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأَصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ﴾ الآية . هذه الآية في إنكارهم البعث ، وهذا منهم تعجُّبٌ وإنكارٌ واستبعادٌ . و « الرُّفَاتُ » من الأَشياءِ : ما مرَّ عليه الزَّمن حتى بلغ به غاية البِلَى ، وقرَّبَه من حالة التراب ، يقال : رُفِتَ رَفْتاً فهو مَرْفُوتٌ (٣) ، وفُعَالٌ بناءٌ لهذا المعنى ، كالحُطَامِ والفُتَات والرُّضاض والدُّقاق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [رُفَاتاً] : غباراً ، وقال مجاهد : تراباً .

واختلف القراءُ في هذين الاستفهامين ، فقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : ﴿ أَئِذَا ، أَئِنَّا ﴾ جميعاً بالاستفهام ، غير أَن أَبا عمروٍ يَمُدُّ الهمزة ثم يأْتي بالياءِ ساكنة ، وابن كثير يأْتي بياءٍ ساكنة بعد الهمزة من

---

(١) في الآية (٤٦) من هذه السورة ، وهي قبل هذا بقليل .
(٢) في بعض النسخ : « واتباعهم كلَّ خليقة » .
(٣) في اللسان (رَفَتَ) : « وَرَفَتَ العظمُ يَرْفِتُ رَفْتاً : صار رُفَاتاً ، وفي حديث ابن الزبير لما أراد هدم الكعبة وبناءها بالورس ، قيل له : إنَّ الوَرْسَ يَتَفَتَّتُ ويَصير رُفَاتاً » .

غير مَدٍّ . وقرأ نافع في الأُولى مثل أَبي عمرٍو ، واختلف عنه في المَدِّ ، وقرأ الثانية : [إِنَّا] مكسورة على الخبر ، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأَول من الثاني ، غير أنه كان يهمز بهمزتين ، وقرأ عاصم ، وحمزة : ﴿أَئِذَا كُنَّا ... أَئِنَّا﴾ بهمزتين فيهما ، وقرأ ابن عامر : ﴿إِذَا كُنَّا﴾ مكسورة الأَلف من غير استفهام [آئِنَّا] يهمز ثم يمد ثم يهمز ، وروي عنه مثل قراءة حمزة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي سورة الرعد توجيه هذه القراءات (١) .

و «جَدِيدٌ» صفة لما قرب حدوثه من الأَشياءِ ، وهكذا يوصف به المذكر والمؤنث ، فيقال : ملحفة جديد ، وقولهم : جديدة لغة ضعيفة ، كذا قال سيبويه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ...﴾ الآية . المعنى : قل لهم يا محمد : كونوا إِن استطعتم هذه الأَشياءَ الصعبة الممتنعة التَّأَتِّي لابُدَّ من بعثكم ، وقوله : [كُونُوا] هو الذي يُسَمِّيه المتكلمون التعجيز ، من أَنواع لفظة : افْعَل ، وبهذه الآية مَثَّل بعضهم ، وفي هذا عندي نظر ، وإِنما التعجيز حيث يقضي بالأَمر فعلُ مالا يقدر عليه المخاطَب ،

(١) راجع الجزء الثامن صفحة ١٢١ ، ١٢٢ .

كقوله تعالى : ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾(١) ونحوه ، وأما هذه الآية فمعناها : كونوا بالتوهُّم والتقدير كذا وكذا ، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم . وقال مجاهد : أراد بالخلق الذي يكبر في الصدور السموات والأَرض والجبال . وقال ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والحسن ، وابن جبير ، والضحاك : أراد الموتَ ، وقال قتادة ومجاهد : بل أَحال على فطرتهم عموماً ، ورجَّحه الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا هو الأَصح ؛ لأَنه بدأ بشيءٍ صلب ، ثم تدرج القول إلى أقوى منه ، ثم أَحال على فِطْرَتهم إنْ شاءَ ، وفي أَشَدَّ من الحديد فلا وجه للتخصيص بشيءٍ دون شيءٍ . ثم احتجَّ عليهم عزَّ وجلَّ في الإِعادة بالفطرة الأُولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب ، وكذلك يعيدهم إذا شاءَ ، لا رَبَّ غيره . وقوله : [فَسَيُنْغِضُونَ] معناه : يرفعون ويخفضون على جهة التكذيب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : والاستهزاءِ . قال الزجاج : تحريك من يُبطل الشيءَ ويستبطئه ، ومنه قول الشاعر :

أَنْغضَ نحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَـــا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَـــا (٢)

---

(١) من الآية (١٦٨) من سورة (آل عمران) .

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الرجز على أن (أَنْغَضَ) بمعنى : حرَّك رأسه حركة من يُبطل الشيءَ ويستَبْطِئُه ، قال الفراءُ : « أَنْغَضَ رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل » . وفي اللسان : =

ويقال : نَغَضَت السِّنُّ إذا تحركت ، وقال ذو الرُّمَّة :

ظَعَائِنُ لمْ يَسْكُنَّ أَكْنَافَ قَرْيَـةٍ ... بِسِيف ولَمْ تَنْغُضْ بِهِنَّ الْقَنَاطِرُ (١)

وقال الطبري ، وابن سلام : و [عَسى] من الله واجبة ، فالمعنى : وهو قَرِيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه إنما هي من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها بأمر الله تعالى له ، فيقربها ذلك من الوجوب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (بعثت أنا والساعة كهاتين) (٢) ، وفي ضمن اللفظة توعُّدٌ لهم .

=« الرأسُ ينغُض ويَنْغِضُ ، لغتان » ، وأقْنَعَا : رفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء مع شخوص البصر نحو الشيء لا يصرفه عنه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ . يصفه في البيتين بأنه حرَّك رأسه حركة من لا يقبل الشيء ، وشخص ببصره نحو السماء لا يصرفه كأنه رأى شيئاً طمع فيه .

(١) الظَّعائن : جمع ظعينة ، والظعينة في الأصل : الجمل يُظعن عليه ، أو الهودج ، ثم قيل للمرأة في الهودج : ظعينة ، سُمِّيت بذلك على حَدِّ تسمية الشيء باسم الشيء لقربه منه . والأكناف : جمع كَنَف وهو ناحية الشيء ، فأكناف القرية : نواحيها ، والسِّيفُ : ساحل البحر ، وقال ابن الأعرابي : الموضع النقيُّ من الماء ، وفي حديث جابر : (فأتينا سِيفَ البحر) أي : ساحله . وقد استشهد في اللسان (نَغَضَ) بالجزء الأخير من البيت ، قال : « وكلُّ حركة في ارتجاف نَغْضٌ ، يقال : نَغَضَ رحلُ البَعير وثَنِيَّةُ الغلام نَغْضاً ونَغَضاناً ، قال ذو الرمة : ولم تَنْغُض بِهِنَّ القَنَاطِرُ » .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه الإمام أحمد أيضاً في مسنده ، والبخاري ، ومسلم ، عن سهل بن سعد ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في الجامع الصغير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

[يَوْمَ] بدل من قوله تعالى : [قَرِيباً] ، ويظهر أَن يكون المعنى : هو يوم ، جواباً لقولهم : ﴿مَتَى هُوَ﴾ ، ويريد : يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصُّور لقيام الساعة . وقوله : [فَتَسْتَجِيبُونَ] أَي : بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة ، وقوله : [بِحَمْدِهِ] ، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : معناه : بـأَمرِه ، وكذلك قال ابن جريج ، وقال قتادة : معناه : بطاعته ومعرفته .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ ، ولا شك أَن جميع ذلك بـأَمر الله تعالى ، وإنما معنى [بحَمْده] : إمَّا أَن جميع العالمين ـ كما قال

ابن جبير - يقومون وهم يحمدون الله تعالى ويُمَجِّدُونه لما يظهر لهم من قدرته ، وإمَّا أن قوله : [بِحَمْدِهِ] هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أَو حاورته في علم : قد أخطأْت بحمد الله (١)، وكأَن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم في هذه الآيات : «عسَى أن الساعة قريبة يوم تُدعون فتقومون ، بخلاف ما تعتقدون الآن ، وذلك بحمد الله تعالى على صدق خبري» ، نحا هذا النحو الطبري ، ولم يُلخِّصهُ.

وقوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا قَلِيلاً﴾ يحتمل معنيين : أَحدهما أنه أخبر أَنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة وتصرف الأَجساد، وقع لهم ظن أَنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلَّا قليلاً ، لمغيب علم مقدار الزمن عنهم ؛ إذْ مَنْ في الآخرة لا يقدر زمن الدنيا ؛ إذْ هم لا محالة أَشدُّ مفارقة لها من النائمين ، وعلى هذا التأْويل عوَّل الطبري ،

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي توضيحاً لهذا : «إن قولك : بحمد الله» ليس حالاً من فاعل «أخطأتُ» ، بل المعنى : أخطأت والحمد لله ، وهذا معنى مُتَكَلَّف نحا إليه الطبري ، وكأن «بحمده» يكون اعتراضاً ، إذ معناه : والحمد لله ، ونظيره قول الشاعر :

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ ، ولا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

أي : فإني - والحمد لله - ، فهذا اعتراض بين اسم إنَّ وخبرها ، كما أن - بحمده - اعتراض بين المتعاطفين ...

ثم اعترض على تعبير لابن عطية فقال : «ووقع في لفظ ابن عطية حين قرر هذا المعنى قوله : (عسى أن الساعة قريبة) ، وهو تركيب لا يجوز ، لا تقول : عسى أن زيداً قائم ، بخلاف : عسى أن يقوم زيد» .

واحتج بقوله تعالى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (١) . والمعنى الآخر أن يكون الظن بمعنى اليقين ، فكأنه قال لهم : يومَ تُدعون فتستجيبون بحمد الله ، وتَتَيَقَّنُونَ أنكم إنما لبثتم قليلاً ، من حيث هو مُنْقَضٍ مُنْحَسِر ، وهذا كما يقال في الدنيا بأَسْرِهَا : متاع قليل ، فكأنه قلة قدر ، على أن الظَنَّ بمعنى اليقين يقلق ها هنا ؛ لأنه شيءٌ قد وقع . وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرج بعد إلى الكون والوجود ، وفي الكلام تقوية للبعث كأنه يقول : أيها المكذِّب بالحشر الذي تعتقد أنك لا تبعث أبداً لا بُدَّ لك أن تُدْعَى للبعث فتقوم وترى أنك إنما لبثت قليلا مُنْقَضِياً متصرماً ، وحكى الطبري عن قتادة أنهم لمَّا رأوا هول يوم القيامة احتقروا الدنيا فظنوا أنهم لبثوا فيها قليلاً .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . اختلف النحويون في قوله سبحانه : [يَقُولُوا] ، فمذهب سيبويه أنها جواب شرط مقدر ، تقديره : «وقل لعبادي ، إنك إن تقل لهم يقولوا» ، وهذا على أصله في أن الأمر لا يُجاب ، وإنما يجاب معه شرط مقدر ، ومذهب الأخفش أن الأمر يُجاب ، وأن قوله تعالى ها هنا : [يَقُولُوا] إنما هو جواب [قُلْ] .

(١) من الآيتين (١١٢ ، ١١٣) من سورة (المؤمنون) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل «قُلْ» مختصة بهذه الألفاظ ، على معنى أن يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم : «قُولوا التي هي أحسن» ، وإنما يصحُّ بأن يكون [قُلْ] أَمْراً بالمحاورة في هذا المعنى بما أَمكن من ألفاظٍ ، كأَنه قال : «بيِّنْ لعبادي» ، فيكون ثمرة ذلك القول والبيان قولُهم التي هي أَحسن ، وهذا المعنى يُجَوِّزُه مذهب سيبويه الذي قدمنا . ومذهب أَبي العباس أَنَّ [يَقُولُوا] جوابٌ لأَمر محذوف ، تقديره : «وقُلْ لعبادي قولوا التي هي أَحسن يقولوا» فحذف وطُوي الكلامُ . ومذهب الزجاج أن [يَقُولُوا] جزم بالأَمر ، بتقدير : «قُلْ لعبادي يقولوا» ، فحذفت اللام لتقدير الأَمر ، وحكى أَبو علي في «الحليتان» في تضاعيف كلامه أَن مذهب أَبي عثمان المازني في [يَقُولُوا] أَنه فعلٌ مبني ؛ لأَنه مضارعٌ حلَّ محل المبني الذي هو فعل الأَمر ؛ لأَن المعنى : «قلْ لعبادي : قولوا» (١) .

واختلف الناس في ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ - فقالت فرقة : هي «لا إِلٰه إِلَّا الله» ، ويلزم - على هذا - أَن يكون قوله تعالى : [لِعِبَادِي]

---

(١) هذه الأقوال كلُّها جرت في قوله تعالى : ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ .

يريد به جميع الخلْق ؛ لأَن جميعهم مدعُوٌّ إلى «لا إلٰه إلَّا الله» ، ويجيءُ قوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ غير مناسب للمعنى إلَّا على تكرُّه ، بأَن يجعل [بَيْنَهُمْ] بمعنى «خلالهم وأثناءَهم» ، ويُجعل «النَّزْغُ» بمعنى الوسوسة والإضلال . وقال الجمهور : التي هي أَحسن هي المحاورة الحسنى ، بحسب المعنى معنى ، قال الحسن : «يقول : يغفر الله لك ، يرحمك الله» .

وقوله تعالى : [لِعِبَادِي] خاصٌّ بالمؤمنين ، فكأَن الآية بمعنى قوله صلى الله عليه وسلم : (وكونوا عباد الله إخواناً)(١) ، ثم اختلفوا — فقالت فرقة : أَمر الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأَدب ، وخفْض الجناح ، وإلَانَةِ القول ، واطِّراح نزغات الشيطان . وقالت فرقة : إنما أَمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية المؤمنين بإلانَةِ القول للمشركين بمكة أَيام المهادنة .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح والفرائض والأدب ، ومسلم في البرّ ، وأبو داود في الأدب ، وابن ماجه في الأطعمة والدعاء ، ومالك في موطئه في حسن الخلق ، وأحمد في مسنده (١-٣ ، ٥ ، ٧ - ٢-١٥٦) ، ولفظه في البخاري في الأدب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إيَّاكُم والظنَّ فإن الظنَّ أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً) . والتَّنَاجُش في البيع ونحوه هو التزايد في تقدير الأشياء إغراءً وتمويهاً .

وسبب الآية أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة ، فسبَّه عمر وهمَّ بقتله ، فكاد أن يثير فتنة ، فنزلت الآية ، وهي منسوخة بآية السيف(١) .

وقرأ الجمهور : [يَنْزَغُ] بفتح الزاي ، وقرأ طلحة بن مصرف : [يَنْزِغُ] بكسر الزاي ، على الأَصل ، قال أَبو حاتم : «لعلَّها لغةٌ ، والقراءَةُ بالفتح» . ومعنى النَّزغ حركة الشيطان بسرعة ليوجب فساداً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يُشِرْ أَحدكم على أخيه بالسِّلاح لا ينزغ الشيطان في يده) (٢) ، فهذا يخرج اللفظة عن الوسوسة ، وعداوةُ الشيطان البيِّنةُ هي من قصته مع آدم عليه السلام فيما بعد .

قوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية . هذه الآية تُقَوِّي أن التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة ، وذلك أن هذه المخاطبة في قوله سبحانه ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ هي لكفار مكة ، بدليل قوله

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ، وذكر سبباً آخر نقله عن الكلبي ، ونقله أيضاً القرطبي ، قال الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، فشكوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وفي القرطبي أن المسلمين قالوا: «إئذَنْ لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤُهم لنا» ، فقال : (لم أُومر بعد بالقتال)

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يُشيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعلَّ الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من نار) .

تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ ، فكأَن الله عزَّ وجلَّ أَمر المؤمنين أَلا يخاشنوا الكفار في الدين ، ثم قال للكفار : إنه أَعلم بهم ، ورَجَّاهم وخَوَّفهم ، ومعنى [يَرْحَمْكُمْ] بالتوبة عليكم من الكفر ، قاله ابن جريج وغيره . ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم : فإنما عليك البلاغ ، ولست بوكيل على إيمانهم ولابد ، فتتناسب الآيات بهذا التأْويل .

ثم قال تبارك وتعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام : ربُّكَ أَعلم بمن في السموات والأَرض ، وهو الذي فضل بعض الأَنبياءِ على بعض بحسب علمه فيهم ، فهذه إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلى استبعاد قريش أَن يكون الرسول بشراً ، والمعنى : لا تُنكروا أَمر محمد وأَن أُوتي قرآناً ، فقد فُضِّل النَّبِيُّون ، وأُوتي داود زبوراً ، فالله أَعلم حيث يجعل رسالاته .

وتفضيل بعض الرسل إمَّا بهذا الإخبار المجمل دون أَن يُسَمَّى المفضول ، وعلى هذا يتَّجه لنا أَن نقول : محمد أَفضل البشر ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن تَعْيِين أَحد منهم في قصة موسى ويونس عليهما السلام ، وإما أَن يكون التفضيل مُقَسَّماً بينهم : أُعطي هذا التكليم ، وأُعطي هذا الخُلَّة ، ومحمدٌ الخَمْس ، وعيسى الإحياءَ ، فكلُّهم مفضولٌ في وجه ، فاضل على الإطلاق .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ ﴾ . الباءُ متعلقة بفعل تقديره : «عَلِم بمن في السموات» ، ذهب إلى هذا أبو عليٍّ ؛ لأَنه لو علَّقها بـ [أَعْلَمُ] لاقتضى أنه ليس بأَعلم بغير ذلك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يلزم ، ويصح تعلقها بـ [أَعْلَمُ] ، ولا يلتفت إلى دليل الخطـــاب (١) .

وقرأَ الجمهور : [زَبُوراً] بفتح الزاي ، وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعول ، وهو قليل ، لم تجئْ إلَّا في قَرُوع ورَكُوب وحَلُوب ، وقرأَ حمزة ، ويحيى ، والأَعمش : [زُبُوراً] بضم الزاي ، وله وجهان : أَحدهما أَن يكون جمع زَبور بحذف الزائد (٢) ، كما قالوا في جمع طَريق: طُرُوق ، والآخر أَن يكون جمع زَبْر (٣) ، كأَن ما جاءَ به داود جُزِّىءَ أَجزاءً ، كلُّ جزءٍ منها زَبْرٌ ، سُمِّي بمصدر زَبَرَ يَزْبُرُ ، ثم جمع تلك الأَجزاءَ على زُبُور ، فكأَنه قال : «آتينا داود كتاباً» ، ويحتمل أَن يكون جمع

---

(١) أيَّد أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) هذا الكلام ، وقال : « وأيضاً فإن (عَلِم) لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى لواحد بنفسه لا بوساطة حرف الجرّ » ، ثم قال : « و [بِمَنْ] متعلق بـ [أَعْلَمُ] كما تعلق [بِكُمْ] قبله بـ [أَعْلَمُ] ، ولا يدل تعلقه به على اختصاص أَعْلَمِيَّته تعالى بما تعلَّق به ، كقولك : « زيد أَعْلَمُ بالنحو » إذ لا يَدُل هذا على أنه ليس أعلم بغير النحو من العلوم » .

(٢) وهو الواو . قال ذلك أبو حيان .

(٣) وهذا مثل فَلْس وفُلُوس

(زَبْر) الذي هو العَقْل وسَدَادُ النَّظَرِ (١)، لأَن داود أُوتي من المواعظ والوصايا كثيراً، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر كتاب مسلم: (وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له) (٢). قال قتادة: زبور داود مواعظ وحِكَم ودعاءٌ، ليس به حلالٌ ولا حرام.

(١) في اللسان (زَبَرَ): «ماله زَبْرٌ، أي: مَالَه رأيٌ، وقيل: ماله عقلٌ وتماسُك».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، ولفظ المسند هو، عن عياض بن حماد أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته: (إن ربِّي عزَّ وجلَّ أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كلُّ مال نَحَلْتُه عبادي حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشياطين فأضَلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكُوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عَجَمِيَّهُم وعَرَبِيَّهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبْتَلِيكَ وأبْتَلِيَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظاناً، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أُحَرِّق قريشاً، فقلت: يا رب إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خبزة، فقال: استَخْرِجهم كما استخرجوك، فاغزُهم نُغْزِك، وأنْفِق عليهم فَسَنُنْفِقْ عليك، وابعث جُنداً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسط متَصدِّق مُوَفَّق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُرْبَى ومُسْلِم، ورجلٌ فقيرٌ عفيفٌ متصدقٌ، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعاً — أو تُبَعَاءَ، شك يحيى — لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى عليه طمع وإن دَقَّ إلاَّ خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلاَّ وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذَكَرَ البُخْلَ والكذبَ والشِّنْظير الفاحش).

ومعنى (لا يغسله الماءُ): محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على ممر الزمان. وأما قوله: (تقرؤه نائماً ويقظاناً) فمعناه: يكون محفوظاً لك في حالتي النوم واليقظة، وقيل: تقرؤه في سهولة ويُسر، وفي رواية مسلم: (نائماً يقظانَ). ومعنى (يَثْلَغُوا): يَشْدَخُوا ويَشْجُّوا. ونُغْزِك: نُعِينُك، ومعنى (لا زَبْرَ له): لا عقل له يَزْبُره ويمنعه مما لا ينبغي. وفي رواية مسلم: (والشِّنْظِير الفَحَّاش). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

الذين أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في هذه الآية ليسوا عبدة الأَصنام ، وإنما هم عبدة من يعقل ، واختلف في ذلك ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي في عبدة العُزَيْر والمسيح وأمه ونحوهم ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وابن مسعود : هي في عبدة الأَوثان والقمر والكواكب وعُزَيْر والمسيح وأُمه وأي ذلك كان . [وقال ابن عباس أيضاً ، وابن مسعود : هي في عبدة الملائكة ، وقال ابن مسعود أيضاً : هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأَسلم أُولئك الشياطين ، وبقي عَبَدَتُهم يعبدونهم ، فنزلت الآية في ذلك] (١) .

(١) ما بين العلامتين [......] سقط في كثير من النسخ ، وبخاصة النسخة التونسية .

فمعنى الآية : قُل لهؤلاءِ الكفرة : ادعوا عند الشدائد والضر هؤلاءِ المعبودين فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم ، ثم أَخبرهم – على قراءَة ابن مسعود ، وقتادة : [تَدْعُونَ] بالتاءِ – ، أَو أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم – على قراءَة الجمهور : [يَدْعُونَ] بالياءِ من تحت – أَن هؤلاءِ المعبودين يطلبون التقرُّب إلى الله والتَّزلُّف إليه ، وأَن هذه حقيقة حالهم ، وقرأَ ابن مسعود : «إلى رَبِّكَ» . والضمير في [رَبِّهِمْ] للمُتَّبِعين أَو للجميع .

و «الْوَسِيلَةُ» هي القربةُ وسبَبُ الوصول إلى البُغية ، وتوسَّلُ الرجلُ إذا طلب الدُّنُوَّ والنيل لأَمر مَّا ، وقال عنترة :

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إلَيْكِ وسِيلةٌ . . . . (١)

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سأَل الله لي الوسيلة...

---

(١) كان لعنترة امرأةٌ من بَجيلة لا تزال تذكر خَيْلَه وتلومه في فرس كان يحبه ويؤثره على خيله ويسقيه ألبان إبله ، فقال أبياتاً ينهاها فيها عن لومه ، وفي مطلعها يقول :

لا تذْكُرِي مُهْرِي ومَا أَطْعَمْتُهُ ... فَيَكُونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأجْرَبِ

ثم يقول لها هذا البيت ، وهو بتمامه وبعده بيت آخر :

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إلَيْكِ وَسِيلَةٌ ... إنْ يَأخُذُوكِ تَكَحَّلِي وتَخَضَّبِي

ويكونُ مَرْكَبَكِ القَعُودُ ورَحْلُهُ ... وابْنُ النَّعامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

القعود : ما اتَّخذه الراعي من الإبل للركوب ، وابن النعامة : صدر القدم ، يقول لها : لا تذكري مهري بسوءٍ وإلاَّ نفرتُ منك كما ينفر الإنسان من الأجرب . إذا أسَرَكِ الرجال أركبوك على القعود ، أمَّا أنا فإذا أسروني مشيتُ على الأقدام .

الحديث) (١) . و [أَيُّهُمْ] ابتداءٌ ، و[أَقْرَبُ] خبره ، و [أُولئك] يراد به المعبودون . وهو ابتداءٌ خبره [يَبْتَغُونَ] ، والضمير في [يَدْعُونَ] للكفار ، وفي [يَبْتَغُونَ] للمعبودين ، والتقدير : نظرهم وَوُكْدُهُمْ (٢) أَيُّهم أَقرب ، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الرَّاية بخيبر : «فبات الناس يَدُوكُونَ أَيُّهم يُعطاها» (٣) ،

---

(١) أخرجه مسلم ، وأبو داود في الصلاة ، والترمذي في المناقب ، والنسائي في الأذان ، وأحمد في مسنده (٢–١٦٨) ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليَّ ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة) . ومعنى (حلَّت) : وجبت ، وهي من الحلول بمعنى النزول ، لا من الحلِّ ، لأنها لم تكن محرَّمة حتى تَحِلَّ ، والمراد : استحق شفاعتي مجازاة لدعائه .

(٢) الوُكْدُ – بضم الواو – : السَّعْيُ والجهد ، والوَكْد – بضم الواو وفتحها – : القَصْد والمرادُ والهَمُّ .

(٣) أخرجه الشيخان : البخاري ومسلم في فضائل الصحابة ، وأخرجه أحمد في المسند (٥–٣٣٣) . والحديث عن سهل بن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : (لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه ، يحبُّ اللهَ ورسوله ويحبه اللهُ ورسولُه) ، قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ قال : فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : (أين علي بن أبي طالب) ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : (فأرسلوا إليه فأُتي به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبَرَأَ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ... الخ الحديث) . وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : (لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) ، قال عمر بن الخطاب : ما أحببت الإمارة إلاَّ يومئذ ... الخ الحديث .

أي : يتبارون في طلب القرب ، وطفَّف الزجاج في هذا الموضع فتأمله . وقال ابن فُورك ، وغيره : إن الكلام من قوله تبارك وتعالى : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ راجع إلى النَّبِيِّين المتقدم ذكرهم ، و [يَدْعُونَ] – على هذا – من الدعاءِ بمعنى الطلبة إلى الله تعالى ، والضمائر لهم في [يَدْعُونَ] وفي [يَبْتَغُونَ] . وباقي الآية بَيِّنٌ .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ الآية . أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلَّا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناءِ ، وهذا مع السلامة وأخذها جزءًا جزءًا ، أو هي معذبة مأْخوذة مرة واحدة ، فهذا عموم في كل مدينة ، و [مِنْ] لبيان الجنس[1] ، وقيل : المراد الخصوص ، [والتقدير :] وإن مِنْ قَرية ظالمة[2] . وحكى النقاش أنه وُجد في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراءُ البلاد المعروفة اليوم ، وذكر لهلاك كل قطر منها صفة ، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه ، فذكر فيه أن هلاك الأَندلس وخرابها

---

(١) علَّق أبو حيان على كلام ابن عطية هذا بقوله : «والَّتي لبيان الجنس – على قول من يثبت لها هذا المعنى – هو أن يتقدم قبل ذلك ما يفهم منه إبهامٌ ما ، فتأتي [مِنْ] لبيان الجنس، أي بيان ما أُريد بذلك الذي فيه إبهامٌ ما ، كقوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ . وهنا لم يتقدم شيءٌ مبهم تكون [مِنْ] فيه بياناً له ، ولعلَّ قوله : «لبيانِ الجنسِ» من الناسخ ، ويكون ابن عطية قد قال : «لاستغراق الجنس» ، ألا ترى أنه قال بعد ذلك : «وقيل المراد الخصوص» ؟ اهـ بتصرف .

(٢) يُقَوِّي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَى إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ . وما بين العلامتين [......] زيادة لتوضيح المعنى وسلامة العبارة .

يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها ، وتركْتُ سائرها لعدم الصحة في ذلك ، والمعلوم أن كل قرية تهلك إما من جهة القحوط والخسف غرقاً ، وإمَّا من جهة الفِتن ، أو منهما ، وصور كثيرة لا يعلمها إلَّا الله تعالى ، فأَمَّا ما هلك بالفتنة فمن ظُلْم ولا بُدَّ ، إمَّا في كفرٍ أو معاص أو تقصير في دفاع ، وأما القحط فيصيب الله به من يشاءُ وكذلك الخسف . وقوله تعالى : [مُهْلِكُوهَا] الضمير لها وفي ضمن ذلك الأهل . وقوله : ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ هو على حذف مضاف ، فإنه لا يعذب إلَّا الأهل . وقوله سبحانه : ﴿فِي ٱلْكِتَابِ﴾ يريد : في سابق القضاءِ وما خطَّه القلم في اللوح المحفوظ . و «الْمَسْطُورُ» : المكتوب أَسْطَاراً .

قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية . هذه العبارة في [مَنَعَنَا] هي على ظاهر ما تفهم العرب ، فسمَّى سَبْقَ قضائه بتكذيب من كذَّب وتعذيبه مَنْعاً . و [أَنْ] الأُولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع ، والتقدير : ما مَنَعَنَا الإرسالَ إلَّا التَّكذيبُ .

وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً ، واقترح بعضهم أن يُزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأَرض ، فأَوحى الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم : إن شئت أَفعلُ ذلك لهم ، فإن تـأَخروا عن الإيمان عاجلتهم

العقوبة ، وإن شئت استأْنيت بهم عسى أن أَجْتبي منهم مؤمنين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل تَسْتَأْني بهم يا رب) ، فأَخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المُقْتَرَحة إلَّا الاستيناءُ ؛ إذْ أَنه قد سلفت عادته بمعاجلة الأُمم الذين جاءتهم الآية المُقْتَرَحة فلم يُؤْمنوا . قال الزجاج : أَخبر الله تعالى أن موعد كفار هذه الأُمة الساعة ، لقول سبحانه : ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾(١) ، فهذه الآية تنظر إلى ذلك .

ثم ذكر الله تعالى أَمْر ثمود احتجاجاً إن قال منهم قائل : نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحناها ولا نكفر بوجه ، فذكر الله تعالى ثمود ، بمعنى : لا تأْمنون أن تَظْلِمُوا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقة . وقرأَ الجمهور : [ثَمُودَ] بغير تنوين ، قال هارون : أَهل الكوفة يُنَوِّنون (ثَمُوداً) في كل وجه ، قال أَبو حاتم : لا تُنَوِّنُ العامة والعلماءُ بالقراءات (ثَمُودَ) في وجه من الوجوه ، وفي أَربعة مواطن أَلِفٌ مكتوبة ، ونحن نقرؤُها بغير أَلف .

وقوله تعالى : [مُبْصِرَةً] على جهة النسب ، أَي : معها إبصارٌ ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾(٢) ، أَي : مَعَهَا

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (القمر) .

(٢) من الآية (١٢) من هذه السورة (الإسراء) .

إبصارٌ لمن ينظر ، وهذه عبارة عن بيان أَمرها ووضوح إعجازها . وقرأ قومٌ : [مُبْصَرَةً] بضم الميم وفتح الصاد ، حكاه الزجاج ، ومعناه : مُتبيِّنَةً . وقرأ قتادة : [مَبْصَرَةً] بفتح الميم والصاد ، وهي مَفْعَلَةٌ من البصر ، ومنه قوله عنترة :

. . . . والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ (١)

وقوله تعالى : ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ، أي : وضعوا الفعل غير موضعه ، أي : بعَقْرِها ، وقيل : بالكفر في أَمرها . ثم أَخبر تعالى أَنه إنما يرسل بالآيات غير المُقْتَرَحَة تخويفاً للعباد ، وهي آيات معها إمْهالٌ لا معاجلة فمن ذلك الكسوف والرعد والزَّلزلة وقوس قُزَح وغير ذلك . قال الحسن : والموت الذريع (٢) ، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبد الله بن مسعود فقال : أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فأَعتبوه ، ومن هذا قول

(١) هذا عجز بيت من المعلَّقة ، وهو في اللسان (خبث) ، والبيت بتمامه :

نُبِّئْتُ عَمْراً غَيْرَ شاكِرِ نِعْمَتي ... والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ

ونُبِّئْتُ : أَخْبرتُ وأُعْلِمْتُ ، وهي واحدة من أفعال سبعة تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . والمفعول الأول هنا هو التَّاءُ في (نُبِّئْتُ) أُقيم مقام الفاعل وأُسند الفعل إليه ، والثاني هو (عَمْراً) ، والثالث هو (غَيْرَ شاكِرِ) . يقول : لقد أُعْلِمتُ أن عمراً لا يشكر نعمتي ، وهذا نوع من الكفر يُغَيِّر نفس المنعم وينفرها ويمنعها من الإنعام في المستقبل . والشاهد هو (مَخْبَثَة) فقد جاءت بفتح الميم والباءِ ، فهي صيغة مَفْعَلة ، من الخُبْث ، والمعنى : الكفر مَفْسَدَةٌ .

(٢) الموتُ الذريع : الموت الفاشي ، لا يكاد الناس يتدافنون .

النبي صلى الله عليه وسلم في الكسوف : (فافْزَعُوا إلى الصَّلاةِ) الحديث (١) ، وآياتُ الله المُعْتَبر بها ثلاثة أقسام : فقسم عامٌّ في كل شيءٍ ؛ إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية ، وهنا فكرة العلماء ، وقِسْم معتادٌ غِبًّا كالرعد والكسوف ونحوه ، وهنا فكرة الجهلة فقط ، وقسم خارق للعادة ، وقد انقضى بانقضاء النبوة ، وإنما يُعتبر به توهماً لما سلف منه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

قال الطبري : معنى قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَي : في منعك يا محمد وحياطتك وحفظك ، فالآية إخبارٌ له بأَنه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥-٤٢٨) ، عن محمود بن لبيد ، قال : كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ ، ألا وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد) ، ثم قام فقرأ فيما نرى بعض «الــــر كتاب» ، ثم ركع ،ثم اعتدل ، ثم سجد سجدتين ، ثم قام ففعل مثل ما فعل في الأولى ، وأخرج الحديث مسلم في الكسوف ، وفيه وصف لصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كسفت الشمس ، وروايته عن ابن عباس رضي الله عنهما .

محفوظ من الكفرة ، آمِنٌ أن يُقتل أو يُنال بمكروه عظيم ، أي : فَلْتُبَلِّغ رسالة ربك ولا تتهيَّب أحداً من المخلوقين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأْويلٌ بيِّنٌ جار مع اللفظ ، وقد رُوي نحوه عن الحسن بن أَبي الحسن ، والسُّدي ، إلَّا أنه لا يناسب ما بعده مناسبةً شديدةً ، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده ، توطئةً له ، فَأَقولُ : اختلف الناسُ في الرُّؤْيا ـ فقال الجمهور : هي رؤْيا عينٍ ويقظةٍ ، وهي ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراءِ ، قالوا : فلما أَخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الإسراءِ بما رأى تلك الليلة من العجائب ، قال الكفار : إنَّ هذا لعجيب ، تخبُّ الحُداةُ إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً ، ويقول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنه جاءَه من ليلته وانصرف عنه ، فافتتن بهذا التَّلْبيس قومٌ من ضعفة المسلمين فارتَدُّوا ، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآيات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هـذا يحسـن أن يكون معنى قـوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ، أي : في إضلالهم وهدايتهم ، وأَنَّ كلَّ

واحد مُيَسَّر لما خلق له ، أي : فلا تهتم أنت بِكُفْرِ من كَفر ، ولا تحزن عليهم ، فقد قيل لك : لا تحزن عليهم ، إن الله محيطٌ بهم ، مالِكٌ لأَمرهم ، وهو جعل هذه فتنةً ليكفر من سبق عليه الكفر . وسُمِّيت الرُّؤْية في هذا التأْويل رُؤْيا إذ هما مصدران من : رأى .

قال النقاش : جاءَ ذلك على اعتقاد من اعتقد أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك .

وقالت عائشة رضي الله عنها : الرؤْيا في الإِسراءِ رؤْيا منام ، وهذا قولٌ الجمهورُ على خلافه ، وهذه الآية تقتضي بفساده ، وذلك أن رؤْيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أَحد لينكرها ، وقد ذُكر هذا مُسْتَوْعباً في صدر السورة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرؤْيا التي في هذه الآية هي رؤْيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل مكة ، فعجَّل في سَنَة الحديبية ، فَرُدَّ ، فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآيات .

وقال سهلُ بن سعد : إنما هذه الرُّؤْيا أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أُمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاهتَمَّ لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ، فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم على المنابر ، وإنما يجعلها الله فتنة للناس وامتحـــاناً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويجيءُ قوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ، أَي : بإقداره ، وأَنَّ كل ما قدَّره نافذ ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك . وقد قال الحسن ابن علي في خطبته في شأْن بيعته لمعاوية : «وإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» (١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأْويل نظر ، ولا يدخل في هذه الرُّؤْيا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولا عمر بن عبد العزيز ، ولا معاوية .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ﴾ معطوفة على قوله سبحانه : [ٱلرُّؤْيَا] ، أَي : جعلنا الرؤْية والشجرة فتنةً ، و «الشَّجَرَةُ» هنا - في قول الجمهور - هي شجرة الزقوم ، وذلك أَن أَمرها لما نزل في سورة الصَّافَّات قال أَبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أَنها تُنبتُ الشَّجر ، وما نعرف الزَّقوم إِلَّا التمر بالزبد ، ثم أَمر أَبو جهل جاريةً له فأَحضرت تمراً وزبداً وقال لأَصحابه : تَزَقَّمُوا ، فافْتتن أَيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاءِ ، فأَخبر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَنه إِنما جعل الإسراءَ وذِكْرَ شجرة الزَّقوم اختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر ، ويُصدِّق من سبق له الإيمان ، كما رُوي أَن أَبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة

(١) الآية (١١١) من سورة (الأنبياء) ، استشهد بها الحسن رضي الله عنه .

الإسراءِ : إن صاحبك يزعم أنه جاءَ البارحة بيت المقدس وانصرف منه ، فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق ، فقيل له : أفتصدق قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أُصدقه بخبر السماءِ فكيف لا أُصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماءُ أبعد منها بكثير ؟ (١)

وقالت فرقة : الشجرة إشارةٌ إلى القوم المذكورين قبْلُ في الرُّؤْيا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف مُحْدَث ، وليس هذا عن سهل بن سعد ولا مثله . وقال الطبري – عن ابن عباس رضي الله عنهما – : إن الشجرة الملعونة : يعني : الملعون آكلها لأَنها لم يجئْ لها ذكر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويصح أَن يراد : الملعونة هنا ، فأَكَّد الأَمر بقوله : ﴿فِي ٱلْقُرْآنِ﴾ ، وقالت فرقة : الملعونة : المُبْعَدَةُ المكروهةُ ، وهذا أَراد ؛ لأَنه لَعَنَها

(١) أخرجه ابن إسحق من حديث طويل عن الإسراء ، قال : «كان من الحديث ما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم ، عن عبد الله بن مسعود ، وأبي سعيد الخدري ، وعائشة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والحسن بن أبي الحسن ، وابن شهاب الزهري ، وقتادة ، وغيرهم من أهل العلم ، وأُمّ هانئ بنت أبي طالب ، اجتمع في هذا الحديث ، كل يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أُسري به صلى الله عليه وسلم » ، إلى أن قال : « قال الحسن في حديثه ... وساق ما حدث من أبي بكر رضي الله عنه ... » .

بلفظ اللَّعنة المتعارف ، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله . وأيضاً فما ينبتُ في أَصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله .

وقوله تعالى : [وَنُخَوِّفُهُمْ] ، يريد : إمَّا كُفَّارَ مكَّة ، وإمَّا الملوك من بني أُميَّة بعد الخلافة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : (الخلافةُ بعدي ثلاثون ، ثم تكون ملكاً عضوداً) (١) ، والأَول منهما أَصوب كما قلنا قبْلُ .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ يريد كُفْرَهم وانهماكهم فيه ، كقول أَبي جهل في الزقوم والتَّزقُّم ، فقد قال النقاش : إن في ذلك نزلت .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي نحوه ، وقرأَ الأَعمش : [وَيُخَوِّفُهُمْ] بالياء ، وقرأَ الجمهور : [وَنُخَوِّفُهُمْ] بالنون .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥-٢٢٠ ، ٢٢١) ، عن سفينة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الخلافة ثلاثون عاماً ، ثم يكون بعد ذلك الملك) ، قال سفينة : أمسك خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه سنتين ، وخلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين ، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنى عشر سنة ، وخلافة علي رضي الله عنه ست سنين ، رضي الله عنهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

المعنى : واذكر إذ قلنا ، وكذلك [إذْ] في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر ، وقد تقدم في غير موضع ذكْرُ خلق آدم عليه السلام وأمْر السجود له . واختلف في قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ – فقيل : هو استثناءٌ منقطع ؛ لأَن إبليس لم يكن من الملائكة ، وقيل : هو متصل ؛ لأَن إبليس من الملائكة . وقوله : [طِيناً] يصحُّ أَن يكون تمييزاً ، ويصحُّ أن يكون حالاً . وقاسَ إبليس في هذه النازلة فأَخطأَ ؛ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى أن النار أفضل من الطين ، وجهل أن الفضائل في الأَشياءِ إنما تكون حيث خصصها الله تبارك وتعالى ، ولا يُنْظر إلى أُصولها .

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس هو الذي أَمره الله تعالى ، فأَخذ من أَديم الأَرض طينة ، فخلق آدم ، والمشهور أَنه مَلَك الموت . وكُفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأَنفة والكبر ، وكان أَصل ذلك الحَسَد ولذلك قيل : «أَول ما عُصي اللهُ تعالى بالحسد» ، وظهر ذلك من إبليس من قوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ و ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ (١) حسبما ذكر الله تعالى في آية أُخرى ، فهذا هو النَّصّ بأَن فعلك غير مستقيم .

والكاف في قوله : [أَرَأَيْتَكَ] هي كاف خطاب ومبالغة في التَّنبيه ، لا موضع لها من الإعراب ؛ فهي زائدة . ومعنى «أَرَأَيْتَ» : أَتَأَمَّلْتَ ، ونحوه . كأَن المخاطِب بها يُنَبِّه المخاطَبَ ليستجمع لما ينُصُّه عليه بعْدُ . وقال سيبويه : هي بمعنى : أَخبرني ، ومثَّل بقوله : أَرَأَيْتَك زيداً أَيُؤْمِنُ هو ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقاله الزجاج في آيتنا ، ولم يُمثِّل ، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله ، وما في هذه فهي كما قلْتُ ، وليست الذي ذكره سيبويه رحمه الله (٢) .

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة (ص) .

(٢) يرى الحوفي أن [أَرَأَيْتَكَ] بمعنى : عرِّفْني وأَخْبرني ، و [هَذَا] منصوب بـ[أَرَأَيْتَكَ] ، والمعنى : أَخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ ، لم كرَّمتَه عليَّ وقد خلقتني=

وقرأ ابن كثير : [أَخَّرْتَني] بالياء في الوصل والوقف ، وهذا هو الأَصل ، وليس هذا الموضع كالقافية التي يحسن فيها الحذف ، كمثل قول الأَعشى :

فَهَلْ يَمْنَعَنِّي ارْتِيَادِي الْبِـــلَا دَ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنْ ؟ (١)

وقرأ نافع ، وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [أَخَّرْتَنِ] بحذف الياء في الوصل والوقف ، وهذا تشبيه بياء (قاضٍ) ونحوه ، لكونها ياءً متطرفة قبلها كسرة ، ومنها قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢) .

= من نارٍ وخلقته من طين ؟ وحُذف هذا لما في الكلام من الدليل عليه . ويرى الزمخشري تقريباً نفس الرأي ، وقد نقل أبو حيان الأندلسي كلامهما وكلام ابن عطية ، ثم قال : «وما ذهب إليه الحوفي والزمخشري هو الصحيح ، ولذلك قُدِّر الاستفهام وهو: لِمَ كَرَّمْتَهُ عليَّ ؟ فقد انعقد من قوله: «هذا الذي كرَّمته عليَّ ، لِمَ كَرَّمْتَه عليَّ ؟» جملة من مبتدإٍ وخبر ، وصار مثله : زيداً أيؤمِنُ هُوَ ؟ ، فالاستفهام مُقَدَّرٌ» .

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى التي يمدح بها قيس بن معديكرب الكندي ، والتي يشكو فيها طول الزمن . ويقول : إن الدهر لا يترك بصروفه شيخاً كبيراً ولا شابّاً يافعاً ، وإن الحذر من الموت وطول التطواف في البلاد لا يحميني من الموت ، والشاهد هو حذف النون من (يأتيني) لأنها قافية يحسن فيها الحذف .

(٢) من الآية (١٠٥) من سورة (هود) والشاهد حذف الياء من (يأتي) .

وقوله : [لَأَحْتَنِكَنَّ] معناه : لأُمِيلَنَّ ولأَجُرَّنَّ ، وهو مأْخوذ من تحنيك الدَّابَّة ، وهو أَن يُشَدَّ على حنكها بحبل أَو غيره فتنقاد ، والسَّنة تَحْتنِكُ المال ، أَي : تجتره ، ومنه قول الشاعر :

نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَفتْ جَهْداً إِلَى جَهْدٍ بِنَا فَأَضْعَفَتْ
واحْتَنَكَتْ أَمْوَالَنَا وجَنَّفَتْ (١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن هذا الشعر قال الطبري في [لأَحْتَنِكَنَّ] : لأَسْتَأْصِلَنَّ ، وعبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك بـ لأَسْتَوْلِيَنَّ ، وقال ابن زيد : لأُضِلَّنَّ .

---

(١) هذه ثلاثة أبيات من مشطور الرجز ، والبيتان الأول والثاني مثبتان ضمن الأرجوزة السادسة في بقية ديوان الزفيان السعدي ، (عطاء بن أُسيد الراجز) ، وقد استشهد أبو عبيدة في (مجاز القرآن) بهذه الأبيات ، قال : «يقال : احْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره : أخذه كلَّه واستقصاه ، قال : نشكو إليك ... الخ الأبيات» ، واستشهد بها الطبري في تفسيره ، وكذلك القرطبي ، والبيتان المثبتان في بقية ديوان الزفيان السعدي يختلفان في الرواية عما هنا ، وهما :

نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ جَلَّفَتْ أَمْوَالَنَا مِنْ أَصْلِهَا وَجَرَّفت

وَأَجْحَفَتْ : اشتدت في الإضرار بنا وبجهودنا ، يقال : أَجْحَفَ بهم الدهر : استأصلهم ، وأجْحَفَ بهم الفقر : أذهب أموالهم ، واحتنكت : استأصلت أموالنا . والجنف : الميل والظُّلْم والجور . والشاهد هنا أن الاحتناك معناه : الاستئصال . وفي رواية : وجَلَّفَتْ بدلاً من جَنَّفت ، ومعناها : قشرت الجلد مع شيء من اللحم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بدل اللفظ لا تفسير .

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم عليه السلام من حيث رأى الخِلْقَة مجوفة مختلفة الأَجزاءِ ، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه ، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لابدَّ أَن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : [ٱذْهَبْ] وما بعده من الأَوامر هي صيغة افْعَلْ ، بمعنى التهديد ، كقوله تعالى : ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ (١) و [تَبِعَكَ] معناه : في طريق الكفر الذي تدعو إليه . فالآية في الكفار وفيمن ينفذ عليه الوعيد من العصاة . وقوله تعالى : [جَزَاءً] مصدر في موضع الحال ، و «المَوْفورُ» : المكتمل .

و [ٱسْتَفْزِزْ] معناه : استخِفَّ واخْدَعْ حتَّى يقع في إرادتك ، تقول : اسْتَفَزَّني فلانٌ في كذا ، إذا خدعك حتَّى تقع في أَمرٍ أَراده ، ومن الخفة قيل لولد البقرة : فَزٌّ ، ومنه قول زهير :

كَمَا اسْتَغَـاثَ بِسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَـةٍ   خَافَ ٱلْعُيُونَ فَلَمْ يُنْظَر بِهِ الْحَشَكُ (٢)

---

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فصلت) .

(٢) البيت من قصيدة قالها زهير لمَّا أغار الحارث بن ورقاء الصيداوي — من بني أسد — على بني عبد الله بن غطفان ، فغنم واستاق إبل زهيرٍ وراعيه يساراً ، فقال زهير القصيدة يطالبه=

و «الصَّوْتُ» هنا قيل : هو الغناءُ والمزامير والملاهي ؛ لأَنها أَصوات كلها مختصة بالمعاصي ، فهي مضافة إلى الشيطان ، قاله مجاهد ، وقيل : معناه : بدعائك إياهم إلى طاعتك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : صوته دعاءُ كل عاص إلى معصية الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والصواب أَن يكون «الصَّوْتُ» يعُمُّ جميع ذلك .

وقوله تعالى : [وَأَجْلِبْ] أَي : هوِّل ، والجَلَبَةُ : الصوت الكثير المختلط الهائل ، وقرأَ الحسن : [وَاَجْلُبْ] بوصل الأَلف وضمِّ اللام . وقوله سبحانه : ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ، قيل : هذا مجازٌ واستعارة بمعنى : اسْعَ سعيك وابلغ جهدك ، وقيل : معناه أَن له من الجن خيلاً ورجلا ، قاله قتادة ، وقيل : المرادُ فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الباطل ، فإنهم كلهم أَعوان لإبليس على غيرهم ، قاله مجاهد . وقرأَ الجمهور : [وَرَجْلِكَ] بسكون الجيم ، وهو جمع (راجِلٍ) ، كتاجِرٍ وتَجْر ، وصاحِبٍ وصَحْب ، وشارِبٍ وشَرْب ، وقرأَ حفصٌ

=بردَّ يسارٍ ويهدده بالهجاء القبيح الفاحش . والسَّيْءُ : ما يكون في الضَّرع من اللبن قبل نزول الدِّرَّة ، والفَزُّ : ولد البقرة الوحشية ، والغيطلة : البقرة . ويُنْظَر : ينتظر . والحَشَكُ : دفع الدرة وامتلاؤها . وقيل : هو سرعة تجمع اللبن في الضرع . قال في اللسان (حَشَكَ) : «الحَشَكَ : اسم للدِّرَّة المجتمعة ، وقيل : إن الشاعر أراد الحشْكَ فحرَّك للضرورة ، أي : لم تنتظر به أُمُّه حُشُوكَ الدِّرَّة» . أي : أعجلته بالسَّيْء ولم تنتظر امتلاءَ ضرعها باللبن .

عن عاصم : [وَرَجِلِكَ] بكسر الجيم ، على وزن فَعِل ، وكذلك قرأ الحسن ، وأبو عمرٍو ـ بخلاف عنه ـ وهي صفةٌ ، تقول : فلانٌ يمشي رَجِلاً ، أي غير راكب ، ومنه قول الشاعر :

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَى فَرَسِـي ... ولا كَذَا رَجِلاً إِلَّا بِأَصْحَـابِ؟ (١)

وقرأ قتادة وعكرمة : ﴿بِخَيْلِكَ وَرِجَالِك﴾ .

وقوله : ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ﴾ عامٌّ لكلِّ معصية يصنعها الناسُ بالمال ، فإن ذلك المصرف في المعصية هو حظُّ إبليس ، فمن ذلك

---

(١) البيت في اللسان (رَجَلَ) ، وقد ذكره مع بيت بعده ، وأطال في توضيح المعنى نقلا عن علماء اللغة ، قال : «وقد يأتي رَجُلٌ بمعنى راجِلٍ ، قال الزبرقانُ بن بدر :

آلَيْتُ لله حَجّـاً حَافِيـاً رَجُـلاً ... إنْ جَاوَزَ النَّخْلَ يَمْشِي وَهُوَ مُنْدَفِعُ

ومثله ليحيى بن وائل ، وأدرك قطَرِيَّ بن الفُجَاءة الخارجِيَّ أحدُ بني مازن حارثي :

أمَا أُقاتِلُ عَنْ دِيني عَلَى فَـرَسٍ ... وَلاَ كَذَا رَجُـلاً إلاَّ بِأَصْحَـابِ ؟

لَقَدْ لَقِيتُ إذاً شَرّاً وَأَدْرَكَـنِي ... مَا كُنْتُ أَرْغَمُ فِي جِسْمِي مِنَ الْعَابِ

قال أبو حاتم : (أمَا) مخففُ الميم مفتوح الألف ، وقوله : (رَجُلاً) أي : راجلاً ، كما تقول العرب : جاءنا فلانٌ حافياً رجُلاً ، أي : راجلاً ، كأنه قال : أما أُقاتِلُ فارساً ولا راجلاً إلاَّ ومعي أصحابي ، لقد لقيتُ إذاً شرّاً إن لم أُقاتل وحدي . وأبو زيد مِثْلُه ، وزاد : ولا كذا أُقاتل راجلاً ، فقال : إنه خرج يقاتل السلطان ، فقيل له : أتخرج راجلاً تقاتل ؟ فقال البيت ، وقال ابن الأعرابي : قوله : (ولا كذا راجلاً) أي : ما ترى رجلاً كذا ، وقال المُفَضَّل : (أمَا) خفيفة بمنزلة (ألاَ) و (ألاَ) تنبيه يكون بعدها أمرٌ أو نهيٌ أو إخبارٌ ، فالذي بعد (أمَا) هنا إخبارٌ ، كأنه قال : أما أُقاتل فارساً وراجلاً ؟ وقال أبو علي في الحجة بعد أن نقل عن أبي زيد ما تقدم : فَرَجُلٌ ـ على ما حكاه أبو زيد ـ صفة ، ومثله : نَدُسٌ وفَطُنٌ وحَذُرٌ وأحرف نحوها ، ومعنى البيت : كأنه يقول : اعلموا أني أُقاتل عن ديني وعن حسبي ، وليس تحتي فرسٌ ولا معي أصحاب» اهـ . (اللسان ـ رَجَلَ) .

السجائر وشبهها ، ومن ذلك مهر البغيِّ وثمن الخمر وحلوان الكاهن والرِّبا وغير ذلك مما يوجَد في النَّاس دأباً ، وقوله : [وَٱلْأَوْلَادِ] عامٌّ لكل ما يصنع في أَمر الذرِّيَّة من المعاصي ، فمن ذلك الإيلادُ بالزِّنَى ، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس ، وعبد الحارث ، وأبا الكويفر ، وكل اسم مكروه ، ومن ذلك الوأْد الذي كانت العرب تفعله ، ومن ذلك صبغهم في أَديان الكفر ، وغير هذا ، وما أَدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحبل المرأة من الإنس فضعيف كلُّه (١) .

وقوله تعالى : [وَعِدْهُمْ] أَيْ : مَنِّهم بما لا يتم لهم ، وبأَنهم غير مبعوثين ، فهذا مشاركة في النفوس ، ثم أَخبر الله تعالى أنه إنما يعدهم غروراً منه ؛ لأَنه لا يُغني عنهم شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قولٌ من الله تبارك وتعالى لإبليس ، وقوله : [عِبَادِي] يريد المؤمنين في الكفر ، والمُتَّقِين في المعاصي ، وخَصَّهم بأَنهم العباد وإن كان اسْماً عامًّا لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم ، كما يقول رجلٌ لأَحَدِ بَنِيهِ إذا رأى منه ما يحب : « هذا ابني » ، على معنى التَّنْبيه والتشريف له ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أَبي

---

(١) العلم الحديث لا يقر مسألة التزاوج بين الإنس والجن .

وقّاص : (هذا خالي ، فَلْيُرِني امروٌ خاله)(١) . و «السُّلْطَانُ» : الملكية والتغلُّب ، وتفسيره هنا بالْحُجَّة قَلِقٌ . ثم قال تعالى لِنَبِيِّه عليه الصلاة والسلام : وكفى بِرَبِّك يا محمد حافظاً للمؤمنين وقَيِّماً على هدايتهم .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

«الإِزْجَاءُ» : سوقُ الثَّقيل السَّيْرِ، إمَّا لضعفٍ أَو ثِقَل حمل أَو غيره ، فالإبل الضعاف تُزْجَى ، ومنه قول الفرزدق :

. . . . عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ (٢)

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب .

(٢) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد ابن المهلب ، والبيت بتمامه : =

والسَّحابُ تُزْجَى ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ (١) ، والبضاعة المُزْجَاةُ هي التي تحتاج لاختلالها أن تُساقَ بشفاعةٍ وتُدْفع بمعاونٍ إلى الذي يقبضها ، وإزجاءُ الفُلْك سوقُه بالريح اللَّيِّنة اللّيِّنة والمجاديف . و «الْفُلْكُ» هنا جمع . و «البَحْرُ» : الماءُ الكثير عذباً كان أو مِلْحاً ، وقد غلب الاسم على هذا المشهور(٢) والفلك تجري فيه ، وقوله : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لفظ يعم البحرَ وطلَب الأجر في حجٍّ أو غزوٍ أو نحوه ، ولا خلاف في جواز ركوبه للحجِّ والجهاد والمعاش ، واختُلف في وجوبه للحجِّ ، أعني الكثير منه . واختُلف في كراهيته للثروة وتزيداً لمال ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بركوبه للغزو في حديث أم حرام ، وقد رُوي عنه أنه قال : (البحر لا أركبه أبداً) ، وهو حديث يحتمل أنه رأي رآه لنفسه ، ويحتمل أنه أُوحي إليه

= عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

الرَّحْلُ : ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، وكلُّ شيءٍ يُعَدُّ للرحيل من وعاءٍ للمتاع وغيره . والزواحف : النياق التي تعبت من السير فهي تسير ببطءٍ وكأنها تزحف ، نُزْجِيهَا : نسوقها وندفعها ، وهي موضع الشاهد هنا ـ والمحاسير : جمع محسورٍ وهو الكليل الضعيف ، صفة أخرى للنياق التي يركبونها .

(١) من الآية (٤٣) من سورة (النور) .

(٢) هكذا في الأصول ، والمراد : غلب الاسم على الماء الكثير المالح .

ذلك ، وهذه الآية توقيف على آلاء الله تعالى وفضله على عباده .

و «الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق ، والإمساك عن المشي ، وأهول حالاته اضطرابه وتموجه . وقوله تعالى : [ضَلَّ] معناه : تلف وفقد ، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلٰهاً من دون الله تبارك وتعالى . والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام ، فَوَقَفَهُم الله من ذلك على حالة البحر ، وقوله تعالى : [كَفُوراً] أي بالنِّعَم . و [ٱلْإِنْسانُ] هنا للجنس ، وكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب . وقال الزجاج : [ٱلْإِنْسانُ] يراد به الكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير بارع .

وقوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الآية . المعنى : أفأمنتم أيها المعرضون النَّاسون الشِّدَّة حين صِرْتم إلى الرخاء أن يخسف الله بكم مكانكم من البر ؛ إذْ أنتم في قبضة القدرة في البحر وفي البر .

و «الحاصِبُ» : العارِضُ الرامي بالبَرَد والحجارة ونحو ذلك ، ومنه قول الشاعر :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّام تَضْرِبُنَا بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْثُورِ (١)

ومنه قول الأَخطل :

ترْمِي العِضَاهَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثَلْجِهَا حَتَّى يَبِيتَ عَلَى العِضَاهِ جفالاً (٢)

ومنه الحاصِبُ الذي أَصاب قوم لوط . والحَصْبُ : الرَّمْيُ بالحصباءِ ، وهي الحجارة الصغار .

وقرأَ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَخْسِفَ] بالياءِ ، على معنى : يخسف اللهُ ، وكذلك [يُرْسِلَ] و [يُعِيدَكُمْ] و [فَيُرْسِلَ] و [فَيُغْرِقَكُمْ] ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرٍو ذلك كلّه

---

(١) هذا البيت من نفس القصيدة التي قالها الفرزدق في مدح يزيد بن عبد الملك ، والتي أشرنا إليها في الحديث عن بيت الشعر السابق ، بل هو البيت الذي قبل الشاهد السابق . والحاصِبُ : الريح الشديدة تحمل الحصباء وهذا هو الشاهد هنا ، ومعنى تضربنا : تلطمنا بشدة ، ونديف القطن : قطع القطن المتناثرة ، بريد البَرَد ، شبَّهَهُ بنديف القطن في اللون .

(٢) هذا بيت قاله الأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً ، ويفتخر على قيس ، وقبله يقول :

ولَقَدْ عَلِمْتُ إذَا العِشَارُ تَرَوَّحَتْ هدْجَ الرِّئَالِ تَكُبُّهُنَّ شَمَالا

والعشار : الإبل التي حَمَلَت ومَضَى على حملها عشرة أشهر ، وتَرَوَّحَتْ : عادت إلى حظائرها في وقت الرواح والعودة من المرعى ، والرِّئال : جمع رأل ، وهو ولد النعامة ، والهَدْج : عدْوٌ متقارب ، وتكُبُّهُنَّ : تُسْقِطُهُنَّ على وجوههنَّ ، يريد أن الريح وهي تَهبُّ شمالاً تدفعهن فتُسْقِطهُنَّ . والضمير في (تَرْمي) يرجع إلى ريح الشمال ، والعِضَاهُ : كل شجر له شوكٌ ، والواحدة : عِضَة ، والحاصب : ما تناثر من الثلج الصغير والجفال : ما تراكم من الثلج بعضه فوق بعض ، والشاهد في البيت كلمة (حاصب) كالبيت السابق .

بالنون ، وقرأ أبو جعفر ، ومجاهد : [فَتُغْرِقَكُمْ] بالتاء ، أي الريح . وقرأ حميد [فَنُغْرِقْكُمْ] بالنون خفيفة (١) ، وأدغم القافَ في الكاف ، ورويت عن أبي عمرو ، وابن محيصن ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاءٍ : [فَنُغَرِّقَكُمْ] بشدِّ الراءِ . و «الوَكِيلُ» : القائم بالأُمور ، و «القَاصِفُ» : الذي يكسر كلَّ ما يُلْقَى ويقْصفُه . و [تَارَةً] جمعُهَا تاراتٌ وتِيَرٌ ، ومعناها : مرَّة أُخرى ، وقرأ أبو جعفر : ﴿مِنَ ٱلرِّيَاحِ﴾ بالجمع . و «التَّبِيعُ» : الذي يطلب ثأْراً أو دَيْناً أو نحو هذا ، ومنه قول الشاعر :

غَدَوْا وَغَدَتْ غِزْلانُهُمْ فَكَأَنَّهَا ضَوَامِنُ غُرْمٍ لَزَّهُنَّ تَبِيعُ (٢)

ومن هذه اللَّفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ فلْيَتَّبع) (٣) ، فالمعنى : لا تجدون من يتبع فعلنا بكم ويطلب نُصرتكم .

---

(١) أي : خفيفة الراءِ .

(٢) قال في اللسان (تبع) : «التَّبِيع : الذي يتبعك بحق يطالبك به ، وهو الذي يتبع الغريم بما أُحيل عليه» ، ثم حكى عن الفراء أنه قال في معنى الآية : «أيْ ثائراً ولا طالباً بالثأر لإغراقنا إياكم» ، وحكى عن الزجاج قوله : «معناه : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم ولا يتبعنا بأن يصرفه عنكم» . والغُرْمُ : ما ينوب الإنسان في ماله من ضَرَرٍ بغير جناية منه أو خيانة ، والضامن : الكفيل أو الملتزم أو الغارم الذي يلزمه مالا يجب عليه . ولزَّهن : لَزِمَهُنَّ والتصق بهنَّ ليجبرهن على ما يريد .

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاريُّ ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي ، ومالك في الموطأ ، وأحمد في مسنده ، واللفظ برواية البخاري في الحوالات عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مَطْلُ الغنيِّ ظُلْمٌ ، ومَن أُتْبِعَ على مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِع) ، والمعنى : إذا أُحيل أحدكم على مليٍّ فليتحمل ، وهو أمرٌ على الرفق والأدب والإباحة ، وليس أمراً على الوجوب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[كَرَّمْنَا] تضعيف (كرم) ، فالمعنى : جعلنا لهم كَرَماً ، أي شرفاً وفضلاً ، وهذا هو كرم نَفْي النقصان ، لا كرم المال ، وإنما هو كما تقول : « ثوبٌ كريمٌ » ، أي : جَمَّةٌ محاسنُه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية عدّدَ الله تعالى فيها على بني آدم ما خصَّهم به من دون سائر الحيوان . والجنُّ هو الكثير المفضول ، والملائكة منهم الخارجون عن الكثير المفضول . وحَمْلُهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان

سوى بني آدم أن يكون يتَحَمَّل بإرادته وقصده وتدبيره في البرِّ والبحر جميعاً . والرِّزقُ من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم ؛ لأَنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ، ويأْكلون المركبات من الأَطعمة ، وغاية كل حيوان أن يأْكل لحماً نيِّئاً ، أو طعاماً غير مركب . و « الرِّزْقُ » : كل ما صحَّ الانتفاع به ، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا : التفضيل هو أن يأْكل بيديه وسائر الحيوان بالفم ، وقال غيره : وأن ينظر من إشرافٍ أكثر من كل حيوان ، ويمشي قائماً ، ونحو هذا من التفضيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله غير محذق (١) ، وذلك أن للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم ، كجري الفرس وسمعه وإبصاره ، وقوة الفيل وشجاعة الأَسد وكرم الديك ، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوانَ كله ، وبه يعرف الله تعالى ، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه . وقالت فرقة : هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من

(١) يريد : غير قاطع في معناه ، أو لا يدل على مهارة صاحبه وحِذْقِــهِ .

حيث هم المستثنون ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تعن له الآية ، بل يحتمل أن الملائكة أفضل ، ويحتمل التساوي ، وإنما صحّ تفضيل الملائكة من مواضع أُخرى من الشرع .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الآية . يحتمل قوله : [يَوْمَ] أن يكون منصوباً على الظرف ، والعامل فيه فعل مضمر تقديره : اذْكر (٢) ، أو فعل يدلُّ عليه قوله : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ، تقديره : ولا يُظلمون يوم ندعو ، ثم فسره [يُظْلَمُونَ] الآخر ، ويجوز أن يعمل فيه (وَفَضَّلْنَاهُمْ] ، وذلك أن فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بيِّن ؛ لأَنهم المُنَعَّمون المُكلَّمُون المُحَاسبونَ الذين لهم القدر ، إلَّا أَنَّ هذا يردُّه أن الكفار يومئذ أخسُّ من كل حيوان ؛ إذ يقول الكافر : ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تَرَاباً﴾ (٣) ، ولا يعمل فيه [نَدْعُو] لأَنه مضاف إليه .

---

(١) من الآية (١٧٢) من سورة (النساء) .
(٢) قال أبو حيان الأندلسي : « على تقدير : اذكر ، لا يكون ظرفاً بل هو مفعول به » .
(٣) من الآية (٤٠) من سورة (النبإ) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون [يَوْمَ] منصوباً على البناءِ لمَّا أُضيف إلى غير متمكن ، ويكون موضعه رفعاً بالابتداءِ ، والخبر في التقسيم الذي أتى بعْدُ في قوله : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ (١) .

وقرأ الجمهور : [نَدْعُو] بنون العظمة ، وقرأ مجاهد : [يَدْعُو] بالياءِ ، على معنى : يدعو اللهُ ، ورُويت عن عاصم ، وقرأ الحسن : [يُدْعَوْ] بضم الياءِ وسكون الواو ، وأَصلها : يُدْعَى ، ولكنها لغة لبعض العرب ، يقلبون هذه الأَلف واواً فيقولون : أَفْعَوْ ، وحُبْلَوْ (٢) .

---

(١) علّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله : « قوله : « منصوباً على البناء » ، كان ينبغي أن يقول: « مبنياً على الفتح » ، وقوله : « لمّا أُضيف إلى غير متمكن » ليس بجيد ؛ لأن الذي ينقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل ، وهذا أُضيف إلى فعل مضارع ، ومذهب البصريين أنه إذا أُضيف إلى فعل مضارع معرب لا يجوز بناؤه ، وهذا الوجه الذي ذكره هو على رأي الكوفيين ، وأما قوله : « والخبر في التقسيم » فالتقسيم عارٍ من رابط لهذه الجملة التقسيمية بالمبتدإ ؛ إلاّ إن قدر محذوفاً فقد يمكن ، أي: مِمّن أُوتي كتابه فيه بيمينه ، وهو بعد هذا التخريج تخريج مُتَكَلَّف » . (البحر المحيط ٦-٦٢) .

(٢) في أفْعَى وحُبْلَى . قال أبو الفتح : « هذا على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً ، ذكر ذلك سيبويه ، وأكثر هذا القلب إنما هو في الوقف ؛ لأن الوقف من مواضع التغيير ، وهو أيضاً في الوصل محكي عن حاله في الوقف » .

وعلى قراءة الحسن التي ذكرها الداني وهي رفع [كُلّ] ، تكون [كُلُّ] مرفوعة بالفعل ،=

ذكر هاتين أَبو الفتح وأَبو عليٍّ في ترجمة أَعمى بعد ، وقرأَ الحسن : [كُلُّ] بالرفع ، على معنى : يُدْعَوْ كلُّ . وذكر أَبو عمْرٍو الداني عن الحسن أَنه قرأَ : «يُدْعَى كُلُّ» ، و «الأُناسُ» اسْمُ جمع لا واحد له من لفظه .

وقوله : [بِإِمَامِهِمْ] يحتمل أَن يريد : باسم إِمامهم ، ويحتمل أَن يريد : مع إِمامهم ، فعلى التأْويل الأَول يقال : يا أُمَّةَ محمد - عليه الصلاة والسلام - ، ويا أَتباع فرعون ، ونحو هذا ، وعلى التأْويل الثاني تجيءُ كلُّ أُمَّة معها إِمامُها من هادٍ أَو مُضِل ، واختلف المفسرون في الإِمام - فقال مجاهد ، وقتادة : نَبيُّهم ، وقال أَبو زيد : كتابهم الذي أُنزل عليهم ، وقال ابن عباس ، والحسن : كتابهم الذي فيه أَعمالهم ، وقالت فرقة : مُتَبَعُهُم من هادٍ ومُضل . ولفظة «الإِمام» تعمُّ هذا كله ؛ لأَن الإِمام هو ما يُؤْتَمُّ به ويُهتدى به في القصد ، ومنه قيل لخَيْط البَنَّاءِ : إِمامٌ ، وقال الشاعر يصف قدحاً :

= وتكون الواو ضميراً مفعولا لم يُسَمَّ فاعله ، وأصله: يُدْعَوْنَ ، فحذفت النون كما حذفت في قوله :

أَبيتُ أَسْرِي وتَبيتِي تَدْلُكِــــي وَجْهَكِ بالْعَنْبَرِ والمِسْكِ الزَّكِي

أي : وتبيتين تَدْلُكِينَ .

وَقَوَّمْتُهُ حَتَّى إِذَا تَمَّ واسْتَوَى كَمُخَّةِ ساقٍ أو كَمَتْنِ إِمَامِ (١)

ومنه قيل للطريق : إمامٌ ؛ لأنه يُؤْتَمُّ به في المقاصد حتَّى ينتهي إلى المراد .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ حقيقة في أن في القيامة صحائف تتطاير وتوضع في الأَيْمَان لأَهل الإِيمان ، وفي الشمائل لأَهل الكفر ، وتوضع في أَيمان المذنبين الذين ينفذ عليهم الوعيد فيستفيدون منها أَنهم غير مخلدين في النار. وقوله تبارك وتعالى : ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ، عبارة عن السرور بها ، أي : يُرَدِّدُنها ويتناقلونها ، وقوله : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ، أي : ولا أقلَّ ولا أكثر ، فهذا هو مفهوم الخطاب ، حُكْم المسكوت عنه كحُكْم المذكور ، كقوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ (٢) وكقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٣) ، وهذا كثير .

ومعنى هذه الآية أَنهم لا يبخسون من جزاءِ أعمالهم الصالحة شيئاً ،

---

(١) البيت في اللسان (أمَمَ) غير منسوب ، قال : «والإمامُ : الخيط الذي يُمَدُّ على البناءِ فيُبْنَى عليه ويُسَوَّى عليه سافُ البناء ، وهو من ذلك ، قال : وخَلَّقْتُهُ حَتَّى إذَا ... البيت ، أي : كهذا الخيط الممدود على البناءِ في الامِّلاس والاستواءِ ، يصف سهماً ، يدلُّ على ذلك قوله :

قَرَنْتُ بِحَقْوَيْهِ ثَلاثاً فَلَمْ يَزِغْ عَنِ الْقَصْدِ حَتَّى بُصِّرَتْ بِدِمامِ

والحَقْوُ : الخَصْر ، وحَقْوَا الثَّنِيَّةِ : جانباها . ولم يَزِغْ : لم يَحِدْ أو يَمِلْ عن القصد ، أي الهدف المقصود . والدِّمام : كل ما طُلِيَ به .

(٢) من الآية (٢٣) من هذه السورة (الإسراء) .

(٣) من الآية (٤٠) من سورة (النساء) .

و «الفَتِيلُ» هو الخيط الذي في شق نواة التمر ، يُضرب به المثل في القلَّة وتفاهة القدر .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ الآية . قال محمد بن أبي موسى (١) : الإشارة بـ [هَذِهِ] إشارة إلى النعم التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ، أي : مَنْ عَمِيَ عن شكر هذه النعم والإيمان بِمُسْديها فهو في أُمور الآخرة وشأْنها أعمى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل [أَعْمَى] الثاني أن يكون بمنزلة الأَول ، على أنه تشبيه بأَعمى البصر ، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل ، أي : أشد عمًى ، و«العَمَى» في هذه الآية هو عَمَى القلب في الأَول والثاني ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : الإشارة بـ [هَذِهِ] إلى الدنيا ، أي : من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى وعِبَره والإيمانِ بآياته ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ ، إمَّا أَنْ يكون على حذف مضاف ، أي : في شأْن الآخرة ، وإما أن يكون : فهو في يوم القيامة أعمى ، على معنى أنه حيران لا يتوجه إليه صواب ، ولا يلوح له نُجح . قال مجاهد : في الآخرة أعمى عن حجته .

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب : «مستورٌ ، من الرابعة» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر أن الإشارة بـ [هَذِهِ] إلى الدنيا ، أي : من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله تعالى ، فهو في الآخرة أشد حيرة وأعمى ؛ لأنه قد باشر الخيبة ، ورأى مخايل العذاب . وبهذا التأويل تكون معادلةً للّتي قبلها مِنْ ذِكْرِ مَنْ يُؤْتَى كتابه بيمينه ، وإذا جعلنا قوله تعالى : ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ بمعنى : «في شأن الآخرة» لم تطرد المعادلة بين الاثنين .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [أَعْمَى] في الموضعين بغير إمالة ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم - بخلاف عنه - في الموضعيْن بإمالة ، وقرأ أبو عمرٍو بإمالة الأول وفتح الثاني ، وتأوَّله بمعنى : «أشد عَمَى» ، ولذلك لم يُمِلْه . قال أبو عمرٍو : لأن الإمالة إنما تحسُنُ في الأواخر ، و [أَعْمَى] ليس كذلك ؛ لأن تقديره : أعمى من كذا ، فليس يتم إلّا في قولنا : «مِنْ كذا» على ما هو شبيه به .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما جعله في الآخرة أضلَّ سبيلاً لأن الكافر في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو ، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك ، فهو أضلُّ سبيلاً ،

وأَشدُّ حيرة ، وأقرب إلى العذاب . وقول سيبويه : «لا يقال أعمى من كذا ، كما لا يقال : ما أَيْدَاهْ»(١) إنما هو في عَمَى العين الذي لا تفاضل فيه ، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وذكر مكي في هذه الآية أن العمى الأَول هو عمى العين عن الهُدى . وهذا بيِّن الاختلال ، والله المعين .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية . [إِنْ] هذه عند سيبويه المخَفَّفَة من الثقيلة ، واللام في قوله سبحانه : [لَيَفْتِنُونَكَ] لام تأْكيد ، و [إِنْ] هذه عند الفراءِ بمعنى (ما) ، واللام بمعنى (إنما) ، والضمير في قوله تعالى : [كَادُوا] قيل : هو لقريش ، وقيل : لثقيف ، فأَمَّا لقريش فقال ابن جبير ، ومجاهد : نزلت الآية لأَنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ندعك تستلم الحجر الأَسود حتَّى تمس أَوثاننا ، على جهة التشرع بذلك ، قال الطبري وغيره : فهَمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن يظهر لهم ذلك وقلْبُه له منكر ، فنزلت الآية في ذلك ، قال الزجاج : وقال رسول الله

(١) قال سيبويه : إن عمى العين خلقة بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال : ما أعماه ، كما لا يقال : ما أيداه ، لأنه لا يقبل التفاضل .

صلى الله عليه وسلم في نفسه : وما عَليَّ أن أفعل لهم ذلك والله تعالى يعلم ما في نفسي ؟ وقال ابن إسحق وغيره : إنهم اجتمعوا ليلة فعظَّموه وقالوا له : أنت سيدنا ، ولكن : أَقْبِل على بعض أمرنا ونُقْبل على بعض أمرك ، فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهي في معنى قوله تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (١) . وحكى الزجاج أن الآية قيل : إنما هي فيما أرادوه من طرد فقراءِ أصحابه .

وأمَّا لثقيفٍ فقال ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره : لأَنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللَّات ، وقالوا : إنَّا نريد أن نأْخذ ما يهدى لها ، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العربُ فقل : أوحى الله ذلك إليَّ ، فنزلت الآية في ذلك . ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية ، وقد رُوي ذلك ، ورَوَى قائلوا الأَقوال الأُخر أنَّها مكيَّة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجميع ما أُريد من النبي صلى الله عليه وسلم بحسب هذا الاختلاف قد أَوْحى الله تعالى إليه خلافه ، إمَّا في مُعْجز . وإمَّا في غير معجز ،

---

(١) الآية (٩) من سورة (القلم) .

وفعله هو ـ إنْ لو وقع ـ افتراءٌ على الله ، إذْ أَفعاله وأَقواله إنما هي كلها شرع.

وقوله تعالى : ﴿وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ توقيف على ما نجّاه الله تعالى منه من مخالفته الكفار والولاية لهم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ الآية ... تعديد نعمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ورُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا نزلت هذه الآية قال : (اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إلى نفسي طرفة عين) (١) . و «الرُّكُونُ» : شدّ الظهر إلى الأَمر ، أَو الجزم على جهة السكون إليه ، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران ، ومنه قوله تعالى حكاية :

---

(١) أخرج أبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده (٥ـ٤٢ ، ٥٠) ، عن عبد الرحمن ابن أبي بكرة أنه قال لأبيه : يا أبت ، إني أسمعك تدعو كل غداة : اللّهم عافني في بدني ، اللّهم عافني في سمعي ، اللّهم عافني في بصري ، لا إله إلا أنت ، تعيدها ثلاثاً حين تصبح ، وثلاثاً حين تُمْسي ، وتقول : اللّهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت ، تعيدها حين تصبح ثلاثاً ، وثلاثاً حين تمسي ، قال : نعم يا بني ، إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهن ، فأُحب أن استّن بسُنَّته ، قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعوات المكروب : اللّهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، أصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت) . لكن هذه الرواية لا تثبت ما ذكره ابن عطية من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك عندما نزلت الآية الكريمة ، إلا أنها أيضاً لا تنفي ذلك ، فقد ذكر الراوي أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بكذا ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال كذا ، فتأمله . ورواية المؤلف عن قتادة . وقد أخرجها ابن جرير الطبري بسنده ، عن محمد بن بشار ، عن سليمان ، عن أبي هلال ، عن قتادة رضي الله عنه . وقد ذكرها أبو حيان في البحر المحيط نقلاً عن الطبري .

﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(١)، وقرأ الجمهور: [تَرْكَنُ] بفتح الكاف، وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبد الله بن أبي إسحق: [تَرْكُنُ] بضم الكاف، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن، ولكنه كاد بحسب همِّه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأَنباري إلى أن معناه: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنْتَ، ونحو هذا، ذهب في ذلك إلى نفي الهمِّ بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فحمَّل اللفظ ما لم يحتمل. وقوله تعالى: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ يبطل ذلك. وهذا الهمُّ من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان خَطْرَةً مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل: [كِدْتَ]، وهي تُعطي أنه لم يكن رُكُون(٢)، ثم قيل: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ إذْ كانت المقاربة التي تتضمنها [كِدْتَ] قليلة، خَطْرَةً لم تتأَكد في النفس، وهذا الهمُّ هو كهَمِّ يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد. وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ﴾ يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأَنباري.

وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: يريد: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (هود).

(٢) في بعض النسخ «ولم يقع ركون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على معنى أن ما يستحقه هذا الذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنَّا نضعِّفُه لك ، وهذا التضعيف شائع مع النبي صلى الله عليه وسلم في أجره وألمه وعقاب أزواجه (١) . وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

قال حضرمي : الضمير في [كَادُوا] ليهود المدينة وناحيتها ، كَحُيَيٍّ بن أخطب وغيره ، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله

(١) من المعروف أن جواب (لَوْلا) إذا كان مثبتاً يكون مُمْتَنِعَ الوقوع لوجود ما قبله ، فمقاربةُ الركون لم تقعْ أصْلاً والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له ، فالآية بهذا الفهم الواضح تنفي حتى مجرد قربه صلى الله عليه وسلم من الركون إليهم ، ثم إن (كاد) فعل من أفعل المقاربة ، وهي تعطي معنى (مقاربة) الشيء ، ومقاربة الشيء غير الوقوع فيه ، بل هي تؤكد عدم الوقوع في فعل الشيء ، والآية الكريمة بهذا تنفي ركون النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، وتنفي أيضاً مقاربته للركون .

صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن هذه الأَرض ليست بأَرض أنبياء ، وإنما أَرض الأَنبياءِ الشامُ ، ولكنك تخاف الرُّوم ، فإن كنت نبيًّا فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأَنبياءِ ، فنزلت الآية في ذلك ، وأخبر الله تعالى أن رسوله لو خرج لم يُلْبِثْهُم بعده إلَّا قليلاً .

وحكى النقاش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بسبب قولهم ، وعسكر بذي الحليفة ، وأَقام ينتظر أَصحابه ، فنزلت الآية عليه فرجع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، لم يقع في سيرة ولا كتاب يعتمد عليه ، وذو الحليفة ليس في طريق الشام .

وقالت فرقة : الضمير في [كَادُوا] هو لقريش ، وحكى الزجاج أَن استفزازهم هو ما كانوا أَجمعوا عليه في دار الندوة من قتله ، و [ٱلْأَرْضِ] - على هذا - عامة في الدنيا ، كأَنه قال : يخرجوك من الدنيا ، وعلى سائر الأَقوال هي أَرض مخصوصة ، إمَّا مكة وإمَّا المدينة ، كما قال تعالى : ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (١) ، وإنما معناه : من الأَرض

(١) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة) .

التي بها تصرفهم وتمتعهم . وقال ابن عباس ، وقتادة : استفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، كما ذهبوا قبْلُ إلى حصره في الشِّعب . ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية ، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك ، ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه إلَّا قليلاً يوم بدر . وقال مجاهد : ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها ؛ لأنه لمَّا أراد الله تعالى استبقاءَ قريش وألَّا يسْتَأْصلها أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فخرج من الأَرض بإذن الله تعالى لا بقهر قريش ، واستبقيت قريش يُسْلم منها ومن أَعقابها من أَسلم ، قال : ولو أخرجته قريش لعُذِّبوا ، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في [يَلْبَثُونَ] عامٌّ في جميعهم . وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «وَإِذاً لَا يَلْبَثُوا» بحذف النون وإعمال [إذاً] ، وسائر القراءِ أَلْغَوْهَا وأثبتوا النون . وقرأ عطاءُ بن أبي رباح : [يُلَبِّثُونَ] بضم الياءِ وشد الباءِ وفتح اللام ، وروي مثله عن يعقوب إلَّا أنه كسر الباءَ . وقرأ عطاءُ : «بَعْدَكَ إلَّا قَليلاً»(١) ، وقرأ الجمهور : [خَلْفَكَ] ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ،

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : « الأحسن أن يُجعل تفسيراً لقوله تعالى : [خِلافَكَ] لا قراءة ، لأنها تخالف سواد المصحف ، فأراد أن يُبَيِّن أن [خِلافَكَ] هنا ليست ظرف مكان ، إنما تُجُوِّز فيها فاستعملت ظرف زمان بمعنى بَعْدَكَ » .

والكسائي ، وحفص عن عاصم : [خِلَافَكَ] ، والمعنى واحد ، ومنه قول الشاعر :

عَقَبَ الرَّذَاذُ خِـلَافَهَا فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ (٢) ، على بعض تأْويلاته ، أَي : بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه اللفظة قد لزم فيها حذف المضاف ؛ لأَن التقدير في آيتنا : «خلاف خروجك» ، وفي بيت الشاعر : «خلاف انبساط الشمس» أَو نحوه .

قال أَبو عليٍّ : أَصابوا (٣) هذه الظروف تضاف إلى الأَسماءِ الأَعيان التي ليست أَحداثاً ، فلم يَسْتَحِبُّوا إضافتها إلى غير ما جرى عليه

---

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في الجزء السادس صفحة ٥٨٤ ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، وهو في اللسان ، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي ، والرواية في سورة التوبة : (عَقَبَ الرَّبيعُ خلافهم) ، و (نَشَطَ الشَّوَاطِبُ) . والرواية في القرطبي وفي البحر المحيط : (عَفَتِ الديارُ خلافهم) ، وفي اللسان (عقب) : (عَقَبَ الرَّذَاذُ خلافهم) . وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة (عفت الديار) ، وعلى كلٍّ فهو شاهد على أن (خلافك) بمعنى (بَعْدَكَ) . والشَّوَاطِبُ من النساء : اللواتي يشْقُقْنَ الخوصَ ويَقْشُرْنَ العُسُبَ ليتَّخِذْنَ منه الحُصُر ، ثم يُلْقين ما شَقَقْنَ إلى المنَقِّيات ، والمنَقِّية هي التي تأخذ كل شيءٍ على العسيب بِسِكِّينها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصر منه .

(٢) من الآية (٨١) من سورة التوبة) .

(٣) أي وَجَدَ العلماءُ هذه الظروف ... الخ .

كلامهم ، كما أنها لما جرت منصوبة في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في موقع النصب ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : [سُنَّةَ] نصب على المصدر ، وقال الفراءُ : نصبه على حذف الخافض ؛ لأن المعنى : «كَسُنَّةِ» ، فحذف الكاف ونصب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلزمه على هذا ألا يقف على قوله : [قَلِيلاً] .

ومعنى الآية الإخبارُ أنَّ سُنَّةَ الله تعالى في الأُمم الخالية وعادَتَه أنها إذا أَخرجت نَبِيَّها من بين أظهرها نالها العذاب ، واستأْصلها الهلاك ، فلم تلبث بعده إلَّا قليلاً .

قوله تعالى : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية . هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة .

---

(١) من الآية (١١) من سورة (الجن) .

(٢) من الآية (٣) من سورة (الممتحنة) . يستشهد أبو علي الفارسي بهذه الآيات على ما يقوله في الظروف التي تضاف إلى الأعيان لا إلى الأحداث من الأسماء .

فقال ابن عمر ، وابن عباس ، وأَبو بُرْدة ، والحسن ، والجمهور : «دُلوك الشمس» : زوالها ، والإشارة إلى الظهر والعصر ، و «غَسَق الليل» أُشير به إلى المغرب والعشاء ، و «قرآن الفجر» أُريد به صلاة الصبح ، فالآية - على هذا - تعُمُّ جميع الصلوات ، وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أتاني جبريلُ لدلوك الشمس حين زالت فصلَّى بي الظهر) (١) ، وروى جابر أَن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس ، فقال : (اخرج يا أَبا بكر فهذا حين دلكت الشمس) (٢) .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وزيد بن أَسلم :«دُلوك الشمس» : غروبها ، والإشارة بذلك - إلى المغرب ، و «غَسَق الليل» : اجتماع

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ، والذي في جميع الأصول هنا أن الراوي هو ابن مسعود رضي الله عنه ، وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، المعروف ، وفي الدر المنثور أيضاً ما يؤيد ذلك ، فقد قال : «أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه» ، ولكن الثابت في ابن جرير الطبري أن الحديث عن أبي مسعود (عقبة بن عمرو) ، والنَّص على أنه (عقبة بن عمرو) يقطع بأنه (أبو مسعود) وليس (ابن مسعود) . ولهذا لزم التنويه .

(٢) رواه الطبري ، عن جابر ، من طريق ابن أبي لَيْلى ، ورواه من طريق نُبَيْح العَنَزِيّ ، عن جابر أيضاً . قال العلماء : ونُبَيْح هذا مجهول ، وقد جاء في تفسير الطبري هذا اللفظ : (يقول جابر : دعوتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن شاءَ من أصحابه ، فَطَعِموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ... الحديث) .

ظُلْمته ، فالإشارة إلى العتمة ، و «قرآن الفجر» : صلاة الصبح ، ولم تقع إشارة – على هذا التأْويل – إلى الظهر والعصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأَول أَصوب لعمومه الصلوات ، وهما من جهة اللغة حَسَنان ، وذلك أن «الدُّلوك» هو المَيْل في اللغة ، فأَوَّل الدُّلوك هو الزوال ، وآخره هو المغرب ، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسَمَّى دُلُوكاً ، لأَنها في حالة ميل ، فذكر الله الصلوات التي تكون في حالة الدُّلوك وعنده ، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب ، ويصح أن تكون المغرب داخلة في «غسق اللَّيل» ، ومن الدُّلوك الذي هو الميْل قول الأَعرابي للحسن بن أَبي الحسن : أَيُدَالِكُ الرجلُ امرأَته ؟ يريد : أَيميل بها إلى المَطْل في دَيْنَهَا ؟ فقال له الحسن : نعم إذا كان ملحفاً ، أي : عديماً (١) ، ومنه قول ذي الرُّمَّة :

---

(١) وقع في هذا الخبر تحريف في بعض ألفاظه ، وهو في تفسير الطبري ، وفي اللسان (دَلَكَ) ، فكلمة (دَيْنُهَا) ذُكرت في بعض النسخ (دِيَتِهَا) لأن اللسان ذكر تفسير أبي عبيدة للكلام وهو : «قوله : يُدَالِكُ ، يعني المَطْلَ بالمَهْر» . واللفظة في الطبري : (بِحَقِّهَا) ، وكلمة (مُلْحِفاً) وردت في اللسان (مُلْفَجاً) ، وذكرت في بعض الأصول (مليحاً) . ومن معاني الإلحاف التي تلائم المعنى هنا أنه الإضرار لغيره ، يقال : أَلْحَفَ به : أضرَّ ، أمَّا أَلْفَج فهي أكثر ملاءمة للمعنى ، إذ من معانيها : أفْلَسَ وذهب ماله ،=

مَصَابيحُ لَيْسَتْ باللَّواتي تَقُودُهَا نُجُومٌ وَلَا بالْآفلاتِ الدَّوالِكِ (١)

ومن ذلك قول الشاعر:

هَذَا مَكَانُ قَدَمَيْ رَبَــاحِ غدْوَةً حتَّى دَلَكَت بَرَاحِ (٢)

ويروى (بِرَاح) بكسر الباءِ ، قال أَبو عبيدة ، والأَصمعي ، وأَبو عمر الشيباني : معناه : براحة الناظر يستكف بها أَبداً لينظر كيف

= فيكون المعنى المراد: أنه إذا أفلس وذهب ماله دَالَك امرأته ، أي : ماطلها في حَقِّهَا ، وهذا يناسب التفسير الذي في الخبر بعد ذلك وهو قوله : (أيْ : عديماً) ، أمَّا (مليحاً) فلا نرى لها وجهاً هنا يلائم المعنى .

(١) البيت في الديوان ، وفي اللسان ، والتاج ، وفي تفسير القرطبي وتفسير البحر المحيط ، وهو أيضاً في غريب القرآن ، والبيت في وصف الإبل ، يقول : إنها تصبح في مباركها ، والآفلات : الغائبات ، يقال : أفل النجم : غاب ، والدَّوالك : التي غابت أو قاربت الغروب ، قال في اللسان : إن هذا البيت يُقوِّي أن دُلُوك الشمس بمعنى الغروب ؛ لأنه نفى عنها الأفول والدُّلُوك .

(٢) البيت في اللسان (دَلَكَ) ، والرواية فيه : (هَذَا مَقَامُ) ، و (ذَبَّبَ) بدلاً من (غُدْوةً) ، وهو أيضاً في (معاني القرآن) للفراء ، والرواية فيه كرواية اللسان . وقد قال الفراءُ : « قال أبو زكريَّا : ورأيتُ العرب تذهب بالدلوك إلى غياب الشمس ، أنشدني بعضهم : (هذا مقام ... البيت) ، وفي اللسان : « دلَكَتْ بَرَاحِ وبِرَاحِ ، أي : قد مالت للزوال حتَّى كاد الناظر يحتاج إذا تَبَصَّرَهَا أن يكسر الشُّعاع عن بصره براحته ، وبَرَاحِ ، مثل قَطَامِ : اسمٌ للشمس ، وقال ابن الأعرابي : دَلَكَتْ بَرَاحِ : استُرِيحَ منها » . أما قوله : (ذَبَّبَ) فمعناه كما قال الفراءُ : السَّاقي ذَبَّبَ : طرد الناسَ . وقال أبو عبيدة في (مجاز القرآن) : « دُلُوكُ الشمس : من عند زوالها إلى أن تغيب » ، وروى البيت ثم قال : « ألا ترى أنها تدفع بالراح ، يضع كفَّه على حاجبيه من شعاعها لينظر ما بقي من غيابها » . هذه هي التفسيرات التي قالها علماءُ اللغة في معنى الدلوك ، وفي البيت . قد اختصرنا بعضها ، وأغفلنا بعضاً آخر قد ذكره ابن عطية أو أشار إليه .

ميلها وما بقي لها ، وهذا نحو قول العجاج :

والشَّمْسُ قَدْ كادَتْ تكُونُ دَنَفَا أَدْفَعُها بالرَّاحِ كَيْ تَزَحْلَفَا (١)

وذكر الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «دَلَكَتْ بِرَاح ، يعني : بِرَاح مكاناً» ، قال : فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم ، وإن كان من كلام راوٍ فأهل الغريب أعلم بذلك. (٢)

ويُرْوَى البيت الأول : (غُدْوَةً حتَّى هَلَكَتْ بَرَاحِ) بفتح الباء ، على وزن قَطَام وحَزَامِ ، وهو اسم من أسماءِ الشمس .

---

(١) هذان بيتان من مشطور الرجز ، قالهما العَجاج بن رؤبة ، وهما في الديوان ، واللسان ، ومجاز القرآن ، وغريب القرآن ، والطبري ، والقرطبي ، وفي الجمهرة وتهذيب الألفاظ ، قال في اللسان : «ويقال للشمس إذا مالت للمغيب ، إذا زالت عن كبد السماء نصف النهار : قد تَزَحْلَفَتْ ، قال العجاج : والشمس ... الخ البيتين» . أما قوله : (دَنَفَا) فمعناه أنها صارت صفراء كالمريض ، يقال : دَنِفَت الشمس وأدْنَفَت إذا دَنَتْ للمغيب واصفرت .

(٢) من المفيد أن ننقل لك هنا نصَّ كلام الطبري الذي لخَّصه ابن عطية هنا ، فإن كلام الطبري أوضح ، قال : «وقد ذكرتُ في الخبر الذي رويتُ عن عبد الله بن مسعود أنه قال حين غربت الشمس : دَلَكَت براح ، يعني : براح مكاناً ، ولستُ أدري هذا التفسير ، أعني قوله : «براح مكاناً» من كلام من هو ميمَّن في الإسناد ؟ أو من كلام عبد الله ؟ فإن يكن من كلام عبد الله ، فلا شك أنه كان أعلم بذلك من أهل الغريب الذين ذكرتُ قولهم ، وأن الصوابَ في ذلك قولُه دون قولهم . وإن لم يكن من كلام عبد الله ، فإن أهل العربية كانوا أعلم بذلك منه» .

و «غَسَقُ اللَّيْلِ» : اجتماعه وتكاثف ظلمته ، قال الشاعر :

آبَ هَذَا اللَّيْلُ إِذْ غَسَقَـــا . . . . (١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غَسَقُ اللَّيْل : بدؤُه .

ونُصب قوله تعالى : ﴿قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بفعل مضمر ، تقديره : واقرأْ قرآنَ ، ويصحُّ أَن يُنْصب عطفاً على [ٱلصَّلاةَ] ، أي : وأَقِمْ قرآنَ الفجر ، وعبَّر عن صلاة الصبح خاصةً بالقرآن لأَن القرآن هو عُظْمُهَا (٢)؛ إِذْ قراءَتُهَا طويلة مجهودٌ بها ، ويَصِح أَن ينصب قولُه : [قُرْآنَ] على الإغراءِ . وقوله : ﴿إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ معناه : يشهده حفظة النهار وحفظة اللَّيل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه الصلاة والسلام : (يَتَعَاقَبُونَ فيكُم ملائكة باللَّيل وملائكة بالنَّهار ، ويجتمعون في الصبح وصلاة العصر)

---

(١) هذا صدر بيت لعبيد الله بن قيس الرَّقَيَّات ، والبيت بتمامه :

آبَ هَذَا اللَّيْلُ إِذْ غَسَقَـــا واشْتَكَيْتُ الْهَمَّ والأَرَقَـــا

وهو في (مجاز القرآن) ، واللسان (غَسَقَ) ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، والطبري ، والرواية في اللسان ومجاز القرآن والقرطبي : (إنَّ هذا اللَّيْلَ قد غَسَقَا) ، وهو شاهد على أن (غَسَقَ) بمعنى : أظلم وتكاثفت ظلمته . قال في اللسان : «وغَسَقَ الليلُ يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاً وغَسَقَاناً : انْصَبَّ وأظْلَم ، ومنه قول ابن قيس الرَّقيَّات : (إن هذا الليلَ ... البيت)

(٢) عُظْمُ الشَّيْء : مُعْظَمُه . اللسان (عظم) .

الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره (١) . وعلى القول بذلك مضى الجمهور .

وذكر الطبريُّ حديثاً عن ابن عسكر ، من طريق أبي الدرداء في قوله تعالى : ﴿كَانَ مَشْهُوداً﴾ ، قال محمد بن سهل بن عسكر : (يشهده الله وملائكته) ، وذكر في ذلك الحديث أن الله تبارك وتعالى ينزل في آخر الليل ، ونحو هذا مما ليس بقوي (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ﴾ ، [مِنْ] للتبعيض ، والتقدير : ووقتاً من الليل ، أي : وأَقِمْ وقْتاً من الليل ، والضمير في [بِهِ] عائد على هذا المقدر (٣) ، ويحتمل أن يعود على القرآن وإن كان لم يجر له ذكرٌ مطلق ، كما هو الضمير مطلق ، لكن جرى مضافاً إلى الفجر .

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد ، ومسلم في المساجد ، والنسائي في الصلاة ، والموطأ في السفر ، وأحمد (٢-٢٥٧) ولفظه كما في البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون) .

(٢) الحديث في تفسير الطبري ، وهو حديث طويل ، رواه محمد بن سهل بن عسكر ، عن أبي الدرداء ، من طريق الليث بن سعد ، وكذلك رواه محمد بن سهل ، عن آدم ، عن الليث بن سعد ، وفي هذا الحديث ما أشار إليه ابن عطية من أن الله تعالى يفتح الذكْرَ في ثلاث ساعات يبقين من الليل ... الخ ، (مما ليس بقوي) .

(٣) المقدر هو (وقْت) ؛ إذ التقدير عند ابن عطية : وأَقِمْ وَقْتاً من الليل .

و «تَهَجَّدْ» معناه : اطرح الهجود عنك ، والهجودُ : النومُ ، يقال : هَجَدَ يَهْجُدُ - بضم الجيم - هُجُوداً إذا نامَ ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا طَرَقَتْنَا والرِّفَاقُ هُجُودُ فَباتَتْ بِعَلَّاتِ النَّوَالِ تَجُودُ (١)

ومنه قول الحطيئة :

فَحَيَّاكِ وُدٌّ ما هَدَاكِ لِفِتْيَةٍ وَخُوصٍ بِأَعْلَى ذِي طُوالَةَ هُجَّدِ (٢)

وهذا الفعل جار مجرى : تحرَّب وتحرَّج وتأَثَّمَ وتحَنَّث ، ومثله ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٣) ، فمعناه : تَنَدَّمون ، أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم (٤) ، وهي انبساط النفس وسرورها ، يقال : رجلٌ فَكِهٌ

(١) البيت في تفسير الطبري ، وتفسير القرطبي ، وفي البحر المحيط . وفي اللسان (هَجَدَ) أنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ) : نام وأنَّ (هَجَدَ وتَهَجَّدَ) أيضاً : سَهِرَ ، وأنه من الأضداد ، ولكن فيه أيضاً عن جمهرة كبيرة من اللغويِّين أنَّه يقال : هَجَدَ إذا نام بالليل ، وهَجَّدَ إذا صلَّى بالليل ، وعن الأزهري أن الهاجِدَ هو النائم ، وهَجَدَ هجوداً إذا نام ، وأمَّا المتهَجِّد فهو القائم إلى الصلاة من النوم ، وكأنه قيل له مُتَهَجِّد لإلقائه الهجود وهو النوم عن نفسه ، وهذا هو معنى قول ابن عطية : جارٍ مجرى تحرَّج وتأثَّم ... الخ ، بمعنى : ألقى الحرج والإثم عن نفسه . فمعنى (هُجُود) في البيت : نائمون . والعَلاَّت هنا كالتَّعِلَّة ، وهي ما يُتَعَلَّلُ به ، يقول : إنها تجود علينا بالأماني ، وتعطينا من الأمل ما نَتَعَلَّلُ به ونَتَلَهَّى ولا تزورنا زيارة حقيقية بدلاً من هذه الأماني والتَّعلات .

(٢) البيت في اللسان (هَجَدَ) ، قال : «والهاجدُ : النائم ، والهاجِدُ والهَجُودُ : المصلِّي بالليل ، والجمع هُجودٌ وهُجَّدٌ ، قال الحطيئة فحيَّاكِ ... البيت» ، وذكر أيضاً شاهداً آخر على هُجُود .

(٣) من الآية (٦٥) من سورة (الواقعة) .

(٤) هكذا في كل الأصول ، وفي العبارة قلق ، والتَّنَدُّمُ في اللغة هو أن يتَّبع الإنسان أمْراً نَدَماً ، وفي المثل «التَّقدم قبل التَّندم» ، والندامى يطرحون الفاكهة بينهم لا عن أنفسهم .

إذا كان كثير السرور والضحك ، فالمعنى : وَوَقْتاً من اللَّيل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة ، وقال الأَسود ، وعلقمة ، وعبد الرحمن بن الأَسود : التَّهَجُّد بعد نومة ، وقال الحجاج بن عمرو : إنما التَّهَجُّد بعد رقدة ، وقال الحسن : التَّهَجُّد ما كان بعد العشاءِ الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : معناه : زيادةً لك في الفرض ، قالوا : وكان قيام الليل فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتحتمل الآية أن يكون هذا على جهة الندب في التَّنفل ، ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمرادُ هو وأُمته ، كخطابه في قوله تعالى : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ . وقال مجاهد : إنما هي نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأَنه مغفور له ، والناس يحطون بمثل هذا خطاياهم ، وبيَّن أَن النبي صلى الله عليه وسلم منذ غُفر له ما تقدم

---

(١) قال العلماءُ : في هذا التأويل بعْدٌ لوجهين : أحدهما تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجازٌ لا حقيقة ، والثاني قوله صلى الله عليه وسلم : (خمسُ صلوات فرضهن الله على العباد) ، وفي الخبر أن الله تعالى قال : (هُنَّ خمس وهُنَّ خمسون ، لا يُبَدَّل القولُ لدي) ، وهذا نصٌّ ، فكيف يقال إن الله افترض عليه صلاة زائدة على الخمس) .

من ذنبه وما تأخر عام الحديبية ، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل ، وقُرْباً أشرف من نوافل أُمَّته ؛ لأن هذه إما أن تجيء بها فرائضهم ، وإمَّا أن تحط بها خطيئاتهم ، وقد يتصور من لا ذنب له يتنفَّل ، فيكون تنفُّله فضلاً ، كنصراني يسلم وصبي يحتلم ، وضعَّفَ الطبري قول مجاهد (١) .

وقوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ عِدَةٌ من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأَنبياءُ حتى ينتهي إليه عليه الصلاة والسلام ، والحديث بطوله في البخاري ومسلم فلذلك اختصرناه (٢) ، ولأَجل ذلك الاحتمال الذي له في مرضات جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال : (أنا سيِّد

---

(١) قال الطبري : أما ما ذُكر عن مجاهد في ذلك فقولٌ لا معنى له ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذُكر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزول قول الله عزَّ وجلَّ عليه : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، وذلك أن هذه السورة أُنزلت عليه بعد منصرفه من الحديبية ، وأُنزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ عام قُبض ، وقيل له : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ ، فكان يُعَدُّ له صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد استغفار مائة مرة ، ومعلوم أن الله لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك ، فَبَيِّنٌ إذاً وجه فساد ما قاله مجاهد » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد والرقاق والأنبياء وتفسير سورة آل عمران ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، والترمذي في تفسير سورة الإسراء ، والقيامة ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في المقدمة ، والإمام أحمد في أماكن كثيرة من مسنده .

ولد آدم ولا فخر) (١) . و [عسَى] من الله واجبة ، و [مَقَاماً] نصب على الظرف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى ، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم يُستنهض للشفاعة في أن يُحَاسَب الناس ، وينطلقون من الموقف ، فيذهب لذلك ، وينص بأثر ذلك على أنه شفع في إخراج المذنبين من النار ، فمعناه الاقتضاب والاختصار ؛ لأن الشفاعة في المذنبين لم تكن إلا بعد الحساب والزوال من الموقف ودخول قوم الجنة ودخول قوم النار ، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء ، بل يشفعون ويشفع العلماء ، وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأُمتي) (٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود في السُّنَّة ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في المسند (١–٥ ، ٣–٢) ، ولفظه كما في المسند ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر) .

(٢) أخرجه أحمد ، والترمذيُّ وحسَّنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولفظه كما في الدر المنثور : في قوله : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ ، وسئل عنه قال : (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وينبغي أن يُتَأَوَّل هذا على ما قلناه : لأُمته وغيرها ، أو يُقال : كل منهما مقامٌ محمود . وقال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات : العامة ، وشفاعة في السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمشهور أنهما شفاعتان فقط . وحكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت : المقام المحمود هو أن الله عزَّ وجلَّ يُجْلِس محمداً -عليه الصلاة والسلام- معه على عرشه ، وروت في ذلك حديثاً ، وعضَّد الطبري جواز ذلك بِشَطَطٍ من القول ، وهو لا يخرج إلَّا على تَلَطُّف في المعنى ، وفيه بُعْدٌ ، ولا يُنْكر مع ذلك أن يُرْوى ، والعلم يتأَوله . وقد ذكر النقاش عن أَبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أَهل العلم يتحدثون بهذا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

من أَنكر جوازه على تأْويله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن تكون دعاءً في أن يُحَسِّن الله حالته في كل ما يتناول من الأُمور ، ويحاول من الأَسفار والأَعمال ، وينتصر من تصرف المقادير في الموت والحياة ، فهي على أَتَمِّ عموم ، ومعناها : ربِّ أَصلح لي وِرْدي في كل الأُمور وصَدري (١) ، وذهب المفسرون إلى أَنها في غرض مخصوص ، ثم اختلفوا في تعيينه ـ فقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : أَراد : أَدخلني المدينة وأَخرجني من مكة ، وتقدم في هذا التأْويل المتأَخِّرُ في الموضوع ، فإنه متقدم في

(١) أيْ : في بداية الأمور ونهايتها ، أو في إقبالي عليها وانصرافي عنها ، والمراد : في جميع الأمور من أولها إلى آخرها .

القول لأَن الإخراج من مكة هو المتقدم ، اللَّهم إنَّ مكان الدخول والفرار هو الأَهم . وقال أَبو صالح ، ومجاهد : أَدخلني في أَمر تبليغ الشرع ، وأَخرجني منه بالإعداد التام ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الإدخال بالموت في القبر ، والإخراج البعث . وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أَصوب .

وقرأ الجمهور : [مُدْخَلَ] و [مُخْرَجَ] بضم الميم ، فهو جرى على : أدخلني وأخرجني . وقرأ أَبو حيوة ، وقتادة ، وحميد : [مَدْخَلَ] و [مَخْرَجَ] بفتح الميم ، فهو غير جار على : أَدخلني ، ولكن التقدير : «أَدْخلني فأَدْخُل مَدْخَلَ» لأَنه إنما يجري على دخلَ ، و «الصدق» هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح ، كما تقول : «رجل صدق» أي : جامع للمحاسن .

وقوله تعالى : ﴿وَٱجْعلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ ، قال مجاهد وغيره : حُجَّةً ، يريد : تنصرني ببيانها على الكفار ، وقال الحسن وقتادة : يريد : مَنَعَةً ورياسةً وسيفاً ينصر دين الله تعالى ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بأَمر الله إياه رغبةً في نصر الدين ، فرُوي أَن الله تعالى وعده بذلك ، ثم أَنجز له في حياته وتَمَّمه بعد وفاته .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ جاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهقَ ٱلْبَاطِلُ﴾ الآية . قال قتادة : [ٱلْحَقُّ] : القرآن ، و[ٱلْبَاطِلُ] : الشيطان ، وقالت فرقة : الحقُّ :

الإيمان ، والباطلُ : الكفر ، وقال ابن جريج : الحق : الجهاد ، والباطلُ : الشِّرْك ، وقيل غير ذلك ، والصواب تعميم اللَّفظ بالغاية الممكنة ، فيكون التعبير : جاءَ الشرع بجميع ما انطوى فيه ، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه ، و «الباطلُ» : كلُّ مالا ينال به غاية نافعة . وقوله سبحانه : ﴿كَانَ زَهُوقاً﴾ ، ليست [كَانَ] إشارة إلى زمن مضى ، بل المعنى : كان وهو يكون ، وهذا كقولك : كان الله عالماً قادراً ، ونحو هذه .

وهذه الآية نزلت بمكة ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستشهد بها يوم فتح مكة ، وقت طعنه الأَصنام ، وسقوطها لطعنه إياها بمخصرة [١] حسبما في السيرة لابن هشام وغيرها . وقرأ الجمهور : [وَنُنَزِّلُ] بالنون ، وقرأ مجاهد : [وَيُنْزِلُ] بالياءِ خفيفة ، ورواها المروزي عن حفْصٍ . وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْقُرْآنِ﴾ ، يصحُّ أَن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، ويصحُّ أَن تكون لبيان الجنس [٢] ، كأَنه قال :

---

(١) المِخْصَرة : ما يُتَوَكَّأُ عليها كالعصا ونحوه ، وقضيب يشار به في أثناء الخطابة ، وكان يتخذه الملوك والخطباءُ. وقد روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها ويقول : (جاءَ الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) ، أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، من طُرقٍ ، عن سفيان ابن عُيَيْنَة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) قال ذلك الأخفش وأبو البقاء أيضاً ، وقال أبو حيان : « إنَّ [مِنْ] التي لبيان الجنس لا تتقدم على المبهم الذي تُبَيِّنه ، وإنما تكون متأخرة عنه » .

ونُنَزِّل ما فيه شفاءٌ من القرآن ، وأنكر بعض المتأولين أن تكون [مِنْ] للتَّبْعيض ، لأنه تحفَّظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاءَ فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون [مِنْ] للتَّبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مُبَعَّض ، فكأنه قال : ونُنَزِّل من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاءٌ . واستعارته الشفاءَ للقرآن هو بحسب إزالته الريب ، وكشفه غطاءَ القلب لفهم المعجزات والأُمور الدَّالَّة على الله تعالى ، المقرِّرة لشرعه . ويحتمل أن يراد بالشفاءِ نفعه من الأَمراض والرُّقي والتعويذ ونحوه (١) وكونه رحمة ظاهرة . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ بمعنى أنه عليهم عمًى ؛ إذْ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ﴾ الآية . «الإِنْسانُ» في هذه الآية لا يُرَادُ به العموم ، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة ، وهذا كما تقول عند غضب : «لا خير في الأَصدقاءِ ولا أمانة في الناس» ، فأَنت تعم مبالغة ، ومرادك البعض ، وهذا بحسب ذكر الظالمين

(١) الرُّقَى : جمع رُقْيَة ، وهي العُوذَةُ التي يُرقَى بها المريض ، والتَّعْويذ : الاعتصام بالرُّقْية من الشيطان ، والمؤمن لا يَتَعَوَّذ إلا بالله تعالى .

والخسارة في الآية ، قيل : فاتَّصل ذكر الكفرة ، ويحتمل أن يكون «الإنسان» في هذه الآية عامًّا للجنس ، على معنى : إن هذا الخُلُق الذميم في سجيته ، فالكافر يبالغ في الإعراض ، والعاصي يأْخذ بحظه منه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مؤمن : (فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عنه) (١) . ومعنى [أَعْرَضَ] وَلَّانا عُرْضَه (٢) ، [وَنَأَى] أي : بَعُدَ ، وهذه استعارة ، وذلك أنه يفعل أفعال المُعْرِض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه . وقرأ ابن عامر وحده : [وَنَاءَ] ، ومعناه : نهض متباعداً ، هذا قول طائفة ، وقالت أُخرى : هو قلب الهمزة بعد الألف في (نَأَى) بعينه ، وهي لغةٌ كرَأَى وراءَ ، ونحو هذه اللفظة قول الشاعر في وصف رامٍ :

حَتَّى إذَا ما الْتَأَمَتْ مَفَاصِلُهُ وَنَاءَ في شِقِّ الشِّمَالِ كَاهِلُهْ (٣)

أَي : نهض مُتَوَرِّكاً على شماله .

(١) أخرجه مسلم في السلام ، وأحمد في المسند (٥-٢١٩) ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثة ، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمَّا أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أُخبركم عن النفر الثلاثة ، أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعْرض الله عنه) .

(٢) عُرْضُ الشيء : جانبه وناحيته ، وعُرْضُ العُنُق والوجه : جانبه .

(٣) هذا البيت شاهد على أن (ناءَ) بمعنى : نَهَضَ مُتَوَكِّئاً على شِمَاله ، فهو من النَّوْء ، وهو النهوض والقيام . واللغويون يرون أن (نَاءَ) تأتي على القلب من (نأى) في اللفظ=

والذي عندي أن نَاءَ و نَأَى فعلان متباينان (١) . و ﴿نَـأَى بِجَانِبِهِ﴾ عبارة عن التَّحير (٢) والاستبداد ، و (نَاءَ) عبارة عن البُعْد والفراق .

ثم وصف الله تعالى الكفرة بأَنهم إذا مَسَّهم شرٌّ من مرض أَو مصيبة في مال أَو غير ذلك يَئِسُوا من حيث لا يؤمنون بالله ، ولا يرجون تصرُّف أَقداره .

ثم قال عزَّ وجلَّ : قُلْ يا محمد : ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ، أَي : طريقته وبحسب نِيَّتِهِ ومذهبه الذي يشبهه . وهو شكل له ، وهذه تدل دلالة على أَن «الإِنْسَان» أَولاً لم يُرَدْ به العموم ، أَي أَن الكفار بهذه الصفات ، والمؤمنون بخلافها ، وكلٌّ منهم يعمل على ما يليق به ، والرَّبُّ تعالى أَعلم بالمهتدي . وقال مجاهد : ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾

= ولكن المعنى واحد وهو البعد ، ويرى بعضهم أن (نَأَى) بمعنى : بَعُدَ ، و (نَاءَ) بمعنى : أعرض وتكبر مستغنياً ومعنى «الْتَأَمَتْ مفاصله» : اجتمعت وتوافقت على وضع معين ، وشِقُّ الشِّمال : جانبه . والكاهِلُ : مُقَدَّم أعلى الظَّهْر مما يلي العنق ، وهو الثلث الأعلى من الظهر ، وفيه ستُّ فِقَر ، وفي اللسان أن الكاهل هو الحارك ، وهو فروع الكتفين . هذا وقد أنشد المبرد :

أعَاذِلُ إنْ يُصْبِحِ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ ... بَعِيداً نَآنِي زائِري وقَرِيبِـي

وقال : (نآني) هنا فيه وجهان : أحدهما أنه بمعنى أبْعَدَنِي ، والثاني أنه بمعنى نأى عني ، قال أبو منصور ، وهذا هو المعروف ، تقول : نأيْتُ الدمع عن خدي بإصبعي ومنه :

إذا ما الْتَقَيْنَا سالَ مِنْ عَبَرَاتِنَـا ... شَـآبِيبُ يُنْأى سَيْلُهَـا بالأَصَابِـع

(١) معنى هذا أن ابن عطية يرى أن (نَأى) بمعنى : بَعُد ، وأنَّ (ناءَ) بمعنى : نَهَضَ ، وكأنه يستشهد بالبيت الذي أنشده على ذلك .

(٢) هكذا في الأصول ، ولعل الصواب : (التَّجَبُّر) .

معناه : على طبيعته ، وقال أيضاً : معناه : على حِدَته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : على ناحيته ، وقال قتادة : معناه : على حدته وعلى ما ينوي ، وقال ابن زيد : معناه : على دينه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة . وقوله تعالى : ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ توعُّدٌ بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

الضمير في [يَسْأَلُونَكَ] قيل : هو لليهود وأن الآية مدنية ، ورُوي عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَرَّ على حرث بالمدينة – ويروى على خرب – وإذا فيه جماعة من اليهود ، فقال

بعضهم لبعض : سلوه عن الرُّوح فإن أَجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك أَنه كان عندهم في التوراة أَن الرُّوح مما انفرد الله بعلمه ، ولا يُطْلع عليه أَحداً من عباده . قال ابن مسعود : وقال بعضهم : لا تسأَلوه لئَلَّا يأْتي فيه بشيءٍ تكرهونه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يعني – والله أَعلم – من أَنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته ، قال : فسأَلوه ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَوَكِّئاً على عسيب ، فظننت أَنه يوحى إليه ، ثم تلا عليهم الآية (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقيل : الآية مكيَّة ، والضمير لقريش ، وذلك أَنهم قالوا : نسأَل عن محمد – عليه الصلاة والسلام – أَهل الكتاب من اليهود ، فأَرسلوا إليهم إلى المدينة النَّضْر بن الحارث وعُقبة بن أَبي مُعَيط ،

---

(١) أخرج هذا الحديث أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

فقال اليهود : جربوا بثلاث مسائل ، سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الرُّوح ، فإن فسَّر الثلاثة فهو كذاب ، وإن سكت عن الرُّوح فهو نبيٌّ ، فسأَلته قريش عن الرُّوح ، فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : «غداً أُخبركم به» ، ولم يقل : «إن شاءَ الله» ، فاستمسك الوحي عنه خمسة عشر يوماً معاتبةً على وعده لهم دون استثناءٍ ، ثم نزلت هذه الآية (١) .

واختلف الناس في الرُّوح المسئول عنه ، أي روح هو ؟ فقالت فرقة هي الجمهور : وقع السؤال عن الأَرواح التي في الأَشخاص الحيوانية ، ما هي ؟ فالرُّوح اسمُ جنس على هذا ، وهذا هو الصواب ، وهو المشكل الذي لا تفسير له . وقال قتادة : الرُّوح المسئول عنه جبريل عليه السلام ، قال : وكان ابن عباسٍ يكتمه . وقالت فرقة : هو عيسى بن مريم عليهما السلام ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : مَلَك له سبعون

---

(١) أخرج أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن حبان ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي ، كلاهما في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قالت قريش لليهود : أَعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، قالوا : أوتينا علماً كثيراً ، أُوتينا التوراة ، ومن أُوتي التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ .

ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، لكل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله لسانُه بكل تلك اللُّغات ، فيُخلق من كل تسبيحة مَلَك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة ، ذكره الطبري . وما أظن القول يصحُّ عن علي رضي الله عنه . وقالت فرقة : الرُّوح القرآن ، وهذه كلها أقوال مفسِّرة ، والأوَّل أظهرها وأصوبها .

وقوله : ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ يحتمل تأْويلين : أحدهما أن يكون «الأَمْرُ» اسم جنس لِلأُمُور ، أي : الرُّوح من جملة أُمور الله التي استأْثر بعلمها ، فهي إضافة خلْق إلى خالق ، والثاني أن يكون مصدراً ، من أمر يأْمُرُ ، أي : الرُّوح مِمَّا أَمَرَ الله تعالى أمْراً بالكَوْن فكان .

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : ﴿وَمَا أُوتُوا﴾ ، ورواها ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الجمهور : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ .

واختلف فيمن خوطب بذلك ــ فقالت فرقة : السائلون فقط ، ترجم الطبري بذلك ، ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود . وقالت فرقة : المراد اليهود بجملتهم ، وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود . وقالت فرقة : العالم كله ، وهذا هو الصحيح ؛ لأن قول الله تعالى له : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ إنما هو أمر بالقول لجميع العالم ؛ إذ كذلك هي أقواله كلها ، وعلى ذلك تمَّت الآية من مخاطبة الكل . ويحتمل أيضاً أن

تكون مخاطبة من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ولجميع الناس . ويتَّصف ما عند جميع الناس من العلم بالقِلَّة بإضافته إلى علم الله عزَّ وجلَّ الذي هو بهذه الأُمور التي عندنا من عِلْمها طرف يسير جدًّا ، كما قال الخَضْر عليه السلام لموسى عليه السلام : «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلَّا كما نقص هذا العصفور من البحر» ، وأَراد الخَضْر علم الله بهذه الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير جدًّا نِسْبَةً إلى ما يخفى عنهم ، نِسْبة النقطة إلى البحر ، وأَمَّا عِلْم الله تبارك وتعالى على الإطلاق فغير مُتَنَاهٍ ، ويحتمل أَن يكون التجوز في قول الخَضْر عليه السلام : «كما نقص هذا العصفور» ، أَي : إنَّا لا ينقص عِلْمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق ، ثم مثَّل بنقرة العصفور في عدم النقص ؛ إذ نقصه غير محسوس فكأَنه معدوم ، فهذا احتمال ، ولكن فيه نظر ، وقد قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤْت من العلم إلَّا قليلاً وقد أُوتينا التوراة وهي الحكمة ، ومن أُوتي الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فَغُلِبوا ، وقد نصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأَحاديث بقوله : (كُلاًّ) ، يعني أَنَّ المراد بـ [أُوتِيتُمْ] جميع العالم ، وذلك أَن

يهود قالت له : أَنَحْنُ عنيت أَم قومك ؟ فقال : (كُلاًّ) (١) ، وفي هذا المعنى نزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا في ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ (٢) ، حكى ذلك الطبري رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية ، آيةٌ فيها شدَّة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي عتابٌ على قوله : (غدًا أُعْلِمُكُمْ) ، فأُمر أن يقول : ﴿ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فَيُذْعِن بالتسليم لله في أنه يُعْلِم بما شاءَ ، ويُمْسك عن عباده ما شاءَ ، ثم قيل له : وَمَا أُوتيتم يا محمد وجميع الخلائق من العلم إِلَّا قليلاً ، فالله تعالى يُعْلِمُ من عِلْمِه بما شاءَ ، ويَدَعُ ما شاءَ ، ولئن شاءَ لذهب بالوحي الذي آتاك ، ثم لا ناصر لك منه ، فليس بعظيم أَلَّا تجيءَ بتفسير في الرُّوح الذي أَردتَ تفسيره للناس ووعدتهم بذلك . وروى ابن مسعود

---

(١) حكى الطبري عن عطاء بن يسار ، قال : نزلت بمكة ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أحبارُ يهود ، فقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا أنَّكَ تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، أَفَعَنَيْتَنَا أم قومك ؟ قال : كُلاًّ قد عَنَيْتُ ، قالوا ، فإنَّكَ تتلو أنَّا أُوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيءٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي في علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، فأنزل الله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا في ٱلأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (لقمان) .

أنه ستخرج ريح حمراءُ مِن قِبَلِ الشَّام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور ، وتذهب به ، ثم يتلو هذه الآية (١) .

---

(١) أخرج هذا الخبر عن ابن مسعود عددٌ كبير من الرواة ، وقد اختلفت الألفاظ باختلافهم ، فقد أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي ، وابن مردويه في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : إنَّ هذا القرآن سيرفع ، قيل : كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا ، وأثبتناه في المصاحف ؟ ، قال : يُسْرَى عليه في ليلة واحدة فلا يترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شيءٌ ، ثم قرأ : ﴿ ولَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ ﴾ . وأخرج ابن أبي داود ، عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه ، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه نحوه . وقد ذكر الإمام السيوطي كل هذه الروايات في (الدرّ المنثور) . وقد ردّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً) ، وهو حديث أخرجه البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال بعض العلماء : وحديث ابن مسعود مروي من طرق حسان ، فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أراد بالعلم في حديث عبد الله ابن عمرو ما سوَى القرآن ، أي : ينقرض العلم حتى يرفع القرآن في آخر الأمر ، ويؤيدون ذلك بحديث رواه ابن ماجه عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتَّى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاة ولا نُسُك ولا صدقة ، فيُسْرَى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية ، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » ، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيامٌ ولا نُسُك ولا صدقة . قال له صِلَة (أحد رجال سند الحديث). ما تُغْني عنهم « لا إله إلا الله » وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردّدَها ثلاثاً ، كل ذلك يُعْرِض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلة ، تُنَجِّيهم من النار ثلاثاً . ومثل هذا أيضاً ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل ، له دويٌّ كدوي النحل ، فيقول الله : ما بالك ، فيقول : يا رب منك خرجت وإليك أعود ، أُتْلَى فلا يُعمل بي ، أُتْلَى ولا يُعْمَلُ بي . وأخرج مثله محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يُبْدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله عزَّ وجلَّ . و «الوكيل» : القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ استثناءٌ منقطع ، أي : لكن رحمةً من ربك يمسك ذلك عليك ، وهذا الاستثناءُ المنقطع يُخَصِّص تخصيصاً مَّا ، وليس كالمتصل ؛ لأن المتصل يُخَصِّص من الجنس أو الجملة ، والمنقطع يُخَصص أجنبيًّا من ذلك ، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلَّا أعجمي ، وقد حُكي ذلك عن ابن خويز مقداد . ثم عدَّد عليه عزَّ وجلَّ كِبَرَ فضله في اختصاصه بالنبوَّة ، وحمايته من المشركين إلى غير ذلك مما لا يُحصى .

قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية . سبب هذه الآية أن جماعةً من قريش قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن فإنَّا نقْدِر نحن على المجيء بمثل هذا ، فنزلت هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز المُعْلِمة بأن جميع الخلائق إنساً وجِنًّا لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليـــه .

والعجز عن معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه ، وعلَّة ذلك الإحاطة التي لا يتَّصف بها إلَّا الله تعالى ، والبَشَر مقصِّر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص ، فإذا نظم كلمة خفي عنه – لِلْعِلَل التي ذكرنا – أَليق الكلام بها في المعنى ، وقد ذكرتُ هذه المسأَلة في صدر هذا الديوان .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ في موضع رفع ، و [لَا] مُلْتقيةٌ قَسَماً ، واللام في قوله تعالى : [لَئِنْ] مؤذنة غير لازمة ، قد تحذف أحياناً ، وقد تجيءُ هذه اللام مؤكدة فقط ويجيءُ الفعل المنفي مجزوماً ، وهذا اعتمادٌ على الشرط ، ومنه قول الأَعشى :

لَئِنْ مُنِيتَ بِنَا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ لَا تُلْفِنَا عن دِماءِ الْقَوْمِ نَنْتَفِلُ (١)

---

(١) هذا البيت من قصيدة الأعشى المشهورة التي قالها ليزيد بن مسهر أبي ثابت الشيباني ، والتي يقول في مطلعها :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟

والتي يخاطبه فيها قائلا في معنى هذا البيت : إنَّنا لا نَمل القتال ولا نركن إلى الراحة ، ولو كان من قدرك أن تُبْتَلَى بنا في أعقاب معركة طاحنة خضناها فلن تجد منَّا وهَناً ولا ضعفاً ، بل وجدت فينا قوة على القتال وصبراً وجلداً . ومُنيت : أصبتَ أو رُميتَ ، وغِبّ : بَعْد أو عَقِب ، ونَنْتَفِلُ : نتبرأ ، يقال : انْتَفَل من القوم بمعنى : ابتعد عن نصرتهم ومعونتهم .

والبيت شاهد عند النحويين على أنه يجوز في الشِّعر – بِقِلة – أن يكون الجواب للشرط إذا اجتمع مع القَسَم وتأخر عنه ، فإن لام (لَئِن) هنا موطئة للقسم ، وقول الشاعر : (لا تُلْفِنَا) هو جواب للشرط لا للقسم ، بدليل الجزم ، ولو كان جواباً للقسم لما جاءَ مجزوماً ، وقد قال بعض النحويين : إن اللام في (لَئِن) زائدة ، وابن عطية من هذا الرأي ، وعليه أيضاً ابن هشام في المغني ، قال : وهذا كقول الآخر : =

و « الظَّهِيرُ » : المُعِينُ ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ (١) الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفَهِمت العربُ بخلوصِ فَهْمها في مَيْز الكلام ودُرْبتها به مالا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة ، ففهموا العجز عنه ضرورةً ومُشاهدةً ، وعَلِمَه الناسُ بعدهم استدلالاً ونظراً ، ولكلٍّ حصل علمٌ قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة ، وهذا كما علمت الصحابةُ شَرْعَ النبي عليه الصلاة والسلام وأعمالَه مشاهدةً عِلْمَ ضرورة ، وعلمنا نحنُ المتواتِرَ من ذلك بنقل التَّواتر ، فحصل للجميع القَطْعُ ، لكن في مرتبتين ، وفَهِم إعجازَ القرآن أَربابُ الفصاحة الذين لهم غرائب في مَيْز الكلام . أَلا ترى إلى فَهْم الفرزدق شعْرَ جرير في شعر ذي الرُّمَّة في قوله :

يَعُدُّ النَّاسِبُونَ إلى تَمِيـمٍ . . . . (٢)

= لَئِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَمَــا أَرَى تَبَارِيحَ مِنْ لَيْلَى فَلَلْمَـوْتُ أَرْوَحُ

فإن الشرط قد أُجيب بجملة مقرونة بالفاء ، ولو كانت اللام موطئةً للقسم لم يُجب إلا القسم . والخلاف طويل ، ولكلٍّ حجته ، فليرجع إلى الموضوع في كتب النحو وشواهده ، كالخزانة ، والمغني ، والأشموني وشروحه .

(١) من الآية (٤) من سورة (التحريم) .

(٢) تروي كُتُب الأدب أن جرير بن عطية الشـاعر المشهور مَرَّ ذات يوم على ذي الرُّمة ، فقال له : يا غيلان ، أنشدني ما قُلْتَ في المَرَئِـيِّ (وهو شاعرٌ عرف بهذا الاسم) ، فأنشده : =

الأبيات كلها ، وألا ترى قصة جرير في تواردِه مع الفرزدق في قول الفرزدق :

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ . . . .

وفي قوله :

تَلَفَّتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنَ قَيْنِ . . . . (١)

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفَتْهُ الرِّيحُ وامْتُنِحَ الْقِطَارَا

ومنها :

إذَا الْمَرَئِيُّ شَبَّ لَهُ بَنَاتٌ عَقَدْنَ بِرَأسِهِ إبَةً وَعَارَا

فقال جرير : ألا أعينُكَ ؟ قالَ : بَلَى ، بأبي وأمّي ، فقال جرير :

يَعُدُّ النَّاسِبونَ إلى تَمِيمٍ بُيُوتَ المَجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارَا

يَعُدُّونَ الرِّبَابَ وآلَ سَعْدٍ وعَمْراً ثُمَّ حَنْظَلَةَ الْخِيَارَا

ويَهْلِكَ وَسْطَهَا الْمَرَئِيُّ لَغْواً كَمَا أَلْغَيْتَ في الدِّيَةِ الْحُوَارَا

قالوا : فَمَرَّ ذو الرُّمة بعد ذلك بالفرزدق ، فقال له : أنشدني ما قلت في المَرَئِيِّ ، فأنشده القصيدة ، فلما انتهى إلى هذه الأبيات ، قال الفرزدق : حَسّ ، أعِدْ عَلَيَّ ! فأعاد ، فقال : « تالله لقد عَلَكَهُنَّ أشَدُّ لَحْيَيْنِ مِنْكَ » .

وابن عطية يشير إلى هذه القصة ، ويريد أن يقول : إن الفرزدق بغريزته وفطرته فهم أن هذه الأبيات ليست من شعر ذي الرُّمة ، وإنما هي من شعر جرير ، ولهذا قال له : لقد عَلَكَهُنَّ (أيْ : أدار هـذه الكلمات في فمه) ، والمعنى : لقد أنشَأها من هُوَ أشَدُّ منك قدرة على قول الشعر ، وهو جرير ، وهذا هو الفهم بالفطرة ، وهو معرفة أسرار البلاغة في الكلام عن ضرورة ومشاهدة .

(١) يشير ابن عطية بهذا إلى أبيات من الشّعر قالها كلٌّ من الفرزدق وجرير في خبر روته عنهما كتب الأدب ، وفيه دليل على أن الفطرة هي التي هدتهم إلى معرفة أسرار البلاغة في الكلام . ولهذا عرفوها وفهموها ضرورة ، وفهموا وعرفوا أن القرآن فوق مستواهم ، وأن عجزهم=

وألا ترى قول الأعرابي : «عزَّ فحكم فقطع» ؟ وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله تعالى : ﴿حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ (١) ، فقال : إن الزيارة تقتضي الانصراف .

ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى :

وأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ . . . . (٢)

= عنه ضرورة وخبرة وإحساس ، والخبر يقول :

خرج جرير والفرزدق مُرْتَدِفَيْنِ على ناقةٍ إلى هشام بن عبد الملك ، فنزل جرير يَبُول ، فجعلت الناقة تحت الفرزدق تَتَلَفَّت ، فضربها الفرزدق وقال :

عَلامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِي وخَيْرُ الناسِ كُلُّهُمُ أمَامِي ؟
مَتَى تَرِدِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنَ التهْجِيرِ والدَّبَرِ الدَّوَامِي

ثم قال لنفسه : الآن يجيءُ جرير ، فأنْشِدُهُ هذين البيتين ، فَيَرُدُّ عليَّ ويقول :

تَلَفَّتُ أنها تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ إلى الكِيرَيْنِ والفَأْسِ الكَهَامِ
مَتَى تَرِدِ الرُّصَافَةَ تَخزَ فيهَا كَخِزْيِكَ في المَوَاسِمِ كُلَّ عَامِ

ثم جاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال له : ما يُضحكك يا أبا فراس ؟ ، قال : لقد قلتُ بيتين ، وأنشده بيتيه : (عَلامَ تَلَفَّتِين ...) ، فقال جرير : وأنا أقول : (تَلَفَّتُ أنها ...) كما قال الفرزدق سواءً ، فقال الفرزدق : والله لقد قلتُ هذين البيتين قبلك ، قال جرير : أما علمتَ أن شيطاننا واحد ؟

(١) من الآية (٢) من سورة (التكاثر) ، وابن عطية يشير إلى قصة أعرابي سمع هذه الآية فقال : «بُعِثَ القومُ للقيامة وربِّ الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا مقيم» ، وهذا مبني على تأويل ذكره بعض المفسرين ، يقولون : ﴿حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ معناها : حتى مُتُّم وجئتموها زائرين ، ثم ستنصرفون عن هذه القبور إلى بيوتكم الدائمة ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، والتعبير بالزيارة يُعطي معنى الانصراف عنها إلى المقر الدائم للإنسان .

(٢) هذا صدر بيت هو ثاني قصيدة قالها الأعشى يمدح هَوْزَةَ بن علي الحنفي ، قال :

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا وَاحْتَلَّتِ الغَمْرَ فالجُدَّيْنِ فالفَرَعَا =

ومنه قول الأعرابي للأصمعي :

مَن أَحْوَجَ الكريم إلى أن يقسم ؟

ومن فهمهم أنهم ببدائههم يلقون بكلمة منثورة تفضُل المُنَقَّح من الشعر ، وأمثلة ذلك محفوظة ، ومن ذلك أَجْوِبتُهم المُسْكتة ، إلى

=وَأنْكَرَتْني وَمَا كَانَ الذي نَكِرَتْ   مِنَ الْحَوَادِثِ إلاَّ الشيْبَ والصَّلَعَا

والبيت في اللسان (نكر) ، قال : « أنكرتُ الشيء وأنا أُنكِرُه إنكاراً ، ونكِرْتُه مِثْلُه . قال الأعشى : وأنكرتني ... البيت » ، ومن نفس المعنى قوله تعالى : ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً﴾ .

ومما يروى عن بيت الأعشى أن الخليل بن أحمد خرج مع صديق له يكنى أبا المُعَلَّى ، وكان شديد الصَّلَع ، ثم مرت بهما امرأة ومعها بنات لها ، فأراد أبو المعلَّى أن يكلمها فنهاه الخليل فلم ينته ، وقال لها : يا أَمَةَ الله ، أَلَكِ زوج ؟ قالت : لا ، ولا لواحدة منا ، قال : فهل لكن في أزواج ؟ قالت : وَدِدْنا والله ، قال : فأنا أتزوجك ، ويتزوج هذا إحدى بناتك ، قالت له : لقد ابتلاك الله بأن قَرَعَ رأسك بمسحاة ، وجعل لك عِقْصَةً بيضاء في قفاك ، وبلغ من جهلك أنك خضبتها بحمرة ، فلو كنت خَضَبْتَ بسواد لغطيت عوارك وأظُنك من رهْط الأعشى ، الذي قال : وأنكرتني ... البيت . وهكذا لم يَسْلَم هو والخليل من طول لسانها .

أما ما ذكره ابن عطية من فهم بشار وعلمه بقول أبي العلاء في شعر الأعشى فقد أورده الأصفهاني في الأغاني ، قال : « حدثني أبو عبيدة : قال : سمعت بشاراً يقول وقد أُنشد في شعر الأعشى : (وأنكرتني وما كان الذي نكرت) البيت : هذا بيتٌ مصنوعٌ ما يُشْبِه كلام الأعشى ، فعجبت لذلك ، فلما كان بعد هذا بعَشر سنين كنتُ جالساً عند يونس فقال : حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى ، فجعلْتُ حينئذ أزدادُ عجباً من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر » .

غير ذلك من براعتهم في الفصاحة وكونهم فيها النهاية ، كما كان السِّحر في زمن موسى عليه السلام ، والطب في زمن عيسى عليه السلام ، فهم مع هذه الأَفهام أَقَرُّوا بالعجز ، ولجأَ المُحَادُّ [1] منهم إلى السيف ، ورضي بالقتل والسباءِ وكشف الحُرَم ، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضـــة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذلك التحدي بالعشر السُّور ، والتحدي بالسُّورة ، إنما وقع كله على حدٍّ واحد في النظم خاصة ، وقيَّد العشر بالافتراءِ [2] لأَنهم قالوا : إن القرآن مفترى ، فدعاهم بعقب ذلك إلى الإتيان بعشر سُوَر مفتريات ، ولم يذكر الافتراءَ في السُّورة لأَنهم لم يجر عنهم ذكر ذلك قَبْلُ ، بل قال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [3] ، على أَنه قد جاءَ ذكر السُّورة مع ذكرهم الافتراءَ في سورة هود ، وقد اختلف الناس في هذا الموضع - فقيل : دُعُوا إلى السورة المماثلة في

(١) المُحَادُّ : المخالف المعاند ، من المُحَادَّةِ ، وهي العناد والمخالفة .

(٢) وذلك في قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (هود) : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ .

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (البقرة) .

النظم والغيوب وغير ذلك من الأَوصاف ، وكان ذلك من تكليف مالا يطاق ، فلما عسر عليهم خُفِّفَ بالدعوة إلى المفتريات ، وقيل غير هذا مما ينحلُّ عند تحصيله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

هذه آية تنبيه على فضل الله تعالى في القرآن على العالم ، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم . و «تَصْريف القول» هو ترديد البيان عن المعنى . وقرأ الجمهور : [صَرَّفْنَا] بتشديد الراءِ ، وقرأ الحسن : [صرَفْنَا] بفتح الراءِ خفيفة .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، ويكون المفعول بـ [صَرَّفْنَا] مقدراً ، تقديره : ولقد صرَّفنا في هذا القرآن التنبيه والعِبَرَ من كل مثل ضربناه ، ويجوز أن تكون

مؤكدة زائدة ، والتقدير : ولقد صرَّفنا كلَّ مثل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (١) .

وقوله تعالى : [فَأَبَى] عبارة عن تكسُّب الكفار الكفر ، وإعراضهم عن الإيمان ، وفي العبارة بـ [أَبَى] تغليظ ، والكفر بالخلق والاختراع هو من فعل الله تعالى ، وبالتَّكَسُّب والدُّءُوب هو من الإنسان . و [كُفُوراً] مصدر كالخروج .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا﴾ (٢) ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿حَتَّى تَفْجُرَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم ، وفي القرآن [فَانْفَجَرَتْ] (٣) ، وانْفَجَرَ مطاوع فَجَرَ ، فهذا ممَّا يقوي القراءة الثانية ، وأمَّا الأُولى فتقتضي المبالغة في التفجير . و « الينبوع » : الماءُ النابع ، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماءِ الكثير .

---

(١) من الآية (١٢٥) من سورة (البقرة) . وهي مثلها في أن [مِنْ] زائدة ، والتقدير : واتخذوا مقامَ إبراهيم مُصَلى .

(٢) بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم مع الكسرة . وهي تدلُّ على كثرة الانفجار من الينبوع ، وقراءة التخفيف تتجه إلى أن الينبوع واحد .

(٣) من قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة (البقرة) : ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ .

وطلبت قريش هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكَّة ، وإيَّاها عنوا بـ [ٱلْأَرْضِ] ، وإنما يراد بإطلاق لفظة الأَرض هنا الأَرضُ التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه ، كقوله تعالى : ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (١) ، فإنما يراد : من أَرض تصرُّفهم وقطعهم السُّبل ومعاشهم ، وكذلك أَيضاً اقتراحهم بالجنَّة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها ، وإلَّا ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه ، وإنما طالبوه بـأَمر إلٰهي في ذلك الموضع الجدب . وقرأَ الجمهور : [جَنَّةٌ] . وقرئ : (حبة) ، ذكره المهدوي . وقوله تعالى : [فَتُفَجِّرَ] تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية ، كقوله سبحانه : ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾ (٢) ، و [خِلَالَهَا] ظرف ، ومعناه : أَثناءَها وفي داخلها .

ورُوي في قول هذه المقالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديث طويل ، مقتضاه أَن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وعَبْد الله بن أَبي أُمية ، والنضْر بن الحارث ، وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها اجتمعوا فعرضوا عليه أَن يُمَلِّكوه ــ إن أَراد ــ المُلْك ، ويجمعوا له كثيراً من المال إن أَراد الغنى ، أَو يُطبُّوه إن كان به داءٌ ، ونحو هذا من الأَقاويل ،

(١) من الآية (٣٣) من سورة (المائدة) .
(٢) من الآية (٢٣) من سورة (يوسف) .

فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك إلى الله ، وقال : إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم ، فإن سمعتم وأطعتم فحسن ، وإلَّا صبرت لأَمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاءَ ، فقالوا له حينئذ : فإن كان ما تزعمه حقًّا فَفَجِّر ينبوعاً ونؤمن لك ، ولتكن لك جنة ، إلى غير ذلك مما كلفوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا كله إلى الله ، ولا يلزمني اقتراح هذا ولا غيره ، وإنما أنا مستسلم لأَمر الله تعالى (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا هو معنى الحديث ، وفي الأَلفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سَوْقُ جميعها ، فاختصرتُ لذلك .

قوله تعالى : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ﴾ الآية . قرأَ الجمهور : ﴿أَوْتُسْقِطَ﴾ بضم التاءِ [ٱلسَّمَاءَ] بالنصب ، وقرأَ مجاهد : ﴿أَوْ تَسْقُطَ ٱلسَّمَاءُ﴾ برفع «ٱلسَّمَاءِ» وإسناد الفعل إليها . وقوله : ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة

(١) الحديث طويل ، وهو بنصه الطويل في تفسير الطبري ، والقرطبي ، وفي الدرّ المنثور ، وتفسير ابن كثير ، وقد أخرجه ابن جرير ، وابن إسحق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي الألفاظ اختلاف باختلاف الروايات كما قال المؤلف رحمه الله .

إلى ما تَلا عليهم قبل ذلك في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ (١) . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرٍو ، وحمزة ، والكسائي : [كِسْفاً] بسكون السين ، إلَّا في الرُّوم (٢) فإنهم حرَّكوها ، ومعناها : قطعاً واحداً ، قال مجاهد : السماءُ جميعاً ، وتقول العرب : « كَسَفْتُ الثَّوْبَ » ونحوه : قطعته ، فالكِسَف - بفتح السين - المصدر ، والكِسْف : الشيءُ المقطوع ، قال الزجاج : المعنى : أَوْ تُسقط السماءَ علينا طبَقاً ، واشتقاقه من : كَسَفْتُ الشيءَ إذا غَطَّيْتَهُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس بمعروف في دواوين اللغة (كَسفَ) بمعنى (غَطَّى) ، وإنما هو بمعنى (قَطَعَ) ، وكأَن كسوف الشمس والقمر قطعٌ منهما ، وقرأ نافع ، وعاصم - في رواية أَبي بكر -(٣) [كِسَفاً] بفتح السِّين ، أَي : قطعاً ، جمع (كِسْفَةٍ) .

---

(١) من الآية (٩) من سورة (سبأ) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٤٨) : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ .

(٣) وهي أيضاً قراءة عاصم في رواية حفص كما هو ثابت في المصحف ، فلا مبرِّر لهذا التخصيص .

وقوله : [قَبِيلاً] معناه : مقابلةً وعياناً ، وقيل : معناه : ضامناً وزعيماً بتصديقك ، ومنه القبالة ، وهي الضمان ، والقَبيلُ : المُتَقَبِّلُ الضامن ، وقيل : معناه : نوعاً وجنساً لا نظير له عندنا . وقرأ الأعرج : [قُبُلاً] وهو بمعنى المقابلة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

قال المفسرون : «الزُّخْرُف» : الذهب في هذا الموضع ، والزخرف : ما تُزَيِّن به ، كان بذهب أو غيره ، ومنه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾(١) ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود : «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ» . وقوله : ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يريد : في الهواءِ عُلُوًّا ، والعربُ

(١) من الآية (٢٤) من سورة (يونس) .

تسمِّي الهواءَ علوًّا سماءً ، لأَنه في حيِّز السُّمُوِّ ، ويحتمل أَن يريد السماءَ المعروفة ، وهو الظاهر ؛ لأَنه أَعلمهم أَنَّ إِلٰهَ الخَلْق فيها (١) ، وأَنه يأْتيه خبرها . و [تَرْقَى] معناه : تصعد ، والرُّقِيُّ : الصعود .

ويُرْوى أَن قائل هذه المقالة هو عبد الله بن أَبي أُمية ، فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نؤمن لك حتى تأْتينا بكتاب – أَراد هنا كِتابَه (٢) – فيه : من الله عزَّ وجلَّ إلى عبد الله بن أَبي أُمية . ورُوي أَن جماعتهم طلبت هذا النحو منه . فأَمره الله تعالى أَن يقول : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ ، أي : تنزيهاً له من الإِتيان إليكم مع الملائكة قبيلاً ، ومن أَن يخاطبكم بكتاب كما أَردتم ، ومن أَن أَقترح عليه هذه الأَشياءَ ، وهل أَنا إلَّا بشر منكم أُرسلتُ إليكم بالشريعة ، فإنما عليَّ التبليغ فقط . وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر : ﴿ قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ ، على معنى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سبَّح عند قولهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ . هذه الآية على معنى التوبيخ والتَّلَهُّف من النبي صلى الله عليه وسلم ، كأَنه يقول متعجباً منهم : ما شاءَ الله كان ، ما منع الناس أَن يؤمنوا إِذْ جاءَهم الهدى إِلَّا هذه العلَّةُ النزرة (٣) والاستبعاد الذي لا يستند إلى حجَّة ، وبعثةُ

(١) هكذا في الأصول ، والله سبحانه وتعالى في كل مكان .

(٢) لأنهم في بعض الروايات طلبوا كتاباً لكل واحد باسمه ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً ﴾ .

(٣) التافهـة .

الْبَشَر رُسُلًا غير بدع ولا غريب ، فَبِهَا يقع الإفهامُ والتمكنُ من النظر ، كما لو كان في الأَرض ملائكةٌ يسكنونها [مُطْمَئِنِّينَ] أي : وادعين فيها مُقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة ، لِيَقَع الإِفْهَام ، وأَمَّا البَشَر فلو بُعث إليهم مَلَك لنفرت طبائعهم من رؤْيته ، ولم تحتمله أبصارهم ، ولا تجلَّدت له قلوبهم ، وإنما الله أجرى أحوالهم على معتادها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

رُوي أن الملأَ من قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المقالات التي تقدم ذكرها ، من عرض المُلْك عليه والغنى وغير ذلك ، وقالوا له في آخر قولهم : فَلْتَجِيْ معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك . قال المهدوي : رُوي أنهم قالوا له : فمن يشهد لك ؟ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكروها ، ففي ذلك نزلت هذه الآية ، أي : الله يشهد بيني وبينكم ، الذي له الخبر والبصر بجميعنا ، صادقنا وكاذِبنا . ثم ردَّ الأَمر إلى خلق الله واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر ، أي : ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ ، وفي قوله تعالى : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ وعيدٌ .

ثم أخبر تعالى أنهم يحشرون على الوجوه عُمْياً وبُكْماً وصُمًّا ، وهذا قد اخْتُلِف فيه - فقيل : هي استعارات ، إمَّا لأَنهم من الحيرة والهَمِّ والذهول يشبهون أَصحاب هذه الصفات ، وإمَّا من حيث لا يرون ما يسرهم ، ولا يسمعون ، ولا ينطقون بحجَّة . وقيل : هي حقيقة كلها ، وذلك عند قيامهم من قبورهم ، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أَبصارهم وسمعهم ونطقهم ، فعند ردِّ ذلك إليهم يرون النار ، ويسمعون زفيرها ، ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً : انْصَرَفَ على وجهه ، ويقال لِلْبَعِير : كأَنما يمشي على وجهه ، ومَنْ قال ذَلِكَ في الآية حقيقةٌ

قال : أقدرهم الله تعالى على النُّقلة على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على النقلة على الأقدام ، وفي هذا المعنى حديثٌ ، قيل : يا رسول الله ، كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ قال : (أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه) ؟ (١) قال قتادة : بلى وعزَّة ربنا .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أي : كلما فرغت من إحراقهم ، فيسكن اللهيب القائِمُ عليهم قدر ما يعادون ثم يثور ، فتلك زيادة السعير ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالزيادة في حَيِّزهم ، وأما جهنم فعلى حالها من الشِّدَّة لا يصيبها فتور . و «خَبَت النَّارُ» معناه : سكن اللَّهبُ والجمر على حاله ،

---

(١) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أنس رضي الله عنه . ولفظه كما ذكره في الدرّ المنثور : قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناسُ على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم . وأخرج ابن جرير مثله عن الحسن رضي الله عنه ، وأخرج مثله أبو داود ، والترمذي وحسَّنه ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي أوله زيادة على ما هنا جاء فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يحشر الناسُ يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ... الحديث) .

و « خَمَدَت » معناه : سكن الجمر وضعف ، و « همدت » معناه : طفيت جملة ، ومن هذه اللَّفظة قول الشاعر :

لِمَنْ نَارٌ قُبَيْلَ الصُّبْـــحِ عِنْدَ الْبَيْتِ ما تَخْبُو
إذا ما أُخمِدَتْ يُلْقَـــى عَلَيْهَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ ؟ (١)

ومنه قول عديٍّ بن زيد :

وَسْطُهُ كَالْيَرَاعِ أَوْ سُرُجِ المِجْـ ـدَلِ حيناً يَخْبُو وحيناً يُنيرُ (٢)

---

(١) البيتان في اللسان (ندل) ، وقد نسبهما إلى عمر بن أبي ربيعة ، وهما أيضاً بالديوان (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) وقد صدرت سنة ١٩٧٨ ، واعتمدت على أكثر الطبعات السابقة ، وأشارت في الهامش إلى أن البيتين من الشعر المنسوب إلى عمر . ورواية البيت الثاني في اللسان والديوان : (إذا ما أُوقِدَتْ) . والشاهد هنا أن (أُخمدت) من لفظ : « خَمَدَت النار » بمعنى : سكن الجمر وضعف . والمَنْدَل : العود الرَّطْبُ الذي يُتَبَخر به ، وهو المَنْدَلِي ، نُسب إلى بلد بالهند اسمُها مَنْدل ، وقد استعملت هذه الكلمة في بيت كثير الذي يقول :

بِأطْيَبَ من أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِنـــاً وَقَدْ أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُهَا

(٢) البيت لعديٍّ بن زيد العبادي ، وهو في تفسير الطبري ، والبحر المحيط . قال محقق الطبري : « وهو مما كتب به إلى النعمان ، وهو من غُرر قصائده » . واليراعُ كما قال في اللسان (يرع) : « اليراعُ كالبعوض يغشى الوجهَ ، واحدتُه يراعة . واليَرَاعُ : فراشةٌ إذا طارت في الليل لم يشك من لم يعرفها أنها شرارةٌ طارت عن نار ، قال عمرو بن بحر : نارُ اليراعة قيل : هي نار حُبَاحِبٍ ، وهي شبيهة بنار البرق . قال : واليراعة طائر صغير ، إن طار بالنهار كان كبعض الطير ، وإن طار بالليل كان كأنه شهاب قُذف أو مصباحٌ يطير » . والمِجْدَل بكسر الميم وسكون الجيم : القَصْر المشرف ، لوثاقة بنائه ، قال في اللسان : « وجمعه مجادل ، وقال الأعشى :

في مِجْدَلٍ شُـــدِّدَ بُنْيَـــانُهُ يَزِل عَنْهُ ظُفُـــرُ الطـــائِرِ

والشاهد هنا هو استعمال الفعل (يَخْبُو) بمعنى : تَسْكُن ناره وتضعف .

ومنه قول القطامي :

. . . . فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَهُبُّ سَاعَـــا (١)

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ ، الآية إشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم . وقوله : [بِآيَاتِنَا] يعُمُّ الدلائل والحُجَج التي جاءَ بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويَعُمُّ آيات القرآن الكريم وما تضمَّن من خبر وأمر ونهي . ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث ، وخصَّه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن الكريم ، ووَجْهُ تخصيصه التعظيم له ، والتنبيه على خطارة (٢) الكفر في إنكاره ، وقد تقدم اختلاف القراء في الاستفهامين في غير هذا الموضع .

---

(١) هذا عجز بيت ، والبيت بتمامه :

وكُنـــا كالْحَرِيقِ أَصَابَ غَابَـا فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَهُبُّ سَاعَـــا

وهو في الديوان ، وفي اللسان (سوع) . قال : « الساعة جزءٌ من أجزاء الليل والنهار ، والجمع ساعاتٌ وساعٌ ، قال القطامي : وكنا كالحريق لَدَى كفاحٍ ... البيت » ، ثم نقل عن ابن بري أن المشهور في صدر البيت : « كنا كالحريق أصاب غابا » . وقد استشهد في (مجاز القرآن) أيضاً بِعَجُزِ هذا البيت ، قال : « خَبَتْ : سكنت ، ثم أنشد العَجُز » وقال : « ولم يذكر ها هنا جلودهم فيكون الخُبُوُ لها » . والقطامي بفتح القاف وضمها : لقب غلب على الشاعر ، وهو اسم من أسماء الصَّقْر ، معناه : المحدَّد البصر إلى الصيد . والاسم الأصلي للشاعر هو عُمَيْر بن شُيَيْم بن عمرو ، وهو من بني تغلب ، وخاله هو الأخطل التغلبي الشهير .

(٢) هكذا في الأصول .

و «الرُّفاتُ» : بقية الشيء التي قد أصارها البِلَى إلى حالة التراب ، و «الْبَعْثُ» : تحريك الشيء الساكن ، وهذا الاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستبعاد لِلْمُحال بزعمهم :

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث ، وذلك أنهم قُرِّروا على خلق الله واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزءٌ منها ، فهم لا ينكرون ذلك ، فكيف يصح لهم أن يُقرُّوا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم وينكرون إعادته للبعض ؟ فحصل الأمر في حيِّز الجواز . وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز . والرؤْية في هذه الآية رؤْية القلب ، و «الأَجلُ» ها هنا يحتمل أن يريد القيامة،

ويحتمل أن يريد أجل الموت ، والأَجلُ - على هذا التأْويل - اسم جنس ؛ لأنه وضعه موضع الآجال . ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ وملكه لخلقه ، وبتقدير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاءُ لا إلٰه إلَّا هو . وقوله تعالى : [فَأَبَى] عبارة عن تكسُّبهم وجنوحهم ، وقد مضى تفسير هذه الآية آنفاً .

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ الآية . حكم (لَوْ) أن يليها الفعلُ ، إمَّا مُظهراً وإمَّا مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك ، فالتقدير هنا : قل لو تملكون أنتم تملكون خزائن ، فـ[أَنْتُمْ] رفع على تبع الضمير (١). و «الرَّحْمَةُ» في هذه الآية : المالُ والنعم التي تصرف في الأَرزاق ، ومن هذا سميت رحمة . و «الإِنْفَاقُ» المعروف : إذهابُ المال . وهو

---

(١) يتفق ابن عطية في هذا مع الزمخشري ، وأبي البقاء ، والحوفي . لكن هذا يخالف مذهب البصريين ، قال ابن عصفور : «لا يَلِي (لو) إلا الفعل ظاهراً ، ولا يليها مضمراً إلا في ضرورة أو نادرِ كلام ، مثل ما جاء في المثل من قولهم : (لَوْ ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي)» . وقال ابن الصائغ : «البصريون يصرحون بامتناع (لو زيدٌ قام لأكرمته) على الفصيح ، ويجيزونه شاذّاً ، كقولهم : (لوْ ذاتُ سوارٍ لطمتني) ، وهو عندهم على فعل مضمر ، وهو من باب الاشتغال ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ . وخرَّجه أبو الحسن عليٌّ بن فضال المجاشعي على إضمار (كان) ، والتقدير : «قلْ لو كنتم أنتم تملكون» ، على خلاف في حذف (كان) وحدها ، أو حذفها مع الضمير (كنتم) . ويميل أبو حيان إلى حذف (كان) وانفصال الضمير المرفوع ، وقال : إن حذف (كان) بعد (لو) معهود في لسان العرب .

مؤدٍّ إلى الفقر ، فكأن المعنى : خشيةَ عاقبة الإنفاق . وقال بعض اللغويين : «أنفق الرجلُ» معناه : افتقر .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ معناه : مُمْسكاً ، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى ، فهو لو مَلَكَ خزائن رحمة الله تعالى لأمسك خشية الفقر ، وكذلك يظن أن قدرة الله تبارك وتعالى تقف دون البعث ، والأمر ليس كذلك ، بل قدرته لا تتناهى ، فهو يخترع من الخلق ما يشاءُ ، ويختزن من الرحمة الأرزاق ، فلا يخاف نفاذ خزائن رحمته ، وبهذا النظر تلتبس هذه الآية بما قبلها ، والله وليُّ التوفيق برحمته ، ومن الإقتار قول أبي دُوَاد :

لا أَعُدُّ الإِقْتَارَ عُدْمـــاً وَلَكِنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإِعْدَامُ (١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ . اتفق المتأولون والرواة أن الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من بين هذه

---

(١) أبو دُوَاد (بواوٍ غير مهموزة ، بعدها ألف ، وقد همزت في كثير من الكتب مثل الشعر والشعراء) . واسمـه جارية بن الحجـاج ، وقيل : حنظلة بن الشرْقي ، والأول أصح . والبيت من قصيدة مشهورة ، هي الأصمعية (٦٥) ، ومنها مختارات في الشعر والشعراء ، والإقْتارُ : قلة المال وضيق العيش ، وهو الشاهد هنا ، والعُدْمُ والإعْدَامُ : الفَقْرُ . يقول : لا أعتبر قلة المال فقراً ، إنما الفقر الحقيقي هو فقد الكرام من الرجال . قيل للحطيئة: من أشعر الناس ؟ قال الذي يقول : (لا أَعُدُّ الإقْتارَ عُدْماً ... البيت) . ثم يصف الشاعر هؤلاء الرجال بالشجاعة والسماحة ورجاحة العقول ، إلى أن يقول :

فَعَلَى إثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِـي حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لي سَقَـامُ

التِّسع ، وهي : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم . واختلفوا في الأَربع – فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي يَدُه ، ولسانُه حين انحلَّت عقدتُه ، وعصاه ، والبحر . وقال محمد بن كعب القرظي : هي : البحر ، والعصا ، والطَّمْسة ، والحجَر ، وقال : سأَلني عن ذلك عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأَخبرته ، فقال : وما الطَّمْسَةُ ؟ فقلت : دعا موسى وأَمَّن هارون عليهما السلام ، فطمس الله أَموالهم وردَّها حجارة . فقال عمر : وهل يكون الفقه إلَّا هكذا ؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب كانت لعبد العزيز بن مروان جمعها بمصر ، فاستخرج منها الحوزة والبيضة والعدسة ، وهي كلها أَحجار كانت من بقايا أَموال فرعون ، وقال الضحاك : هي إلقاءُ العصا مَرَّتين ، واليد ، وعُقدة لسانه . وقال عِكْرمة ، ومطر الورَّاق ، والشعبي : هي العصا ، واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات . وقال الحسن : هي العصا في كونها ثعباناً ، واليد ، والسنون ، وتلقف العصا ما يأْفكون . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي السنون في بواديهم ، ونقص الثمرات في قراهم ، واليد ، والعصا . وروى مصرف عن مالك أَنها العصا ، واليد ، والجبل إذ نتق ، والبحر . وروى ابن وهب عنه مكان البحر الحَجَر ، والذي يلزم من الآية أَن الله تعالى خصَّ من آيات موسى– إذْ

هي كثيرة تنيف على أربع وعشرين - تسعاً بالذكْر ، ووصفها بالبيان ولم يعيّنها ، واختلف العلماءُ في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها ، أو رواياتهم التوقيفية في ذلك . وقالت فرقة : آياتُ موسى عليه السلام إنما أُريد بها آياتُ التوراة التي هي أوامر ونواه ، وروى في هذا صفوان ابن عسّال (١) أن يهوديًّا من يهود المدينة قال لآخر : سِرْ بنا إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ، فقال الآخر : لا تقل إنه نبيٌّ ، فإنه لو سمعك صار له أربعة أعين ، قال : فساروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسألوه ، فقال : هي أَلَّا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق ، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأْكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تفِرُّوا يوم الزحف ، وعليكم خاصة يهود : ولا تعدوا في السبت (٢) .

---

(١) هو صَفْوَانُ بن عَسَّال (بِمُهْمَلَتَيْن) ، المرادي ، صحابي معروف ، نزل الكوفة (تقريب التهذيب) .

(٢) أخرجه الطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبو يعلى ، والبيهقي معاً في الدلائل ، عن صفوان بن عسَّال . ذَكَرَ ذلك في (الدر المنثور) . وفي آخر الحديث زيادة على ما هنا (فَقَبَّلَا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبيٌّ ، قال : فما يمنعكما أن تُسْلِما ؟ قالا : إن داود دعا الله ألاَّ يزال في ذُرِّيته نبيٌّ ، وإنا نخاف - إن أسْلَمنا - أن تقتلنا اليهود) .

وقرأ الجمهور : ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، وروي عن الكسائي : [فَسَلْ] على لغة من قال : «سَالَ يَسَالُ»(١) ، وهذا كله على معنى الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : اسأل معاصريك عمَّا أعلمناك به من غيب القصة ، ثم قال : ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ ، يريد : آباءَهم ، وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم ، ويحتمل أن يريد : فاسْأَل بني إسرائيل الأَولين الَّذين جاءَهم موسى عليه السلام ، وتكون إحالته إياه على سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في أَحوالهم وما في كتبهم ، نحو قوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾(٢) ، وهذا كما تقول لمن تعظه : سَلِ الأُمم الخالية هل بقي منها مخلد ؟ ونحو هذا مما يجعل النظر فيه مكان السؤال . قال الحسن : سؤالك إيَّاهم نظرُك في القرآن . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، أي : سأَل موسى بني إسرائيل ، أي طلبهم لينجيهم من العذاب .

---

(١) نقل في اللسان (سأل) عن الأخفش قوله : «يقال : خرجنا نسأل عن فلانٍ وبفلانٍ ، وقد يخفف فيقال : سَالَ يَسَالُ ، والأمْرُ منه سَلْ ، قال الشاعر :

وَمُرْهَقٍ سالَ إمْتَاعاً بأُصْدَتِهِ ... لَمْ يَسْتَعِنْ وَحَوَامِي المَوْتِ تَغْشاهُ»

(٢) من الآية (٤٥) من سورة (الزخرف) .

وقوله تعالى : [مَسْحُوراً] ، اختلف فيه المتأولون ـ فقالت فرقة : هو مفعول على بابه ، أي : إنك قد سحرتَ فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم . وقال الطبري : هو مفعول بمعنى فاعل ، كما قال تعالى : ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ (١) ، وكما قالوا : مَشْئُومٌ ومَيْمُون ، وإنما هو : شائِمٌ ويامِنٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يتخرج إلَّا على النَّسب ، أي : ذا سِحْرٍ مَلَكْتَه وعَلِمْتَه ، فأنتَ تَأْتي بهذه الغرائب لذلك . وهذه مخاطبةُ تَنَقُّصٍ ، فيستقيم أن يكون [مَسْحُوراً] مفعولاً على ظاهره ، وعلى أن يكون بمعنى : ساحر يعارضنا ، (أمَّا) (٢) ما حُكِيَ عنهم أنهم قالوا له ـ على جهة المدح ـ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (٣) ، فإمَّا أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون ، وإمَّا أن يكون فيهم لكنه تنقل من تَنَقُّصه إلى تعظيمه . وفي هذا نظر .

---

(١) من الآية (٤٥) من هذه السورة (الإسراء) .

(٢) زيادة تقتضيها سلامة العبارة .

(٣) ورد هذا في الآية الكريمة رقم (٤٩) من سورة (الزخرف) ، في قوله سبحانه : ﴿وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

رُوي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وغيره ، أَنه قرأَ : [عَلِمْتُ] بتاءِ المتكلم مضمومة ، وقال : «وما علم عدوُّ الله قط ، وإِنما علم موسى» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتتقوى هذه القراءَة لمن تـأَوَّل [مَسْحُوراً] على بابه ، فلمَّا رماهُ فرعون بـأَنه قد سُحر فَفَسَد نظره وعقله وكلامه ، ردَّ هو عليه بـأَنه يعلم آيات الله تعالى ، وأَنه ليس بمسحور ، بل مُحَرِّر لما يـأْتي به . وهي قراءَة الكسائي . وقرأَ الجمهور : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بتاءِ المخاطب مفتوحة ، فكأَن موسى عليه السلام رماهُ بـأَنه يكفر عناداً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن قال بوقوع الكفر عناداً فَلَه تعلُّق بهذه الآية ، وجعلها كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ (١) ، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ونحا إليه الزَّجاج وهي ، بعد معرضة للاحتمال على أَن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ ، أَي : أَنت بحال من يعلم هذا ، وهي من الوضوح بحيث تعلمها ، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون .

وقوله تعالى : [بَصَائِرَ] جمع بصيرة ، وهي الطريقة ، أي طرائق يهتدى بها ، وكذلك غلب على البصيرة أَنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها ، ونصب [بَصَائِرَ] على الحال (٢) .

و «المَثْبُورُ» : المُهْلَك ، قاله مجاهد ، وقال ابن عباس ، والضحاك : هو المغلوب ، وقال ابن زيد : هو المخبول ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه فسَّره بالملعون . وقال بعض العلماء : كان موسى عليه السلام في أَول أَمره يجزع ، ويُؤْمر بالقول اللَّيِّن ، ويطلب الوزير ، فلما تقوَّتْ نفسه بقوى النبوَّة وتجلَّد قابل فرعون بأَكثر مما أُمر به ، بحسب اجتهاده الجائز له . قال ابن زيد : اجترأَ موسى أَن يقول له

(١) من الآية (١٤) من سورة النمل) .

(٢) أي : حال من [هَؤُلاءِ] ، قال أبو حيان الأندلسي : «وهذا لا يجوز إلا على مذهب الكسائي والأخفش» ، والجمهور يؤولون ما ظاهره كذلك ، فيقدرون فعلاً يدلُّ عليه ما قبله ، فيقولون هنا : التقدير : «أنزلها بصائر» .

فوق ما أمره الله به . وقالت فرقة : بل المثبور : المغلوب المُخرَّع [١] ، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعَّاناً ، ومن اللفظة قول عبد الله ابن الزِّبَعْرى :

إذْ أُجاري الشَّيْطَانَ في سَنَنِ الْغَيِّ ، وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبورُ [٢]

وقوله تعالى : ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية . [يَسْتَفِزَّهُمْ] معناه : يَستخفَّهُم ويُقلقهم ، إمَّا بقتل أو بإجلاءٍ ، و [الأَرْض] هي أَرض مصر ، وقد تقدم أنه متى ذكرت «الأَرض» عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلَّم فيها ، وقد يحسُن عمومها في بعض القصص .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون ، وإنما ذَكَرَتْ عُظْمَ الأَمر وخطيره ، وذلك طَرَفاه : أَراد فرعون غلَبتهم وقتْلهم ،

---

(١) أي : الضعيف اللَّين المُسْترخي .

(٢) قال ابن الزِّبَعْرى هذا البيت من أربعة أبيات قالها حين جاء معتذراً للنبي صلى الله عليه وسلم عن هجائه السابق له ، وقبله يقول :

يا رَسُولَ الْمَلِيكِ إنَّ لِسَاني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

وأُجاري : أُباري وأُماشي ، ويروى : أُباري ، والسَّنَن : وسط الطريق ، والغَيّ : الضلال والفساد ، ومثبور : هالك ، وهو الشاهد هنا . وفي اللسان عن مجاهد : (مَثْبُوراً) أي : هالكاً ، وفيه أيضاً أن الثبور هو الهلاك والخسران والويل .

وهذا كان بدْءَ الأمر ، فأغرقه الله تبارك وتعالى وأغرق جنوده ، وهذا كان نهاية الأمر . ثم ذكر الله تعالى بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسُكْنى أرض الشَّام .

و ﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة . و «اللَّفِيفُ» : الجمع المختلط الذي قد لُفَّ بعضه ببعض ، فليس ثَمَّ قبائل ولا انحياز . وقال بعض اللُّغويِّين : هو من أسماءِ الجموع ، ولا واحد له من لفظة . وقال الطبريُّ : هو بمعنى المصدر كقول القائل : لَففْتُه لَفًّا ولفِيفاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وفي هذا نظر فتأمله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [أَنزَلْنَاهُ] عائد على القرآن المذكور في قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ

مَثَلٍ ﴾(١) ، ويجوز أن يكون الكلام آنفاً ، وأشار بالضمير إلى القرآن على غير ذكر متقدمٍ لشهرته ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾(٢) ، وهذا كثيرٌ .

قال الزهراوي : معناه : بالواجب الذي هو المصلحة والسَّداد للناس والحق في نفسه ، وقوله سبحانه : ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يريد : بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره ، فبهذا التأْويل يكون تكرار اللَّفظ لمعنى غير الأَول ، وذهب الطبري إلى أَنهما بمعنى واحد ، أَي : بأَخباره وأوامره ، وبذلك نزل .

وقوله تعالى : [قُرْآناً] . مذهب سيبويه أَن نصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر بعد ، أَي : وفرَقنا قرآناً ، ويصح أَن يكون معطوفاً على الكاف في [أَرْسَلْنَاكَ] ، من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا لمعنى واحد .

وقرأ جمهور الناس : [فَرَقْنَاهُ] بتخفيف الراءِ ، ومعناه : بيَّنَّاه وأَوضحناهُ وجعلناه فرقاناً ، وقرأ ابن عباس ، وقتادة ، وأَبو رجاءٍ ، وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وابن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، والشعبي ، والحسن - بخلاف - وحُمَيْد ، وعمرو بن قائد : [فَرَّقْنَاهُ]

(١) سبق ذلك في الآية (٨٩) من هذه السورة .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

بشدّ الراء ، إلّا أن في قراءة ابن مسعود ، وأُبي بن كعب : « فَرَّقْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَقْرَأَهُ » ، أي : أنزلناه شيئاً بعد شيء ، لا جملةً واحدة ، ويتناسق هذا المعنى مع قوله تعالى : ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ ، وهذا كان بما أراد الله تعالى من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معيَّنة .

واختلف أهلُ العلم ، في كم نزل القرآن من المدة ؟ فقيل : في خمس وعشرين سنة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : في ثلاث وعشرين ، وقال قتادة : في عشرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بحسب الخلاف في سنِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الوحي جاء وهو ابن أربعين سنة ، وتَمَّ بموته . وحكى الطبريُّ عن الحسن البصري أنه قال : نزل القرآن في ثماني عشرة سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ مُخْتَلٌّ ، لا يصح عن الحسن ، والله أعلم .

وتأولتْ فرقة قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ ، أي : على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل ، هذا قول مجاهد ، وابن عباس ، وابن جريج ،

وابن زيد . والتأْويل الآخر ، أي : على مُكْثٍ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيءٍ . وقوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ مبالغة وتأْكيد بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأجمع القراءُ على ضمِّ الميم من [مُكْثٍ] ، ويقال : مُكْثٌ ومَكْثٌ بضم الميم وبفتحها ، ومِكْثٌ بكسرها .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾ الآية . هذه آية تحقير للكفار ، وفي ضمنه ضربٌ من التوعُّد ، والمعنى : إنكم لستم بحُجَّة ، فسواءٌ علينا آمنتم أو كفرتم ، وإنما ضررُ ذلك على أنفسكم ، وإنما الحُجَّةُ أهلُ العلم من قبله ، وهم بالصفة المذكورة .

واختلف الناس في المراد بالذين أُوتوا العلم من قبله ــ فقالت فرقة : هم مؤمنو أَهل الكتاب . وقالت فرقة : هم ورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو بن نفيل ، ومن جرى مجراهما ، وقيل : إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي عليه الصلاة والسلام وما أُنزل عليه ، وقرئ عليهم منه شيءٌ فخشعوا وسبَّحوا الله وسجدوا له ، وقالوا : هذا وقتُ نُبُوَّة المذكور في التوراة ، وهذه صفته ، ووعْدُ الله به واقع لا محالة ، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح ، فنزلت الآية فيهم ، وقالت فرقة : المراد بالذين أُوتوا العلم من قبله

محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [قَبْلِهِ] عائد على القرآن ، حَسَب الضمير في [بِهِ] ، ويُبَيِّن ذلك قوله : ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، واستأْنف ذكر القرآن في قوله : ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ ، أي : لِنَاحِيَتها ، وهذا كما تقول : ساقِطٌ لليد والفم ، أي : لناحيتهما وعليهما ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : لِلْوجوه ، وقال الحسن : لِلِّحَى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَذقان أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحيان ، وهي أقرب ما في رأْس الإنسان إلى الأَرض لاسيَّما عند سجوده ، وقال الشاعر :

فَخَرُّوا لأَذْقَانِ الْوُجُوهِ تَنُوشُهُــمْ   سِبَاعٌ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَنْتِفُ(١)

و [إِنْ] في قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة . واللام بعدها لام التأْكيد ، وهي عند الفراء النافية

---

(١) هذا البيت شاهد على أنَّ (خَرُّوا للأَذْقَان) معناها : سَقَطُوا ووقعوا ، ولم يذكره أحد من المفسرين إلا صاحب (البحر المحيط) ، ولم نقف على نسبته فيما بين أيدينا من المراجع . وتَنُوشهم : تتناولهم وتأخذهم ، وتَنْتِفُ: تنزع لحومهم من على عظامهم ، وقد كثر استعمال اللفظة في نزع الشعر ونحوه ، والسِّباع جمع سبع ، وهو كل ما له نابٌ أو مِخلب ويعدو على الناس والدواب . وسباع الطير : الجوارح من ذوات المخالب من الطير .

واللام بمعنى : إلَّا . ويتوجَّه في هذه الآية معنى آخر ، وهو أن يكون قوله : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير . والمعنى : فَسَتَرَوْن ما تُجَازَوْن به ، ثم ضرب لهم المَثَلَ ـ على جهة التقريع ـ بمن تقدم من أهل الكتاب ، أي : إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر ، بل كان الذين أُوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزَّلة في الجملة إذا يُتْلى عليهم ما نزل عليهم خشعوا وآمنوا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

هذه مبالغة في صفتهم ، ومدْحٌ لهم ، وحضٌّ لكل من توسم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرُّتبة . وحكى الطبريُّ عن التَّيْمِيِّ (١) أنه قال : إن من أُوتي من العلم ما لم يُبْكِه لخليق ألَّا يكون أُوتي

---

(١) اسمه عبد الأعلى التَّيْمي .

علماً ينفعه ؛ لأن الله تعالى نَعَت العلماءَ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ... ﴾ إلى آخر الآيتين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ الآية .

سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : يا الله ، يا رحمٰن ، فقالوا : كان محمد يأْمرنا بِدعاءِ إلٰهٍ واحد ، وهو يدعو إلٰهَيْن . قاله ابن عباس رضي الله عنهما . وقال مكي : تهجّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً ، فقال في دعائه : يا رحمٰن يا رحيم ، فسمعه رجل من المشركين – وكان باليمامة رجلٌ يسمى الرحمان – فقال ذلك السامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة ، فنزلت الآية مبينة أنها أسماءٌ لشيءٍ واحد ، فإن دعوتموه بالله فهو ذلك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذلك .

وقرأ طلحة بن مصرف : «أَيًّا مَنْ تَدْعُو فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ» ، أي : وله سائر الأَسماءِ الحسنى ، أي التي تقتضي أَفضل الأَوصاف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي بتوقيف ، لا يصحُّ وضع اسم لله تعالى إلّا بتوقيف من القرآن والحديث . وقد رُوي : (إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً) ... الحديث ،

ونصها كلها الترمذي وغيره بسند صحيح (١) . وتقدير الآية : أيٌّ الأَسماءِ تدعو به فأَنت مصيب ، له الأَسماءُ الحُسْنى .

ثم أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أَلَّا يجهر بصلاته ، وأَلَّا يخافِتَ بها ، وهو الإِسْرَارُ الذي يسمعه المتكلم به ، هذه هي حقيقته ، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت وإن لم يَنْتَه إلى ما ذكرناه .

واختلف المتأَولون في « الصَّلاة » ، ما هي ؟ فقال ابن عباس ، وعائشة رضي الله عنهما ، وجماعة : هي الدعاءُ . وقال ابن عباس أَيضاً : هي قراءَة القرآن في الصلاة ، فهذا على حذف مضاف ، والتقدير : ولا تجهر بقراءَة صلاتك ، قال : والسبب أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهر بالقراءَة فسمعه المشركون فسبُّوا القرآن ومن أَنزله ، فأُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوسط ، لِيُسْمع أَصحابه المصلين معه ويذهب عنه أَذى المشركين (٢) . وقال ابن

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، والبخاري في التوحيد والشروط والدعوات ، ومسلم في الذكر ، والترمذي ، وابن ماجه في الدعوات ، ولفظه كما في الطــبري : (إن لله تسعةً وتسعين اسْماً كُلُّهن في القرآن ، من أحصاهن دخل الجنة) .

(٢) أخرجــه سعيد بن منصـــور ، وأحمد ، والبخـــاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والطبراني ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة مُتَوارٍ ، فكان إذا صلَّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع المشركون ذلك سبُّوا=

سيرين : كان الأَعراب يجهرون بتشهُّدهم فنزلت الآية في ذلك ، وكان أَبو بكر رضي الله عنه يُسِرُّ قراءته ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها ، فقيل لهما في ذلك ، فقال أبو بكر : إنما أُناجي ربِّي وهو يعلم حاجتي ، وقال عمر : أَنا أَطرح الشيطان وأُوقظ الوسنان ، فلما نزلت هذه الآية قيل لأَبي بكر رضي الله عنه : ارفع أَنت قليلا ، وقيل لعمر رضي الله عنه : اخفض أَنت قليلا . وقالت عائشة أيضاً رضي الله عنها : الصلاة يُراد بها في هذه الآية التشهد ، وقال ابن عباس ، والحسن : المراد : لا تُحَسِّن صلاتك في الجهر ، ولا تُسِئْها في السِّر ، بل اتَّبع طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة . وقال ابن زيد : معنى الآية النهيُ عما يفعله أَهل الإنجيل والتوراة من رفع الصوت أَحياناً فيرفع الناس معه ، ويخفض أَحياناً فيسكت من خلفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية : إن معناها : ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة اللَّيل ، وابتغ سبيلاً من امتثال الأَمر

=القرآن ومن أنزله ومن جاءَ به ، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ — أي بقراءتك — فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن ، ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ ، يقول : بين الجهر والمخافتة) . ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور) .

كما رسم لك ، ذكره يحيى بن سلام ، والزهراوي . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لم يخافت من أَسمع أُذنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما رُوي من أنه قيل لأَبي بكر رضي الله عنه : «ارفع أَنْتَ قليلاً» يردُّ هذا ، ولكن هذا الذي قال ابن مسعود رضي الله عنه هو أَصل اللُّغة ، ويستعمل الخفوتُ بعد ذلك في أَرفع من ذلك(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾(٢) . هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أَفذاذاً : «عُزَيْر وعيسى والملائكة ذرِّيَّة الله» ، سبحانه وتعالى عن أَقوالهم . ورادَّةٌ على العرب في قولهم : «لولا أَولياءُ الله لذلَّ» ، وقيَّد لفظُ الآية نفي الولاية لله عزَّ وجلَّ بطريق الذل ، وعلى جهة الانتصار ؛ إذ ولايته موجودةٌ بتفضُّله ورحمته لمن وَالى من صالح عباده . قال مجاهد : المعنى : لم يُحالف أَحداً ، ولا ابتغى نصر أَحد .

---

(١) أي : في أعلى من ذلك .

(٢) أخرج الإمام أحمد ، والطبراني ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آيةُ العزِّ) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ...﴾ (الآية كلها) .

وقوله : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، ثم أَكَّدها بالمصدر تحقيقاً لها ، وإبلاغاً في معناها (١) .

وروى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال : «افتتحت التوراةُ بفاتحة سورة الأَنعام ، وختمت بخاتمة هذه السورة » .

نجز تفسير سورة الإسراءِ ولله الحمد والمِنَّة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم

(١) أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، من طريق عبد الكريم ، عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه ، قال : كان الغلام إذا أَفْصَح من بني عبد المطلب علَّمه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية سبع مرات : ﴿ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ الآية ، وأخرجه ابن السُّنِّي في عمل اليوم والليلة ، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن إسماعيل ابن أبي فديك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ؛ قل : (توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت ، وٱلْحَمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في ٱلْمُلْكِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَةٌ

هذه السُّورة مكِّيَّة في قول جميع المفسرين ، ورُوي عن فرقة أن أَول السُّورة نزل بالمدينة ، إلى قوله تعالى : [جُرُزاً] ، والأَول أَصح .

وهي من أَفضل سور القرآن ، رُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَلَا أُخبركم بسورة (مَلَأَ) (١) عِظَمُهَا ما بين السموات والأَرض ، ولمن جاءَ بها من الأَجر مثل ذلك) ؟ قالوا : أَي سورة هي يا رسول الله ؟ قال : (سورة الكهف ، من قرأَ بها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأُخرى – وزيادة ثلاثة أَيام في رواية أَنس – ، ومن قرأَ بها أُعطي نوراً بين السماءِ والأَرض ، ووُقي بها فتنة القبر) . (٢)

---

(١) زيادة عن القرطبي وفتح القدير .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، وذكره إسحق بن عبد الله بن أبي فروة ، كما ذكره الثعلبي والمهدوي بمعناه . وأخرج أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن الضريس ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي العالية ، قال : قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابَّة ، فجعلت تنفر ، فينظر فإذا ضبابة أو سحابةٌ غشيته ، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ، قال اقرأ فلانُ فإنها السكينة نزلت للقرآن . وأخرج الطبراني أن هذا الرجل هو أُسَيْد بن حضير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله تعالى : [عِوَجَا] سكتةً خفيفةً ، وعند [مَرْقَدِنَا] في يس (١) ، وسبب هذه البُدَاءَةِ في هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث : الرُّوح والكهف وذي القرنين ـ حسبما أمرتهم به يهود ـ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غداً أُخبركم بجواب سؤالكم) ، ولم يقل : «إن شاءَ الله» ، فعاتبه الله تعالى بأن أمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً ، فأرجف به كفار قريش ، وقالوا : إن محمداً قد تركه رئيُّه الذي كان يأتيه من الجن ، وقال بعضهم : قد عجز

(١) في قوله تعالى في الآية (٥٢) : ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ .

عن أكاذيبه ، إلى غير ذلك ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ منه ، فلما أن قضي الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب محمد – صلى الله عليه وسلم – عليه ، جاءَ الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك ، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب ، أي : بزعمكم أنتم يا قريش ، كما تقول لرجل يحبُّ مساءَتَك فلا يرى إلَّا نعمتك : الحمد لله الذي أنعم عليَّ وفعل بي كذا ، على جهة النعمة عليه . و «الكتاب» هو القرآن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ أي : لم يُزِلْه عن طريق الاستقامة ، و «الْعِوَجُ» فقد الاستقامة ، وهو بكسر العين في الأُمور والطرق وما لا يحسُّ منتصباً شخصاً ، و «الْعَوَجُ» بفتح العين في الأَشخاص ، كالعصا والحائط ونحوه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يجعله مخلوقاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ يَعُمُّ هذا وجميع ما ذكر من أنه لا تناقض فيه ، ومن أنه لا خَلَلَ ولا اختلاف فيه .

وقوله تعالى : [قَيِّماً] نصب على الحال من [ٱلْكِتَابَ] ، فهو بمعنى التقديم مُؤَخَّر في اللفظ ، أي : أنزل الكتاب قيِّماً ، واعترض بين

الحال وذي الحال قوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ . ذكر الطبريُّ هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ويجوز أن يكون [مَنْصُوباً](١) بفعل مضمر تقديره : أنزله ، أو جعله قيِّماً ، وفي بعض مصاحف الصحابة : «وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا وَلَكِنْ جَعَلَهُ قَيِّماً» ، قاله قتادة . ومعنى «قَيِّم» : مستقيم ، هذا قول ابن عباس ، والضحاك ، وقيل : معناه أنه قَيِّمٌ على سائر الكتب بتصريفها . ذكره المهدوي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا محتمل ، وليس من الاستقامة . ويحتمل أن يكون معنى «قَيِّم» قيامُه بأمر الله تبارك وتعالى على العالم ، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النِّذارة والبشارة اللَّذَيْنِ عَمَّا العالم . و «الْبَأْسُ الشَّدِيدُ» : عذابُ الآخرة ، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببدْرٍ وغيرها ، ونصبه على المفعول الثاني ، والمعنى : لِيُنْذر العالَم ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي : من عنده ومِنْ قِبَله ، والضمير عائد على الله تعالى . وقرأ الجمهور : ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء ، وقرأ عاصم من رواية أبي بكر : ﴿مِنْ لَدْنِهِ﴾ بسكون

---

(١) ما بين العلامتين زيادة لتوضيح المعنى .

الدال وإشْمام الضم فيها وكسر النون والهاء . وفي (لدن) لغات ، يقال : لَدُن مثل سَبُع ، ولَدْن بسكون الدال ، ولُدْن بضم اللام ، ولَدَن بفتح اللام والدال ، وهي لفظة مبنية على السكون ، ويلحقها حذف النون مع الإضافة ، وقرأ عبد الله ، وطلحة : [وَيَبْشُرَ] بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين . وقوله تعالى : ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً﴾ تقديره : بأَن لهم أجراً ، و «الأَجر الحسن» : نعيم الجنة ، ويتقدمُه خير الدنيا . و [مَاكِثِينَ] حالٌ من الضمير في [لَهُمْ] ، و [أَبَداً] ظرف ؛ لأَنه دالٌّ على زمن غير متناهٍ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد أشرنا في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاث ، وينبغي أن نَنُصَّ كيف كان ذلك .

ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند أنه قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهما : سلاهم عن محمد -عليه الصلاة والسلام- ، وصِفَا لهم صفته ، فإنهم أهل الكتاب الأَول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأَنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسأَلا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهما أَحبار اليهود : سَلُوهُ

عن ثلاث ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيٌّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَوْا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الرُّوح ، فأقبل النَّضْرُ وعُقْبة إلى مكة ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك (١) ، وكان من الأمر ما ذكرناه .

وقوله تعالى : ﴿وَيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً﴾ الآية . أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في عُزَير ، والنصارى في المسيح ، وبعض العرب في الملائكة . والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه [قَالُوا] المتقدم ، وتكون جملة قوله : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال ، أي : قالوا جاهلين . ويحتمل أن يعود على «الولد» ، أي : لا علم لهم بهذا الولد الذي ادَّعَوْه ، فتكون الجملة صفةً لقوله : «وَلَداً» ، قاله المهدوي ، وهو معترض ؛ لأنه لا يصفه إلَّا القائل ، وهم ليس في مقصدهم أن يصفوه . والصواب عندي أنه نفي مُؤْتَنف ، أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك ، فلا موضع

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير الطبري ، وابن المنذر ، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقول المؤلف : «وسألوا» يعني قريشاً .

للجملة من الإعراب ، ويحتمل أن يعود على الله تعالى ، وهذا التأويل أَذَمُّ لهم ، وأقضى بالجهل التَّامِّ عليهم ، وهو قول الطبري [١] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ ، يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالةَ عنهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ بنصب [كَلِمَةً] ، كما تقول : نعم رجلاً زيد ، وفسَّر الكلمة وصْفُها بالخروج من أفواههم ، وقال بعضهم : نصبها على التفسير ، على حدِّ نصب قوله : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [٢] ، وقالت فرقة : نصبها على الحال ، والتقدير : كبرت فِرْيَتُهم ـ أو نحو هذا ـ كلمةً ، وسُمِّيت هذه الكلمات كلمةً من حيث هي مقالة واحدة ، كما يقولون للقصيدة : كلمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه المقالة قائمة هي في التفسير معنىً واحداً فيَحْسُن أن تُسَمَّى كلمة . وقرأ الحسن ، ويحيى بن يَعْمَر ، وابن محيصن ، والقواس عن ابن كثير : [كَلِمَةٌ] بالرفع على أنها فاعلةٌ بـ [كَبُرَتْ] . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ ، أي : ما يقولون إلَّا كذباً ، فهي النافية .

---

(١) ويحتمل أيضاً أن يعود الضمير في [بِهِ] على « الاتخاذ » المفهوم من قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ ، والمعنى : ما لهم بحكمة الاتخاذ من عِلْم .

(٢) من الآية (٢٩) من هذه السورة (الكهف) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

هذه آية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : [فَلَعَلَّكَ] تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه ، أي : لا يكن كذلك . و « الباخِعُ نفْسَهُ » هو مُهْلكها وَجْداً وحزناً على أَمرٍ ما ، ومنه قول الشاعر :

أَلا أَيُّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَهُ لِشَيْءٍ نحتْهُ عَنْ يديْهِ الْمَقادِرُ (١)

يريد : (نَحَّتْه) فخفف .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ استعارة فصيحة ، من حيث لهم إدبارٌ وتباعد عن الإيمان ، وإعراضٌ عن الشرع ، فكأَنهم من فرط

(١) قائل هذا البيت هو ذو الرُّمَّة ، وهو في اللسان والتاج والأساس (بَخَع) ، وفي مجاز القرآن ، والطبري ، والقرطبي ، والراغب ، والصحاح ، وفتح الباري ، والبحر المحيط ، ونسبه فيه للفرزدق . والباخِع : المُهْلِكُ نفسَه ، ونَحَّتْه : أبعدته وصرفته عن يديه ، وهو بتشديد الحاء ولكن الشاعر خفف لضرورة الشعر .

إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم . وقوله سبحانه : ﴿ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، أي : بالقرآن الذي نحدثك به ، و [أَسَفاً] نصب على المصدر ، قال الزجاج : والأَسف : المبالغة في حُزْن أَو غضب .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والأَسف – في هذا الموضع – الحزن ؛ لأَنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسِفِ ، ولو كان الأَسَفُ من مُقْتدرٍ على من هو في قبضته ومُلْكه لكان غضباً ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ (١) ، أي : أغضبونا ، وإذا تأَملت هذا في كلام العرب اطَّرَد ، وذكره منذر بن سعيد ، وقال قتادة هنا : [أَسَفاً] : غضباً ، وقال مجاهد : [أَسَفاً] : جَزَعاً ، وقال قتادة أَيضاً : حُزْناً ، ومن هذه اللفظة قول الأَعشى :

أَرَى رَجلاً مِنْكُمْ أَسِـيفاً كَأَنَّمَا ... يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّباً (٢)

يريد : حزيناً كأَنه مقطوع اليد .

---

(١) من الآية (٥٥) من سورة (الزخرف) .

(٢) البيت من قصيدة قالها الأعشى يهجو عمرو بن المنذر ، ويعاتب بني سعد بن قيس ، ويقول في مطلعها :

كَفَى بالَّذي تُولِينَهُ لَـوْ تَجَنَّبَـا ... شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ ما عَادَ أَشْيَبَـا

والأسيف : الحزين ، والكَشْحان : مُثَنَّى كَشْح ، وهو ما بين الخاصرة والضلوع ، والمُخَضَّب : المصبوغ بالدم ، يصف الرجل بأنه حزين جداً كأنما قد تخضبت كفه بالدماء فهو يضمها إلى جنبه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ الآية بَسْطٌ في التَّسلية ، أَي : لا تهتم للدنيا وأَهلها ، فأَمرها وأَمرهم أَقلُّ لفنائه وذهابه ، فإِنا إِنما جعلناها على الأَرض زينة أَو امتحاناً وخبرة .

واختُلف في المراد بها – فقال ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : أَراد الرجال ، وقاله مجاهد . وروي عن عكرمة عن ابن عباس أَن الزينة الخلفاءُ والعلماءُ والأُمراءُ . وقالت فرقة : أَراد النعم والملابس والثمار والخضـرة والمياه ونحو هذا ممـا فيه زينة ، ولم تدخـل في هذا الجبـال الصم وكل ما لا زيْن فيه كالحيَّـات والعقارب . وقالت فرقـة : أَراد كل ما على الأَرض ، وليس شيءٌ إِلَّا وفيه زينـة من جهة خلقه وصنعته وإِحكامه ، وفي معنى الآية قـول النبي صلى الله عليه وسلم : (الدنيا حلوةٌ خَضِرة ، وإِن الله مستخلفكم فيهـا فناظر كيف تعملون ، فاتّقوا الدنيا ، واتّقوا النساءَ) (١) . و [زِينَةً]

(١) أخرجه الترمذي في الفتن والزهد ، وابن ماجه في الفتن ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٣–٧ ، ١٩ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٦–٦٨) . ولفظه كما في مسند أحمد (٣–١٩) ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بعد العصر إلى مُغَيْربان الشمس ، حفظها منّا من حفظها ، ونسيها منّا من نسي ، فحمد الله – قال عفّان وقال حماد : وأكثر حفظي أنه قال : بما هو كائن إلى يوم القيامة – فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساءَ ، ألاَ إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقات شتَّى ، منهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ،=

مفعول ثان ، أو مفعول من أجله بحسب معنى (جعلَ)(١) .

وقوله تعالى : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ معناه : لنختبرهم ، وفي هذا وعيدٌ مَّا . قال سفيان الثوري : أَحسنهم عملاً : أَزهدهم فيها ، وقال أَبو عصام العسقلاني : أَحْسَنُ عَمَلاً : أَتْرَكُ لها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكان أَبي رحمه الله يقول : أَحْسَنُ العمل : أَخْذٌ بحق ، وإنفاق في حق مع الإيمان ، وأَداءُ الفرائض ، واجتنابُ المحارم ، والإكثارُ من المندوب إليه .

= ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ألا إن الغضب جمرة توَقّد في جوف ابن آدم ، ألا تـرَوْن إلى حُمْرَة عينيه وانتفاخ أَوْداجه ؟ فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرضَ الأرضَ ، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرِّضا ، وشرَّ الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا ، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيْء وسريع الغضب وسريع الفيء فإنها بها . ألا إن خير التجار من كان حَسَنَ القضاء حَسَنَ الطلب ، وشرَّ التجار من كان سَيِّئَ القضاء سَيِّئَ الطلب ، فإذا كان الرجل حسن القضاء سَيِّئَ الطلب أو كان سَيِّئَ القضاء حسن الطلب فإنها بها ، ألا إن لكلّ غادرٍ لواءً يوم القيامة بقدر غدرته ، ألاوأكبر الغدر غدر أمير عامة . ألا لا يمنعن رجلاً مهابةُ الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه ، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . فلما كان عند مغيربان الشمس قال : ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه .

(١) تكون مفعولاً ثانياً إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى : صَيَّر . وتكون مفعولاً من أجله إذا كانت (جَعَلَ) بمعنى : خَلَق وأَوْجَد ، ويجوز في هذه الحالة أيضاً أن تكون حالاً .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ ، أي : يرجع كلُّ ذلك تراباً غير مُتَزَيِّن بنباتٍ ونحوه ، و « الْجُرُزُ » : الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة ، وهي البلقع ، وهي حالة الأرض العامرة بالزَّيْن ، لابُدَّ لها من هذا في الدنيا جزءًا جزءًا من الأرض ، ثم يعمُّهَا ذلك بأجمعها عند القيامة ، يقال : جرزت الأرض بقحط أو جرادٍ ونحوه إذا ذهب نباتها وبقيت لا شيء فيها ولا نفع . وأرضون أجراز . وقال الزجاج : الجُرُزُ : الأرض التي لا تُنْبِت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما ينبغي أن يقول : التي لم تُنْبت . و « الصَّعِيدُ » : وجه الأرض ، وقيل : الصَّعيد : التراب خاصة ، وقيل : الصعيد : الأرض الطيبة ، وقيل : الصعيد : الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الآية . مذهب سيبويه في (أَمْ) إذا جاءت قبل أن تتقدمها ألف استفهام أنَّها بمعنى (بَلْ) و (أَلِف الاستفهام) ، كأنه قال : بل أَحَسِبْتَ ؟ إضراباً عن الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني . وقال بعض النحويين : هي بمنزلة ألف الاستفهام ، وأما معنى الكلام فقال الطبريُّ : هو تقرير للنبي صلى الله عليه وسلم على حسابه أن أصحاب الكهف أتَوْا عجباً ، بمعنى إنكار ذلك عليه ،

أي : لا تُعَظِّم ذلك بحسب ما عظَّمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن إسحق . وذكر الزهراوي أن الآية تحتمل معنىً آخر ، وهو أن تكون استفهاماً له ، هل عَلِمَ أن أَصحاب الكهف كانوا عجباً ؟ بمعنى إثبات أَنهم عجبٌ ، وتكون فائدة تقريره جمع نفسه للأمر ؛ لأَن جوابه أن يقول : لم أَحسب ذلك ولا علمته ، فيقال له وَصْفُهُم عند ذلك ، والتَّجوز في هذا التأْويل هو في لفظة [حَسِبْتَ] ، فتأَمَّلـه .

و «الكَهْفُ» : الثُّقب المُتَّسع في الجبل ، وما لم يتسع منها فهو غارٌ . وحكى النحاسُ عن أَنس بن مالك أَنه قال : الكهْفُ : الجبلُ ، وهذا غير شهير في اللغة . واختلف الناس في «الرَّقيم» ـ فقال كعب : الرَّقيم : القرية التي كانت بإزاءِ الكهف ، وقال ابن عباس ، وقتادة : الرَّقيم : الوادي الذي كان بإزائه ، وهو وادٍ كان بين غضبان وأَيلة (١) دون فلسطين . وقال ابن عباس أَيضاً : هو الجبل الذي فيه الكهف . وقال السدي : الرَّقيم : الصخرة التي كانت على الكهف ، وقال ابن

(١) الذي في الطبري : (بين عُسْفان وأَيْلَة) ، والخبر في الدر المنثور بدون ذكر أيٍّ واحدة منهما ، وكذلك في القرطبي . وأَيْلَة : مدينة صغيرة على ساحل بحر القُلْزم (البحر الأحمر) مما يلي الشام . قاله في معجم البلدان ، وهي معروفة الآن ، وتقع في رأس خليج العقبة .

عباس رضي الله عنهما : الرَّقيم : كتابٌ مرقوم كان عندهم ، فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام ، وقيل : من دين قبل عيسى عليه السلام ، وقال ابن زيد : كتاب عمَّى الله تعالى علينا أمره ولم يشرح قصته . وقالت فرقة : الرَّقيم : كتاب في لوح من نحاس ، وقال ابن عباس : في لوحين من رصاص كَتَب فيهما القومُ الكفارُ الذين فرَّ الفتية منهم قصَّتَهم ، وجعلوها تاريخاً لهم ، ذكروا وقت فقدهم ، وكم كانوا ، وبني من كانوا . وقال سعيد بن جبير : الرَّقيم : لوح من حجارة كتبوا فيها قصة أصحاب الكهف ، ووضعوه على باب الكهف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث ، وذلك من قبل المملكة (١) ، وهذا أمر مفيد ، وهذه الأقوال مأْخوذة من الرَّقْم ، ومنه : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (٢) ، ومنه : «الأَرْقَمُ» لِتَخْطيطه (٣) ،

(١) في بعض النسخ : (من نُبْل المملكة) ، أي مما يتصف به أهلها من النُّبْل ، فهم يدوِّنون التاريخ لمن بعدهم .
(٢) الآيتان (٩ ، ٢٠) من سورة (المطفِّفين) .
(٣) في اللسان : الأرقم من الحيَّات : ما فيه سوادٌ وبياضٌ .

ومنه : «رَقْمَةُ الْوَادِي» ، أي : مكان جَرْي الماءِ وانعطافه ، يقال : عليك بالرقمة وخَلِّ الضِّفة (١) .

وقال النقاش عن قتادة : الرَّقيم : دراهِمُهُم ، وقال أنس بن مالك ، والشعبي : الرَّقيم : الكلب ، وقال عكرمة : الرَّقيم : الدَّواة ، وقالت فرقة : الرَّقيم كان لِفِتْيَةٍ آخرين جرى لهم ما جرى لأَهل الكهف . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما أدري ما الرَّقيم ، أكِتَابٌ أَمْ بُنْيَانٌ ؟ وروي أنه قال : كلُّ القرآن أَعلمه إلَّا : الحَنَان ، والأَوَّاه ، والرَّقيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

[ٱلْفِتْيَةُ] فيما رُوي : قومٌ من أَبناءِ أَشراف مدينة دَقْيوس الملِك الكافر ، ويقال فيه : دَقْليوس ، ويقال : دقينوس . ورُوي أنهم كانوا

(١) قال الطبري : «هذا بمعنى : عليك برَقْمة الوادي حيث الماء ، ودَعِ الضِّفّة الجانبة ، والضفتان : جانبا الوادي» . وقد ضبطها محقق القرطبي بالصاد المهملة ، والصواب ما ذكرناه . والضِّفّة تكون بفتح الضاد المشددة وتكون بكسرها .

مُطَوَّقين مُسوَّرين بالذهب ، وهم من الرُّوم ، واتبعوا دين عيسى عليه السلام ، وقيل : كانوا قبل عيسى ، وأما أَسماؤُهم فهي أَعجميَّة والسَّند في معرفتها واهٍ ، ولكن التي ذكر الطبريُّ هي هذه : مَكْسَيْلَمينا ، وهو أَكبرهم والمتكلم عنهم ، ومَجْسَيْلَمينيَا ، وتَمْلِيخا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو الذي مضى بالورِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم . ومَرْطوس ، وكَشُوطُوقش ، وبيْرُونس ، ودِينَمُوس ، ويُطُونِس (١) .

واختلف الرواة في قصص هؤلاءِ الفتية ، وكيف كان اجتماعهم وخروجهم إلى الكهف ، وأَكْثَرَ المؤرخون في ذلك ، ولكن نختصر من حديثهم ، ونذكر ما لا تستغني الآية عنه ، ونذكر من الخلاف عيونه بحول الله .

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هؤلاءِ الفتية كانوا في دين ملِك يعبد الأَصنام ، ويذبح لها ، ويكفر بالله سبحانه وتعالى ، وقد تابعه على ذلك أَهل المدينة ، فوقع لِلْفِتية علم من بعض الحواريِّين — حسبما ذكره النقاش — أَو من بعض مؤمني الأُمم قبلهم — بحسب

(١) اختلفت النسخ الأصلية في ضبط هذه الأسماء ، وفي حروفها ، وقد تحرينا الصواب بقدر الإمكان ، وقد أحسن المؤلف حين قال : « والسَّند في معرفتها واهٍ » .

الخلاف الذي ذكرناه – ، فآمنوا بالله ، ورأوْا ببصائرهم قبيح فعل الناس ، فأَخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله تعالى ، فَرُفع أمرهم إلى المِلك ، وقيل له : إنهم فارقوا دينك ، واستخَفُّوا بآلهتك وكفروا بها ، واستحضرهم المِلك في مجلسه ، وأمرهم باتباع دينه والذَّبح لآلهته ، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل ، فقالوا له – فيما روي – : ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ .

ورُوي أنهم قالوا نحو هذا الكلام ، وليس به ، فقال لهم الملك : إنكم شباب أغمارٌ ، لا عقول لكم ، وأنا لا أعجل بكم بلْ أَسْتأْني ، فاذهبوا إلى منازلكم فدبِّرُوا أمركم وارجعوا إلى أمري ، وضرب لهم في ذلك أجلاً ، ثم إنه سافر خلال الأَجل ، فتشاور الفتية في الهروب بأَديانهم ، فقال لهم أحدهم : إني أَعرف كهفاً في جبل كذا كان أَبي يدخل فيه غنمه ، فلنذهب إليه فنختفي فيه حتى يفتح الله لنا ، فخرجوا – فيما رُوي – يلعبون بالصولجان والكُرَة ، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم ، وقيل : إنهم كانوا مُثَقَّفين فحضر عيد خرجوا له فركبوا في جملة الناس ، ثم أَخذوا في اللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك .

وروت فرقة أَن أَمر أَصحاب الكهف إنما كان أَنهم كانوا من أَبناءِ الأَشراف ، فحضر عيدٌ لأَهل المدينة ، فرأَى الفتيانُ ما يمتثله الناس في ذلك العيد من الكفر وعبادة الأَصنام والذبح لها ، فوقع الإِيمان في قلوبهم ، وأَجمعوا على مفارقة الناس لِئَلَّا ينالهم العذاب معهم ، فزايلوا الناس وذهبوا إلى الكهف .

وروى وهبُ بن منبه أَن أَمرهم إنما كان أَن حواريًّا لعيسى بن مريم عليه السلام جاءَ إلى مدينة أَصحاب الكهف يريد دخولها ، فأَجر نفسه من صاحب الحمَّام ، فكان يعمل فيه ، فرأَى صاحب الحمَّام في أَعماله بركة عظيمة ، فأَلقى إليه بكل أَمر ، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من أَهل المدينة ، فنشر فيهم الإِيمان ، وعرَّفهم اللهَ تعالى ، فآمنوا واتبعوه على دينه ، واشتهرت خُلْطتهم به ، فأَتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملِك بامرأَة بَغِيٍّ أَراد الخلوة بها ، فنهاه ذلك الحواري فانتهى ، ثم جاءَه مرَّة أُخرى فنهاه وشتمه ، فأَمضى عزمه على دخول الحمَّام مع البغي ، فدخل فماتا به جميعاً ، فاتُّهم ذلك الحواري وأَصحابه بقتله ، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف .

وقال عبيد بن عمير : إن أَصحاب الكهف كانوا فتية من أَبناءِ العظمـاءِ مطوَّقين مسوَّرين ذوي ذوائب ، قـد داخلهـم الإِيمـان

أَفذاذاً (١). وأَزمع كل واحد منهم الفرار بدينه من بلد الكفر، فأَخرجهم الله في يوم واحد لما أَراد بهم، فخرج أَحدهم فجلس في ظِلِّ شجرة على بعد من المدينة، فخرج ثانٍ، فلما رأَى الجالس جلس إليه، ثم الثالث، ثم الباقون حتى كمل جمعهم في ظلِّ الشجرة، فأَلْقى الله في نفوسهم أَن غرضهم واحد، فتساءَلوا، ففزع بعضهم من بعض وتكتموا، ثم تراضوا برجليْن منهم، وقالوا: انْفَرِدَا وتَوَاثَقا ولْيُفْشِ كلٌّ واحد منكما سرَّه إلى صاحبه، فإن اتَّفَقْتُما كنَّا معكما، فنهضا بعيداً فأَفصحا بالإيمان والهروب بالدين، فرجعا وفضحا الأَمر، وتابعهما الآخرون، ونهضوا إلى الكهف.

وأَما الكَلْبُ فرُوي أنه كان كلب صيد لبعضهم، ورُوي أَنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ، فاتَّبعهم الراعي على رأْيهم، وذهب الكلب معهم، واسم الكلب حمران، وقيل: قطمير. فدخلوا الغار على جميع هذه الأَقوال.

فروت فرقة أَن الله تعالى ضرب على آذانهم عند ذلك لِمَا أَراد من سترهم، وخفي على المملكة مكانهم، وعجب الناسُ من غرابة

(١) أي: أفراداً.

فقدهم فأَرَّخوا ذلك ورقموه في لوحين من رصاص أو نحاس ، وجعلوه على باب المدينة ، فيه أَسماؤُهم وأَسماءُ آبائهم وذكر شرفهم ، وأَنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا . وقيل : إن الذي كتب هذا وتَهَمَّمَ به رجلان قاضيان مؤمنان يكتمان إيمانهما من أَهل بيت المملكة ، وتَسَتَّرا بذلك ودفنا اللوحين عندهما ، وقيل على هذه الرواية : إن الملِك أَتى باب الغار ، وأَنهما دفنا ذلك في بناء الملِك على الغار .

وروت فرقة أَن الملِك لما ذهب الفتية أَمر بقَصِّ آثارهم ، فانتهى ذلك لمُتَّبِعِيهِم إلى باب الغار ، فعرف الملك فركب في جنده حتى وقف عليه ، فأَمر بالدخول عليهم ، فهاب الرجال ذلك ، فقال له بعض وزرائه : أَلَسْتَ أَيها الملِك إنْ أَخرجتهم قتلتهم ؟ قال : نعم ، قال : فأَي قتلة أَبلغ من الجوع والعطش ، ابن عليهم باب الغار ودعهم يموتوا فيه ، فَفَعَل ، وضرب الله تعالى على آذانهم قبل ذلك لما أَراد من تأْمينهم ، وأَرَّخ الناسُ أَمرهم في اللوحين ، أَو أَرخه الرجلان بحسب الخلاف ، واسم أَحد الرجلين – فيما ذكر الطبري – نيدروس ، واسم الآخر روقاس .

ورُوي أَن هذا الملِك الذي فرَّ الفتية من دينه كان قد امتحن الله به المؤمنين حيث أَحسَّ بهم ، يقتلهم ويُعَلِّقهم أَشخاصاً ورءُوساً

على أسوار مدينته ، وكان يريد أن يذهب في ذلك – كما ذكر – دين عيسى عليه السلام ، وكان هو وقومه من الرُّوم .

ثم أخبر الله تعالى عن الفتية أنهم لما آوَوْا إلى الكهف ، أي : دخلوه وجعلوه مأْوى لهم وموضع اعتصام ، دعوا الله تعالى بأَن يُؤْتيهم رحمةً من عنده ، وهي الرِّزْق فيما ذكره المفسرون ، وأن يُهَيِّئَ لهم من أَمرهم رشداً ، أي : خلاصاً جميلاً ، وقرأ الجمهور : [رَشَداً] بفتح الراءِ والشين ، وقرأ أبو رجاءٍ : [رُشْداً] بضم الراءِ وسكون الشين ، والأَول أَرجح لشبهها بفواصل الآيات قبلُ وبعدُ . وهذا الدعاءُ منهم كان في أمر دنياهم ، وألفاظه تقتضي ذلك ، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها .

وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءَه في أمر دنياه هذه الآية فقط ، فإنها كافية . ويحتمل ذكر الرحمة أن يُراد بها أَمْرُ الآخرة . وقد اختصرتُ هذا القَصَصَ ، ولم أُغْفِل من مُهِمِّه شيئاً بحسب اجتهادي . والله المعين برحمته .

وقوله تعالى : ﴿فَضرَبْنا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ الآية ، عبارة عن إلقاءِ الله تعالى النوم عليهم ، ويُعَبَّر عن هذا ونحوه بالضرب لِتَتَبيَّن قوةُ المباشرة وشدةُ اللصوق في الأَمر المتكلَّم فيه والإِلزامُ . ومنه ضَرْبُ

الذل والمسكنة ، ومنه ضَرْبُ الجزية وضربُ البعث ، ومنه قول الفـــرزدق :

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنْزَلُ (١)

فهو يستعمل في اللزوم البليغ .

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عُظْم فساد النوم ، وقلَّما ينقطع نوم نائم إلَّا من جهة أُذنه ، ولا يستحكم النوم إلَّا مع تعطُّل السَّمع ، ومن ذِكْر الأُذن في النوم قوله صلى الله عليه وسلم : (ذلك رجلٌ بال الشيطان في أُذنه) (٢) ، أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم باللَّيْل .

وقوله تعالى : [عَدَداً] نعتٌ لِلسِّنين ، والقصد به العبارة عن التكثير ، أي : تحتاج إلى عدد ، وهي ذاتُ عدد . قال الزجاج : ويجوز أن يكون نصب [عَدَداً] على المصدر .

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء جرير وقومه ، والتي بدأها قائلا :

إنَّ الَّذي سَمَكَ السَّماء بَنَى لَنَـــا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَـزُّ وأَطْـــوَلُ

ثم يمضي بعد تمجيد قومه إلى بيت جرير فيصفه بأنه زريبة للبهائم ، وأن العنكبوت قد ضربت عليه خيوطها ، وأن الفقر والذلة والهوان أُمور قد قضى بها الكتاب المنزل ، فلا يملك جرير وقومه الفرار منها . والشاهد أن (ضَرَبَ) هنا بمعنى : إلزامهم بالذلة والمسكنة .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد وبدء الخلق ، ومسلم في المسافرين ، والنسائي في قيام الليل ، وابن ماجه في الإمامة ، وأحمد (١ـ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ـ٢٦٠ ، ٤٢٧) ، ولفظه كما في البخاري ، عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، فقيل : ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة ، فقال : (بالَ الشيطانُ في أُذنه) .

و «البَعْثُ» : التحريك بعد سكون ، وهذا مطردٌ مع لفظة البعث حيث وقعت ، وقد يكون السكون في الشخص ، أو عن الأَمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً . وقوله تعالى : [لِنَعْلَمَ] عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ، وهذا على نحو كلام العرب ، أي : لنعلم ذلك موجوداً ، وإلَّا فقد كان الله تعالى عَلِمَ أَيُّ الحزبَيْن أَحصى الأَمد . وقرأ الزهري : [لِيَعْلَمَ] بالياء . و «الْحِزْبانِ» : الفريقان ، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً ، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حتى كان عندهم التاريخ بأَمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين اختلفا في مدة أَصحاب الكهف . وقالت فرقة : هما حزبان من المؤمنين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا لا يرتبط من أَلفاظ الآية .

وأَمَّا قوله تعالى : [أَحْصَى] فالظاهر الجيد فيه أَنه فعل ماض ، و [أَمَداً] منصوب به على المفعول ، و «الأَمَدُ» : الغاية ، ويأْتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أَمدها على الحقيقة . وقال الزجاج :

[أَحْصَى] هو أفعل ، و [أَمَداً] ـ على هذا ـ نصب على التفسير ، ويلحق هذا القولَ من الاختلال أن (أَفْعَلَ) لا يكون من فعل رباعي إلَّا في الشَّاذ ، و [أَحصَى] فعل رباعي . ويحتج لقول أبي إسحق بأن (أَفْعَل) من الرباعي مذكر ، كقولك : ما أعطاه للمال وآتاه للْخير ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم : (هي أسود من القار) [1] ، وقال في صفة حوضه عليه الصلاة والسلام : (أبيض من اللَّبن) [2] ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «فهو لما سواها أَضْيع» ، وهذه كلها (أَفْعَل) من الرباعي [3] ، وقال مجاهد : [أَمَداً] معناه : غاية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفسير بالمعنى ، وعلى جهة التقريب ، وقال الطبري : نصب [أَمَداً] بـ [لَبِثُوا] ، وهذا غير مُتَّجه .

(١) أخرجه مالك في الموطأ ، (جهنم) ـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، والترمذي في التفسير ، وابن ماجه في الزهد . ولفظه كما رواه البخاري ، عن عبد الله بن عمرو ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منها فلا يظمأ أبداً) .

(٣) من المعروف أن (أبيض وأسود) ليسا مبنيين من الرباعي ، وقد وضَّح أبو حيان آراء بعض العلماء في بناء أفعل للتعجب وللتفضيل ، وطبقها على [أحْصَى] في هذه الآية ، ويمكن الرجوع إلى ذلك في (البحر المحيط ٦ ـ ١٠٤) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

لما اقتضى قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ اختلافاً وقع في أمر الفتية عقَّب بالخَبر عن أنه عزَّ وجلَّ يعلم من أمرهم بالحق الذي وقع . وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنو إسرائيل . و «القَصُّ» : الإخبارُ بأَمر يُسرد ، لا بكلام يُرْوَى شيئاً شيئاً ، لأَن تلك المخاطبة ليست بقصص . وقوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أي : يَسَّرْناهم للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ ، ومباعدة الناس ، والزهد في الدنيا ، وهذه زيادات على الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزم وقوة صبر أَعطاها الله لهم ، ولما كان الفزع وخوَرَ النفس يشبه بالتناسب الانحلال ، حَسُن في شِدَّة النفس وقُوَّة التَّصميم أن يشبه الرَّبْط ، ومنه يقال : «فلانٌ رابط الجأْش» إذا كان لا تفترق نفسه عند الجزع والحرب وغيرها ، ومنه الرَّبط على قلب أُمِّ موسى . وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل معنيَيْن : أَحدهما أن يكون وصف مقامهم بين يدي الملِك الكافر ؛ فإنه مقام يحتاج إلى الرَّبط على القلب ، حيث طُلِبوا عليه ، وخالفوا دينه ، ورفضوا في ذات الله هيبته . والمعنى الثاني أَن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس ، كما تقول : «قام فلان إلى أَمر كذا» إذا عزم عليه بغاية الجد ، وبهذه الأَلفاظ التي هي : ﴿قَامُوا فَقَالُوا﴾ تعلَّقت الصوفية في القيام والقول (١) ، وقرأَ الأَعمش : «إِذْ قَامُوا قِيَاماً فقالوا» .

---

(١) نقل القرطبي قول ابن عطية هذا ، ثم علَّق عليه بقوله : «وهذا تعلُّق غير صحيح ، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم ، خائفين من قومهم ، وهذه سنَّة الله في الرُّسل والأنبياء والفضلاء الأولياء ، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ؟ وخاصة في هذا الزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْدِ والنسوان ، هيهات ، بينهما والله ما بين الأرض والسماء ، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء» .

وقولهم : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطاً﴾ ، أي : لو دعونا من دون ربنا إلٰهاً ، و « الشَّطَطُ » : الجَوْرُ وتعدّي الحدّ والغُلُوّ بحسب أَمْرٍ أَمْرٍ ، ومنه : « اشْتَطَّ الرجل في السَّوْم » إذا طلب في سلعته فوق قيمتها ، ومنه : شطوط النَّوى والبعد ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا يا لَقَوْمِي قَــدْ أَشَطَّتْ عَوازلي ... وَيَزْعُمْنَ أَنْ أَوْدَى بِحَقِّيَ بَاطِلِي (١)

وقوله تعالى : ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ مقالة يصلح أن تكون مما قالوه في مقامهم بين يدي الملِك ، ويصح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأَمر الذي عزموا عليه . وقولهم : ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ﴾ تَحْضِيضٌ بمعنى التعجيز ؛ لأَنه تَحْضِيضٌ على ما لا يمكن ؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم . و « السُّلْطَان » : الحُجَّة ، وقال قتادة : المعنى : بِعُذْرٍ بيِّن .

---

(١) البيت للأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت الأنصاري ، وهو في اللسان (شطط) . قال : « وشاهد أشَطَّ بمعنى أبعد قول الأحوص : ألا يا لَقَوْمي... البيت » . وهو أيضاً من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، ذكر الآية ، وذكر البيت وبعده بيتاً آخر هو :

وَيَلْحَيْنَنِي في اللَّهْوِ ألاّ أُحِبُّــــهُ ... وَلِلَّهْوِ داعٍ دائبٌ غَيْـــرُ غَافِلِ

وللأحوص حديث في كتب الأدب يتناول نفيه إلى قرية باليمن لمجونه وفسقه ، وأن بعض الناس كلم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليعيده فرفض مستشهداً بكثير من شعره في المجون ، مع أنه من ذرية الصحابي الجليل عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه « حميّ الدَّبْر » ، أي الذي حمته النحل من أن يُمثل الكفار بجثته بعد قتله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة محلقة

ثم عظَّم جُرْم الداعين مع الله آلهةً وظُلْمَهم بقوله ـ على جهة التقرير ـ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ الآية . إنْ كان «القيامُ» في قوله سبحانه : ﴿إِذْ قَامُوا﴾ عزماً ـ كما تضمن التأويل الواحد ، وكان «القول» منهم فيما بينهم ـ فهذه المقالةُ يصح أن تكون من قولهم الذي قالوه عند قيامهم ؛ وإن كان «القيام» المذكور مقامَهم بين يدي الملِك فهذه المقالة لا تترتب أن تكون من «مقالهم» بين يدي الملِك ، بل يكون في الكلام حذف تقديره : وقال بعضهم لبعض . وبهذا يترجَّح أن قوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ إنما المراد به : إذْ عزموا ونفذوا لأَمرهم .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ، إن فرضنا الكفار الذين فَرَّ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله تعالى ، ولا عِلْمَ لهم به ، إنَّمَا يعتقدون الأُلوهية في أصنامهم فقط ، فهو استثناءٌ منقطع ليس من الأَول ، وإن فرضناهم يعرفون الله تعالى ويعظمونه كما كانت تفعل العرب ، لكنهم يشركون أَصنامهم معه في العبادة ، فالاستثناءُ متصل ؛ لأَن الاعتزال وقع في

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

الإِشارة بـ [ذَٰلِكَ] في قوله تعالى : [وَكَذَٰلِكَ] إلى بعثهم ليتساءَلوا ، أي : كما بعثناهم أعثرنا عليهم . و (أَعْثَرَ) تعْدية (عَثَر) بالهمزة ، وأصل العثار في القوم ، فلما كان العاثر في الشيءِ مُشْبِهاً له شُبِّه به ، من شبه العلم بشيءٍ عنَّ له وثار بعد خفائه . والضمير في [لِيَعْلَمُوا] يحتمل أَن يعود على الأُمة المسلمة الذين بعث أَهل الكهف على عهدهم ، وإلى هذا ذهب الطبري ، وذلك أَنهم -فيما روي- دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأَجساد من القبور ، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه ، وقالوا : إنما تحشر الأَرواح ، فشق ذلك على ملكهم ، وبقي حيران لا يدري كيف يبيِّن أَمره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد ، وتضرع إلى الله في حُجَّة وبيَان ، فأَعثر الله على أَهل الكهف ، فلما بعثهم الله تعالى وتبيَّن النـاسُ أَمرهم سُرَّ المِلك ، ورجـع من

كان شك في بعث الأَجسام إلى اليقين به ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ على هذا التأْويل . ويحتمل أَن يعمل في [إِذْ] - على هذا التأْويل - [أَعْثَرْنَا] ، ويحتمل أَن يعمل فيه [لِيَعْلَمُوا] .

والضمير في قوله : [لِيَعْلَمُوا] يحتمل أَن يعود على أَصحاب الكهف ، أي : يجعل الله تعالى أمرهم آية لهم دالَّة على بعث الأَجساد من القبور . وقوله : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ ﴾ - على هذا التأْويل - ابتداءُ خبر عن القوم الذين بُعثوا على عهدهم ، والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره : واذكر ، ويحتمل أَن يعمل فيه : [فَقَالُوا] ، ويكون المعنى : فقالوا إذ يتنازعون : ابنوا عليهم ، والتَّنازع - على هذا التأْويل - إنما هو في أَمر البناءِ والمسجد لا في أَمر القيامة . و « الرَّيْبُ » : الشَّك ، والمعنى : إِنَّ الساعة في نفسها وحقيقتها لا شك فيها ، وإن كان الشك وقع لِنَاسٍ فذلك لا يلحقها منه شيءٌ . وقد قيل : إن التنازع إنما هو في أن اطلعوا عليهم فقال بعضهم : أَمواتٌ ، وقال بعضهم : أَحياءٌ ، ورُوي أَن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين ، فقالت الطائفة الغالبة على الأَمر : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴾ فاتَّخذوه ، وقال قتادة : الذين غَلَبُوا هم الوُلاة . وقرأَ الحسن ، وعيسى الثقفي : [غُلِبُوا] بضم الغين وكسر اللام ، والمعنى : إن الطائفة التي أَرادت المسجد كانت أَولاً تريد أَلَّا يبنى عليهم شيءٌ وأَلا يعرض

لموضعهم . ورُوي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت ولابُدَّ طمس الكهف، فلمَّا غُلِبت الأُولى على أن يكون بنيان ولابُدَّ قالت : يكون مسجداً ، فكان . وروي أن الطَّائفة التي دعت إلى البنيان إنما كانت كافرة أرادت بناءَ بيعة أو مصنع لكفرهم ، فمانعهم المؤمنون وقالوا : ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ . ورُوي عن عبيد بن عمير أن الله تعالى عَمَّى على الناس حينئذ أمرهم وحَجَبَهم عنهم ، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوراة من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص .

وقرأ الجمهور : [ثَلَاثَةٌ] ، وقرأ ابن محيصن : [ثَلَاثٌّ] بإدغام التاءِ في الثاءِ ، وقرأ شبل عن ابن كثير : [خَمَسَةٌ] بفتح الميم إتباعاً لِعَشَرة ، وقرأ ابن محيصن : [خِمِسَةٌ] بكسر الخاءِ والميم .

وقوله تعالى : ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ معناه : ظَنًّا ، وهو مستعارٌ من الرجم ، كأَن الإِنسان يرمي الموضع المُشكل المجهول عنده بِظَنِّه المرَّة بعد المرَّةِ ، يرجمه به عسى أَن يصيب ، ومن هذا : الترجمان ، وتَرْجَمة الكتب ، ومنه قول زهير :

وَمَا الْحَـرْبُ إِلَّا ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّـمِ (١)

والواو في قوله تعالى : ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ طريق النحويِّين فيها أَنها واو عطف دخلت في آخر إِخبار عن عددهم ، لتفصل أَمرهم ، وتدل على أَن هذا نهاية ما قيل ، ولو سقطت لصح الكلام ، [ولو كانت

(١) البيت من المعلقة ، والعِلْمُ والذَّوْقُ يكونان في الخبرة والتجربة ، و (هُوَ) في قوله: (وما هو عنها) يعود على مفهوم من الكلام ، والمعنى : وما الخبر عنها بحديث يُرَجَّم بالظن ، والمُرَجَّم : الذي يُرمى فيه بالظن ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، يقول : ما الحرب إلاَّ ما قد جرَّبتم وخَبَرْتم وذُقتم ، فإياكم أن تعودوا إليها ، وما الحديث عنها بحديث يرجَّم فيه بالظن ، ولكن هو حديث التجربة المُرَّة والخبرة القاسية ، فإياكم أن تغدروا وتعُودوا إلى الحرب .

فيما قبل من قوله : [رَابِعُهُمْ] و [سَادِسُهُمْ] لصَحَّ الكلام][1] ، وتقول فرقة منها ابن خالويه : هي واو الثمانية ، وذكر ذلك الثعلبي عن أبي بكر بن عياش ، وأن قريشاً كانت تقول في عددها : ستة ، سبعة ، وثمانية ، تسعة ، فتدخل الواو في الثمانية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم شرحها [2] ، وهي في القرآن في قوله تعالى : ﴿ٱلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ﴾[3] ، وقوله : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[4] ، وأما قوله تعالى : ﴿ثَيِّبَات وَأَبْكَاراً﴾[5] ، وقوله : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾[6] فتوهم في هذين الموضعين أنها واو الثمانية وليست بها ، بل هي لازمةٌ لا يستغني الكلام عنها[7] .

---

(١) ما بين العلامتين (ولو كانت...) سقط من جميع النسخ ، ولم نجده إلاّ في النسخة التونسيـــة .

(٢) راجع الجزء السابع (ص ٥٧ ، ٥٨) .

(٣) من الآية (١١٢) من سورة (التوبة) .

(٤) من الآية (٧٣) من سورة (الزُّمَر) .

(٥) من الآية (٥) من سورة (التحريم) .

(٦) من الآية (٧) من سورة (الحاقة) .

(٧) وقد سبق أن تحدثنا طويلا عن واو الثمانية في سورة التوبة ، (ج ٧–٥٨) ، ورجّحنا قول القشيري الذي يرى أن كلام ابن خالويه في مناظرة جرت بينه وبين أبي علي الفارسي ،=

وقد أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم في هذه أن يَرُدَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ ، ثم أَخبر أن عالِم ذلك من البشر قليل ، والمراد به قومٌ من أَهل الكتاب ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : «أَنا من ذلك القليل ، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُستدل على هذا من الآية ، فإن القرآن لما حكى قول من قال ثلاثة وخمسة قَرَن بالقول أنه رجْمٌ بالغيب ، وقدح ذلك فيهما ، ثم حكى هذه المقالة ولم يقدح فيها بشيء ، بل تركها مسجلة ، وأَيضاً فيَقْوَى ذلك على القول بأَنها واو الثمانية لأَنها إنما تكون حيث عدد الثمانية صحيح .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ معناه على بعض الأَقوال ، أَي : بظاهر ما أَوحينا إليك وهو ردُّ علم عِدَّتهم إلى الله تبارك وتعالى ، وقيل : معنى الظاهر أن يقول : ليس كما تقولون ،

= وكلام أبي بكر بن عياش، هذا الكلام تحكم منهما ، وقد نقض القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ الآية ، حيث لم يذكر الاسم الثامن من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ بالواو . وإنما ذكرت الواو هنا كما قال ابن عطية لتُفَصِّل أمْرَهم ، ولتدُلَّ عَلَى أن هذا نهاية ما قيل فيهم .

ونحو هذا ، ولا يحتج هو على أَمْرٍ مقدَّرٍ في ذلك ، فإن ذلك يكون مراءً في باطن من الأَمر ، وقال التبريزي : [ظَاهِراً] معناه : ذاهباً ، وأَنشد :

. . . . وَتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْك عَارُهَا (١)

ولم يُبِح له في هذه الآية أَن يماري ، ولكن قوله : ﴿إِلَّا مِرَاءً﴾ استعارة ، من حيث يماريه أَهل الكتاب سُمِّيت مراجعته لهم مراءً ، ثم قُيِّد بأَنه ظاهر ففارق المراءَ الحقيقي المذموم . و «المِرَاءُ» مشتق من المِرْية ، وهي الشَّك ، فكأَنه المُشَاكَكَةُ . والضمير في قوله تعالى : [فِيهِمْ] عائد على أَهل الكهف ، وفي قوله سبحانه : [مِنْهُمْ] عائد على أَهل الكتاب المعاصرين . وقوله : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني : في عِدَّتهم ، وحُذِفَت العِدَّةُ لدلالة ظاهر القول عليها .

---

(١) هذا عجز بيت قاله أبو ذؤيب من قصيدة يرثي بها نُشَيْبَة بن مُحرِّث ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

أبَى القَلْبُ إلاَّ أمَّ عَمْرٍو وأصْبَحَتْ تُحَرَّقُ ناري بالشَّكاةِ وَنَارهَا
وَعَيَّرَهَا الْوَاشونَ أنِّي أُحِبُّهَا وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُهَا

تُحَرَّق ناري : توقدها بالشكاة ، يقول : أوقدتْ لي ناراً فاشتهرنا بها ، وانتشر أمري وأمرها لـمَّا لم أُقلع عن حبها ، وذلك التَّعبير ظاهر عنكِ ، أي : لا يلحق بكِ عارُه ، ولا يلصق بك ، يقال : ظهر عن الشيء : تباعد وذهب . وهذا موضع الاستشهاد .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ الآية . عاتب الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار : غداً أُخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن في ذلك ، فاحتبس عنه الوحيُ خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه ، وأَرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السُّورة مفرجة ، وأُمر في هذه الآية أَلَّا يقول في أمر من الأُمور : إني أَفعل غداً كذا وكذا إلَّا وأَن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ . واللام في قوله تعالى : [لِشَيْءٍ] بمنزلة (في) ، أو كأَنه قال : لأَجل شيءٍ . وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ ، في الكلام حـذف يقتضيه الظاهر ويُحَسِّنه الإيجـاز ، تقديره : إلَّا أَن تقول «إلَّا أَن يشاءَ الله» ، أَو إلَّا أَن تقول «إن شاءَ الله» . فالمعنى : إلَّا أَن تذكر مشيئة الله ، فليس ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ من القول الذي نُهي عنه . وقالت فرقة : قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ من قوله : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ حكاه الطبري ورُدَّ عليه ، وهو من الفساد بحيث كان من الواجب أَلَّا يُحْكَى (١) .

---

(١) هذا نصُّ كلام الطبري : «وكان بعض أهل العربية يقول : جائز أن يكون معنى قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءً من القول ، لا من الفعل ، كأن معناه عنده : لا تقولنَّ =

وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ، قال ابن عباس ، والحسن : معناه والإشارة به إلى الاستثناء ، أي : وَلْتَسْتَثْنِ بعد مُدَّة إذا نسيت الاستثناءَ أوَّلاً لتخرج من جملة من لم يعلِّق فعله بمشيئة الله ، وقال عكرمة : المعنى : واذكر ربَّك إذا غضبت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناءِ في اليمين ، والآية ليست في الأَيمان ، وإنما هي في سنة الاستثناءِ في غير اليمين ، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ينبغي أن نذكر شيئاً من ذلك .

أما مالك رحمه الله وجميع أَصحابه ـ فيما علمت ـ وكثير من العلماءِ فيقولون : لا ينفع الاستثناءُ ويُسقط الكفــارة إلَّا أَن يكون متصلاً باليمين . وقال عطاءٌ : له أَن يستثني في قدر حَلَب النَّاقة الغزيرة .

= قولاً إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله ذلك القول . وهذا وجه بعيد من المفهوم بالظاهر من التنزيل ، مع خلافه تأويل أهل التأويل » ، وممن قال ذلك الزمخشري ، قال : « إن الاستثناء متعلق بالنهي لا بالفعل ، وتعلقه به على وجهين : أحدهما ولا تقولنَّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله بأن ذلك فيه ، والثاني ولا تقولَنَّه إلاَّ بأن يشاء الله ، أي: إلاَّ بمشيئته ، وهو في موضع الحال ، أي : إلاَّ متلبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله » ، أمَّا ما اختاره المؤلف فهو رأي الكسائي ، والفراء ، والأخفش .

وقال قتادة : إن استثنى قبل أن يقوم فَلَه ثُنْياه . وقال ابن حنبل : له الاستثناءُ ما دام في ذلك الأَمر ، وقاله ابن راهويه . وقال طاوس ، والحسن : ينفع الاستثناءُ ما دام الحالف في مجلسه . وقال ابن جبير : ينفع الاستثناءُ بعد أَربعة أَشهر فقط ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ينفع الاستثناءُ ولو بعد سنة . وقال مجاهد : بعد سنتين ، وقال أَبو العالية : ينفع أَبداً .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

واختلف الناس في التأْويل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال الطبري وغيره : إنما أَراد ابن عباس أَنه ينفع في أَن يجعل الحالف في رتبة المستثنين بعد سنة من حلفه ، وأَما الكفارة فلا تسقط عنه ، قال الطبري : ولا أَعلم أَحداً يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مُدَّةٍ) يقول بسقوط الكفارة ، قال : ويَرُدُّ ذلك قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (من حلف على يمين ثم رأَى غيرها خيراً منها فَلْيُكَفِّر وَلْيَأْتِ الذي هو خير) (١) ، فلو كان الاستثناءُ يسقط الكفارة لكان أَخف على الأُمَّة ، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

وقال الزهراوي: إنما تكلَّم ابن عباس رضي الله عنهما في أن الاستثناءَ بعد سنة لمن قال: أنا أفعل كذا، لا الحالف أراد حلَّ يمينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهبت فرقة من الفقهاءِ إلى أن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما سقوط الكفارة، وألزموا كل من يقول (ينفع الاستثناءُ بعد مدة) إسقاط الكفارة، وردُّوا على القول بعدم إلزامه، وليس الاستثناءُ إلَّا في اليمين بالله، لا يكون في طلاق ونحوه، ولا في مشي إلى مكة، وهذا قول مالك وجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله، وأصحاب الرأْي، وطاوس، وحماد: الاستثناءُ في ذلك جائز، وليس في اليمين الغموس (١) استثناءٌ

---

(١) اليمين الغَمُوسُ: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم، وفي الحديث الشريف: (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع)، وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: جاءَ أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغَمُوس، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: التي يقتطع بها مال امرئٍ مسلم هو فيها كاذب.

ينفع ، ولا يكون الاستثناءُ بالقلب ، وإنما يكون قولاً ونطقـاً .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ الآية . قال محمد الكوفي المفسِّر : إنَّها بألفاظها مِمَّا أُمر أَن يقولها كلٌّ من لم يستثن ، وإنها كفارة لنسيان الاستثناءِ . وقال الجمهور : هو دعاءٌ مأْمورٌ به دون هذا التخصيص .

وقرأ الجمهور : [يَهْدِيَنِي] بإثبات الياءِ ، وهي قراءَة ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو . وقرأ طلحة بن مصرف : [يَهْدِيَنِ] دون ياءٍ في الوصل ، وهي قراءَة ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي .

والإشارة بـ [هَذَا] إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناءِ وقال الزجاج : المعنى : عسى أن يُيَسِّر الله من الأَدلَّة على نبوتي أَقرب من دليل أَصحاب الكهف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما قدَّمته أَصوب ، أي : عسى أن يرشدني فيما أَستقبِل من أَمري . وهذه الآية مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي بعد تَعُمُّ جميع أُمته ، لأَنه حكم يتردد في الناس بكثرة وقوعه ، والله الموفق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝٢٦ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ ﴾

قال قتادة ، ومطر الوراق ، وغيرهما : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك ، واحتَجَّا بأَن في قراءة عبد الله بن مسعود وفي مصحفه : «وقَالوا لَبِثُوا في كَهْفِهِمْ» ، وذلك عند قتادة ـ على غير قراءة عبد الله ـ عطف على ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ ، ذكره الزهراوي .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بأَن يرُدَّ العلم إليه ردًّا على مقالتهم وتفنيداً لهم ، قال الطبري : «وقــال بعضهم : لو كان ذلك خبراً من الله لم يكن لقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وجْهٌ مفهوم» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أين ذهب بهذا القائل ؟ وما الوجه المفهوم البارع إلّا أن تكون الآية خبراً عن لبثهم ، ثم قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ بخبره ، هذا هو الحق من عالم الغيب ، فليزل اختلافكم أيها المتخرصون .

وقال المحققون : بل قوله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم ، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار : ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ - فقال الطبريُّ : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، وأخبر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن هذه المدة في كونهم نياماً ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمره الله تعالى أن يرُدَّ علم ذلك إليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فقوله تعالى - على هذا التأويل - : [لَبِثُوا] الأول يريد : في نوم الكهف ، و [لَبِثُوا] الثاني يريد : بعد الإعثار موتى إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبلى ، على الاختلاف

الذي سنذكره بعد . وقال بعضهم : إنه لمَّا قال : ﴿ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً ﴾ لم تَدْرِ الناسُ أهي ساعاتٌ أم أَيَّام أم جمع أم شهور أم أعوام ، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك ، فأمره الله تعالى بردِّ العلم إليه ، يريد : في التسع ، فهي – على هذا – مبهمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر كلام العرب والمفهوم عنه أنها أعوامٌ ، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى عليه السلام بيسير ، وقد بقيت من الحواريِّين بقية . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأُمم ، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ذكرت التِّسع ؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين .

وقرأ الجمهور : ﴿ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ﴾ بتنوين [مِائَةٍ] ونصب [سِنِينَ] على البدل من [ثَلَاثَمائة] ، أو عطف البيان ، وقيل : على التفسير والتمييز (١) ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، ويحيى ، وطلحة ،

---

(١) وحكى أبو البقاء أن قوماً أجازوا أن يكون [سِنِينَ] بدلاً من [مِائَةٍ] ؛ لأن [مِائَةٍ] في معنى (مِئات) . وقال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) : « فأما عطف البيان فلا =

والأعمش بإضافة [مِائَةِ] إلى «السِّنين» وترْك التنوين ، وكأنهم جعلوا [سِنِينَ] بمنزلة (سَنَة) ؛ إذ المعنى بهما واحد . قال أبو علي : إذ هذه الأعداد التي تضاف في الشهور إلى الآحاد نحو ثلاثمائة رجل أو ثوب قد تضاف إلى الجموع ، وانْحى أبو حاتم على هذه القراءة ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «ثلاثمائة سنةٍ» ، وقرأ الضحاك : «ثَلاَثَمائةٍ سنون» بالواو . وقرأ أبو عمرو – بخلاف – : [تَسْعاً] بفتح التاء ، وقرأ الجمهور : [تِسْعاً] بكسر التاء .

وقوله تعالى : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ، أي : ما أبصره وأسمعه ، قال قتادة : لا أحد أبصر من الله تعالى ولا أسمع .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عباراتٌ عن الإدراك ، ويحتمل أن يكون المعنى : ﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ أيْ : بوحيه وإرشاده ، هداك وحججك والحق من الأُمور ، وأسمع به العَالَمَ ، فيكونان أمْرَيْن لا على وجه التعجب . وقوله تعالى : ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على أصحاب

= يجوز على مذهب البصريين ، وأما نصبه على التمييز فالمحفوظ من لسان العرب المشهور أن (مائة) لا يُفَسَّر إلا بمفرد مجرور ، وأن ما سمع من قولهم : «إذا عاش الفتى مائتين عاماً» من الضرورات ، ولا سيما وقد انضاف إلى ذلك كون [سِنِينَ] جمعاً» .

الكهف ، أي : هذه قُدرتُه وحده ، لم يُوَالِهم غيرُه بتلَطُّف لهم ، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم . ويحتمل أن يعود الضمير في [لَهُمْ] على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار ومُشَاقِّيه ، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد .

وقرأ الجمهور : ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ بالياءِ من تحت ، على معنى الخبر عن الله تبارك وتعالى ، وقرأ ابن عامر ، والحسن ، وأبو رجاءٍ ، وقتادة ، والجحدري : ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاءِ من فوق ، على جهة النهي للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله : ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ عطفاً على قوله سبحانه : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ . وقرأ مجاهد : ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بالياءِ من تحت وبالجزم ، قال يعقوب : لا أعرف وَجْهَهُ .

وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : نزلت هذه الآية ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ﴾ فقط ، قال الناس : أَهِيَ أَشْهُرٌ أم أَيَّامٌ أم أَعْوامٌ ؟ فنزلت ﴿سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت ؟ فاختلفت الروايات في ذلك – فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما

أنه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس إليه فوجدوا عظاماً ، فقالوا : هذه عظام أصحاب الكهف ، فقال لهم ابن عباس رضي الله عنهما : لا ، أُولئك فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ، فسمعه راهب فقال : ما كنت أَحسب أن أَحداً من العرب يعرف هذا ، فقيل له : هذا ابن عمِّ نبينا صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَيَحُجَّن عيسى بن مريم ومعه أَصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وبالشَّام - على ما سمعتُ من ناس كثير - كهف كان فيه موتى يزعم مجاوروه أَنهم أَصحاب الكهف ، وعليه مسجد وبناءٌ يُسَمَّى الرَّقيم ، ومعهم كلب رمة ، وبالأَندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تُسَمَّى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة ، وأَكثرهم قد انجرد لحْمُه ، وبعضهم متماسكٌ ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأْنهم إثارة ، ويزعم ناسٌ أَنهم أَصحاب الكهف ، دخلت إليهم ورأَيتهم سنة أَربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بنـاءٌ رومي يسمَّى الرَّقيم ممـا يلي القبلة ، وآثـار

مدينة قديمة رومية يقال لها دقنيوس ، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما استسهلت ذكر هذا مع بُعْده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عزَّ وجلَّ .

قوله تعالى : ﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية . من قرأ : ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالنهي عطف قوله : [وَٱتْلُ] عليه ، ومن قرأ : ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ جعل هذا أمراً بُدِئَ به كلام آخر ليس من الأول ، وكأن هذه الآية في معنى العتاب للنبي صلى الله عليه وسلم عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء ، كأنه يقول : هذه أجوبة الأسئلة ، فاتْل وحْيَ الله إليك ، أي : اتبع في أعمالك ، وقيل : اسْرُد بتلاوتك ما أُوحي إليك من كتاب ربك ، لا نقص في قوله ، ولا مبدل لكلماته ، وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند .

و «المُلْتَحَدُ» : الجانب الذي يمال إليه ، ومنه اللَّحْدُ ، كأنه الميْلُ في أحد شقَّي القبر ، ومنه : الإلحادُ في الحق ، وهو الميل عن الحق ، ولا يفسد قوله : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أمر النسخ ؛ لأن المعنى إمَّا أن يكون : لا مُبَدِّلَ سواهُ ، فتبقى الكلماتُ على الإطلاق ، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخَبَر ونحوه مما لا يدخله النسخ ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بِحَسبه يجري القدر ،

فأَما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها لا تبدَّل إلَّا بالتأْويل ، ومن العلماءِ من يقول : إن بني إسرائيل بدَّلوا أَلفاظ التـــوراة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

سبب هذه الآية أَن عظماءَ الكفار – قيل : من أَهل مكة ، وقيل : عُيَيْنَة بن حصن وأَصحــابه ، والأَول أَصوب لأَن السورة مكية – قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أَبعدتَ هؤلاءِ عن نفسك لجالسناك وصحبناك ، يريدون : عمَّار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، وسلمان الفارسي ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهم من الفقراءِ كبلال

ونحوه ، وقالوا : إن ريح جِبَابهم (١) تؤذينا ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم ، وجلس بينهم وقال : (الحمد لله الذي جعل من أُمتي من أُمرت أن أَصبر نفسي معه) (٢) ، وروي أَنه قال لهم : (مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي) ، وروى سلمان أَن المؤلفة قلوبهم ، عُيَيْنَة بن حصن ، والأَقرع ، وذويهم قالوا ما ذُكر فنزلت الآية (٣) .

---

(١) الجِبَابُ : جمع جُبَّة ، وهي ثوب سابغ ، واسع الكُمَّيْن ، مشقوق المُقَدَّم ، يلبس فوق الثياب . ويجمع أيضاً « جُبَب » .

(٢) أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أبياته ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ، فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله ، فيهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : (الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم) .

(٣) أخرجه ابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سلمان ، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عُيَيْنَة بن بدر [هكذا] (*) ، والأقرع بن حابس ، فقالوا: يا رسول الله ، لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان ، وأبا ذَرٍّ وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جِبابُ الصوف - جالسناك أو حادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله : ﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله : ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾ ، يهددهم بالنار .

(*) هذه الرواية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور ، ولكن في القرطبي : (عُيَيْنَة ابن حصن) . وفي الطبري أشار المحقق إلى أنها في الأصل (ابن بدر) وقد صوبها إلى : (ابن حصن) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالآية - على هذا - مدنية ، ويُشبه أن تكون الآية مكية وفَعل المؤلفةُ فعل قريش فردَّ عليهم بالآية .

و [ٱصْبِرْ] معناه : احْبِس ، ومنه المصبورة التي جاءَ فيها الحديث (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صبر الحيوان)(١) ، أي : حبسه للرَّمي ونحوه .

وقرأ الجمهور : [بِالْغَدَاةِ] ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [بِالْغُدْوَةِ] ، وهي قراءَة نصر بن عاصم ، ومالك بن دينار ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، وهي في الخَطِّ على القراءَتين بالواو ، فمن يقرأْ [بِالْغَدَاةِ] فيكتبها كما تكتب «الصَّلٰوةُ والزَّكوٰةُ» ، وفي قراءَة من قرأَ : [بِالْغُدْوة] ضعف ؛ لأَن (غُدْوة) اسم معرَّف فحقُّه ألا يدخل

(١) أخرجه البخاري في الذبائح ، ومسلم في الصيد ، وأبو داود في الأضاحي ، والنسائي في الضحايا ، وأحمد في مسنده (٢-٩٤ - ٣-١١٧) ، ولفظه كما في مسلم ، عن جابر بن عبد الله يقول : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل شيءٌ من الدواب صبراً ، وفي رواية لمسلم عن سعيد بن جبير قال : مرَّ ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجةً يترامونها ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : من فعل هذا ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا . وفي رواية عن أنس رضي الله عنه أخرجها ابن ماجه في الذبائح ، وأحمد في المسند (٣-١٨٠) ، قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صبر البهيمة .

عليه الألف واللام ، ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير ؛ إذْ قالوا : «جئتُ غُدْوةً» ، يريدون : من الغَدَوات ، فَحَسُن دخول الألف واللام ، كقولهم : الفَيْنَة ، وفَيْنَةُ اسم مُعَرَّف . والإشارة لقوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ إلى الصلوات الخمس ، قاله ابن عمر ، ومجاهد ، وإبراهيم . وقال قتادة : المراد صلاة الفجر وصلاة العصر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة ، ومن يجتمع لمذاكرة علم . وقد روي عن عبد الله بن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لَذِكْر الله بالغداة والعشي أفضل من حطْم السيوف في سبيل الله ، ومن إعطاءِ المال سحا) (١) .

وقرأ أبو عبد الرحمن : [بِالْغُدُو] دون هاءٍ ، وقرأ ابن أبي عبلة : «بالغَدَوَاتِ والعَشِيات» على الجمع .

---

(١) وروى البيهقي في (الدعوات الكبير) عن عبد الله بن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : (لكل شيءٍ صَقَالَةٌ – تَجْلية وتَصْفية – وصَقَالَةُ القلوب ذِكْرُ الله ، وما من شيءٍ أنْجى من عذاب الله من ذِكْر الله) ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : (ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ، أي : لا تتجاوز إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار . وقرأ الحسن : ﴿وَلَا تُعَدِّ﴾ بضم التاء وفتح العيْن وشدّ الدال المكسورة ، أي : لا تُجاوزها أَنت عنهم ، ورُوي عنه : ﴿وَلَا تُعْدِ﴾ بضم التاء وسكون العين (١) . وقوله : ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾ ، قيل : إنه أَراد بذلك مُعَيَّناً وهو عُيَيْنَة بن حصن ، والأَقرع ، قاله خبَّاب ، وقيل : إنما أَراد من هذه صفته ، وإنما المراد أَوَّلاً كفار قريش لأَن الآية مكية . وقرأ الجمهور : ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بنصب الباء ، على معنى : جعلناه غافلاً ، وقرأ عمرو بن فائد ، وموسى الأَسواري : ﴿أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ﴾ (٢) ، على معنى : أَهمل ذِكْرَنا وتركه ، قال ابن جِنِّي : المعنى : من ظَنَّنَا غافلين عنه ، وذكر أَبو عمرو الداني : إنها قراءة عمرو بن عبيد .

و « الْفُرُط » يحتمل أَن يكون بمعنى التفريط والتَّضْييع ، أَي أَمره الذي يجب أَن يلتزم ، ويحتمل أَن يكون بمعنى الإفراط والإسراف ،

---

(١) قال أبو الفتح ابن جني : « هذا منقول من : عَدَتْ عيناك ، أي : جَاوَزَتَا ، من قولهم : جاءَ القومُ عدا زيداً ، أي : جاوز بعضهم زيداً ، ثم نقل إلى : أَعْدَيْتُ عيني عن كذا ، أي : صرفتُها عنه » . (المحتسب ٢ـ٢٧) .

(٢) أي : بفتح اللام من [أَغْفَلَنَا] ، وبضم الباء في [قَلْبُهُ] ـ فقلبُه أغفلَ ذِكْرَ الله تبارك وتعالى ، هذا تحليلُ ابن جني وهو مذكور في المحتسب ٢ـ٢٨ .

أي أَمْرُهُ وهواه الذي هو بسبيله ، وقد فسَّر المتأولون بالعبارتين ، أعني التَّضْييع والإسراف ، وعبَّر عنه خبَّاب بالهلاك ، وداودُ بالندامة ، وابن زيد بالخلاف للحق ، وهذا كله تفسير بالمعنى .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية . المعنى : وقل لهم يا محمد : هذا الحقُّ من ربكم ، أي : هذا القرآن ، أو هذا الإعراض عنكم ، وتَرْكُ الطاعة لكم ، وصَبْرُ النفس مع المؤمنين . وقرأ قَعْنَب أبو السَّمَّال (١) : [وَقُلَ] بفتح اللام ، قال أبو حاتم : وذلك رديءٌ في العربية . وقوله : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ الآية ، تَوَعُّدٌ وتهديد ، أي : فَلْيَخْتر كلُّ امرئٍ لنفسه ما يجده غداً عند الله عزَّ وجلَّ . وتأولت فرقة : فمن شاءَ اللهُ إيمانَهُ فليؤمن ، ومن شاءَ كفْرَهُ فَلْيَكْفُر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا متوجه ، أي : فحقُّه الإيمان وحقُّه الكفر ، ثم عبَّر عن ذلك بلغة الأَمر إلزاماً وتحريضاً من حيث للإنسان في ذلك التَّكَسُّبُ الذي يتعلق به ثواب الإيمان وعقاب الكفر . وقرأ الحسن ، وعيسى الثقفي : ﴿فَلِيُؤْمِنْ ... وَلِيَكْفُرْ﴾ بكسر اللامين .

---

(١) ضبطه في المغني بفتح القاف والنون وسكون العين ، وهو أبو السَّمَّال العدوي .

و [أَعْتَدْنَا] مأُخوذ من العتاد ، وهو الشيءُ المُعَدُّ الحاضر .

و «السُّرَادِقُ» هو الجدار المحيط كالحجارة التي تدور وتحيط بالفسطاط ، وقد تكون من نوع الفسطاط أَدِماً أَو ثوباً أَو نحوه ، ومنه قول رؤْبة :

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بنَ الْجَارُودْ ... سُرَادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْـــدُودْ (١)

ومنه قول سلامة بن جندل :

هُوَ الْمُولِـجُ النُّعْمَانَ بَيْتاً سَمَاؤُهُ ... صُدُورُ الْفُيُولِ بَعْدَ بَيْت مُسَرْدَقِ (٢)

(١) هذان البيتان من أُرجوزة قصيرة لرؤبة ، وهي في ديوانه ضمن أبيات مفردات منسوبة إليه ، والأرجوزة سبعة أبيات ، والبيت الثاني في الديوان : (أَنتَ الجوادُ ابن الجوادِ المحْمُودْ) ، أما البيت الثاني هنا فهو هناك الخامس ، والبيتان في الأشموني ، والعيني ، واللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والكتاب لسيبويه ، وابن يعيش ، وقال في العيني : «نسب الجوهري الأبيات إلى رؤبة ، وليس بصحيح ، بل هي لراجز من بني الحِرْمَاز ، وكذلك نسب الكتاب البيت الأول لراجز بني الحِرْمَاز ، والراجزُ يمدح أحد بني المنذر بن الجارود العبدي ، واسمه (حَكَم) ، وقد ولي البصرة لهشام بن عبد الملك ، وسُمِّي جدُّه الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم ، فأشبه السيل الذي يجرد ما يمر عليه . والنحويون يستشهدون بالبيت الأول على إتباع الموصوف للصفة ؛ لأن النعتَ والمنعوت كاسمٍ ضمَّ إلى اسم ، وعلى هذا تبع (حَكَمَ) (ابْنَ) . أما الشاهد هنا فهو في كلمة (سرادق) ، والسرادق : كلُّ ما أحاط بالشيء ، نحو الشقة في المِضرَب (الخيمة) ، أو الحائط المشتمل على الشيء ، وكل بيت من كُرْسف فهو سُـرَادق ، والكُرسُف : القطن .

(٢) البيت لسلامة بن جندل ، الشاعر الجاهلي القديم ، من قصيدة له اختارها الأصمعي في كتابه (الأصمعيات) ، وعدد أبياتها أربعون بيتاً ، وهي أيضاً في الديوان ، والبيت في اللسان – والطبري ، والقرطبي . وقد ذكر صاحب اللسان أن الجوهري نسب البيت للأعشى ، وصحح =

وقال الزجاج : السُّرادق : كلُّ ما أحاط بالشيء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي أخصُّ مما قال الزجاج .

واختُلف في سرادق النار - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : سرادقها حائط من نار ، وقالت فرقة : سرادقها دخان محيط بالكفار ، وهو قوله تعالى : ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (١) . وقالت فرقة : الإحاطة هي في الدنيا ، والسرادق : البحر ، ورُوي هذا المعنى من طريق يَعْلَى بن أُميَّة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجيءُ قوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ ، أي : بالبشر ، ذكر الطبريُّ الحديث عن يَعْلَى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (البحر هو جهنم) ، وتلا هذه الآية ، ثم قال : (والله لا أدخله أبداً ، أو ما دمْتُ حيًّا) (٢) ، وروي

= هو نسبة البيت . والرواية في اللسان والأصمعيات : (هو المُدْخِل النعمانَ ...) ، والبيت المُسَرْدَقُ هو أن يكون أعلاهُ وأسفله مشدوداً كله ، والشاعر هنا يشير إلى ما فعله كسرى أبرويز من إدخاله النُّعمانَ بيتاً فيه ثلاثة أفيال فَوَطِئَتْهُ حتى قتلته ، وكما أخطأ الجوهري في نسبة البيت للأعشى أخطأ كذلك حين قال : إنَّ (ابْنَ وَبْر) قتل النعمان بن المنذر تحت أرجل الفياة ، والصواب أنه (أبرويز) .

(١) الآية (٣٠) من سورة (المرسلات) .

(٢) أخرجه أحمد ، والبخاري في تاريخه ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن يعلى بن أُمية ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الدرّ المنثور : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن البحر من جهنم) ثم تلا : ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ .

عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال : (لِسُرادق النَّارِ أربعةُ جُدُرٍ كُثُف ، عرض كل جدارٍ مسيرة أربعين سنــــة) (١) .

وقوله تعالى : [يُغَاثُوا] أي يكون لهم مقام الغوث ، وهذا نحو قول الشاعر :

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ (٢)

أي : القائم مقام التحية .

---

(١) أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن أبي الدنيا في صفة النار ، وابن جرير ، وأبو يَعْلى ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . (الدر المنثور) ، والكُثُف : جمع كثيف ، وهو الغليظ الثخين .

(٢) هذا عجز بيت لعمرو بن معديكرب ، وهو في الكتاب ، ونوادر أبي زيد ، والعمدة ، وابن يعيش ، والخزانة ، والتصريح ، والخصائص ، والمرزوقي ، والبيت بتمامه :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَـــا بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيـــعُ

يريد بالخيل : الفرسان ، ودَلَفَ : زحف ، والوجيع : المُوجع ، يقول : إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلاً من التحية ، والشاهد فيه أنه جعل الضرب الموجع تحية على الاتساع والمجاز ، وسيبويه يجعل ذلك دليلاً على جواز البدل فيما لم يكن من جنس المبدل منه حقيقة . وابن عطية يستشهد بالبيت على أن الآية الكريمة يجوز فيها الاتساع ، وجعل المُهْل الذي يشوي الوجوه قائماً مقام الغوث الذي يطلبه أهل النار .

و [ٱلْمُهْل] ، قال أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : هو دُرْدي (١) الزيت إذا انتهى حرُّه ، وقالت فرقة : هو كل مائع سخن حتى انتهى حرُّه ، وقال ابن مسعود وغيره : كل ما أُذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفِلِزِّ حتى تَمَيَّع ، وروي أن عبد الله بن مسعود أُهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة ، فأمر بها فأُذيبت حتى تميَّعت وتلَوَّنت ألواناً ، ثم دعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة فقال : ما رأيت في الدنيا شيئاً أدنى شبهاً بالمُهْل من هذا ، يريد : أدنى شبهاً بشراب أهل النار . وقالت فرقة : المُهْلُ : الصديد والدم إذا اختلطا ، ومنه قول أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه في الكفن : «إنما هو للمهلة» ، يريد : لما يسيل من الميت في قبره ، ويقوي هذا بقوله تعالى : ﴿مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ الآية (٢) .

وقوله تعالى : ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ رُوي في معناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (تُقَرَّبُ الشَّرْبَةُ من الكافر ، فإذا دَنَت تَكَرَّهَها ، فإذا دنت أكثر شوت وجهه وسقطت فيها فروة وجهه ،

(١) الدُّرْدِي : ما رسب أسفل العَسَل والزيت ونحوهما من كل شيء مائع كالأشربة والأدهان . (المعجم الوسيط) .

(٢) من الآية (١٦) من سورة (إبراهيم) .

وإذا شرب تقطَّعت أَمعاؤُه) (١) . و «المُرْتَفَقُ» : الشيءُ الذي يُرْتَفَق به ، أَي يطلب رفقه ، والمُرْتَفَق الذي هو المُتَّكَأُ أَخصُّ من هذا الذي في الآية ؛ لأَنه في شيءٍ واحد من معنى الرِّفق ، على أَن الطبريَّ قد فسَّر الآية به ، والأَظهر عندي أَن يكون «المُرْتَفَق» بمعنى الشيءِ الذي يطلب رفقه بِاتِّكَاءٍ وغيره . وقال مجاهد : المرتفق : المجتمع .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

كأَنه ذهب بها إلى موضع الرِّفاقة ، ومنه الرفقة ، وهذا كلُّه راجع إلى الرِّفق ، وأَنكر الطبري أَن يعرف لقول مجاهد معنى ، والقول بيِّن الوجه ، والله المعين (٢) .

---

(١) أخرج الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : [كَالْمُهْلِ] ، قال : (كَعَكَرِ الزيت فإذا قَرَّبه إلى وجهه سقطت فروة وجهه) ، قال القرطبي : «قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِينَ بْنِ سعد ، ورِشْدِين قد تُكُلِّم فيه من قِبَل حفظه ، وخرَّج عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ ، قال : (يُقَرَّبُ إلى فيه فيكرهه ، فإذا أُدْنِي منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُره ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ، ويقول : ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ . قال : حديث غريب» .

(٢) لم يقل الطبري رحمه الله : إنه لا يعرف لقول مجاهد معنى ، وإنما قال بالنَّصِّ : «ولستُ أعرفُ الارتفاق بمعنى الاجتماع في كلام العرب ، وإنما الارتفاق : افتعال ، إما من المِرفق ، وإما من الرِّفق» . راجع الجزء ١٦–٢٤٢ من تفسير الطبري .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ اعتراضٌ مُؤَكِّد للمعنى ، مذكِّر بأفضال الله تعالى ، مُنَبِّه على حُسْن جزائه ، بيْن قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ وقوله : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ ، فقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ، جملةٌ هي خبر [إنَّ] الأُولى ، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر :

إِنَّ الْخَلِيفَـــةَ ـ إِنَّ اللهَ أَلْبَسَهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ (١)

---

(١) البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن ٢ـ١٤٠) ، قال : «خبر ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في قوله : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ، وهو مثل قول الشاعر : (إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ البيت) ، كأنه في المعنى : إنَّا لا نُضيع أجر من عمل صالحاً ، فتُرك الكلام الأول واعتمد على الثاني بِنِيَّةِ التكرار ، كما قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ، ثم =

قال الزجاج : ويجوز أن يكون خبر [إنَّ] في قوله : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ؛ لأن المحسنين هم المؤمنون ، فكأن المعنى : لا نضيع أجرهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومذهب سيبويه أن الخبر في قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ على حذف العائد ، وتقديره : من أحسن عملاً منهم .

و «العَدْنُ» : الإقامة ، ومنه المَعْدِنُ ؛ لأن حَجَرَهُ مقيمٌ فيه ثابت ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ يريد : تحت غُرَفهم ومبانيهم . وقرأ الجمهور : ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ ، وروى أبان عن عاصم : «مِنْ أَسْوِرَة» بغير ألف وبزيادة هاءٍ ، وواحدة الأَساوِرِ : إسوارٌ وحذفت الياءُ من الجمع ؛ لأن الباب : أساوير ، وهي ماكان في الذراع من الحلي ، وقيل : أساور جمع أَسْوِرَة ، وأَسْوِرَةٌ جمع سِوَار ، وإنما الإِسْوَارُ بالفارسية القائد ونحوه .

= قال : ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ ، يريد : عن قتالٍ فيه بالتكرار ، ويكون أن تجعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ في مذهب جزاءٍ ، كقولك : إن من عمل صالحاً فإنَّا لا نضيع أجره ، فتضمر ، فتضمَّن الفاءُ في قوله : [فَإِنَّا] وإلقاؤها جائز ، وهي أحبُّ الوجوه إليَّ ، وإن شئتَ جعلت خبرهم مُؤَخَّراً ، كأنك قلتُ : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك لهم جنات عدن » . هذا ، والسِّرْبال : الدِّرْعُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويقالُ في حُلِيِّ الذراع : إِسْوَارٌ ، ذكره أبو عبيدة معمر ، ومنه قول الشاعر :

والله لَوْلَا فِتْيَةٌ صِغَـــارُ كَأَنَّمَا وُجُوهُهُمْ أَقْمَـــارُ
تَضُمُّهُمْ من الْعَتِيكِ دَارُ أَخَافُ أَنْ يُصِيبَهُمْ إِقْتَارُ
أَوْ لاطِمٌ لَيْسَ لَهُ إِسْوَارُ لَمَا رَآنِي مَلِكٌ جَبَّـــارُ
بِبَابِهِ مَا وَضَحَ النَّهَارُ (١)

أنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية في كتاب أبي عبيدة .

و «السُّنْدُسُ» : رقيق الديباج ، و «الإِسْتَبْرَقُ» : ما غلظ منه ، وقال بعض المفسرين : هي لفظة أعجمية عربت ، وأصلها : استبره ، وقال بعضهم : هو الفعل العربي سُمِّي به ، فهو إستبرق ، من البريق ، فعُبِّر حين سُمِّي به بقطع الألف ، ويُقَوِّي هذا القول أن ابن محيصن

---

(١) يستشهد ابن عطية بهذه الأبيات على أن (إسْوَار) تأتي بمعنى الحليّ التي توضع في الذراع ، على خلاف الأصل الذي هي فيه بمعنى القائد . وذلك لأنها جاءت في قول الشاعر : (أو لاطمٍ ليس له إسْوَارُ) ، أي : لاطم من الرجال ، لا يلبس أسورة في يده . والعَتِيك : الأحمر من القِدَم ، قاله في اللسان ، والإقْتَارُ : الفقر والحاجة ، وقد ذكر ابن عطية أنه قرأ هذه الأبيات التي أنشدها ابن الأنباري في حاشية كتاب أبي عبيدة ، على أن اللسان أورد كثيراً من الشواهد التي تدل على أن الإسْوَار لغة في السوار ، ومنها قول المُرَّار بن سعيد الفَقْعَسي :

كَمَا لاحَ تِبْرٌ في يَدٍ لَمَعَتْ بِـــهِ كعابٌ بَدَا إسْوَارُهَا وخَضِيبُهَـــا

وقول العَرَنْدَس الكلابي :

بَلْ أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُفْنِي شَبِيبَتَهُ يَبْكِي عَلَى ذاتِ خَلْخَالٍ وَإِسْوَارِ

قرأ : ﴿مِنْ سُنْدُسٍ وَٱسْتَبْرَقَ﴾ ، فجاءَ به موصول الهمزة حيث وقع ، ولا يَجُرُّه بل يفتح القاف ، ذكره الأَسواري ، وذكره أبو الفتح وقال : هذا سهْوٌ أو كالسَّهْو .

و « الْأَرَائِك » : جمع أَريكة ، وهو السرير في الحجال ، والضمير في قوله : [وَحَسُنَتْ] للجنات ، وحكى النقاش عن أبي عمران الجوني أنه قال : الاستبرق : الحرير المنسوج بالذهب ، وحكى مكي والزهراوي وغيرهما حديثاً مُضَمَّنه أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ الآية نزلت في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله تعالى عنهم ، سأَل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للأَعرابي : (أَعْلِمْ قومك أنها نزلت في هؤلاءِ الأَربعة) (١) وهم حضور .

---

(١) رواه البراءُ بن عازب ، قال : إن أعرابيـاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حَجَّة الوداع ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فقال : إني رجل مسلم ، فأخبرني عن هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أنت منهم ببعيد ، ولا هم ببعيد منك ، هم هؤلاءِ الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فأَعْلِم قومك أن هذه الآية نزلت فيهم) ، ذكره الماوردي ، وأسنده النحاسُ في كتاب (معاني القرآن) ، عن البراءِ بن عازب ، وأسنده السهيلي في كتاب (الأعلام) ، ورواه القرطبي وقال : « وقد روينا جميع ذلك بالإجارة ، والحمد لله » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

الضمير في [لَهُمْ] عائد على الطائفة المتحيرة التي أرادت من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد فقراءَ المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وعلى أُولئك الداعين أيضاً ، فالمثل مضروب للطائفتين ؛ إذ الرجل الكافر صاحب الجنَّتين هو بإزاءِ متجبِّري قريش ، أَو بني تميم ، على الخلاف المذكور أولاً ، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاءِ بلالٍ وعمَّارٍ وصُهَيْب وأقرانهم .

و [حَفَفْنَاهُمَا] بمعنى : جعلنا ذلك لها من كل جهة ، تقول : حفَّك الله بخير ، أي : عمَّك به من جميع جهاتك ، والحِفاف : الجانب من السرير ونحوه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر هذا المثل أنه بأَمر وقع وكان موجوداً ، وعلى هذا فسَّره أكثر أهل التأْويل ، ويحتمل أن يكون المثل مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع ذلك في وجودٍ قط . والأَول أظهر .

ورُوي في ذلك أَنهما كانا أَخويْن من بني إسرائيل ورثا أَربعة آلاف دينار ، فصنع أَحدهما بماله ما ذكر ، واشترى عبيداً وتزَوَّج وأَثرى ، وأَنفق الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى افتقر ، والتقيا ففخر الغني ووبَّخ المؤمن ، فجرت بينهما هذه المحاورة ، ورُوي أَنهما كانا شريكين حدَّادين كسبا مالاً كثيراً وصنعا نحو ما رُوي في أَمر الأَخوين ، فكان من أَمرهما ما قصَّ الله في كتابه . وذكر إبراهيم ابن القاسم الكاتب في كتابه (في عجائب البلاد) أَن بحيرة تِنِّيس [1] كانت ما بين الجنتين ، وكانت للأَخوين ، فباع أَحدهما نصيبه من الآخر ، وأَنفق في طاعة الله حتى عيَّره الآخر ، فجرت بينهما هذه المحاورة ، فغَرَّقها اللهُ في ليلة ، وإيَّاها عنى بهذه الآية .

---

(١) ضبطها الحموي في (معجم البلدان) بكسر التاء والنون مع تشديد النون ، وقال : هي جزيرة في بحر مصر قريبة من البَرّ ، ما بين الفَرَما ودمياط ، ثم وصف بحيرتها ، وتكلم عن تاريخها وعلمائها وأطال في ذلك . فهل هي المقصودة هنا ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي بسط قصصهما طول فاختصرته واقتصرت على معناه لقلّة صحته ، ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية .

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله تعالى ، فإن المرءَ لا يكاد يتخيل أَجلَّ منها في مكاسب الناس : جنَّتا عنب أَحاط بها نَخْلٌ بينهما فسحة هي مزدرعٌ لجميع الحبوب ، والماءُ الغَيْلُ (١) يسقي جميع ذلك من النهر الذي جمَّل هذا المنظر ، وعظَّم النفع ، وقرَّب الكد ، وأغنى عن النواضح وغيرها .

وقرأ الجمهور : [كِلْتَا] ، وفي مصحف عبد الله : [كِلَا] ، والتاءُ في (كِلْتا) منقلبة عن واو عند سيبويه ، وهو بالتَّاءِ أو بغير التَّاءِ اسم مفرد واقع على الشيءِ المُثَنَّى ، وليس باسمٍ مُثَنَّى ، ومعناه : كل واحدة منهما (٢) ، و « الأُكُلُ » : ثمرها الذي يُؤكل منها ، قال

(١) الغَيْل : الماءُ الجاري على وجه الأرض ، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية هنا ، وجاءت العبارة فيه : « والماءُ المعين يسقي جميع ذلك » .

(٢) هذا هو مذهب البصريين ، وقالوا : إن كِلا وكِلْتَا في توكيد الاثنين نظير « كُلّ » في المجموع . وقال الفراءُ « كِلاَ » مثنى ، وهو مأخوذ من « كُلّ » ، فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية ، وكذلك « كِلْتَا » للمؤنث ، ولا يكونان إلا مضافين ، ولا يتكلم بواحد ، ولو تُكُلِّم به لقيل : « كِلْ » و « كِلْت » ، واستدل على ذلك بشواهد من الشعر ، وردّ البصريون على ذلك بكلام تجده في كتب النحو ، وقد ذكره بعض المفسرين وأطال فيه .

الفراءُ : وفي قراءة ابن مسعود : « كلُّ الجَنَّتَيْن أَتَى أُكله » . وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ ، أي : لم تنقص عن العرف ، ومنه قول الشاعر :

تَظَلَّمَني مالي كذا وَلَوَى يَدِي لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذي هُو غَالِبُ (١)

وقرأ الجمهور : [وَفَجَّرْنَا] بتشديد الجيم ، وقرأ سلَّام ، ويعقوب ، وعيسى بن عمر : [وَفَجَرْنَا] بفتح الجيم دون شدٍّ . وقرأ الجمهور : [نَهَراً] بفتح الهاءِ ، وقرأ أبو السَّمَّال ، والفياض بن غزوان ، وطلحة ابن سليمان : [نَهْراً] بسكون الهاءِ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عباس ، ومجاهد ، وجماعة قراءِ المدينة ومكة : [ثُمُرٌ] ﴿ وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ ﴾ بضم الثاءِ والميم ، جمع ثِمارٍ ،

(١) البيت واحد من تسعة أبيات قالها فُرْعان بن الأعرف في ابن له اسمه مُنازل ، وهو في الحماسة ، واللسان ، ومجاز القرآن ، والطبري ، ورواية اللسان : (تظلَّم مالي هكذا ...) ، ورواية الحماسة : (تَغَمَّدَ حَقِّي ظالماً ولَوَى يدي ...) . و (تَظَلَّم مَالِي) بمعنى ظلمني مالي ، أي : أخذه ظلماً وبدون حق . ولوى يدي : فَتَلَهَا وأزالها عن حالها وغلبني . قال في اللسان : « وظَلَمَه حَقَّه وتَظَلَّمه إيَّاه » يعني أنهما بمعنى واحد . وفُرْعان بضم الفاء وسكون الراء بعدهما عين مهملة ، وهو من بني مُرَّة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس ، وكان شاعراً لصّاً ، يسرق إبل الناس ، فسرق يوماً جملا لرجل ، فجاء صاحب الجمل فأخذ بشعره فجذبه فنزل على ركبتيه ، فقال له القوم : لقد كبرت يا فُرْعَان ، فقال : لا والله ، ولكنه جَذَبني جَذْبة مُحِقٍّ .

وقرأ أبو عمرو ، والأعمش ، وأبو رجاءٍ بسكون الميم فيهما تخفيفاً ، وهي في المعنى كالأُولى ، ويتَّجه أن يكون جمع ثَمَرَة ، كَبَدَنَة وبُدْن ، وقرأ عاصم [ثَمرٌ] ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بفتح الميم والثاء فيهما ، وهي قراءَة أبي جعفر ، والحسن ، وجابر بن زيد ، والحجاج .

واختلف المتأَولون في «الثُّمُرِ» بضم الثاءِ والميم ، فقال ابن عباس ، وقتادة : الثُّمُر : جميع المال من الذهب والفضة وغير ذلك ، ويستشهدون لهذا القول ببيت النَّابغة :

. . . . وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومِنْ وَلَدِ (١)

وقال مجاهد : يراد بها الذهب والفضة خاصة ، وقال بن زيد : الثُّمُر هي الأُصول التي فيها الثَّمَر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كأَنها ثمارٌ وثُمُرٌ ، ككتابٍ وكُتُب . وأما من قرأَ بفتح الثاءِ والميم فلا إشكال في أَن المعنى ما في رءُوس الأَشجار من الأُكل ،

---

(١) هذا عجز بيت قاله النابغة من قصيدته المعروفة التي مدح بها النعمان بن المنذر ، واعتذر إليه مما بلغه عنه في أمر المتجردة ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي ... وَلاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

مَهْلاً فِدَاءً لَكَ الأَقْوَامُ كُلُّهُمُ ... وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ ومِنْ وَلَدِ

وابن عطية يشير بهذا البيت إلى أن (الثُّمُر) بضم الثاء والميم هو الذهب والفضة وغير ذلك ؛ إذ أن النابغة سحب التَّثْمير على المال والولد .

ولكن فصاحة الكلام تقتضي أَن يعبر إيجازاً عن هلاك الثَّمر والأُصول بهلاك الثَّمر فقط ، خصَّها بالذكر إذْ هي مقصد المستغل ، وإذ هلاك الأُصول إنما يسوءُ منه هلاك الثَّمر الذي كان يُرجى في المستقبل ، وكما يقتضي قوله «إنَّ له ثمراً» أَنَّ له أُصولاً ، كذلك يقتضي الإحاطة المطلقة بالثمـرات والأُصـــول قد هلكت . وفي مصحف أُبي : «وآتيناه ثمراً كثيراً» . وقـــرأ أَبو رجاءٍ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بفتح الثاءِ وسكون الميم . و «المُحَاوَرَةُ» : مراجعة القـــول ، وهو من : حارَ يحور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واستدلَّ بعض الناس من قوله سبحانه : ﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ على أنه لم يكن أَخاه . وقال المناقض : أَراد بالنَّفَر العَبيدَ والخَوَلَ ؛ إذْ هُمُ الذين ينفرون في رغائبه ، وفي هذا الكلام من الكِبْر والزَّهْو والاغترار ما بيانه يغني عن القول فيه . وهذه المقالة بإزاءِ مقالة عُيَيْنة والأَقرع للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن سادات العرب ، وأَهل الوَبَر والمَدَر ، فَنَحِّ عنَّا سلمان وقرناءَه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

أفرد الجنة من حيث الوجود ، كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحد ، وظُلْمُه لِنَفْسِهِ : كفرُهُ وعقائده الفاسدة في الشك في البعث ، فقد نصَّ على ذلك قتادة ، وابن زيد ، وفي شكِّه في حدوث العالم وإن كانت إشارته بـ [هَذِه] إلى الهيئة في السموات والأَرض وأنواع المخلوقات ، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط فإنما في الكلام تساخف واغترارٌ وقلّة تحصيل ، كأنه من شدَّة العجب بها والسرور أَفْرط في وصفها بهذا القول ، ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا ، وظنَّ أنه لم يُمْلِ(١) له في الدنيا إلا لكرامة يستوجبها في نفسه ، قال : فإن كان ثم رجوعٌ كما تزعم فسيكون حالي كذا وكذا ، وليست

(١) من الإملاء وهو الإمهال والتمتع بالحياة ونعيمها .

مقالة العاصي بن وائل لِخَباب على حدِّ هذه ، بل قصد العاصي الاستخفاف على جهة التصميم على التكذيب .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وابن الزبير ، وثبت في مصاحف المدينة [مِنْهُمَا] يريد الجنتين المذكورتين أولاً ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، والعامة ، وكذلك هو في مصحف البصرة : [مِنْهَا] ، يريد الجنة المدخولة .

وقوله : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ حكاية أن المؤمن من الرجلين لمَّا سمع كلام الكافر وَقَفَه – على جهة التوبيخ – على كفره بالله تعالى ، وقرأ أُبيٌّ بن كعب : «وهو يخاصمه» ، وقرأ ثابت البناني : «وَيْلَكَ أَكَفَرْتَ» ، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور . وقوله : ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ إشارة إلى آدم صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ كما تقول : سوَّاك شخصاً أو حيًّا أو نحو هذا من التأكيدات ، وقد يحتمل أنَّه قصد تخصيص الرجولة على وجه تعديد النعمة في أن لم يكن أُنثى ولا خُنثى ، وذكر الطبري نحو هذا .

واختلفت القراءة في قوله : [لَكِنَّا] ، فقرأ ابن عامر ، ونافع – في رواية الْمَسِيلِيِّ(١) – : [لَكِنَّا] في الوصل والوقف . وقرأ ابن كثير ،

(١) نسبة إلى بلدة بالجزائر تُسَمَّى مَسِيلة ، على وزن سفينة ، وهو أبو العباس أحمد ابن محمد بن سعيد .

وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، [لَكِنْ] في الوصل ، و [لَكِنَّاْ] في الوقف ، ورجَّحها الطبري ، وهي رواية ورش ، وقالون عن نافع . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، والحسن : «لَكِنْ أَنَا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي» ، وفي قراءة عيسى الثقفي ، والأَعمش - بخلاف - «لكِنْ هُوَ اللهُ رَبِّي» ، فأَما هذه الأخيرة فَبَيِّنٌ على الأَمر والشأْن ، وأما الذي قبلها فعلى معنى : لكن إنما أَقول . ومن هذه الفرقة من قرأ : «لَكِنَّنَا» على حذف الهمزة وتخفيف التنوين ، وفي هذا نظر ، وأما من قرأ : [لكِنَّا] فأَصله عنده «لكِنْ أَنَا» حذفت الهمزة على غير قياسٍ وأُدغمت النون في النون ، وقال بعض النحويين : نُقلت حركة الهمزة إلى النون فجاءَ «لَكِنَنَا» ثم أُدغمت بعد ذلك فجاءَ «لكِنَّا» ، فرأَى بعض القُرَّاءِ أَنَّ بالإِدغام استُغني عن الأَلف الأَخيرة ، فمنهم من حذفها في الوصل ، ومنهم من أَثبتها في الوصل والوقف لتدلَّ على أَصل الكلمة . ويتوجَّه في [لَكِنَّا] أَن تكون «لَكِنْ» لحقتها نون الجماعة التي في «خَرَجْنَا وَضَرَبْنا» ، ووقع الإدغام لاجتماع المِثْلين ، ووحَّد في [رَبِّي] على المعنى ، ولو اتبع اللفظ لقال : «رَبُّنَا» ، ذكره أَبو علي . ويترجَّح بهذا التعليل قول من أَثبت الأَلف في حالي الوصل والوقف . ويتوجه في [لَكِنَّا] أَن تكون المشهورة من أَخوات «إِنَّ» ، والمعنى : «لكنَّ قولي

هو الله ربِّي » ، إلَّا أنِّي لا أعرف من يقرأُ بها وصلاً ووقفاً ، وذلك يلزم من يُوَجِّه هذا الوجه . وَرَوى هارون عن أبي عمرو « لَكِنَّهُ هو اللهُ رَبِّي » بضمير لَحِقَ « لَكِنْ » . وباقي الآية بَيِّنٌ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ ﴾ الآية . وصيةٌ من المؤمن للكافر ، و [لَوْلَا] تحضيض بمعنى : هَلَّا ، و [ما] يحتمل أن تكون بمعنى « الذي » ، بتقدير : « الذي شاءَ الله كائن » ، وفي [شاءَ] ضمير عائد ، ويحتمل أن تكون شَرْطِيَّة بتقدير : « ما شاءَ الله كان » ، ويحتمل أن تكون خبر ابتداءٍ محذوف تقديره : « هو ما شاءَ اللهُ ، أو الأَمر ما شاءَ اللهُ » . وقوله : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ تسليمٌ وصدٌّ لقول الكافر : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾ ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأَبي هريرة : (أَلَا أَدُلُّك على كلمة من كنز الجنة) ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : (لَا قُوَّة إلَّا بالله ، إذا قالها العبد قال الله عزَّ وجلَّ : أَسلم عبدي واستسلم) (١) . وفي حديث أَبي موسى أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (يا عبد الله بن قيس : أَلَا أَدُلُّك على كنز من كنوز الجنة) ؟

---

(١) تفرَّد به أحمد ، قال ذلك الإمام الحافظ أبو الفداءِ إسماعيل بن كثير في تفسيره ، وذكر ذلك أيضاً الإمام السيوطي في الدرّ المنثور ، ولفظه كما في المسند : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت : نعم ، قال : أن تقول : لا قوة إلا بالله) ، قال عمرو بن ميمون : قلت لأبي هريرة رضي الله عنه : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . فقال : لا ، إنها في سورة الكهف ﴿ وَلَوْلا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ ﴾ .

قال : افعل يا رسول الله ، قال : (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم)(١).

واختلفت القراءة في حذف الياء من [تَرَنِ] وإثباتها ، فأثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً ، وحذفها ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة فيهما ، وأثبتها نافع ، وأبو عمرو في الوصل فقط . وقرأ الجمهور : [أَقَلَّ] بالنصب على المفعول الثاني ، وقوله : [أَنَا] فاصلة مُلْغَاةٌ ، وقرأ عيسى بن عمر : [أَقَلُّ] بالرفع على أن يكون [أَنَا] مبتدأ و [أَقَلُّ] خبره ، والجملة في موضع المفعول الثاني ، والرُّؤْية رؤية قلب في هذه الآية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، وذكر ذلك القرطبي .

هذا التَّرَجِّي بـ (عَسَى) يحتمل أن يريد به : في الدنيا ، ويحتمل أن يريد : في الآخرة ، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطعاً ، وأذهب مع الخير والصلاح ، وأن يكون ذلك يراد به في الدنيا أذهبُ في نكاية هذا المخاطب ، وأشد إيلاماً لنفسه .

و «الحُسْبَانُ» : العذاب كالبرد والصر ونحوه ، واحِدُ الحُسْبان : حُسْبَانة ، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة ، وهي سهام تُرمى دفعة بآلة لذلك . و «الصَّعِيدُ» : وجهُ الأَرض ، و «الزَّلَقُ» : الذي لا يثبت فيه قدم ، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته ، ويبقى أَرضاً قد ذهبت منافعها حتى منفعة المشي ، فهي وحْلٌ لا تُنْبت ولا تَثْبُت فيها قدم .

و «الْغَوْرُ» مصدر يوصف به الماءُ المفرد والمياه الكثيرة ، كقولك : رجل عَدْل وامرأة عَدْل ونحوه ، ومعناه : ذاهباً في الأَرض لا يُستطاع تناوله ، وقرأت فرقة : [غُوراً] بضم الغين ، وقرأت فرقة : [غُؤُراً] بضم الغين وهمز الواو ، و «غَوْرٌ» مثل «نَوْح» يوصف به الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، ومنه قول الشاعر :

تَظَلُّ جِيادُهَــا نَوْحاً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفُــونَا (١)

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة ، والرواية في شرح الأنباري والتبريزي والزوزني : (تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً ...)، وكذلك أجمعت كل المصادر =

وهذا كثير ، وباقي الآية بيِّن .

وقوله تعالى : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ الآية . هذا خبر من الله تعالى عن إحاطة العذاب بحال هذا المُمَثَّل به ، وقد تقدم القول في الثَّمر ، غير أن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد . و ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يريد : يضع بطن إحداهما على ظهر الأُخرى ، وكذلك فِعْل المتلهِّف المتأسِّف على فائتٍ أو خسارة أو نحوهما ، ومن عبَّر بـ «يُصَفِّق» فلم يُتقن . وقوله : ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يريد أن السقوف وقعت ، وهي العروش ، ثم تهدَّمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على العروش . ﴿وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ ، قال بعض المفسرين : هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة ، ويحتمل

= على رواية: (تَظَلُّ جيادُهُ) بخلاف ما هو ثابت هنا ، والضمير يعود على السَّيِّد الذي قتلوه وأبَوْا الخضوع له في قوله قبل هذا البيت :

وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُوهُ بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَا

والصُّفُون : جمع صافِنٍ ، يقال : صَفَن الفرسُ صُفُوناً : إذا قام على ثلاث ، وثنى سنبكه الرابع ، والشاهد أن (نَوْحاً) هنا جاءت وصْفاً للجمع ، والمعنى : نائحات عليه ، قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : «والعرب قد تصف الفاعل بمصدره ، وكذلك الاثنين والجمع ، على لفظ المصدر ، قال عمرو بن كلثوم : تَظَلُّ جيادُهُ نَوْحاً عليه ... البيت» .

أَن يريد أَنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حُلُول المصيبة ، ويكون فيها زجرٌ للكفرة من قريش أَو غيرهم ؛ لئلا تجيءَ لهم حالٌ يؤمنون فيها بعد نِقَمٍ تحل بهم .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة : ﴿وَلَمْ تَكُنْ﴾ بالتاءِ على لفظ الْفِئَة ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، ومجاهد ، وابن وثاب : ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ بالياءِ على المعنى . و «الْفِئَةُ» : الجماعة التي يلجأُ إلى نصرها ، وقال مجاهد : هي العشيرة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي من : فاءَ يفيءُ ، وزنها فِعْلة «فِيْئَة» حذفت العين تخفيفاً (١) ، وقد قال أَبو علي وغيره : هي من فَأَوْتُ وليست من فاءَ ، وهذا الذي قالوه أَدخل في التصريف ، والأَول أَحكم في المعنى . وقرأَ ابن أَبي عبلة : ﴿فِئَةٌ تَنْصُرُهُ﴾ .

---

(١) في اللسان : «الفِئَةُ : الطائفة ، والهاءُ عوض عن الياءِ التي نقصت من وسطه ، أصله فِيْءٌ ، مثال فِيْعٍ ؛ لأنه من فاءَ ، ويُجْمع : فِئُونَ وفئات . وقال ابن بَرِّي : هذا الذي قاله الجوهريُّ سهوٌ ، وأصله فِئْو مثل فِعْوٍ ، فالهمزة عينٌ لا لام ، والمحذوف لامها وهو الواو »

وقوله تعالى : [هُنَالِكَ] يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله : [مُنْتَصِراً] ، ويحتمل أن تكون [ٱلْوَلَايَةُ] مبتدأ و [هُنَالِكَ] خبره ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والأعمش ، ويحي بن وثاب : [ٱلْوِلَايَةُ] بكسر الواو ، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه ، وقرأ الباقون : [ٱلْوَلَايَةُ] بفتح الواو ، وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه . وحُكي عن أبي عمرو ، والأصمعي أن كَسْرَ الواو هنا لحن ؛ لأن (فِعَالَة) إنما تجيءُ فيما كان صنعة أو معنى متقلداً ، وليس هنا تولي أمر .

وقرأ أبو عمرو ، والكسائي : [ٱلْحَقُّ] بالرفع على جهة النعت لِـ [ٱلْوَلَايَةُ] ، وقرأ الباقون : [ٱلْحَقِّ] بالخفض على النعت لله عزَّ وجلَّ ، وقرأ أبو حيوة : ﴿لِلهِ ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب . وقرأ الجمهور : [عُقُباً] بضم العين والقاف ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والحسن : [عُقْباً] بضم العين وسكون القاف وتنوين الباء ، وقرأ عاصم أيضاً : [عُقْبَى] بياءِ التأْنيث (١) . والعُقْبُ والعُقُبُ بمعنى المعاقبة .

---

(١) هذه من رواية أبي بكر عن عاصم ، أما القراءة السابقة عن عاصم بضم العين وسكون القاف فهي من رواية حفص عنه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وثروة ، وقوله : ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ ﴾ يريد : هي كماءٍ ، وقوله : ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أي : فاختلط النَّباتُ بعضه ببعض بسبب الماءِ ، فالباءُ في [بِهِ] باءُ السبب ؛ فَ [أَصْبَحَ] عبارة عن صيرورته إلى ذلك ، لا أنه (١) أراد اختصاصاً بوقت الصباح ، وهذا كقول الرَّبيع ابن ضَبُع :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلَ السِّـلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَـرَا (٢)

---

(١) في أكثر الأصول : (لأنَّه) ، وهو خطأ من النساخ .

(٢) الرَّبيعُ بن ضَبُع بن وهب الفزاري ، من المعمرين ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وهذا =

و «الْهَشِيمُ» : المُتَفَتِّت من يابس العُشب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ (١) ، ومنه : هشم الثريد ، و [تَذْرُوهُ] بمعنى : تُفَرِّقُه ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «تُذْرِيهِ» والمعنى : تقلعه وترمي به . وقرأ الحسن : ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيحُ﴾ بالإفراد ، وهي قراءة طلحة ، والنَّخعي ، والأَعمش .

وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأَمر قبل وجود الإنسان هكذا كان إذ كان ، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال غفلة ، هذا قول سيبويه ، وهو معنى صحيح . وقال الحسن : [كَانَ] إخبارٌ عن الحال قبل إيجاد الموجودات ، أي أن القُدرة كانت ، وهذا أيضاً حسَنٌ . وقوله : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد : من الأَشياءِ المُقَدَّرَة .

= البيت خامسُ سبعة أبيات قالها لما بلغ الأربعين بعد المائتين ، وقد بدأ الأبيات بقوله :

أصْبَـــحَ مِنِّي الشَّبَابُ قَدْ حَسَـرَا ... إنْ يَنْأَ عَنِّي فَقَـــدْ ثَوَى عُصُرَا

وختمها بقوله :

مِنْ بَعْدِ ما قُوَّةٍ أُسَـــرُّ بِهَـــا ... أَصْبَحْتُ شَيْخاً أُعَـالِجُ الْكِبَـــرَا

وقد استشهد المفسرون بقوله : (أصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ ... البيت) عند تفسير قوله تعالى في سورة (يسن) : ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ، عَلَى أن المِلْكَ بمعنى الضَّبْط والتسخير ، لأن معنى (لا أَمْلِكُ البعير) : لا أضبطُه ولا أتَحَكَّمُ فيه ، كما استشهدوا به هنا دليلاً على أنَّ (أصْبَحَ) بمعنى : (صار) ، وليست مختصة بوقت الصباح .

(١) من الآية (٣١) من سورة (القمر) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لا المُحَالات وغيرها من الأَشياءِ التي لا يوصف الله تبارك وتعالى بالقدرة عليها ، ولا بالعجز عنها ، وهذا على تسمية المحال شيئاً ، من حيث هو معقول لا واقع ، وقد جاءَ أَن زلزلة الساعة شيءٌ .

فمعنى هذا المثال تشبيه حال المرءِ في حياته وماله وعزته وزَهْوه وبَطَره بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن المطر النَّازل ، ثم يعود بعد ذلك هشيماً ، ويصير إلى عدم ، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز ، فكأَن الحياة بمثابة الماءِ ، والخضرة والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لفْظُه لفظ الخبر ، لكن معه قرينة الضَّعَة للمال والبنين ؛ لأَنه في المثل قبْلُ حقَّر أمر الدنيا وبيَّنَهُ ، فكأَنه يقول في هذه : المالُ والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقَّرة ، فلا تُتْبِعُوهَا أَنفسكم . وقوله : [زِينَةُ] مصدرٌ ، وقد أَخبر به عن أَشخاص ، فإما أَن يكون على تقدير محذوف ، تقديره : مَقَر زينة الحياة ، وإما أَن يضع المال والبنين بمنـزلة الغنى والكثرة .

واختلف الناسُ في «ٱلْبَاقِيَاتِ ٱلصَّالِحَات» - فقال ابن عباس ، وابن جبير ، وأَبو ميسرة ، وعَمْرُو بن شُرَحْبيل : هي الصلوات الخمس . وقال الجمهور : هي الكلماتُ المأْثور فضلها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلَهَ إلَّا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم . ورُوي في هذا حديث : (أكثروا من الباقيات الصالحات) (١) . وقاله ابن عباس أَيضاً ، ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أَبي هريرة وغيره أَن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات (٢) . وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أَيضاً : الباقيات الصالحات : كلُّ عمل صالح من قول أَو فعل يبقى للآخرة ، ورجحه الطبري (٣) ،

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (استكثروا من الباقيات الصالحات) ، قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟ قال : (التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله) . (الدر المنثور)

(٢) أخرجه النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خذوا جُنَّتَكم) ، قيل : يا رسول الله ، أمِنْ عدو قد حضر ؟ قال : (لا ، بل جُنَّتَكُمْ من النار : قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات محسنات ، وهن الباقياتُ الصالحاتُ) . (الدر المنثور) .

(٣) وكذلك اختاره القرطبي ، قال : «وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يُقال له هذا» .

وقول ابن عباس رضي الله عنهما لكل الأَقوام دليل على قوله بالعموم .

وقوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ ، أي : صاحبها ينتظر الثواب وينبسط أَمَلُه على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ الآية . التقدير : واذكر يوم ، وهذا أَفصح ما يُتَأَوَّل في هذا هنا . وقرأَ نافع ، والأَعرج ، وشيبة ، وعاصم ، وابن مصرف ، وأَبو عبد الرحمن : [نُسَيِّرُ] بنون العظمة . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وشبل ، وقتادة ، وعيسى : [تُسَيَّرُ] بالتاءِ وفتح الياءِ المشددة [ٱلْجِبَالُ] بالرَّفع . وقرأَ الحسن : [يُسَيَّرُ] بياءٍ مضمومة والثانية مفتوحة مشددة [ٱلْجِبَالُ] رفْعاً . وقرأَ ابن محيصن : [تَسِيرُ] بتاءٍ مفتوحة وسين مكسورة ، أَسندَ الفعل إلى الجبال ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب : «وَيَوْمَ سُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ» .

وقوله تعالى : [بَارِزَةً] ، إِمَّا أَن يريد أَن الأَرض لذهاب الجبال والظراب والشجر برزت وانكشفت ، وإما أَن يريد بروز أَهلها والمحشورين من سكان بطنها . [وَحَشَرْنَاهُمْ] أَي أَقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرضة القيامة . وقرأَ الجمهور : [نُغَادِرْ] بنون العظمة ، وقرأَ قتادة : [تُغَادِرْ] على الإِسناد إلى القدرة أَو إلى الأَرض . وروى أَبان بن زيد عن عاصم : [يُغَادَرْ] بياءٍ مضمومة وفتح الدال [أَحَدٌ] بالرفع .

وقرأ الضحاك : «فَلَمْ نُغْدِرْ» بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين .

والمغادرةُ : التَّرْكُ ، ومنه : غدير الماء ، وهو ما تركه السيل .

وقوله تعالى : [صَفًّا] إفرادٌ نُزِّلَ منزلة الجمع ، أي : صفوفاً ، وفي الحديث الصحيح : (يجمع اللهُ الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يُسْمِعُهم الداعي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ) الحديث (١) . وفي حديث آخر : (أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفًّا ، أنتم منها ثمانون صفًّا) (٢) . وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلى آخر الآية ، مقاولةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ، وتفسير سورة الإسراء ، ومسلم في الإيمان والبر ، والترمذي في القيامة ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده ، وهو حديث طويل ، عن أبي هريرة ، ولفظه كما في البخاري في تفسير سورة الإسراء ، قال : (أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع — وكانت تعجبه — فنهس منها نهسةً ثم قال : أنا سيِّد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون ممَّ ذلك ؟ يجمع الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يُسْمِعُهُم الداعي ، ويَنْفُذُهُم البصرُ ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ ...) وهو حديث طويل عن الشفاعة يوم القيامة .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ، والترمذي في الجنة ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (١–٤٥٣) ، ولفظه كما جاء في المسند ، عن ابن مسعود ، قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنتم وربع أهل الجنة ، لكم ربعها ولسائر الناس ثلاثة أرباعها ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فكيف أنتم وثلثها ؟ قالوا : فذاك أكثر ، فقال : فكيف أنتم والشطر ؟ قالوا : فذلك أكثر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومائة صف ، أنتم منها ثمانون صفّاً) .

للكفار والمنكرين (١) للبعث ، ومُضَمَّنها التقريع والتوبيخ . والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة لا تكون هذه المخاطبة لهم بوجه ، وفي الكلام حذف يقتضيه القول ويُحَسِّنه الإيجاز ، تقديره : يقال للكفرة منهم . و ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يُفَسِّره قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً ، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾) (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

(١) في بعض النسخ : « مقاولة للكفار المنكرين » .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة ، والبخاري في التفسير والأنبياء ، والترمذي في القيامة والتفسير ، والنسائي في الجنائز ، وأحمد في مسنده (١–٢٢٣ ، ٢٢٩) ، ولفظه كما في مسلم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلاً) ، قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : (يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) ، ومعنى غُرْلاً : غير مختونين . وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ من الآية (١٠٤) من سورة (الأنبياء) .

[ٱلْكِتَابُ] اسم جنس يراد به كُتُب الناس التي أَحصتها الحفظة لواحدٍ واحدٍ ، ويحتمل أَن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً ، و «إِشْفَاقُ ٱلْمُجْرِمِينَ» : فزعُهم من كشفه لهم وفَضْحه ، فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاءِ ، لا من ظلم ولا حيف . وقدَّم «الصغيرة» اهتماماً بها لِيُنَبِّه منها ويدلَّ أَن الصغيرة إذا أُحصيت فالكبيرة أَحرى بذلك ، والعرب أَبداً تقدم في الذكر الأَقل من كل مقترنين ، ونحو هذا قولهم : القمران والعمران (١) ، سَمُّوا باسم الأَقَلِّ تنبيهاً منهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الصغيرة : الضحك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثالٌ ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية ، هذه الآية مُضَمَّنها تقريع الكفرة وتوقيفهم على خطابهم في ولايتهم العدوَّ دون الذي أَنعم بكل نعمة على العموم ، صغيرها وكبيرها ، وتقدير الكلام : واذكر إِذْ قلنا ، وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه

(١) «القمران» تقال للشمس والقمر ، و «العمران» تقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويسمى هذا التغليب .

القصة إذ هي توطئة النازلة ، فأَما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ ، وذكرها في البقرة إعلامٌ بمبادئ الأُمور .

واختلف المتأَولون في السجود لآدم – فقالت فرقة : هو السجود المعروف ووضع الوجه بالأَرض ، جعله الله تعالى من الملائكة عبادةً له وتَكْرِمَةً لآدم ، فهذا كالصلاة للكعبة . وقالت فرقة : بل كان إيماءًا منهم نحو الأَرض ، وذلك يُسَمَّى سجوداً ؛ لأَن السُّجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع ، ومنه قول الشاعر :

. . . . تَرَى الْأُكُمْ فيها سُجَّداً للْحَوَافِرِ (١)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا جائز أَن يكلفه الخالقُ للفاضل ، وجائز أَن يتكلفه الفاضل للفاضـل ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسـلم : (قـوموا إلى

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل . وهو في اللسان (سَجَدَ) ، وفي الطبري ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَـرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فيها سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَقُ : سوادٌ وبياض في اللون ، والحَجَرَاتُ : الجوانب والنواحي ، والأُكْمُ : جمع أَكَمَةَ (جمع الجمع) . وهي التلُّ ، أو المكان المرتفع ، والسجودُ : الخضوعُ . وهو موضع الشاهد هنا . هذا وكان زيد الخيل قد أسلم وسمَّاه الرسول صلى الله عليه وسلم « زيد الخير » ، ثم مات عقب وفادته على النبي صلى الله عليه وسلم .

سيِّدكم)(١)، ومنه تقبيل أَبي عبيدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما حين تلقَّاه في سفر إلى الشام ، ذكره سعيد بن منصور في مُصَنَّفه .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ، قالت فرقة : هو استثناءٌ منقطع ؛ لأَن إبليس ليس من الملائكة ، بل هو من الجن وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار ، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور ، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال بعضها : إبليس من الجن ، وهو أَولهم وبدأَتهم ، كآدم من الإنس ، وقالت فرقة : بل كان إبليس وقبيله جنًّا ، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته ، فهو كنوح في الإنس ، واحتجوا بهذه الآية ، وتعنيف إبليس على عصيانه يقتضي أَنه أُمر مع الملائكة .

وقالت فرقة : بل الاستثناءُ متصل ، وإبليس من قبيل من الملائكة خلقوا من نار ، فإبليس من الملائكة ، وعُبِّر عن الملائكة بالجن من

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان ، وأبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده (٣-٢٢) ، ولفظه كما في المسند : عن أبي سعيد الخدري ، قال : نزل أهْل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، قال : فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتاه على حمار ، قال : فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قوموا إلى سيدكم أو خيركم) ، ثم قال : (إن هؤلاء نزلوا على حكمك) ، قال : تُقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذراريهم ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد قضيت بحكم الله) ، وربما قال : (قضيت بحكم الملك) .

حيث أنهم مستترون ، فهي صفة تعم الملائكة والشياطين ، وقال بعض هذه الفرقة : كان في الملائكة صنف يُسَمَّى الجن ، وكانوا في السماءِ الدنيا وفي الأَرض ، وكان إبليس مدبِّر أَمرهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا خلاف أَن إبليس كان من الملائكة في المعنى ؛ إذ كان متصرفاً بالأَمر والنهي مرسلاً ، والمَلكُ مشتق من المَأْلُكَة وهي الرسالة (١) ، فهو في عداد الملائكة يتناوله قوله : [ٱسْجُدُوا] ، وفي سورة البقرة وسورة الأَعراف استيعاب هذه الأُمور .

وقوله تعالى : [فَفَسَقَ] معناه : فخرج وانتزح ، وقال رؤْبة :

يَهْوِينَ في نَجْـــدٍ وغَوْرٍ غَائِرَا   فَوَاسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَـــوَائِرَا (٢)

---

(١) قال أبو عبيدة : « هو من "لأكَ" إذا أرسل، والألوكة والمألكةُ والمألُكَةُ : الرسالة . قال الشاعر – عدي بن زيد – :

أَبْلِـغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مألُـــكاً   إنَّني قَدْ طَالَ حَبْسِي وانْتِظَارِي

(٢) هذان بيتان من مشطور الرجز من الأبيات المتفرقة المنسوبة إلى رؤبة ، وهما في آخر ديوانه ، ومعهما بيت ثالث ، نصُّه :

يَسْلُكْنَ في نَجْدٍ وَغَوْراً غَائِرَا

هكذا كالبيت الأول فيما عدا الكلمة الأولى ، والنَّجْد : الأرض المرتفعة ، والغور : الأرض المنخفضة ، والقَصْدُ : الهدف والغرض ، وجار عن القصد : مال عنه وحاد وعدل . والفواسق : جمع فاسق ، وهو الذي خرج عن قصده السليم ، وهو موضع الشاهد هنا .

ومنه يقال : «فَسَقَت الرُّطَبَةُ» إذا خرجت عن قشرتها ، و «فَسَقت الفأْرة» إذا خرجت من جحرها ، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأَمثلة إنما هو في فساد ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (خمس فواسق يقتلن في الحِلِّ والحرم)(١) إنما هن مفسدات .

وقوله تعالى : ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ، يحتمل أن يريد : خرج عن أمر ربِّه إيَّاه ، أي فارقه ، كما يفعل الخارج عن طريق واحد ، أي : منه ، ويحتمل أن يريد : فخرج عن الطاعة بعد أمر ربِّه بها ، و (عَنْ) قد تجيءُ بمعنى (بَعْد) في مواضع كثيرة ، كقولك : «أطعمته عن جوع» ، ونحوه ، فكأَن المعنى : فسق بسبب أمر ربِّه بأَن يطيع ، ويحتمل أن يريد : فخرج بأَمر ربِّه ، أي مشيئته ذلك له ، ويعبر عن المشيئة بالأَمر ؛ إذْ هي أَحد الأُمور ، وهذا كما تقول : فعلت ذلك عن أمرك ، أي بجدِّك وبحسب مرادك .

(١) أخرجه البخاري في الصيد وبدء الخلق ، ومسلم والترمذي في الحج ، والنسائي في المناسك ، وأحمد في المسند (١–٢٥٧ ، ٦–١٦٤ ، ٢٥٩) ، ولفظه كما في المسند ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (خمس كلهن فاسقة ، يقتلهن المحرم ، ويقتلن في الحرم) ، وفي رواية من طريق الليث عن طاوس حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخمسة ، وهي (الفأرة ، والعقرب ، والحيَّة ، والكلب العقور ، والغراب) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية : كان إبليس من أشرف صنف ، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض ، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون . وقال بعض العلماء : إذا كانت خطيئة المرءِ من الخطإِ فلْتَرْجُه كآدم ، وإذا كانت من الكفر فلا تَرْجُه كإبليس .

ثم وقف عزَّ وجلَّ الكفرة – على جهة التوبيخ – بقوله : [أَفَتَتَّخِذُونَهُ] ، يريد : أَفَتَتَّخِذُونَ إبليس ، وقوله : [وَذُرِّيَتَهُ] ظاهر اللَّفظة يقتضي المُوَسْوِسِينَ مِنَ الشياطين الذين يأْمرون بالمنكر ويحملون على الباطل . وذكر الطبري أن مجاهداً قال : ذُرِّيَّةُ إبليس الشياطين ، وكان يعدُّهم : « زَلَنْبُور » صاحب الأَسواق ، يضع رايته في كل سوق ، و « تبُن »(١) صاحب المصائب ، و « والأَعورُ » صاحب الرِّياءِ ، و « مِسْوَطٌ » صاحب الأَخبار ، يأْتي بها فيلقيها في أفواه الناس ولا يجدون لها أَصلاً ، و « دَاسِمٌ » الذي إذا دخل الرجل بيته فلم يسلِّم ولم يذكر اسم الله بصَّره من المتاع ما لم يرفع .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا وما جانسه مما لم يأْت به خبر صحيح فلذلك اختصرته . وقد طوَّل النقاش في هذا المعنى ، وجلب حكايات تبعد من الصحة ،

(١) هكذا في الأصول ، والذي وجدناه في الطبري والقرطبي هو « ثُبَر » بالراء ، وعلى كل فجميع هذه الأسماء موضع تحريف ، وما أصدق ابن عطية حين أعرض عن ذكر الكثير مما نراه عند غيره من المفسرين ، وقال : « وهذا وما جانسه مما لم يأتِ به خبر صحيح » .

فتركتها إيجازاً ، ولم يمر بي في هذا صحيح إلَّا ما في كتاب مسلم من أن للوضوء(١) والوسوسة شيطاناً يُسَمَّى «خُنْزُب» ، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطاناً يسمى «الولهان» ، والله أعلم بتفاصيل هذه الأُمور ، لا ربَّ غيره .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي : أعداءٌ ، فهو اسم الجنس . وقوله : ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ ، أي : بدل ولاية الله عزَّ وجلَّ بولاية إبليس وذريته ، وذلك هو التعوض من الحق بالباطل ، وهذا هو نفس الظلم لأنه وَضْع الشيء في غير موضعه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

الضمير في [أَشْهَدْتُهُمْ] عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة ، فَتَتضمَّن الآية الردَّ على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين

(١) في بعض النسخ : «من أن للصلاة» .

من الأَطباءِ وسواهم من كلِّ مُتَخَرِّصٍ في هذه الأَشياءِ . وحدثني أَبي رضي الله عنه قال : سمعتُ الفقيه أَبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلِّي يقول هذا القول ، ويتأَول هذا التأْويل في هذه الآية ، وأَنها رادَّة على هذه الطوائف .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذكر هذا بعض الأُصوليين . وقيل : الضمير في [أَشْهَدْتُهُمْ] عائد على ذُرِّيَّة إِبليس ، فهذه الآية – على هذا – تتضمن تحقيرهم . والقول الأَول أَعظم فائدة ، وأَقول : إِن الغرض المقصود أَولاً بالآية هم إِبليس وذرِّيَّته ، وبهذا الوجه يتَّجه الردُّ على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظِّمين للجن حين يقولون : أَعوذ بعزيز هذا الوادي ، إِذ الجميع من هذه الفِرق متعلقون بإِبليس وذرِّيَّته ، وهم أَضلوا الجميع ، فهم المرادُ الأَول بالمُضِلِّين ، وتندرج هذه الطوائف في معناهم .

وقرأَ الجمهور : [أَشْهَدْتُهُمْ] ، وقرأَ أَبو جعفر وعوف العقيلي ، وأَيوب السختياني : [أَشْهَدْنَاهُم] ، وقرأَ الجمهور : ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ وقرأَ أَبو جعفر الجحدري ، والحسن – بخلاف – : ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ (١) .

---

(١) بفتح التاء ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والضبط عن كتب التفسير والقراءات .

والصفة بـ [ٱلْمُضِلِّينَ] تترتب في الطَّوائف المذكورة وفي ذرِّيَّة إبليس لعنه الله . و «العَضُد» استعارة للمعين والمُؤازر ، وهو تشبيه بعضد الإنسان الذي يستعين به . وقرأ الجمهور : [عَضُداً] بفتح العين وضم الضاد ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن بضمهما ، وقرأ الضحاك بكسر العين وفتح الضاد ، وقرأ عكرمة : [عُضْداً] بضم العين وسكون الضاد ، وقرأ عيسى بن عمر : [عَضَداً] بفتح العين والضاد ، وفيه لغات غير هذا لم يُقْرأْ بها .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ ، الآية وعيدٌ ، والمعنى : واذكر يومَ ، وقرأ طلحة ، ويحيى ، والأعمش ، وحمزة : [نَقُولُ] بنون العظمة ، وقرأ الجمهور بالياء ، أي : يقول الله تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ على وجه الاستغاثة بهم ، وقوله : [شُرَكَائِيَ] ، أي : على دعواكم أيها المشركون ، وقد بَيَّنَ هذا بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ . وقرأ ابن كثير وأهل مكة : [شُرَكَائِيَ] بياءٍ مفتوحة ، وقرأ الجمهور : [شُرَكَائِي] بهمزة ، فمنهم من حقَّقها ، ومنهم من خَفَّفها ، و «الزَّعْمُ» إنما هو مستعمل أبداً في غير اليقين ، بل أغلبه في الكذب ، ومنه هذه الآية ، وأرفع مواضعه أن تستعمل «زعم» بمعنى «أخبر» حيث تلقي عهدة الخبر على المخبر ، كما يقول

سيبويه رحمه الله : «زعم الخليل» ، وقوله تعالى : ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ظاهره أن ذلك يقع حقيقة ، ويحتمل أن يكون استعارة ، كأَن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً ولا تنفع هي بمنزلة الدعاءِ وترك الإجابة ، والأَول أَبْيَن .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : [مَوْبِقاً] ـ قال عبد الله بن عمر ، وأَنس بن مالك ، ومجاهد : هو واد في جهنم يجري بدم وصديد ، قال أَنس رضي الله عنه : يحجز بين أَهل النار وبين المؤمنين ، فقوله ـ على هذا ـ : [بَيْنَهُمْ] ظرفٌ . وقال الحسن : [مَوْبِقاً] : عداوة ، و [بَيْنَهُمْ] ـ على هذا ـ ظرف . وبعض هذه الفرقة يرى أَن الضمير في قوله تعالى : [بَيْنَهُمْ] يعود على المؤمنين والكافرين ، ويحتمل أَن يعود على المشركين ومعبوداتهم في الدنيا ، وأَما التأْويل الأَول فالضمير فيه عائد على المشركين ومعبوداتهم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [مَوْبِقاً] معناه : مهلكاً ، بمنزلة : موضع ، وهو من قولك : وَبَقَ الرجلُ وَأَوْبَقَهُ غَيْرُه إذا أَهلكه ، فقوله تعالى : [بَيْنَهُمْ] ـ على هذا التأْويل ـ يصح أَن يكون ظرفاً ، والأَظهر فيه أَن يكون اسماً بمعنى : وجعلنا تواصلهم أَمراً مهلكاً لهم ، ويكون [بَيْنَهُمْ] مفعولاً أَولاً لـ [جَعَلْنَا] . وعبَّر بعضهم عن «المَوْبِق» بالوعيد ، وهذا ضعيف .

ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن رؤْية المجرمين النار ومعاينتهم لها ، ووقوع العِلْم لهم بأنهم مُبَاشِرُوها ، وأطلق النـــاس أن «الظَّنَّ» هنا بمعنى اليقيـــن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولو قال تعالى بدل «ظَنُّوا» : «أيْقَنُوا» لكان الكلام مُتَّسقاً على مبالغة فيه ، ولكن العبارة بالظَّن لا تجيءُ أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحسُّ ، بل أعظم درجاته أن يجيءَ في موضع عِلْم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون ، وإلَّا فما يقع ويُحَسُّ لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظَّنِّ ، وتأمل هذه الآية ، وتأمل قول دُرَيْد :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ . . . .(١)

---

(١) هذا صدر بيت قاله دُرَيْدُ بن الصِّمَّة من قصيدة له يرثي بها أخاه عبد الله ، وهي قصيدة مشهورة انتقاها القرشي صاحب الجمهرة ، ومطلعها :

أَرَثَّ جديدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ ؟

والبيت بتمامه :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ فِي الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

وظُنُّوا بمعنى : أيْقِنوا ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والمُدَجَّج : التَّامُّ السلاح ، وسَرَاتُهم : خيَارُهُم ، والفارسي المُسَرَّد : الدروع الفارسية المتقنة الصنع المتتابعة الحلقات .

وقرأ الأَعمش : «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلاقُوهَا» ، وكذلك في مصحف ابن مسعود (١) ، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة أنه قرأ : «مُلَافُّوهَا» بالفاءِ مشددة ، من لفَّفت . وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الكافر لَيَرَى جهنم ويظن أنها مواقعتُه من مسيرة أَربعين سنة) (٢) . و «الْمَصْرِفُ» : الْمَعْدِلُ ، ومنه قول أبي كبير الهذلي :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ ... أَمْ لَا خُلُودَ لِباذِلٍ مُتَكَلِّف ؟ (٣)

وهذا مأْخوذ من الانصراف من شيءٍ إلى شيءٍ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية . المعنى : ولقد خَوَّفنا ورَجَّيْنا وبالغنا في البيان ، وهذا كله بتمثيل وتقريب للأَذهان . وقوله : ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ، أي : من كلِّ مثل له نفعٌ في الغرض المقصود

---

(١) قال أبو حيان : الأولى حمل ذلك على التفسير لمخالفته سواد المصحف .

(٢) أخرجه أحمد ، وأبو يَعْلَى ، وابن جرير ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه — كما ذكره السيوطي في الدرّ المنثور — عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا ، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة والله أعلم) .

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢—١٠٤ ، وهو مطلع قصيدة لأبي كبير ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، والمَصْرِف : المَعْدِلُ . وهو الشاهد هنا .

بهم وهو الهداية ، وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ خبرٌ مُقْتَضَب في ضمنه : فلم ينفع فيهم تصريف الأَمثال ، بل هم قوم منحرفون يجادلون بالباطل . وقوله تعالى : [ٱلْإِنْسَانُ] يريد به الجنس ، ورُوي أَن سبب الآية هو النضر بن الحارث ، وقيل : ابن الزِّبَعْرى ، ورُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل فأَيقظه وعاتبه ، فقال له عليٌّ : إنما نفسي بيد الله ، ونحو هذا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضرب فخذه بيده ويقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (١) . فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس ، و «الْجَدَلُ» : الخصام والمدافعة بالقول ، فالإنسان أَكثر جَدَلاً من كلِّ ما يجادِلُ من ملائكة وجِنٍّ وغير ذلك إن فُرِض . وفي قوله تعالى : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ تعليم تَفَجُّع مَّا على الناس ، ويَتَبَيَّن فيما بعد .

---

(١) أخرج البخاريُّ ، ومسلم ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن عليٍّ رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً . فقال : ألا تُصَلِّيان ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، وانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته يضربُ فخذه ويقول : ﴿وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾

هذه آية تأسُّف عليهم ، وتنبيهٌ على فساد حالهم ؛ لأَن هذا المنع لم يكن بِقَصْد منهم أَن يمتنعوا لِيجيئَهم العذابُ ، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أَنهم مصيبون ، لكن الأَمر في نفسه يسوقهم إلى هذا ، فكأَن حالهم يقتضي التَّأَسُّف عليهم ، و [ٱلنَّاسَ] يُرادُ به كفار عصر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تَوَلَّوْا دفع الشريعة وتكذيبها (١)

(١) قال الزمخشري : « [أَنْ] الأُولى نصب ، والثانية رفعٌ ، وقبلها مضاف محذوف ، تقديره : وما منع الناسَ الإيمانَ إلا الانتظارُ أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ، أو انتظار أن يأتيهم العذاب ، يعني عذاب الآخرة » . وقال أبو حيان بعد أن نقل هذا الكلام عن الزمخشري : « وهو مسترق من قول الزجاج » .

و [ٱلْهُدَى] هو شرع الله تعالى ، والبيانُ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، و «الاسْتِغْفَارُ» هنا هو طلب المغفرة على فارط الذَّنب كُفْراً وغيره . و ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هي عذابُ الأُمم المذكورة من الغَرَق والصيحة والظُّلَّة والريح وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً﴾ ، أي : مقابلةً عياناً ، والمعنى عذاب غير المعهود ، فتظهر فائدة التقسيم ، وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر . وقال مجاهد : [قُبُلاً] معناه : فجأة . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ومجاهد ، وعيسى بن عمر : [قِبَلاً] بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ عاصم ، والكسائي ، وحمزة ، والحسن ، والأعرج : [قُبُلاً] بضم القاف والباء ، ويحتمل مَعْنَيَيْن : أحدهما أن يكون بمعنى : (قِبَل) ؛ لأن أبا عيسى حكاهما بمعنى واحد في المقابلة ، والآخر أن يكون جمع (قَبِيل) ، أي : يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً . وقرأ أبو رجاء ، والحسن أيضاً : [قُبْلاً] بضم القاف وسكون الباء (١) .

قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية . كأنه لمَّا تفجَّع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بآرائهم إلى الخسار ــ قال : وليس

---

(١) راجع الجزء الخامس ، ص ٣٢١ من هذا التفسير .

الأَمر كما ظنُّوا ، والرُّسُلُ لم نبعثهم لِيُجَادَلُوا ، ولا لِتُتَمَنَّى عليهم الاقتراحات ، وإنما بعثناهم مبشرين مَنْ آمن بالجنَّة ، ومُنذرين من كفر بالنار . و «يُدْحِضُوا» معناه : يزهقوا ، والدَّحض : الطِّين الذي يُزْلَق فيه ، ومنه قول الشاعر :

رَدِيتُ ونَجَّى الْيَشْكُرِيَّ حِـذَارُهُ   وحَادَ كما حَادَ الْبَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ (١)

وفي قوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ إلى آخر الآية توعُّد . و «الآيات» تجمع آيات القرآن والعلامات التي تظهر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾ يريد : من عذاب الآخرة ، والتقدير : وما أُنذروه ، فحذف الضمير . و «الهُزْءُ» : السخر والاستخفاف ، كقولهم : «أَساطير الأَولين» ، وقولهم : «لو نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا» .

---

(١) البيت منسوب لطرفة بن العبد ، قال ذلك في اللسان (دَحَضَ) ، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة غير منسوب ، وهو غير موجود في الديوان ، ولكن توجد قصيدة ضادية مطلعها :

أبَا مُنْـــذِرٍ كَانَتْ غُـــرُوراً صَحِيفَـــتِي   وَلَم أُعْطِكُمْ بالطَّوْع مالي ولا عِرْضِي

وأبو منذر هو عمرو بن هند ، ويمكن أن يكون هذا البيت منها ، على أن محقق الديوان قال عن هذه القصيدة : إنها مما نُسب إلى طرفة ، وأنه قالها وهو في السجن يخاطب عَمْرو بن هند . والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، واستشهد به الطبري ، والقرطبي ، لكن القرطبي رواه بلفظ آخر ، هو : (أبا مُنْذِرٍ رُمْتَ الْوَفَاءَ فَهِبْتَهُ ... وَحِدْتَ ... البيت) . والرَّدَى : الهلاك ، وحاد : مالَ وابتعد . والدَّحْضُ : مصدرٌ ويوصف به على لفظه ، فيقال : مكان دحضٌ بمعنى : زَلِقٌ . وهو موضع الشاهد هنا . يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند : إنه أخطأ فهلك ، وكان مصيره السجن ، أما اليشكرى فكان حذراً ، ونجَّاه حَذَرُه كما ينجو البعير الذي يميل في طريقه عن المكان الزَّلق . والْيَشْكُرِيُّ هو الحارث بن حِلِّزَةَ البشكرى .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير ، وهذا من أَفصح التقرير ، أَن يُوقف المرءُ على مالا جواب له فيه إلَّا الذي يريد خَصْمُه ، فالمعنى : لا أَحد أَظلم مِمَّن هذه صفتُه ، أَن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير ، وينسى ويَطَّرح كبائره التي أَسلفها ، هذه غاية الإِهمال . ونسب السيئات إلى اليَدَيْن من حيث كانت اليدان آلة التَّكسُّب في الأُمور الجِرْمِيَّة (١) ، فجعلت كذلك في المعاني استعارةً .

ثم أَخبر الله تعالى عنهم وعن فعله بهم جزاءً عن اعتراضهم وتكسُّبهم القبيح بأَن الله تعالى جعل على قلوبهم أَكِنَّةً ، وهي جمع كِنانٍ ، وهو الغلاف الساتر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واختلف الناسُ في هذا وما أَشبهه من الخَتْم والطَّبْع ونحوه ، هل هو حقيقة أَو مجاز ؟ والحقيقة في هذا غير مستحيلة ، والتَّجوُّز أَيضاً فصيح ، أَي : لما كانت هذه المعاني مانعةً في الأَجسام وحائلةً استُعيرت للقلوب التي قد أنساها الله تعالى وأَقْصاها عن الخير . وأَمَّا «الْوَقْرُ في الآذانِ» فاستعارة بيِّنةٌ لأَن الكفرة يسمعون الدعاءَ إلى الشَّرع سماعاً تامًّا ، ولكن لمَّا كانوا لا يُؤَثِّر ذلك فيهم إلَّا كما يؤثِّر في الذي

(١) الجِرْم هو الجسد ، يريد ما يقابل الأمور المعنوية .

به وَقْر فلا يَسْمع ، شُبِّهوا به ، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات ، وإنما الخلاف في أوصاف القلب ، هل هي حقيقة أو مجاز ؟ و «الوَقْرُ» : الثِّقل في السَّمع .

ثم أخبر الله تعالى عنهم أَنَّهم وإن دُعُوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً ، وهذا يُخَرَّجُ على أحد تأْويلين : أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاصُّ ممَّن حتم الله عليه أنه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً ، ويَخْرُج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حالٍ ، والآخر أن يريد : وإن تَدْعُهم إلى الهدى فلن يؤمنوا جميعاً أبداً ، أي : إنهم ربما آمن منهم الأفراد ، ويضطرنا إلى أحد هذين التأْويلين أنَّا نجد المُخْبَر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثيرٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

لمَّا أخبر الله تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم أنهم لا يهتدون أبداً ، عقَّب ذلك بأنه للمؤمنين الغفور ذو الرَّحمة ، ويتحصل

للكفار من صفته تبارك وتعالى بالغفران والرَّحمة تَرْكُ المُعاجلة ، ولو أُخِذوا بحسب ما يستحقُّونه لبادرهم بالعذاب المُيَسَّر لهم ، ولكنه تعالى أَخَّرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى ، قالت فرقة : هو أَجل الموت ، وقالت فرقة : هو عذاب الآخرة ، وقال الطبري : هو يوم بدر والحشر ، و «المَوْئِلُ» : المَنْجَى ، يقال : وأَلَ الرَّجُلُ يَئِلُ إذا نَجَا (١) ، ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَهَـــا لِلْعَامِرِيَّيْنِ وَلَمْ تُكْلَـــمِ (٢)

ومنه قول الأَعشى :

فَقَدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَـــهُ وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ ما يَئِلُ (٣)

---

(١) وأَلَ في الأصل بمعنى : لَجَأَ طلباً للنجاة ، ومنه : المَوْئِلُ بمعنى : المَلْجَأ ، وفي اللسان : «وقد وأَلَ إليه يَئِل وَألاً وَوُءولاً ، على فعول : لَجَأَ ، وَوَاءَلَ منه ، على فاعَلَ : طلب النجاة» .

(٢) البيت في التاج واللسان (وَأل) ، وفي الطبري ، والرواية فيها (لا وَاءَلَتْ نَفْسُك...) ، وهو أيضاً في (معاني القرآن) للفراء ، وفي القرطبي ، والرواية فيهما (لا وَأَلَتْ نَفْسُك) ، ولم ينسبه أحد ، والذي أنشده هو الفراءُ ، وعنه نقل الباقون ، قال : «المَوْئِلُ : المَنْجَى ، وهو الملجأ ، والعرب تقول ؛ إنه لَيُوَائِل إلى موضعه وحِرْزِه ، وقال الشاعر : لا وأَلَتْ نَفْسُك ... البيت ، يريدون : لا نَجَتْ» . وخَلَّى : تَرَكَ ، والكَلْم : الجرح ، والشاهد أنَّ (وَأَلَ) بمعنى لجأ ونَجَا .

(٣) البيت من لامية الأعشى المعروفة التي بدأها بقوله :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِـــلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟ =

ثم عقَّب تعالى توعُّدَهم بذكر الأَمثلة من القرى التي نزل بها ما توعَّد هو لا بمثله .

وفي قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَى﴾ حذف مضاف ، تقديره : وتلك أَهل القُرى ، و [ٱلْقُرَى] : المدن ، وهذه الإشارة إلى عادٍ وثمودَ ومَدْين وغيرهم ، و [تِلْكَ] ابتداءٌ ، و [ٱلْقُرَى] صفة ، و [أَهْلَكْنَاهُمْ] خبر ، ويصحُّ أَن تكون [تِلْكَ] منصوباً بفعل يدل عليه [أَهْلَكْنَاهُمْ] .

وقرأ الجمهور : [لِمُهْلَكِهِمْ] بضم الميم وفتح اللام ، وهو من : (أَهْلَكَ) ، ومُفْعل في مثل هذا يكون لزمن الشيء ، ومكانه ، ويكون مصدراً ، فالمصدر – على هذا – مضاف إلى المفعول . وقرأ عاصم – في رواية أَبي بكر – : [لِمَهْلَكِهِمْ] بفتح الميم واللام ، وقرأ – في رواية حفص – : [لِمَهْلِكِهِمْ] بفتح الميم وكسر اللام ، وهذا مصدر من : (هَلَكَ) ، وهو في مشهور اللُّغة غير مُتَعَدٍّ ، فالمصدر – على هذا –

= وقبله يقول :

إمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لا نِعَالَ لَنَا إنَّا كذلك ، ما نَحفَى ، وَنَنْتَعِلُ

وأُخالِسُ : آخُذُ الشيءَ خلسةً وسرقةً ، ومايَئِلُ : ما ينجو . يقول مخاطباً من يتغزل بها : إن هذا الذي ترينه حافياً فتنبو عنه عيناكَ قد أمتع نفسه بكثيرات من الغانيات ،وإنه لَيَسْتَبي العقيلة التي يخاف عليها زوجها ويحاذر فلا ينفعه الحذر .

والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) في تفسير قوله تعالى : ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ ، وهو كالشاهد السابق دليل على أن (وَأَلَ يَئِلُ) بمعنى : نَجَا ينجو .

مضاف إلى الفاعل ، لأنه بمعنى : وجعلنا لأن هلكوا موعداً ، وقالت فرقة : إن (هَلَكَ) يتعدى ، تقول : أَهْلَكْتُ الرَّجلَ وَهَلَكْتُهُ بمعنى واحد ، وأنشد أبو عليٍّ في ذلك :

وَمَهْمَهٍ هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجَا (١)

فعلى هذا يكون المصدر في كل وَجْه مضافاً إلى المفعول .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ الآية... ابتداءُ قصة ليست من الكلام الأَول ، والمعنى : واذكر أوِ ٱتْلُ ، و [مُوسَى] هو موسى بن عمران بمقتضى الأَحاديث والتواريخ ، وبظاهر القرآن ؛ إذ ليس في القرآن موسى غير واحد ، وهو ابن عمران ، ولو كان في هذه الآية موسى غيره لَبَيَّنَهُ . وقالت فرقة منها نوف ٱلْبِكَالي : إنه ليس ابن عمران ، وهو موسى بن مَشْنَى ، ويقال : موسى بن مَنْشَى ، وأَمَّا فتاه فعلى قول من قال هو موسى بن عمران فهو يوشع بن نون بن إفراييل بن يوسف

---

(١) هذا البيت للعَجَّاج ، وقد ذكره في اللسان (هَلَكَ) شاهداً عَلَى أن (هَلَكَ) يتعدى بنفسه ، وأنه مثل أَهْلَكَ وهَلَّكَ ، وذكر بعده بيتاً آخر ، وهو :

هَائِلَةٍ أَهْوَالُهُ مَنْ أَدْلَجَا

وقال : «وهي لغة تميم» . و تعرَّج : مال وانحرف عن الطريق المألوف ، وأدلج : سار في الليل ، وقيل : في أَوَّله ، والمَهْمَه : المفازة البعيدة ، والمعنى أن هذه المفازة البعيدة تُهْلِكُ من يتنكَّب الطريق المألوف ، وتهول بأهوالها من يسير فيها ليلاً .

ابن يعقوب ، وأما من قال هو موسى بن مشى فليس الفتى بيوشع ابن نون ، ولكنه قول غير صحيح ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره . و « الفتى » في كلام العرب : الشَّاب ، ولما كان الخَدَمة ـ أكثر ما يكون ـ فتياناً قيل للخادم : فتًى على جهة حسن الأدب ، وإنْ أَسَنَّ ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يَقُل أحدكم عبدي ولا أَمَتي ، وليقل فتاي وفتاتي) (١) ، فهذا ندب إلى التواضع ، و « الفتى » في الآية هو الخادم ، ويوشع بن نون يقال : هو ابن أُخت موسى عليه السلام .

وسبب هذه القصة فيما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل ، وخطب فأبلغ ، فقيل له : هل تعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : لا ، فأوحى الله تعالى إليه : بَلَى ، عبدنا خضر (٢) ، فقال : يا رب ، دلَّني على السبيل إلى لُقِيِّه (٣) ، فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ مجمع

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ ، وأحمد في مسنده (٢ـ٤٤٤ ، ٤٩٦) ، ولفظه كما في المسند ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يَقُل أحدكم لعبده : عبدي ، ولكن ليقل : فتاي ، ولا يَقُل العبد لسيِّده : رَبِّي ، ولكن ليَقُل : سيدي) .

(٢) في بعض النسخ : « بل عبدنا خضر » .

(٣) اللُّقِيُّ : مصدر لَقِيَ ، يقال : لَقِيَه لقاءً ، وتِلقاءً ، ولُقِيّاً ، ولُقْيَاناً ، ولُقْيَة ، بمعنى : استقبله وصادفه .

البحرين ، فإذا فقدت الحوت فإنه هنالك ، وأُمر أن يتزود ويرتقب زواله عنه ، ففعل موسى ذلك ، وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة : لا أَبْرَحُ السَّيْر ، أي : لا أزال ، وإنما قال هذه المقالة وهو سائر ، ومن هذا قول الفرزدق :

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَاؤُهُم ببَطْحَاءَ ذي قارٍ عِيابَ اللَّطَائِمِ (١)

وذكر الطبريُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لمَّا ظهر موسى عليه السلام وقومه على مصر أنزل قومه بمصر ، فلمَّا استقر الحال خطب يوماً فذكَّر بآلاءِ الله وأيامه عند بني إسرائيل ، ثم ذكر نحو ما تقــدَّم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما مرَّ بي قطُّ أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلَّا في هذا الكلام ، وما أُراه يصح ، بل المتظاهر أن موسى عليه السلام مات

(١) البيت من قصيدة للفرزدق يمدح بها عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني ، وهو في الديوان ، ومطلعها :

إنِّي وإنْ كانَتْ تَمِيمٌ عِمَارَتِــــي وكنْتُ إلى القُدْمُوسِ مِنْهَا القُمَاقِمُ

والبَطْحَاءُ : المكان المتَّسع يمرُّ به السيل فيترك فيه صغار الحصى والرمل . وذو قار : مكان معروف ، والعياب : جمع عَيْبة وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها . واللطائم : جمع لَطيمة ، وهي وعاءُ المِسْك ، يقال : فاحت اللطيمة ، وكأنَّ فاها لطيمة تاجر . والبيت هنا للاستشهاد على أن (لا أَبرح) بمعنى : لا أزال .

بفحص التِّيه قبل فتح ديار الجبَّارين ، وفي هذه القصة من الفِقْه الرحلةُ في طلب العلم ، والتواضع للعالِم.

وقرأ الجمهور : [مَجْمَعَ] بفتح الميمين ، وقرأ الضحاك : [مَجْمِـعَ] بكسر الميم الثانية.

واختلف الناس في «مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ» ، أَين هو ؟ فقال مجاهد ، وقتادة : هو مجمع بحر فارس وبحر الروم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أَرض فارس من وراءِ أَذربيجان ، فالركن الذي لاجتماع البحرين مِمَّا يلي برِّ الشام ، وهو مجمع البحرين على هذا القول ، وقالت فرقة منهم محمد بن كعب : مجمع البحرين هو عند طنجة ، وهو حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه السائر من دبور إلى صبا ، وروي عن أُبيٍّ بن كعب أَنه قال : مجمع البحرين بأَفريقية ، وهذا يقرب من الذي قبله . وقال بعض أَهل العلم : هو بحر الأَندلس من البحر المحيـــــط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله واحد ، حكاه النقاش ، وهذا مما يُذكر كثيراً . ويذكر أن القرية التي أبت أن تضيفهما هي الجزيرة الخضراءُ ، وقالت فرقة : مجمع البحرين ، يريد بحراً ملحاً وبحراً عذباً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع نهر عظيم في البحر . وقالت فرقة : البحران إنما هما كناية عن موسى عليه السلام والخضر ؛ لأنهما بَحْرَا عِلْم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف ، والأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما رُسِمَ له بحرٌ مَّا . وقوله : ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ معناه : أَوْ أمضي على وجهي زماناً ، واختلف القراءُ ـ فقرأ الحسن ، والأعمش ، وعاصم : [حُقْباً] بسكون القاف (١) ، وقرأ الجمهور : [حُقُباً] بضمِّه ، وهو تثقيل (حُقْبٍ) ، وجمْع الحُقْب أَحقابٌ . واختلف في الحقب ـ فقال عبد الله بن عمرو :

(١) هذه قراءة عاصم في رواية أبي بكر ، أما رواية حفص عنه فهي كقراءة الجمهور [حُقُباً] بضم الحاء والقاف كما هو ثابت في المصحف .

ثمانون سنة ، وقال مجاهد : سبعون سنة ، وقال الفراءُ : الحُقب : سنةٌ واحدة ، وقال ابن عباس وقتادة : الحقب أزمان غير محدودة ، وقالت فرقة : الحُقب جمع حقبة وهي السنة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

الضمير في قوله : [بَيْنِهِمَا] للبحرين ، قاله مجاهد ، وقيل : هو لموسى والخضر ، والأول أصوب . وقرأ عبد الله بن مسلم : [مَجْمِعَ] بكسر الميم الثانية : وقال : [نَسِيَا] وإنما كان النسيان من الفتى وحده ، نسي أن يعلم موسى عليه السلام بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً ، وكان بسبب منه ، فنسب فعل الواحد فيه إليهما ، وهذا كما

يقال : فَعَل بنو فلان الأَمر ، وإنما فعله منهم بعض . ورُوي في الحديث أَن يوشع رأَى الحوت قد حشر من المِكْتَل [١] إلى البحر ، فرآه قد اتَّخذ السرب ، وكان موسى عليه السلام نائماً، فأَشفق أَن يوقظه ، وقال : أُؤَخِّر حتَّى يستيقظ ، فلما استيقظ نَسي يوشع أَن يعلمه ، ورحلا حتى جاوزا ، و «السَّبيلُ» : المَسْلَك ، و «السَّرْبُ» : المَسْلَك في جوف الأَرض ، فشبه به مسلك الحوت في الماءِ حين لم ينطبق الماءُ بعده كالطَّاقِ [٢]، وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] ، وقاله جمهور المفسرين ، إن الحوت بقي موضع سلوكه ماءً جامداً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بل صار موضع سلوكه حجراً صلداً ، وقال ابن زيد : إنما اتَّخذ سبيله سرباً في البرِّ حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة .

---

(١) المِكْتَلُ : زِنْبيل يعمل من الخوص ، (المقطف) .

(٢) الطَّاقُ : ما عُطِفَ عليه وجعل كالقَوْس من الأبنية .

(٣) الحديث الذي يشير إليه المؤلف حديث طويل ، أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، من طريق سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : حدثنا أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن موسى قام خطيباً ... الحديث) ، وقد تكررت الإشارة إلى هذا الحديث في كلام المؤلف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهؤلاءِ يتأولون [سَرَباً] بمعنى : تصرفاً وجولاناً ، من قولهم : فَحْلٌ سارِبٌ أي مُهْمَل يرعى من حيث يشاءُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(١) ، أَيْ متصرف . وقالت فرقة : اتَّخَذ سرباً في التُّراب من المكتل إلى البحر ، وصادف في طريقه حجراً فنقبه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الأَمر أن السَّرَب إنما كان في الماءِ ، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية أن الحوتَ إنما حَيِيَ لأَنه مسَّه ماءُ عَيْن هناك تدعى عين الحياة ، ما مَسَّت شيئاً قط إلَّا حَيِي . ومن غريبه أَيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً ، وأَن موسى عليه السلام مَشَى عليه تبعاً للحوت حتى أَفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر ، وفيها وجد الخضر عليه السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر الكتاب والروايات أَنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ ، وروي

(١) من الآية (١٠) من سورة (الرَّعد) .

في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند شجرة عظيمة في ضفة البحر فنسي يوشع الحوت هنالك ، ثم استيقظ موسى ، ورحلا مرحلة بقية اللَّيل وصَدْر يومهما ، فجاع موسى ولحقه تعب الطريق فاستدعى الغداء .

قال لي أبي رضي الله عنه : وسمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول في وعظه : مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام ، ولمَّا مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم . و « النَّصَبُ » : التعب والمشقة . وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير : [نُصُباً] بضم النون والصاد ، ويشبه أن يكون جمع (نَصْبٍ) ، وهو تخفيف (نَصَبٍ) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا ﴾ الآية . حكى الطبري عن فرقة أنها قالت : الصخرة هي بالشام عند نهر الذيب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة .

وقوله تعالى : ﴿ نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ ، يريد : نسيت ذكر ما جرى فيه لك ، وأمال الكسائي وحده [أَنْسَانِيهُ] . وقرأ ابن كثير في الوصل : [أَنْسَانِيهِي] بياءٍ بعد الهاءِ ، وفي مصحف عبد الله : « وَمَا أَنْسَانِيهُ أَنْ أُذَكِّرَ لَهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ » . وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ بدلٌ من [ٱلْحُوتَ] ،

بدل اشتمالٍ . وقوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَباً﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى عليه السلام ، أي : اتَّخذ الحوت سبيله عجباً للناس ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ تمام الخبر ، ثم استأْنف التعجُّب فقال – من قِبَل نفسه – : [عَجَباً] لهذا الأَمر ، وموضع العجب أن يكون الحوت قد مات وأُكل شِقُّه الأَيسر ، ثم حي بعد ذلك ، قال أَبو شجاع في كتاب الطبري : رأَيته ، أُوتيت به فإِذا هو شقة حوت وعين واحدة ، وشقٌّ آخر ليس فيه شيءٌ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وأَنا رأَيته ، والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة يشفُّ تحتها شوكه وشقه الآخر (١) .

ويحتمل أَن يكون قوله : ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَباً﴾ إخباراً من الله تعالى ، وذلك على وجهين : إما أَن يُخبر عن موسى أَنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً ، أَي : تعجَّب منه ، وإِمَّا أَن يخبر عن الحوت أَنه اتخذ سبيله عجباً للناس . وقرأَ أَبو حيوة : ﴿وَٱتِّخَاذُ

(١) اختلفت النسخ الأَصلية في كتابة هذه العبارة ، وكذلك اختلف ما نقله في البحر المحيط منها ، ففيه : « والشق الذي فيه شيءٌ عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة » .

سَبِيلِهِ﴾ ، فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ الآية . المعنى : قال موسى لفتاه : أَمْر الحوت وفقده هو الذي كنَّا نطلب ، فإن الرجل الذي جئنا له ثَمَّ ، فرجعا يقُصَّان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما . وقرأ الجمهور : [نَبْغِي] بثبوت الياء ، وقرأ عاصم وقومٌ : [نَبْغِ] دون ياءٍ ، وكان الحسن يثبتها إذا وصل ويحذفها إذا وقف . و «قَصُّ الْأَثَر» : اتِّباعه وتطلُّبه في موضع خفاية .

والعَبْدُ هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأَحاديث ، وخالف من لا يعتد بقوله فقال : ليس صاحب موسى بالخضر ، بل هو عالمٌ آخر ، والخضر نبيٌّ عند الجمهور ، وقيل : هو عبد صالح غير نبي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والآية تشهد بنبوته ؛ لأَن بواطن أَفعاله هل كانت إلَّا بوحي إليه ؟ ورُوي في الحديث أَن موسى وجد الخضر عليهما السلام مُسَجًّى في ثوبه مستلقياً على الأَرض ، فقال له : السلام عليك ، فرفع الخضر رأسه وقال : وَأَنَّى بأَرضك السلام ؟ ثم قال له : من أَنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال له : أَلم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا ؟ قال : بلى ، ولكني أَحببتُ لقاءَك وأَن أَتعلم منك ، قال له : إنِّي على عِلْم من

عِلْم الله علمنيه ولا تعلمه أنت ، وأنت على عِلْم من عِلْم الله علَّمَكه الله لا أعلمه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كان علم الخضر معرفة بواطن قد أُوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأَحكام أَفعاله بحسبها ، وكان علم موسى عليه السلام علم الأَحكام والفُتْيَـا بظاهر أَقوال النـاسِ وأَفعالهم . ورُوي أن موسى وجـد الخضر قاعداً على ثبج البحر ، وسُمِّي الخضر خضراً لأَنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراءَ ، رُوي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) ، و «الرَّحْمَةُ» – في هذه الآية – النُّبُوَّةُ . وقد ذكرنا الحديث المُضَمَّن أن سبب هذه القصة أَن موسى عليه السلام قيل له : هل تعلم أَحداً أَعلم منك ؟ قال : لا . وحكى الطبري حديثاً آخر مُضَمَّنُهُ أَن مُوسى عليه السلام قال من قِبَل نفسه : أَيْ رَبِّ ، أَيُّ عبادك أَعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أَن يصيب كلمة خير تهديه ، قال : رب ، فهل في الأَرض أَحدٌ ؟ قال : نعم ، فسأَل السبيل إلى لُقِيِّه(٢) .

(١) أخرج البخاري ، وأحمد ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنما سُمِّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء) . وأخرج مثله ابنُ عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما . والمراد بالفروة هنا : الحشيش اليابس .

(٢) الحديث في تفسير الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والحديث الأول في صحيح البخاري .

وقرأ الجمهور : ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ بتشديد النون ، وقرأ أبو عمرو : ﴿مِنْ لَدُنَا﴾ بضم الدال وتخفيف النون ، قال أبو حاتم : هما لغتان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حُسْن الأدب . المعنى : هل يتَّفق لك ويخِفُّ عليك ؟ وهذا كما في الحديث : هل تستطيع أن تُرِيَني

كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأُ(١) ؟ وعلى بعض التأْويلات يجيءُ كذلك قوله تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ (٢) ؟

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم : [رُشْداً] بتخفيف الشين ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وقرأ ابن عامر : [رُشُداً] ، وقرأ أبو عمرو : [رَشَداً] بفتح الراءِ والشين . ونصبه على وجهين : أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً بـ [تُعَلِّمَنِي] ، والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله : [أَتَّبِعُكَ] .

ثم قال الخضر : ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ، أي : إنَّك يا موسى لا تُطيق أن تصبر على ما تراه من عملي ؛ لأن الظواهر التي هي علْمك لا تعطيه ، وكيف تصبر على ما تراه خطأً ولم تُخْبَر بوجه الحكمة فيه ولا وجه الصواب ؟ فقرب له موسى الأمر بِوَعْده أنه

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ، عن عمرو بن يحيى المازني ، عن أبيه ، أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد ، وهو جَدُّ عمرو بن يحيى : أتستطيع أن تُرِيَنِي كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأُ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بماءٍ فأفرغ على يديه فغسل مرّتين ، ثم مَضْمَضَ واسْتَنْثَر ثلاثاً ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرّتين مرتين إلى المرْفقين ، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدْبَر ، بدأ بمُقَدَم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه ثم ردّهما إلى المكان الذي بدأ منه ، ثم غسل رجليه .

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (المائدة) .

سيجده صابراً ، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأَمر ، فقوى الخضر وصاته ، وأمره بالإمساك عن السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر بشرح ما يجب شرحه .

وقرأ نافع : ﴿فَلَا تَسْأَلَنِّي﴾ بفتح اللام وتشديد النون وإثبات الياءِ ، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياءَ فقال : ﴿فَلَا تَسْأَلَنِّ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بسكون اللام وثبوت الياءِ ، وقرأ الجمهور : [خُبْراً] بسكون الباءِ ، وقرأ الأَعرج : [خُبُراً] بضمها .

وقوله تعالى : [فَانْطَلَقَا] ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنهما انطلقا ما شِيَيْن على سيف البحر حتَّى مرَّت بهما سفينة ، فعُرِف الخضر فَحُمِلَا بغير نول إلى مقصد أُمة الخضر . وعُرِّفت السفينة بالأَلف واللام تعريف الجنس لا لِعَهْد عَيْنها . فلمَّا ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب به في جنب السفينة حتى بلغ به - فيما رُوي - لوحين من أَلواحها ، فذلك هو معنى [خَرَقَهَا] ، فلما رأَى ذلك موسى عليه السلام غلبه ظاهر الأَمر على الكلام حين رأَى فعلاً يُؤَدِّي إلى غرق من في السفينة ، فوقفه بقوله : [أَخَرَقْتَهَا] ؟ وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ بالتاءِ ، وقرأَ

أبو رجاءٍ : ﴿لِتُغَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ بشدِّ الراءِ وفتح الغين ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا﴾ برفع الأَهل وإسناد الفعل إليهم .

و «الإِمْرُ» : الشَّنيعُ من الأُمور كالداهية والإِدِّ ونحوه ، ومنه : «أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبي كبشة» (١) ، ومنه : «أَمِرَ الْقَوْمُ» إذا كثروا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و «الإِمْرُ أَخَصُّ من «النُّكْرِ» .

فقال الخضر مجـاوباً لموسى : ﴿أَلَمْ أَقُـلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ، فتنبَّه موسى لما أتى معه فاعتذر بالنسيان ، وذلك أنه نسي العهد الذي كان بينهما ، هذا قول الجمهور ، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كانت الأُولى من موسى نسياناً) (٢) ، وفيه عن مجاهد قال : كانت الأُولى نسياناً ، والثانية شرطاً ، والثالثة عمداً .

---

(١) هذا من حديث قاله أبو سفيان بن حرب ، ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم ، يريد : ارتفع شأنه بين الناس ، وكان هذا قبل أن يسلم .

(٢) هذا جزءٌ من الحديث الطويل الشامل الذي رواه البخاري وغيره وأشرنا إليه من قبل في بداية قصة موسى والخضر عليهما السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الكلام معترض ؛ لأن الجميع شرطٌ ، ولأن العمد يبعد على موسى عليه السلام ، وإنما هو التأْويل إذ جنب صيغة السؤال والنسيان . وروى الطبري عن أُبيٍّ بن كعب أنه قال : إن موسى عليه السلام لم يَنْس ، ولكنها من معاريض الكلام (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى هذا القول صحيح ، والطبريُّ لم يُبَيِّنه ، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل ، ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً ، بل رآه واجباً ، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعمِّ وجوهه فضمَّنه السؤال والمعارضة والإنكار وكلَّ اعتراضٍ - إذ السؤال أخف من هذه كلها - أخذ معه في باب المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب ، فقال له : ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ، ولم يقل : «إنِّي نسيت العهد» ، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد ، ويستقيم أيضاً تأْويله وطلبه مع أنه لم ينس العهد ؛ لأن قوله تعالى : ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ كلام جيد طلبه ، وليس فيه للعهد ذكر ، هل نسيه أم لا ، وفيه تعريض أنه نسي العهد ، فجمع في هذا اللّفظ

(١) المعاريض جمع مِعْراض ، وهو التورية وفحوى الكلام ، وفي الحديث : (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) .

بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلَّا أن الذي قاله وهو أُبيٌّ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كانت الأُولى نسياناً) . و [تُرْهِقْنِي] معناه : تكلِّفني وتضيِّق عليَّ .

ومِمَّا قُصَّ من أمرهما أنهما لمَّا ركبا السفينة وجَرَتْ نَزَل عصفور على جنب السفينة ، فنقر في الماءِ نَقْرة ، فقال الخضر لموسى : ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماءِ البحر ؟ قال موسى : قليلاً ، فقال : يا موسى ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلَّا ما نقص هذا العصفور من ماءِ البحـــر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فقيل : معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات ، وإلَّا فَعِلْمُ الله تبارك وتعالى لا يُشَبَّهُ بمتناهٍ ؛ إذ لا يتناهى ، والبحرُ لو فرضت له عصافير على عدد نقطه لَانْتَهَى ، وعندي أن الاعتراض يحتمل أن يريد : من علم الله الذي أعطاه العلماءَ قبلهما وبعدهما إلى يوم القيامة ، فتجيءُ نسبة علمه إلى علم البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث : (ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلَّا كنقرة هذا العصفور) ، فلم يبق مع

(١) سقطت هذه الفقرة من النسخة التونسية .

هذا إلَّا أَن يكون التشبيه بتجوُّز ؛ إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلَّة من نقطة بالإضافة إلى البحر ، فكأنَّها لا شيءَ ؛ إذ لا توجد لها إلى البحر نسبة معلومة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

انطلقا في موضع نزولهما من السفينة ، فمرَّا بغلمان يلعبون ، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيءٍ فاقتلع رأْسه ، ويقال : رضَّها بحجر ، ويقال : ذبحه ، وقال بعض الناس : كان هذا الغلام لم يبلغ الحُلُم ، ولذلك قال موسى : [زَكِيَّةً] ، أي : لم تذنب ،

وقالت فرقة : بل كان غلاماً شابًّا ، والعرب تُبقي على الشاب اسم الغلام ، ومنه قول ليلى الأخيلية :

. . . . غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا (١)

وهذا في صفة الحجاج . وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه ما فعل فيقسمان على قَسَمه ويحميانه ممن يطلبه ، وقرأ ابن عباس ، والأعرج ، وأبو جعفر ، ونافع ، والجمهور : [زَاكِيَةً] ، وقرأ الحسن ، وعاصم ، والجحدري : [زَكِيَّةً] ، والمعنى واحد ، وقد ذهب قوم إلى الفَرْق ، وليس بِبَيِّن (٢) . وقوله : ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نَفْس لم يكن به بأْسٌ ، وهذا يدل على كبر الغلام ؛ وإلَّا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير

---

(١) هذا عجز بيت قالته ليلى الأخيلية من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

إِذَا نَزَلَ الحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَبَّعَ أَقْصَى دائِهَا فَشَفَاهَا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي بِهَا غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

والقناة : الرمح ، وسقاها : بَلَّلَهَا من دم الأعداء .

(٢) يعني أن قوماً من العلماء ذهبوا إلى أن بينهما فرقاً ، فقد قال ثعلب : الزَّكِيَّةُ أبلغ ، وقال أبو عمرو : الزَّاكِيَةُ التي لم تُذنب قط ، والزَّكِيَّةُ التي أذنبت ثم تابت ، لكن ابن عطية يرى أن ما ذكراهُ غير بيِّن .

نفس ، وقرأ الجمهور : [نُكْراً] ، وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة : [نُكُراً] بضم الكاف ، واختلف عن نافع ، ومعناه : شيءٌ يُنْكَر .

واختلف الناس أَيُّهما أَبلغ ؟ قوله : [إِمْراً] أو قوله : [نُكْراً] – فقالت فرقة : هذا قتل بيِّنٌ وهنالك مُتَرَقَّب ، و [نُكْراً] أَبلغ ، وقالت فرقة : هذا قتلُ واحدٍ وذلك قتلُ جماعةٍ ، فـ [إِمْراً] أَبلغ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعندي أَنهما لِمَعْنَيَيْن : قوله : [إِمْراً] أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و [نُكْراً] أَبيَن في الفساد لأَن مكروهه قد وقع ، [ونصف القرآن بعد الحرف ن أو ينتهي إلى النون من قوله : [نُكْراً] .] (١)

وقوله : ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ فيه زجْرٌ وإغلاظٌ ليس في قوله أَوَّلاً : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ ، وقوله : [بَعْدَهَا] يريد: بعد هذه القصة ، فأَعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكرٌ صريح من حيث كانت في ضمن القول .

---

(١) نقل القرطبي كلام ابن عطية عن الفرق بين ﴿إِمْراً ونُكْراً﴾ لكنه ترك الجملة الأخيرة التي وضعناها بين العلامتين [......] ، وهي في نفسها تحتاج إلى بيان ، وصلتها بما قبلها أيضاً في حاجة إلى توضيح ، والظاهر أن فيها نقصاً نتيجة سهو من النساخ خفي بسببه المعنى ، على أنها سقطت من بعض النسخ .

وقرأ الجمهور : ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ ، ورواها أُبَيٌّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ عيسى ، ويعقوب : ﴿فَلَا تَصْحَبْنِي﴾ ، وقرأ عيسى أيضاً : ﴿فَلَا تُصْحِبْنِي﴾ بضم التاءِ وكسر الحاءِ ، ورواها سهلٌ عن أبي عمرٍو ، والمعنى : فَلا تُصْحِبْني علمك ، وقرأ الأعرج : ﴿فَلَا تَصْحَبَنِّي﴾ بفتح التاءِ والباءِ وشدِّ النون . وقوله : ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ ، أي : قد أَعْذَرْتَ إليَّ وبلغتَ إلى العُذْر من قِبلي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويُشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام ، وأيام التلَوُّم ثلاثة ، فتأَمله . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وضم الدال وشد النون ، وهي (لَدُن) اتصلت بها نون الكناية التي في «ضربني» ونحوه (١) ، فوقع الإدغام ، وهي قراءَة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ نافع ، وعاصم : ﴿مِنْ لَدُنِي﴾ كالأُولى إلَّا أن النون مُخَفَّفة ، فهي (لَدُن) اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في «غــلامي» وكُسِر ما قبل اليــاءِ كما كُسِر في

(١) يريد نون الوقاية التي تسبق ياء المتكلم لتقي الفعل من الكسر .

هذه (١) ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ مِنْ لَدْني ﴾ بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون ، وهي تخفيف [لَدُنِي] التي ذكرناها قبل هذه ، ورُوي عن عاصم : ﴿ مِنْ لُدْنِي ﴾ بضم اللام وسكون الدال ، قال مجاهد : وهي غلط ، قال أبو عليٍّ : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فهي صحيحة . وقرأ الحسن : ﴿ مِنْ لَدْنِي ﴾ بفتح اللام وسكون الدال (٢) .

وقرأ الجمهور : [عُذْراً] ، وقرأ أبو عمرو ، وعيسى : [عُذُراً] بضم الذال ، وحكى الداني أن أُبَيًّا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : [عُذْرِي] بكسر الراءِ وياءٍ بعدها ، وأسند الطبريُّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه ، فقال يوماً : (رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾(٣) . وفي البخاري

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : «وهو القياسُ ؛ لأن أصل الأسماء إذا أُضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق بها نون الوقاية نحو غلامي وفرسي» .

(٢) هي القراءة التي رواها أبو بكر عن عاصم ، وكان الأفضل أن يذكرهما معاً .

(٣) ذكر السيوطي الحديث في الدرِّ المنثور ، وقال : أخرجه ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، ولفظه كما ذكره السيوطي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رحمة الله علينا وعلى موسى – فبدأ بنفسه – ، لو كان صبر لقَصَّ علينا من خبره ، ولكن قال : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله موسى ، لوددنا أنه صبر حتَّى يقص علينا من أَمرهما) (١) . ورُوي في تفسير هذه الآية أَن الله تعالى جعل هذه الأَمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجباً له ، وذلك أَنه لما أَنكر خَرْق السفينة نودي : يا موسى أَين كان تدبيرك هذا وأَنت في التَّابوت مطروحاً في اليم ؟ فلما أَنكر أَمر الغلام قيل له : أَين إنكارك هذا من وكزك للقبطيِّ وقضائك عليه ؟ فلما أَنكر إقامة الجدار نودي : أَين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أَجر ؟

وقوله : [فَانْطَلَقَا] ، يريد : انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياد الخضر أَمراً ينفذ فيه ما عنده من علم الله تعالى ، فمرَّا بقرية فطلبا من أَهلها أَن يطعموهما فأَبَوْا . وفي الحديث أَنهما كانا يمشيان على مجالس أُولئك القوم يستطعمانهم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة مصرِّحة بهوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ .

(١) هذا جزءٌ من الحديث الذي رواه البخاري في تفسير سورة الكهف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنهم ، وقد أشرنا إليه من قبل .

واختلف الناس في القرية - فقال محمد بن سيرين : هي الأُبُلَّة ، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء ، وقالت فرقة : هي أَنْطَاكِيَة . وقالت فرقة : هي بَرقة ، وقالت فرقة : هي بجزيرة الأَندلس ، روي ذلك عن أَبي هريرة ، ويذكر أَنها الجزيرة الخضراءُ . وقالت فرقة : هي أَبو جودان (١) ، وهي بناحية أَذْربِيجان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كله بحسب الخلاف في أَيِّ ناحية من الأَرض كانت قصة موسى عليه السلام ، والله أَعلم بحقيقة ذلك .

وقرأَ الجمهور : [يُضَيِّفُوهُمَا] بفتح الضاد وشد الياءِ ، وقرأَ أَبو رجاءٍ [يُضِيفُوهُمَا] بكسر الضاد وسكون الياءِ ، وهي قراءَة ابن محيصن ، والزُّبير ، وأَبي رزين . و «الضَّيْفُ» مأْخوذ من : ضاف

---

(١) الذي في القرطبي : باجَرْوَان ، وفي البحر المحيط : أبو حوران . والأُبُلَّة : بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها ، هكذا قال الحموي في (معجم البلدان) ، وقال الزَّجَّاجيُّ : هي الفِدْرة من التَّمْر ، وهي على شاطئ دِجْلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة . أما أنْطاكيَة فضبطها الحموي بالفتح ثم السكون والياء مخففة ، وأمَّا بَرْقَة - بفتح الأول والقاف - فاسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وأفريقية ، ثم ذكر الحموي مدينتين أخريين بهذا الضبط ، ثم ذكر مائة مكان كل منها يُسَمَّى بُرْقة بضم أوله مع فتح القاف وبالإضافة إلى اسم آخر . وضبط أَذْرَبِيجان بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء وسكون الياء ، وذكر من المدن المجاورة لها بَاجَرْوان .

إلى المكان إذا مال إليه ، ومنه الإضافة وهي إمالة شيء إلى شيء .

وقرأ الأعمش : «فَأَبَوْا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا» .

وقوله تعالى في الجدار : ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ استعارة ، وجميع الأفعال التي حقُّها أن تكون للحيِّ الناطق متى أُسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة ، أي : لو كان مكان الجماد إنسان لكان متمثِّلاً لذلك الفعل ، فمن ذلك قول الأعشى :

هَلْ تَنْتَهُونَ ؟ وَلَا يَنْهَى ذَوي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيْتُ والفُتُلُ (١)

فأسند النَّهْي إلى الطَّعن ، ومن ذلك قول الشاعر :

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَــــرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عُقَيْلِ (٢)

---

(١) البيت من قصيدته المعروفة : (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِل) ، والشَّطَط : المبالغة ومجاوزة الحدِّ في الأمور ، يقول : إن كل من يجاوز حدَّه ، ويخرج عن الحق والصواب لا ينهاه عن ذلك إلا الطعن الشديد الذي يصيبه بجراح واسعة يغيب فيها الزيت والفُتُل . والشاهد أنه أسند النَّهْيَ إلى الطعن على سبيل الاستعارة .

(٢) البيت في اللسان (رود) غير منسوب ، قال : «وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ ، أي أقامه الخضر ، وقال : (يُرِيدُ) والإرادة إنما تكون من الحيوان ، والجدار لا يُريد إرادة حقيقية ؛ لأن تَهيُّؤَه للسقوط قد ظهر كما تظهر أفعال المريدين ، فوصف الجدار بالإرادة إذ كانت الصورتان واحدة ، ومثل هذا كثيرٌ في الشعر واللغة ، قال الرَّاعي :

في مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَـــامَاتُهَـــا قَلَقَ الفُؤُوسِ إذا أَرَدْنَ نُصُـــولا

وقال آخر : يُرِيدُ الرمحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ ... البيت» .

=

ومنه قول عنترة :

. . . . وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْـرَةٍ وتَحَمْحُـمِ

وفَسَّر هذا المعنى بقوله :

لَوْ كَانَ يَدْرِي ما الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى البيت . . . . (١)

ومنه قول الناس : «داري تنظر إلى دار فلان» (٢) ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تَرَاءَى ناراهُمَا) (٣) وهذا كثير جداً .

= والبيت أيضاً من شواهد أبي عبيدة في مجاز القرآن ، وقد نسبه للحارثي ، قال : «ليس للحائط إرادةٌ ولا للموت ، ولكنه إذا كان في هذه الحال من رثة فهي إرادتُه ، وهذا قول العرب في غيره ، قال الحارثي : يريد الرُّمْحُ ... البيت» . وما يقال عن إسناد الإرادة للرمح يقال عن إسناد الرغبة عن الشيء إليه أيضاً ، والرغبة عن الشيء : تركه والزُّهْدُ فيه ، أما الرغبة فيه فهي الحرص عليه والطمع فيه .

(١) استشهد ابن عطية بعجز بيت من الشعر قاله عنترة بن شداد ، ثم وضح كلامه بصدر البيت التالي ، والبيتان كاملان معاً هما :

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِـــــهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْـرَةٍ وتَحَمْحُـمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَـلامَ مُكَلِّمِي

وهو يتحدث عن فرسه الذي شارك معه في الهجوم على الأعداء ، وتلقى كثيراً من الهجمات والضربات . والازْوِرار : الْمَيْلُ ، والقنا : جمع قناةٍ ، وهي الرمح ، واللَّبان : صدر الفرس ، والتَّحَمْحُمُ : صوت الفرس المنخفض إذا كان فيه شجن الحنين لِيَرِقَّ له صاحبه ، يقول : مال فرسي من رماح الأعداء التي أصابت صدره ، ونظر إليَّ وحَمْحَمَ لأرقَّ له وأرْحَمه من هذه الضربات ، ولو كان يعلم لغة الخطاب والكلام لاشتكى إليَّ وعبَّر عن آلامه بحديث واضح مفهوم . وإسناد هذه الأفعال إلى الفرس تجوُّز .

(٢) أي تقع أمامها وتشاهدها ، فقد أسند النظر إلى الدار وهي جماد على سبيل المجاز .

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه أبو داود في الجهاد ، والنسائي في القسامة . والحديث كاملا : (أنا بريءٌ من كل مسلم معَ مُشْرِكٍ ، قيل : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : لا تَرَاءَى =

وقرأ الجمهور : [يَنْقَضَّ] ، أي : يسقط . وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم - فيما روي عنه - ﴿أَنْ يُنْقَضَ﴾ بضم الياء وتخفيف الضاد ، وهي قراءة أُبيٍّ ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعكرمة : ﴿أَنْ يَنْقَاص﴾ بالصاد غير منقوطة ، بمعنى : ينشق طولاً ، يقال : انْقَاصَ الجِدَارُ وَطَيُّ البِئْرِ (١) ، وانقاصت السِّنُّ إذا انشقت طولاً ، وقيل : إذا تصدعت كيف كان ، ومنه قول أبي ذُؤَيب :

فِرَاقٌ كقَيْصِ السِّنِّ فالصَّبْرَ إنَّهُ لِكُلِّ أُناسٍ عَثْـــرةٌ وَجُبُـــورُ (٢)

= نارَاهُمَا) ، قال ابن الأثير في شرح هذا الحديث: «أي : يلزم المُسْلِمَ ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذي إذا أُوقدت فيه نارُه تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله» ، والتَّرائي : تَفَاعُلٌ من الرُّؤية ، يقال : تراءى القومُ إذا رأى بعضهم بعضاً ، وإسناد التّرائي إلى النار مجاز ، يقول : ناراهما مختلفتان ، هذه تدعو إلى الله ، وهذه تدعو إلى الشيطان ، فكيف يتّفقان ؟ والأصل في (تَرَاءى) تَتَرَاءى ، فحذفت إحدى التّاءين تخفيفاً» . اهـ . بتصرف .

(١) يقال للبئر التي تُبنى بالحجارة : الطَّوِيُّ ، وطَوَاهَا : أحاطها بالحجارة والآجُرِّ ، فإذا قيل : انْقَاصَ طيُّ البِئْر ، كان المعنى : انشق بناؤها وتَصدَّع .

(٢) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي يصور فيها عودته إلى ديار المحبوبة بعد غيبة طويلة ، ويتحدث عن عتابها له حين رأته فقالت له : إنَّكَ صبَوْتَ بعدنا وتغيرتَ بعد أن كبرتَ ، وأنه أجابها بأن فَقْد الأحبة هو السبب ، وأن هذا الفراق كان كانشقاق السِّنِّ ولا دواء لذلك إلاَّ الصبر ، والناس دائماً يَعْثُرون ثم يُجْبرون . والشاهد أن قَيْص السِّن هو انشقاقها ، أما قوله : فالصَّبْرَ ، فإن معناه : علينا أن نصبر ، وهو منصوب على الإغراء ، والتقدير : الزمي الصبرَ ، ورواية الأصمعي ، فالصَّبْرُ ، والمعنى عليها : فالصَّبْرُ دَوَاءٌ . وقد روى أبو عمرو البيت : فراقٌ كَنَفْض السِّن ، أي : تحرُّكها .

ويروى البيت : عبرةٌ وحبور بالباء والحاء . وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : «يُرِيدُ لِيَنْقَضَّ» .

واختلف المفسرون في قوله : [فَأَقَامَهُ] – فقالت فرقة : هدمه وقعد يبنيه ، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود ، ويؤيد هذا التأويل قول موسى عليه السلام : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ ؛ لأنه فعلٌ يستحق أجراً . وقال سعيد بن جبير : بلْ مَسَحَه بيده وأقامه فقام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ورُوِي في هذا حديث ، وهو الأشبه بفعل الأنبياء عليهم السلام . فقال موسى للخضر : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي : طعاماً نأكله . وقرأ الجمهور : [لَاتَّخَذْتَ] ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [لَتَخِذْتَ] ، وهي قراءة ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة ، وأدْغَم بعض القراء الذَّال في التَّاء ، ولم يدغمها بعضهم (١) ، ومن قولهم :

---

(١) قال ابن خالويه : «الحُجَّةُ لمن قرأ بفتح التاء وكسر الخاء وإظهار الذال أنه أخذه من : تَخِذَ يَتْخَذُ ، كما تقول : شَرِبَ يَشْرَبُ ، فأتى بالكلام على أصله مُبَيَّناً غير مُدْغَم . والحُجَّة لمن قرأ بذلك وأدغم مقاربة الذَّال للتاء لأن مخرجهما من طرف اللسان وأطراف الثنايا العُلْيَا ، والحجة لمن قرأ بألف الوصل أن وزنه افتعلت ، من الأخذ ، وأصله : إيتَخَذْتَ ؛ لأن همزة الوصل تصير ياءً لانكسار ما قبلها ثم تُقلب تاءً وتُدغم في تاء افْتَعَلْتُ فتصيران تاءً شديدةً» . انتهى بتصرف وزيادة إيضاح .

(تَخِذَ) قول الشاعر :

وَقَدْ تَخِذَتْ رِجْلِي إلى جَنْبِ غَرْزِهَا نَسِيفاً كَأُفْحُوصِ ٱلْقَطاةِ ٱلْمُطَرِّقِ (١)

وفي حرف أُبَيٍّ : «لَوْ شِئْتَ لَأُوتيتَ عليهِ أَجْراً» .

ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما : ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ، واشترط الخضر ، وأعطاه موسى أَلَّا يقع سؤالٌ عن شيءٍ ، والسؤالُ أَقلُّ وجوه الاعتراضات ، فالإنكار والتخطئة أعظم منه ، وقوله : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ - وإنْ لم يكن سؤالاً - ففي ضمنه الإنكارُ لفعله والقولُ بتصويب أخذ الأَجر ، وفي ذلك تخطئة ترك

(١) البيت لِلْمُمَزَّق العبدي ، واسْمُه شَأسُ بن نَهار ، من عبد القيس ، وهو ابن أُخت المثقّب العبدي ولُقِّب بالممزَّق لقوله :

فإنْ كنتُ مأكُولاً فكُنْ خيْرَ آكِلٍ وإلاّ فأدْرِكْني ولَمَّا أُمَزَّقِ

والممزَّق بفتح الزاي وكسرها ، قال ذلك في اللسان . والبيت من القصيدة التي منها بيته الذي ذكرناه ، وهو في اللسان ، ومن شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، وتَخِذَ من باب فَرِحَ ، يقال في المضارع يَتْخَذُ كيَفْرَحُ ، كما قال ابن خالويه في الهامش السابق . وهي موضع الاستشهاد ، والغَرْزُ لِلْجَمَل مثل الركاب للبغل ، وهو ما يضع الراكب قدمه فيه عند الركوب ، والنَّسِيف : أثر عضِّ الغَرْزِ في جنب الناقة من عضَّة أو تساقط وَبَر ، والقَطَاة : طائر صغير من نوع اليمام يُؤْثر الحياة في الصحراء ، ويتخذ أفحوصه في الأرض ، ويطير جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مُرَقَّطٌ ، والأفحوصُ هو الحفرة التي يحفرها في الأرض ليضع بيضه فيها ويرقد عليه ، وهي تناسب حجمه ، والمُطَرِّق : التي خرج منها نصف ولدها ثم نشب - إذا كانت امرأة - أو بيضها - إذا كانت طائراً ، يصف القطاة بأنها كالمرأة المطرق ، وقيل : تطريق القطاة أن تتخذ الأفحوص للبيض .

الأَجر ، وأمَّا فصْله وتكريرُه ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وعُدُولُه عن «بَيْنِنَا» فَلِمَعْنَى التأْكيد ، والسِّينُ في قوله : [سَأُنَبِّئُكَ] مُفَرقة بين المحاورتيْن والصحبتيْن ، ومُؤْذِنَةٌ بأَن الأُولى قد انقطعت .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

قرأ الجمهور : [لِمَسَاكِينَ] بتخفيف السِّين ، جمع مِسْكين ، واختلف في صفتهم - فقالت فرقة : كانت لقوم تجار ، ولكنهم من حيث هم مسافرون على قَلَتٍ (١) وفي لجة بحر وبِحَالٍ ضعف عن مدافعة غصب جائر ، عَبَّر عنهم بـ [مَسَاكِينَ] ؛ إذْ هم في حالٍ يُشْفَق عليهم بسببها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كما تقول لرجل غنيٍّ - إذا وقع في وَهَلَةٍ (٢) أوْ خَطْبٍ - : مِسْكين . وقالت فرقة : كانوا عشرة إخوة أَهْلِ عاهات ، خمسة

(١) على قَلَتٍ : على تَعَرُّضٍ للهلاك أو الخوف .
(٢) أي : في خوف وفزع .

منهم عاملــون في السفينة ، وخمسة لا قـــدرة بهم على العمــل .

وقرأت فرقة : [لِمَسَّاكِينَ] بشدِّ السين ، واختلف في تأْويل ذلك - فقالت فرقة : أَراد بالمَسَّاكين مَلَّاحي السفينة ، وذلك أَن المسَّاكَ هو الذي يُمسك رجل المركب ، وكل الخدمة يصلح لإِمساكه ، فسُمي الجميع مسَّاكين ، وقالت فرقة : أَراد بالمسَّاكِين دَبَغَة المُسُوك وهي الجلود واحدها مَسْكٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر في ذلك القراءَة الأُولى ، وأَنَّ معناها أَنَّ السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أَن يشفق عليهم ، واحتج الناس بهذه الآية في أن المسكين الذي له البُلغة من العيش ، كالسفينة لهؤلاءِ ، وأَنه أَصلح حالاً من الفقير ، واحتج من يرى خلاف هذا بقول الشاعر :

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهَ سَبَدُ (١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وتحرير هذا عندي أَنهما لفظان يدلَّان على ضعف الحال جدًّا ، ومع المسكنة انكشافٌ وذلٌّ بسؤال ، ولذلك جعلهما الله تعالى صنفين

(١) البيت للراعي ، وهو حُصَيْنُ بن معاوية النُّمَيْري ، ولُقب بالراعي لأنه أكثر من وصف الإبل ورعاتها ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في الجزء السادس (٥٣٤) ، وهو من قصيدة قالها الشاعر يمدح عبد الملك بن مروان ، والشاهد هنا أن الفقير هو من كان عنده شيءٌ لعياله.

في قسم الصدقات ، فأَمَّا حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو : (ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف) (١) فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة الذين كشفوا وجوههم ، وأَما قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (٢) فجعل الفقراءَ الذين لم يكشفوا وجوههم . وقد تقدم القول في هذه المسأَلة بأَوعبَ من هذا (٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ ، قال قوم : معناه : أمامهم ، وقالوا : (وراءُ) من الأَضداد . وقال ابن جبير ، وابن عباس : وكان أَمامهم ملك يأْخذ كل سفينة صالحة ، وقرأَ عثمان بن عفان رضي الله عنه : «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقوله : [وَرَاءَهُمْ] هو عندي على بابه ، وذلك أَن هذه الأَلفاظ إنما تجيءُ مراعى بها الزمن ، وذلك أَن الحادث المقدّم الوجود هو

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة والتفسير ، ومسلم في الزكاة ، وكذلك كل من أبي داود ، والنسائي ، والدارمي ، وأخرجه مالك في موطئه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحمد في مسنده (١-٣٨٤) ، ولفظه فيه : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين بالطَّوَّاف ، ولا بالذي تردُّه التَّمْرَةُ ولا التمرتان ، ولا اللقمة ولا اللقمتان ، ولكن المسكين المتعفِّف الذي لا يسأل الناسَ شيئاً ولا يُفْطَنُ له فَيُتَصَدَّق عليه) .

(٢) من الآية (٢٧٣) من سورة (البقرة) .

(٣) راجع الجزء السادس صفحة ٥٣٣ وما بعدها .

الأَمام ، وبين اليد لما يأْتي بعده من الزمان ، والذي يأْتي بعد هو الوراءُ وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر ببادئ الرأْي ، وتأَمل هذه الأَلفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد ، فهذه الآية معناها : إنَّ هؤلاءِ وعملهم وسعيهم يلي بعده في الزمن غَصْبٌ من الملك ، ومن قرأَ : «أَمَامَهُمْ» أَراد : في المكان ، أَي أَنهم كانوا يسيرون إلى بلده . وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنهما «بين يدي القرآن» (١) مطرد على ما قلنا في الزمان ، وقوله سبحانه : ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ (٢) مطرد كما قلنا من مراعاة الزمان ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصلاة أمامك) (٣) يريد في المكان ، وإلَّا فكونهم في ذلك الوقت

---

(١) ورد هذا في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في الآية (٣) من سورة (آل عمران) : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ، وكقوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة (البقرة) : ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ .

(٢) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية) .

(٣) الحديث في الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة ، وقد أخرجه البخاري في الحج ، والنسائي في المواقيت ، والدارمي في المناسك ، وأحمد في المسند (٥–٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠) ، ولفظه كما جاء في المسند أن كُرَيْبا سأل أُسامة بن زيد ، قال : قلت أخبرني كيف صنعتم عشية ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : جئنا الشِّعب الذي يُنيخ فيه الناسُ للمغرب ، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته ، ثم بال ، قال: اهراق الماء ، ثم دعا =

كان أمام الصلاة في الزمن ، فتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ووقع لقتادة في كتاب الطبري : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ ، قال قتادة : أمامهم ، ألا ترى أنه يقول : ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ (١) وهي بين أيديهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول غير مستقيم ، وهذه هي العجمة التي كان الحسن ابن أبي الحسن يضجّ منها . قاله الزجاج (٢) . ويجوز أنْ كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة . وقيل : اسم هذا الغاصب هُدَد بن بُدَد ، وقيل : الجَلَنْدى ، وهذا كله غير ثابت . وقوله تعالى : ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ عموم معناه الخصوص في الجِيادِ منها الصحاحِ المـارَّةِ به

= بالوضوء فتوضأ وضوءاً ليس بالبالغ جداً ، قال : قلت : يا رسول الله ، الصلاة ، قال: الصلاةُ أمامك . قال : فركب حتى قدم المزدلفة فأقام المغرب ، ثم أناخ الناس في منازلهم ولم يحلوا حتى أقام العشاء ، ثم حلّ الناس ، قال : فقلت : كيف فعلتم حين أصبحتم ؟ قال : ردفه الفضل بن عباس ، وانطلقت أنا في سباق قريش على رجلي .

(١) من الآية (١٠) من سورة (الجاثية) .

(٢) نقل الإمام القرطبي كلام ابن عطية كلّه من أول قوله : « وقوله : [وَرَاءَهُم] هو عندي على بابه » ، ثم علّق عليه بقوله : « وما اختاره هذا الإمام قد سبقه إليه في ذلك ابن عرفة » ، ثم نقل كلام ابن عرفة وقال : « وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيري » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا
(٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ
فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ
أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾

تقدم القول في الغلام والخلاف في بلوغه أو صغره ، وفي الحديث أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً ، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً ، وقيل : اسم الغلام جَيْسور بالراءِ ، وقيل : جَيسون بالنون ، وهذا أمر كلُّه غير ثابت . وقرأ أُبي بن كعب : «فَكَانَ كَافراً وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ» ، وقرأ أَبو سعيد الخدري : «فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤمِنَان» ، فجعلها (كان) التي فيها الأَمر والشأْن (١) .

(١) قال أبو الفتح ابن جنِّي: يجوز في الرفع هنا تقديران : أحدهما أن يكون اسم (كان) ضمير الغلام ، أي : فكان هوَ أَبَوَاهُ مؤمنان ، والجملة بعده خبر كان . والآخر أن يكون اسم (كان) مضمراً فيها ، وهو ضمير الشأن والحديث ، أي : فكان الشأنُ أو الحديث أبَوَاهُ مؤمنان ، والجملة بعده خبر (كان) على ما مضى ، إلا أنه على هذا الوجه الثاني لا ضمير عائداً على اسم (كان) ، لأن ضمير الشأن لا يحتاج إلى ضمير يعود عليه من الجملة بعده .

وقوله : [فَخَشِينَا] قيل : هو في جهة الخضر ، فهذا متخلص ، والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه ، وقيل : هو في جهة الله تعالى وعبَّر عنه الخضر . قال الطبري : معناه : فَعَلِمْنَا ، وقال غيره : فَكَرِهْنَا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأظهر عندي في توجيه هذا التأْويل - وإن كان اللَّفظ يدافعه - أَنها استعارة ، أَي : على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حالَه لوقعت منهم خشية الرهق للأَبوين . وقرأَ ابن مسعود : «فَخَافَ رَبُّكَ» ، وهذا بيِّن في الاستعارة ، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لَعَلَّ وَعَسَى» ، فإن جميع ما في هذا كله من تَرَجٍّ وتَوَقُّع وخوف وخشية إنما هو بِحَسَبِكُم أَيُّهَا المخاطبون . و [يُرْهِقَهُمَا] معناه : يُجَشِّمُهُمَا ويُكَلِّفهما بشدَّة ، والمعنى أَن يلقيهما حُبُّهما في اتِّباعه .

وقرأَ الجمهور : ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُمَا﴾ بفتح الباء وشدِّ الدال ، وقرأَ ابن محيصن ، والحسن ، وعاصم : ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال . و «الزَّكَاةُ» : شرف الخُلُق والوقار والسكينة المنطوية على خير ، و «الرُّحْمُ» : الرحمة ، والمراد - عند فرقة - أَيْ : يرحمهما ،

وقيل : أي : يرحمانه ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

يَا مُنْزِلَ الرُّحْمِ عَلَى إِدْرِيسَا وَمُنْزِلَ اللَّعْنِ عَلَى إِبْلِيسَا (١)

وقرأ ابن عامر : [رُحُماً] بضم الحاء ، وقرأ الباقون : [رُحْماً] بسكونها ، واختلف عن أبي عمرو . وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «رَبُّهُمَا أَزْكَى مِنْهُ وَأَقْرَبَ رُحْماً» ، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا غلاماً مُسلماً» ، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلا جارية» ، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبيًّا ، وذكره المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو بعيد ، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلَّا في بني إسرائيل ، وهذه المرأة لم تكن فيهم ، وروي عن ابن جريج أن أُمَّ الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾ . هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليُتْم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الذي في الديوان هو البيت الأول فقط ، وهو في الأبيات المفردة الملحقة بالديوان ، والرواية فيه : (عَلَى إدْرِيس) ، وكذلك استشهد به صاحب اللسان (رَحِمَ) ، قال : «والرُّحْمُ بالضم : الرَّحْمة ، وما أقرب رُحْم فلان إذا كان ذا مرحمة وَبِرٍّ ، أي : ما أرحمه وأبرَّه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾» ، وبعد أن استشهد بأبيات من الشعر ذكر هذا البيت لرؤبة بنفس الرواية التي في الديوان .

(لا يُتْم بَعْد بُلُوغ) (١) ، هذا الظاهر ، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اليُتْم بعد البلوغ ، أي : كانا يتيمين ، على معنى التشفيق عليهما . واختلف الناسُ في الكنز ـ فقال قتادة ، وعكرمة : كان مالاً جسيماً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان علماً في صحف مدفونة ، وقال عمر مولى غُفْرَة (٢) : كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه : «عجباً للموقن بالرزق يتعب ، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل ، وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح» ، ورُوي نحو هذا مما هو في معناه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ، ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنْيَةً (٣) ، وقيل : الأَب السابع ، وقيل : العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح ، وفي الحديث : (إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته) (٤) .

---

(١) أخرجه أبو داود ، عن عليٍّ رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير : (لا يُتْم بعد احتلام ، ولاصمات يوم إلى الليل) ، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث حسَن .

(٢) هو عُمر بن عبد الله المدني ، مولى غُفْرة بضم الغين وسكون الفاء ، قال عنه صاحب تقريب التهذيب : «ضعيف ، وكان كثير الإرسال ، من الخامسة ، مات سنة خمسٍ أو ستٍّ وأربعين» .

(٣) دِنْيَةً : الأب الأقرب والأدنى .

(٤) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : «إن الله يُصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ، ويحفظه في ذريته والدويرات حوله ، فما يزالون في ستر من الله وعافية» .=

وجاءَ في أنباءِ الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ، وفي الثانية ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ ، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا﴾ ، وإنما انفرد أوّلاً في الإرادة لأَنها لفظة عَيْبٍ فتأَدب بأَن لم يسند الإرادة فيها إلَّا لنفسه ، كما تأَدب إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(١) ، فأَسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى ، وأَسند المرض إلى نفسه ؛ إذْ هو معنى نقْص ومصيبة ، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً ، أَلا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٢) ، وتقديم فعل الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (٣) ، وإنما قال الخضر في الثانية : [فَأَرَدْنَا] لأَنه أَمل كان قد رَوَّاهُ (٤) هو وأَصحابه الصالحون ، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى التبديل لهما ، وإنما أَسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأَنها في أَمرٍ مستأْنف في الزمن طويل غيب من الغيوب ، فحسُن إفراد هذا

= وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم) ، وأخرجه ابن المبارك ، وابن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر موقوفاً . (الدر المنثور) .

(١) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (الصَّف) .

(٣) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة) .

(٤) من قولهم : رَوَّى فلانٌ في الأمر بمعنى : نظر فيه وتفكَّر .

الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده ، وهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصِّر ، والله أعلم .

و «الْأَشُدُّ» : كمالُ الخُلُق والعقل ، واختلف الناسُ في قدر ذلك من السنين – فقيل : خمسة وثلاثون ، وقيل : ستة وثلاثون ، وقيل : أربعون ، وقيل غير هذا مما فيه ضعف .

وقول الخضر : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يقتضي أن الخضر نبيٌّ ، وقد اختلف الناسُ فيه – فقيل : هو نبيٌّ ، وقيل : هو عبد صالحٌ وليس بنبيٍّ . وكذلك جمهور الناس على أن الخضر ماتَ صلى الله عليه وسلم ، وتقول فرقة : إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة ، وهو باقٍ في الأَرض ، وأنه يحج البيت وغير هذا ، وقد أطنب النقاشُ في هذا المعنى ، وذكر في كتابه أَشياءَ كثيرة عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وغيره ، كلها لا تقوم على ساق ، ولو كان الخضر عليه السلامُ حيًّا يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور ، والله العليم بتفاصيل الأَشياءِ لا ربَّ غيره . ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأَرض أحدٌ) (١) .

(١) هذا الحديث خرَّجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر ، قال : صلَّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلمَّا سلَّم قام فقال: (أرأيتكم =

وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أي مآلُ ، وقرأت فرقة : [تَسْتَطِعْ] ، وقرأ الجمهور : [تَسْطِعْ] ، قال أبو حاتم : كذا تُقرأ ، نتبع المصحف .

وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أن هذه القصة إنما جُلبت على معنى المثل للنبي صلى الله عليه وسلم في قومه ، أي : لا تهتم بإملاء الله لهم ، وإجراء النعم لهم على ظاهرها ، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم ، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسُّف مَّا ، فتأمله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

= ليلتكم هذه فأن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)، فوَهَلَ النَّاسُ في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ، — وَهَلَ : غلط وذهب وَهْمُه إلى خلاف الصواب — ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام : (لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد) ، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن . ورواه مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله ، قال القرطبي : وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث .

اختلف فيمن سأله عن هذه القصة - فقيل : سألته طائفة من أهل الكتاب ، وروى في ذلك عقبةُ بن عامر حديثاً ذكره الطبري ، وقيل : إنما سألتهُ قريش حين دلَّتها اليهود على سؤاله عن الرُّوح والرَّجُلِ الطَّوَّاف وفِتيَة ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك (١) .

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني المقدوني ، وقد تُشَدَّد قافُه فيقال : المَقَّدوني ، وذكر ابن إسحق في كتاب الطبري أنه يوناني ، وقال وهب بن مُنَبِّه: هو رومي ، وذكر الطبري حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ذا القرنين شاب من الروم ، وهو حديث واهي السند ، عن شيخين من تجيب (٢) .

واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين ، فأَحْسَن الأَقوال أَنه كان ذا ضفيرتيْن من شعْرٍ هما قرناه ، فَسُمِّي بهما ، ذكره المهدوي وغيره ، والضفائر قرون الرأْس ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) أما الرُّوح فمعروفة ، وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وأما الرجُل الطواف فهو ذو القرنين ، وأما الفِتْية الذين ذهبوا في الدهر فهم أصحاب الكهف ، وفي هذه السورة كانت الإجابة عن الأخيريْن .

(٢) هذا الحديث هو ما أشار إليه المؤلف قبل ذلك حين قال : « ورَوَى في ذلك عقبة ابن عامر حديثاً ذكره الطبري » . راجع الطبري . وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي .

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَــا شُرْبَ النَّزِيفِ لِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ(١)

ومنه الحديث في غسل بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت أُمُّ عطية : «فَضَفَرْنَا رأْسها ثلاثة قُرون»(٢) ، وكثيراً تجيءُ تسمية النواصي قروناً .

ورُوي أنه كان في أول مُلْكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس ويُمسك قرنين لها بيديه ، فَقَص ذلك ، فَفُسِّر أنه سيغلب على ماذَرَّت عليه وسُمِّي ذا القرنين ، وقالت فرقة : سُمِّي ذا القرنين لأَنه بلغ المغرب والمشرق ، فكأَنه حاز قرني الدنيا ، وقالت فرقة : إنه لما

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وهو من أبيات في ديوانه قيل : إنها منسوبة إليه ، وآخذاً بقرونها : مُمْسِكاً بضفائرها ، وقد استشهد أبو منصور ــ كما قال في اللسان ــ بالنصف الثاني من البيت على أن (النَّزيف) هو الذي عطش حتى يبست عروقه . وقيل : إن النَّزيف هو السكران لأن عقله نزف ، والحشْرج : النُّقْرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو . والشاهد هنا أن الضفائر تُسمَّى قروناً .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي في الجنائز ، ولفظه كما جاء في مسلم ، عن حَفْصة بنت سيرينَ ، عن أمِّ عطية ، قالت : لما ماتت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إغْسلنها وِتْراً ، ثلاثاً أو خمساً ، واجعلن في الخامسة كافوراً ، أو شيئاً من كافور ، فإذا غَسَلْتُنَّها فأَعْلِمْنني) ، قالت : فأعلمناهُ فأعطانا حِقْوَه وقال : (أَشْعِرْنَهَا إيَّاه) . وفي رواية أخرى ذكرها مسلم من طريق هشام بن حَسَّان : وقال في الحديث : قالت : فَضَفَرْنَا شعرها ثلاثة أثْلاثٍ ، قَرْنيها ونَاصيتَهَا . وفي رواية البخاري أن أم عطية قالت : «وَمَشَطْنَاهَا ثلاثة قرون» . والحِقْوُ هو الإزارُ . ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : (أَشْعِرْنَهَا إيَّاهُ) : اجْعَلْنَهُ شِعَاراً لها ، أي غَطِّينَ جَسَدَها به .

بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قَرْنيها فَسُمِّي بذلك ، أو قرني الشيطان بها ، وقال وهب بن منبه : سُمِّي بذلك لأن جَنْبَتَيْ رأسه كانتا من نحاس ، وقال وهب بن منبه أيضاً : كان له قرنان تحت عمامته .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله بعيد ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنَّما سُمِّي ذا القرنين لأنه ضُرب على قَرْن رأسه فمات ، ثم حيي ، ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات ، فسُمِّي بذلك لأنه جُرح على قرنيْ رأسه جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه ، فسُمِّي بذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قريب .

والتَّمْكِينُ له في الأَرض أنه ملَكَ الدنيا ودانت له الملوك كلُّها ، فرُوي أن جميع ملوك الدنيا أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان ابن داود عليه السلام ، والإسكندر ، والكافران نمروذ وبختنصر . وقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ معناه : علْماً في كل أمْرٍ ، وأَقْيِسَةً يتوصل بها إلى معرفة الأشياء . وقوله : ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم

معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه ، وثَمَّ لا محالة أشياءُ لم يُؤْت منها سبباً يعلمها به .

واختلف في ذي القرنين ، فقيل : هو نبيٌّ ، وهذا ضعيف ، وقيل : هو مَلَك ـ بفتح اللام ـ ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يدعو آخر : يا ذا القرنين ، فقال : أما كفاكم أن تسمَّيتم بأَسماءِ الأَنبياءِ حتى تَسَمَّيْتم بأَسماءِ الملائكة ؟ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سُئل عنه فقال : (مَلَك مَسَحَ الأَرض من تحتها بالأَسباب) (١) ، وقيل : هو عبدٌ مَلِك ـ بكسر اللام ـ صالحٌ نصح اللهَ فأَيَّدَه ، قاله عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وقال : «فيكم اليوم مثله» ، وعنى بذلك نفسه ، والله أَعلم .

قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ الآية . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿فَاتَّبَعَ سَبَباً﴾ بشد التاءِ ، وقرأ عاصمٌ ، وابن عامرٍ ، وحمزة ، والكسائي : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ بسكون التاءِ ، على وزن أَفْعَل ، قال بعض اللغويين : هما بمعنى واحد ، وكذلك (تَبِـعَ) ، وقالت فرقة :

---

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، عن خالد بن معدان الكلاعي ، وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأحوص ابن حكيم ، عن أبيه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن ذي القرنين فقال : (هو مَلَك مسح الأرض بالإحسان) .

(أَتْبَعَ) بقطع الألف عبارةٌ عن المُجِدِّ المُسْرع الحثيث الطلب ، و (اتَّبَعَ) إنما يتضمن معنى الاقتفاءِ دون هذه القرائن ، قاله أبو زيد وغيـــره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واستقراءُ هذا القائل هذه المقالة من القرآن ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿فَأَتْبَعَـهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(١) ، وكقوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ وَجُنُودُهُ﴾(٢) ، وكقوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ﴾(٣) ، وهذا قولٌ حكاه النقاش عن يونس بن حبيب ، وإذا تـأملت (أَتَّبَعَ) بشد التَّاءِ لم يرتبط لك هذا المعنى ولا بُدَّ . و «السَّبَبُ» في هذه الآية : الطريقُ المسلوكة ؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿في عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ على وزن فَعِلَة ، أي : ذات حمأَةٍ ، وقرأ عاصم — في رواية أبي بكر — ، والباقون : ﴿في عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ ، أي حارَّة ، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس ، فقال ابن عباس

(١) من الآية (١٠) من سورة (الصَّافات) .
(٢) من الآية (٩٠) من سورة (يونس) .
(٣) من الآية (١٧٥) من سورة (الأعراف) .

رضي الله عنهما [حَمِئَةٍ] ، وقال معاوية : [حَامِيَةٍ] ، فبعث إلى كعب الأَحبار ليخبرهم بالأَمر كيف هو في التوراة ، فقال لهما : أَمَّا العربية فأَنتما أَعلم بها منِّي ، ولكني أَجد في التوراة أَنها تغرب في عين ثأْطٍ ، والثَّأْط : الطين ، فلما انفصلا قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : لَوَدِدْتُ يا أَبا العباس فكنتُ أُنجدك بشعر تُبَّع الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين :

قَدْ كَانَ ذو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِماً مَلِكاً تَدينُ لهُ الْمُلُوكُ وَتُحْشَدُ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَـــارِبَ يَبْتَغِي أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِـدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا في عَيْنِ ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ (١)

فالخُلُبُ : الطِّين ، والثَّأْط : الحمأَة ، والحَرْمَد : الأَسْوَد . ومن قرأَ : [حَامِيَةٍ] وجَّهها إلى الحرارة ، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى الشمس وهي تغيب فقال : (في نار اللهِ الحامية ، لولا ما يَزَعُها من الله لأَحرقت ما على الأَرض) (٢) . وروى أَبو ذَرٍّ أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى

---

(١) الأبيات في الدر المنثور ، والقرطبي ، وآخرها في البحر المحيط . وتُروى : (قد كان ذو القرنين قبلي) ، و (تدين له الملوك وتَسْجُدُ) .

(٢) أخرجه أحمد ، وابن أبي شيبة ، وابن منيع ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال : (في نار الله ... الحديث) .

الشمس عند غروبها فقال : (أتدري أين تغرب يا أبا ذَرٍّ ؟ قلت : لا ، قال : إنها تغرب في عين حامية) (١) ، فهذا يدل على أن العين هناك حارَّة ، و [حَامِيَةٍ] هي قراءة طلحة بن عبد الله ، وعمرو بن العاص ، وابنه ، وابن عمر ، وذهب الطبري إلى الجمع بين الأَمرين فقال : يحتمل أن تكون العين حارة ذات حمأَة ، فكلٌّ قراءةٍ وصف بصفة من أَحوالها ، وذهب بعض البغداديين إلى أن [في] بمنزلة (عند) ، كأَنها مسامتة من الأَرض فيما يرى الرائي لعَيْنٍ حمئة . وقال بعضهم : قوله : ﴿في عَيْنٍ﴾ إنما المراد أن ذا القرنين كان فيها ، أي : هي آخر الأَرض .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر هذه الأَقوال محتمل ، والله أعلم . قال أبو حاتم : وقد يمكن أن تكون [حَامِيَةٍ] مهموزة ، بمعنى : ذات حمأَةٍ ، فتكون القراءتان

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، عن أبي ذَرٍّ قال : كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار ، فرأى الشمس حين غربت ، فقال : (أتدري أين تغرب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : (فإنها تغرب في عين حامية) ، غير مهموزة .

بمعنى واحد . واستدل بعض الناس على أن ذا القرنين نبيٌّ بقوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ، ومن قال إنه ليس بنبي قال : كانت له هذه المقالة من الله بإلهام .

وقوله : ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ معناه : بالقتل على الكفر ، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ بالْحَمْلِ على الإيمان واتباع الهدى ، فكأنه قيل له : هذه لا تعطها إلَّا إحدى خطتين : إمَّا أن تكفر فتعذبها ، وإمَّا أن تؤمن فتحسن إليها . وذهب الطبري إلى أن «اتِّخاذ الْحُسْن» هو الأَسْرُ مع كفرهم ، فالمعنى – على هذا – أنهم كفروا ولابُدَّ ، فخيَّره الله تعالى بين قتلهم أو أسرهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون «الاتِّخاذُ» ضربَ الجزية . ولكن تَقْسيم ذي القرنين بعد هذا الأَمر إلى كفر أو إيمان يرُدُّ هذا القول بعض الرَّدِّ ، فتأمله (١) .

---

(١) تقسيم ذي القرنين للقوم جاء في الآية التالية وما بعدها ، ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَى﴾ ، الآيـــة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

[ظَلَمَ] في هذه الآية بمعنى : كفر ، ثم توعَّد الكافرين بتعذيبه إياهم قبل عذاب الله ، وعقَّب لهم بذكر عذاب الله لأن تعذيب ذي القرنين هو الأَحق عندهم ، المحبوس لهم ، الأَقرب نكاية . فلما جاء وعد المؤمنين قدَّم تنعيم الله تعالى الذي هو الأَحق عند المؤمنين ، والآخر بإزائه حقير ، ثم عقَّب أَخيراً بذكر إحسانه في قول اليُسْر ، وجعله قولاً إذ الأَفعال كلها خَلْق لله تعالى ، فكأَنه سلَّمها ولم يراع تكسُّبه .

وقرأَت فرقة : [نُكُراً] بضم الكاف ، وقرأَت فرقة : [نُكْراً] بسكون الكاف ، ومعناه : المنكر الذي تنكره الأَوْهام لِعظَمِه وتستهويه . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم – في رواية أَبي بكر – وأَبو عمرو ،

وابن عامر : ﴿ جَزَاءَ ٱلْحُسْنَى ﴾ بإضافة الجزاء إلى الحُسْنى ، وذلك يحتمل معنيين : أَحدهما أن يريد بـ [ٱلْحُسْنَى] الجنة ، والجنة هي الجزاءُ ، فأَضاف ذلك ، كما قال : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ ﴾(١) والآخرة هي الدار ، والثاني أَن يريد بـ [ٱلْحُسْنَى] أعمالَهم الصَّالحة في إيمانهم ، فوعدهم بجزاءِ الأَعمال الصالحة . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وحفصٌ عن عاصم : ﴿ جَزَاءً ٱلْحُسْنَى ﴾ بنصب «الجزاءِ» على المصدر (٢) في موضع الحال ، و [ٱلْحُسْنَى] ابتداءٌ ، وخبره في المجرور ، ويراد بها الجنة ، وقرأَ عبد الله بن أَبي إسحق : [جَزَاءٌ] بالرفع والتنوين [ٱلْحُسْنَى] ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ، ومسروق : [جَزَاءَ] بالنصب بغير تنوين [ٱلْحُسْنَى] بالإضافة . قال المهدوي : يجوز حذف النون لالتقاءِ الساكنين ، ووعدهم بعد ذلك بأَنه يُيَسِّر عليهم أُمور دنياهم . وقرأَ ابن القعقاع : [يُسُراً] بضم السين .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ ، المعنى : ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده ، فهي سبب الوصول ، فكانَ ذو القرنين – على ما وقع في كتب التاريخ – يدوس الأَرض بالجيوش الثقال ، والسِّيرة الحميدة ، والإعداد الموفَّى ، والحزم المستيقظ المتَّقد ،

(١) من الآية (١٠٩) من سورة (يوسف) ، وتكررت في الآية (٣٠) من سورة (النحل) .
(٢) أي : مع التنوين .

والتأْييد المتواصل ، وتقوى الله عزَّ وجلَّ ، فما لقي أُمَّةً ولا مَرَّ بمدينة إلَّا دانت له ودخلت في طاعته ، وكلُّ من عارضه وتوقَّف عن أمره جعله عظةً وآية لغيره ، وله في هذا المعنى أَخبار كثيرة ، وغرائب كرهْتُ التطويل بها لأَنها علْم تاريخ . وقرأَ الجمهور [مَطْلِـعَ] بكسر اللام ، وقرأَ الحسن ـ بخلاف ـ ، وابن كثير ، وأَهل مكة : [مَطْلَعَ] بفتح اللام .

و «القوم» : الزِّنْج ، قاله قتادة ، وهم الهنود وما وراءهم (١) .

وقال الناس في قوله : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ معناه : إنهم ليس لهم بنيان ؛ إذ لا تحتمل أَرضهم البناءَ ، وإنما يدخلون من حرِّ الشمس في أَسراب ، وقيل : يدخلون في ماءِ البحر ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن جريج . وكثَّر النقاشُ وغيره في هذا المعنى ، والظاهر من الأَلفاظ أَنها عبارة بليغة عن قُرْب الشمس منهم ، وفعلها بقدرة الله تبارك وتعالى فيهم ، ونَيْلُها منهم ، ولو كان لهم أَسرابٌ تغني لكان سِتْراً كثيفاً ، وإنما هم في قبضة القدرة سواءٌ كان لهم أَسراب

(١) الزِّنْج ـ بفتح الزاي المشددة وبكسرها ـ : جيل من السودان يتميز بالجلد الأسود ، والشعر الجَعْد ، والشَّفة الغليظة ، والأنف الأفطس ، وهذا الجيل يسكن حول خط الاستواء ، وتمتد بلادهم من المغرب إلى الحبشة . وبهذا نعرف أن الهنود لا علاقة لهم بالزنوج ، بل هم جنس آخر .

أو دُورٌ أَوْ لم يكن ، ألا ترى أن السِّتْر عندنا بحق إنما هو من السحاب والغمام وبَرْد الهواءِ ، ولو سلَّط الله علينا الشمس لأحرقتنا ، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة .

وقوله : [كَذَٰلِكَ] معناه : فَعَل معهم كفِعْله مع الأَولين أهل المغرب ، فأَوجز بقوله : [كَذَٰلِكَ] . ثم أَخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع ما لدى ذي القرنين ، وما تصرف من أفعاله ، ويحتمل أن يكون [كَذَٰلِكَ] استئناف قول ، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأُولى ، فتأَمله ، والأَول أَصوب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

قرأت فرقة : [ٱتَّبَعَ] بشدِّ التاءِ ، وقرأت فرقة بتخفيفها ، وقد تقدم . وهذا يقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس اتَّبع بعد ذلك سبباً ،

أي : طريقاً آخر ، فهو ـ والله أعلم ـ إمَّا يَمْنَة وإما يسْرَةً من مطلع الشمس . و « السَّدَّان » ـ فيما ذكر أهل التفسير ـ : جبلان سدَّا مسالك تلك الناحية من الأَرض ، وبين طريقي الجبلين فَتْحٌ هو موضع الرُّوم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الجبلان اللّذان بينهما السَّدُّ أَرمينية وأذربيجان . وقالت فرقة : هما من وراءِ بلاد الترك ، ذكره المهدوي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كله غير متحقق ، وإنما هما في طرف الأَرض مما يلي المشرق ، ويظهر من ألفاظ التواريخ أنهما إلى ناحية الشمال ، وأما تعيين موضع فضعيـــف .

وقرأ نافع ، وعاصم (١) ، وابن عامر : [ٱلسُّدَّيْن] بضم السين ، وكذلك (سُدًّا) حيث وقع ، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله في جميع القراءات ، وهي قراءة مجاهد ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعي ، وقرأ ابن كثير : [ٱلسَّدَّيْن] بفتح السِّين ، وضم [سُدًّا] في (يسن) (٢). واختلف بعد ـ فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم ، والفتح المصدر ، وقال الكسائي : الضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، وقال

(١) في قراءة أبي بكر عنه .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٩) : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

عكرمة ، وأبو عمرو بن العــلاء ، وأبو عبيــدة : ما كان من خلقة الله تعالى لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّم ، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلزم أهل هذه المقالة أن نقرأ : ﴿بَيْنَ ٱلسُّدَّيْنِ﴾ بالضم ، وبعد ذلك [سَدًّا] بالفتح ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي . وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكْسَ ما قال أبو عبيــدة ، وقال ابن إسحق : ما رأته عيناك فهو (سُدٌّ) بضم السين ، وما لا يُرى فهو (سَدٌّ) بالفتح . والضمير في [دُونهمَا] عائد على الجبلين ، أي : وجدهم في الناحية التي تـأْتي إلى المغرب . واختلف في « القَوْم » — فقيل : هم بشر ، وقيل : جنٌّ ، والأَول أَصح من وجوه . وقوله : ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن أَلسنة الناس ، لكنهم فقهوا أو فهموا بالترجمة ونحوها . وقرأ حمزة ، والكسائي : [يُفْقِهُونَ] من أَفْقَهَ ، وقرأ الباقون : [يَفْقَهُونَ] من فَقِهَ .

والضمير في [قَالُوا] للقوم الذين من دون السَّدَّيْن ، ويـأْجوج ومأْجوج قبيلتان من بني آدم ، لكنهم ينقسمون أَنواعاً كثيرة اختُلف

في عددها ، فاختصرت ذكره لعدم الصحة ، وفي خَلْقهم تشويه ، منهم المفرط الطول ، ومنهم المفرط القِصَر على قدر الشِّبْر وأَقَلُّ وأَكْثَر ، ومنهم صنف عظيم الآذان ، الأُذن الواحدة وبرة والأُخرى زعراءُ ، يَصَيِّف في الواحدة ويشتو في الأُخرى وهي تعمُّه . واختلف القراءُ — فقرأ عاصم وحده : ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بالهمز ، وقرأ الباقون بغير همز ، فأَما من همز فاختلف فيه — فقالت فرقة : هو أَعجمي ، علَّتُه في منع الصرف التعريف والتأْنيث ، وأَما من لم يهمز فإمَّا أَن يراهما اسمين أَعجَميَّيْن ، وإما أَن يُسَهِّل من الهمز ، وقرأَ روْبة بن العجَّاج : «آجُوج وماجُوج» بهمزة بدل الياءِ .

واختلف الناس في إفسادهم الذي وصفوهم به — فقال سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أَكل بني آدم ، وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان عندهم مُتَوَقَّعاً ، أَي : سيفسدون ، فطلبوا وجه التحرز منهم ، وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر ، وهو أَظهر الأَقوال ؛ لأَن الطائفة الشاكية إنما شكت من ضُرٍّ قد نالهم . وقولهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ استفهامٌ على جهة حسن الأَدب .

و «الْخَرْجُ» : المُجْبَى ، وهو الخراج ، وقال قوم : «الخَرْجُ» : المال يخرج مرة ، و «الخَرَاجُ» المُجْبَى المتكرر ، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [خَرْجاً] : أجراً . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : [خَرْجاً] ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [خَراجاً] ، وهي قراءة طلحة ابن مصرف ، والأعمش ، والحسن - بخلاف عنه - ، ورُوي في أمر يأْجوج ومأْجوج أن أرزاقهم من التنين يرزقونها ويمطرونها ، ونحو هذا مما لا يصح ، ورُوي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد ، والأُنثى لا تموت حتى يخرج من بطنها ألف ، فهم لذلك إذا بلغوا العدد ماتوا ، ورُوي أيضاً أنهم يتناكحون في الطرق كالبهائم ، وأخبارهم تضيق بها الصحف فاختصرتها لضعف صحتها .

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ ، المعنى : قال لهم ذو القرنين : ما بسط الله لي من القدرة والمُلْك خير من خَرْجكم وأموالكم ، ولكن أعينوني بقوة الأبدان ، وبعمل منكم بالأيدي . وقرأ ابن كثير وحده : ﴿مَا مَكَّنَنِي﴾ بنونين ، وقرأ الباقون ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بإدغام النون الأُولى في الثانية . وهذا :

من تـأْييد الله تعالى لذي القرنين ، فإنه تهدَّى في هذه المحاورة إلى الأَنفع والأَنزه ، فإنهم لو جمعوا له خراجاً ومالاً لم يُعنْه منهم أحد ولَوَكَلُوهُ إلى البنيان ، ومعونتهم له بالقوة أجمل به ، وأَمْرٌ يطاول مدة العمل ، وربما أَرْبَى على الخرج .

و «الرَّدْمُ» أَبلغ من «السَّدِّ» ؛ إذ السَّدُّ كلُّ ما يُسَدُّ به ، والرَّدْم وضع الشيء على الشيء من حجارة أَو تراب أَو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ، ومنه : رَدَّم ثوبَه إذا رَقَّعَهُ برقاع متكاتفة بعضها فوق بعض ، ومنه قول عنترة :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ؟ .... (١)

أَي : من قول يركب بعضه على بعض .

---

(١) هذا صدر بيت هو مطلع المعلقة ، والبيت بتمامه :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ ؟

وَالمُتَرَدَّم : الموضع الذي يُرْدَم ويُستصلح ويُسْتَرْقَع لما أصابه من الوهن ، هذا هو الأصل ، والمعنى المراد هنا : هل ترك الشعراءُ قولاً يُصْلَح ويُرَقَّع ؟ أي : هل تركوا قولاً لقائل بعدهم ، أو فنّاً لم يسلكوه في الشِّعر ؟ أمَّا قوله : «أم هلْ عرفت الدار بعد توهم ؟» فمعناه : لمْ أعرفها إلاَّ توهُّماً أنها هي الدار التي كنت أعهد لما أصابها من تغيُّر . هذا والبيت في اللسان (ردم) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

قرأ عاصم (١) ، وحمزة : [إيتُونِي] بمعنى : جيئوني ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : [آتُونِي] بمعنى : أعطوني ، وهذا كله متقارب ، إنما هو استدعاءُ المناولة لا استدعاءُ العطية والْهبة ؛ لأَنه قد ارتبط من قوله أَلَّا يأْخذ منهم الخَرْجَ ، فلم يبق إلا استدعاءُ المناولة وأَعمال القوة ، و [إيتُوني] أَشبه بقوله : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ ، ونصب «الزُّبَرَ» على نحو قول الشاعر :

أَمرْتُكَ الْخَيْرَ . . . . (٢)

---

(١) أي : في رواية أبي بكر ، أما قراءة حفص عن عاصم فهي : [آتُوني] .

(٢) هذا جزءٌ في صدر بيت قاله عمرو بن معديكرب الزبيدي ، والبيت بتمامه :

أمرْتُكَ الخيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذا مالٍ وذَا نَشَبِ =

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور : [زُبَرَ] بفتح الباء ، وقرأ الحسن بضمها ، وكل ذلك جمع (زُبْرَة) ، وهي القطعة العظيمة منه . والمعنى : فَرَصَفَهُ وَبَنَاهُ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْفَيْن ، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه . وقرأ الجمهور : [سَاوَى] ، وقرأ قتادة : [سَوَّى] ، و «الصَّدَفان» : الجبلان المتناوحان (١) ، ولا يقال للواحد : صدف ، وإنما يقال (صدفان) لاثنين أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [الصَّدَفَيْن] بفتح الصَّاد وشدِّها ، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه (٢) ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو : [ٱلصُّدُفَيْن] بضم الصاد والدال ، وهي قراءة مجاهد ، والحسن ، وقرأ عاصم – في رواية أبي بكر – : [ٱلصُّدْفَيْن] بضم الصاد وسكون الدال ، وهي قراءة أبي رجاءٍ ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي ، وقرأ الماجشون بفتح

= هذا ، وقد قيل إن البيت للعباس بن مرداس ، وقيل : لزرعة بن السائب ، وقيل: لخفاف ابن ندبة ، ورُوي في شعر لأعْشى طرود . والنَّشَبُ : المالُ الثَّابتُ كالضياع ونحوها ، والمالُ : الإبل والغنَم ، أو المالُ عامٌ في كل ما يمتلك . والشاهد في (أمرتك الخير) ، أصله : أمرتك بالخير ، فحذف حرف الجر وتعدى الفعل إلى المفعول الثاني ، ومثله في ذلك قول الشاعر :

أسْتَغْفِـــرُ اللهَ ذَنْباً لسْتُ مُحْصِيَـــهُ   رَبَّ العبَادِ إليه الْوَجْهُ والْعَمَـــلُ

(١) أي : المتقابلان .

(٢) وبها قرأ عاصم في رواية حفص .

الصاد وضم الدال ، وقرأ قتادة : ﴿ بَيْنَ ٱلصَّدْفَيْن ﴾ بفتح الصاد وسكون الدال . وكلٌّ ذلك بمعنى واحد ، وهما الجانبان المتناوحان ، وقيل : الصَّدفان : السطحان الأَعليان من الجبلين ، وهذا نحو من الأَول .

وقوله : ﴿ قَالَ ٱنْفُخُوا ﴾ الآية ، معناه أَنه كان يأْمر بوضع طاقة من الزُّبَر والحجارة ، ثم يوقد عليها حتى تحمى ، ثم يُؤْتى بالنحاس المذاب أَو بالرصاص أَو بالحديد - بحسب الخلاف في «الْقِطْر» - فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة ، فإذا التأَم واشتد استأْنف رصف طاقة أُخرى إلى أَن استوى العمل ، وقرأَ بعض الصحابة : «بقِطْرٍ أُفْرِغْ عَلَيْه» .

وقال أَكثر المفسرين : «القِطْرُ» : النحاس المذاب ، ويؤيد هذا ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء رجلٌ فقال : يا رسول الله ، إنِّي رأَيتُ سدَّ يأْجوج ومأْجوج ، قال : كيف رأَيتَهُ ؟ قال : رأَيته كالبُرْد المُحَبَّر ، طريقة صفراءُ ، وطريقة حمراءُ ، وطريقة سوداءُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد رأَيتَه (١) . وقالت فرقة : «القِطْر» : الرصاص المذاب ، وقالت فرقة «القِطْر : الحديد الذائب . وهو مشتق من قَطَر يَقْطر .

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ، عن أبي بكرة النسفي رضي الله عنه .

والضمير في قوله : ﴿فَمَا ٱسْطَاعُوا﴾ ليأْجوج ومأْجوج . وقرأت فرقة : ﴿فَمَا ٱسْطَاعُوا﴾ بسكون السين وتخفيف الطَّاءِ ، وقرأت فرقة بشَدِّ الطَّاءِ ، وفيها تكلُّف للجمع بين السَّاكنين . و [يَظْهَرُوهُ] معناه : يَعْلُوه بصعود فيه ، ومنه قوله في الموطإ : (والشَّمس في حُجْرتها قَبْلَ أَنْ تَظْهَر)(١) . ﴿وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ لبُعد عرضه وقوته ، ولا سبيل سوى هذين ، إمَّا ارتقاءٌ وإمَّا نَقْبٌ . وروي أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً ، ورُوي غير هذا مما لا ثبوت له فاختصرناه إذْ لا غاية للتخرص ، وقوله في هذه الآية : [ٱنْفُخُوا] أي بالأكوار ، وقوله : [ٱسْطَاعُوا] بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور ، قيل : هي لغة بمعنى : استطاعوا ، وقيل : استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاءَ فقال : اسْطاع ، وحذف بعضهم الطاءَ فقال : اسْتَاعَ يستيع ، بمعنى استطاع يستطيع ، وهي

(١) أخرجه البخاري في المواقيت ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة وكذلك الترمذي ، والنسائي في المواقيت ، والدارمي في الصلاة ، وهو كذلك في الموطأ في الصلاة ، وهو في البخاري حديث طويل ، ذكر فيه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخَّر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير وأخبره أن المغيرة بن شعبة أخَّر الصلاة يوماً وهو بالعراق فدخل عليه ابن مسعود فقال : ما هذا يامغيرة ...... ثم قال عروة في آخر الحديث : ولقد حدثتني عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حُجْرَتها قبل أن تظهر .

لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده : ﴿فَمَا ٱسطَّاعُوا﴾ بتشديد الطاء ، وهي قراءة ضعيفة الوجه . قال أبو علي : هي غير جائزة ، وقرأ الأعمش : ﴿فَمَا ٱسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ بالتاء في الموضعين .

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ الآية . القائل هو ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿هَذِهِ رَحْمَةٌ﴾ . و «الْوَعْدُ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأْجوج ومأْجوج . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [دَكًّا] مصدر دَكَّ يَدُكُّ إذا هدم ورضَّ ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [دَكَّاءَ] بالمدِّ ، وهذا على التشبيه بالناقة الدكاء ، وهي التي لا سنام لها ، وفي الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكَّاءَ ، وأما النصب في [دَكًّا] فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً بـ [جَعَلَ] ، ويحتمل أن يكون [جَعَلَ] بمعنى خَلَقَ وينصب [دَكًّا] على الحال ، وكذلك أيضاً النصب في قراءة من مَدَّ يحتمل الوجهين .

والضمير في [تَرَكْنَا] لله تعالى ، وقوله : [يَوْمَئِذٍ] يحتمل أن يريد به يوم القيامة لأنه قد تقدم ضميره ، فالضمير في قوله : [بَعْضَهُمْ] – على ذلك – لجميع الناس ، ويحتمل أن يريد بقوله :

[يَوْمَئِذٍ] يوم كمال السَّدِّ ، فالضمير في قوله : [بَعْضَهُمْ] ليأْجوج ومأْجوج ، واستعارة « المَوْج » لهم عبارة عن الحَيْرَة وتَرَدُّد بعضهم في بعض كالوالهين من همٍّ وخوف ، فشَبَّهَهُم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِـخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ الآية . المعنى به يوم القيامة ، فلا احتمال لغيره ، فَمَنْ تـأَول الآية كلَّها في يوم القيامة اتَّسق تـأْويله ، ومن تـأَول الآية إلى قوله : ﴿ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ في أَمر يـأْجوج ومأْجوج تـأَول القول : « وتركناهم يموجون » دأْباً على مرِّ الدهر وتناسل القرون بينهم وقيامهم ، ثم نفخ في الصُّور فيجتمعون . و « الصُّورُ » في قول الجمهور وظاهر الأَحاديث الصحاح هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة ، وفي الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أَنعم وصاحب القرن قد التقط القرن وحنَى الجبهة وأَصغى بالأُذن متى يؤمر) ، فشق ذلك على أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (قولوا : حسبنا الله ، وعلى الله توكلنا ، ولو اجتمع أَهل منى ما أَجلوا ذلك القرن) (١)

---

(١) أخرجه أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم ، والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقد سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام (٥ـ٢٥٠) ، وينتهي الحديث كما ذكره في الدرّ المنثور بقوله : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾

وأما النفخات فأسند الطبري رحمه الله إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الصُّور قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأُولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام)(١) ، وقال بعض الناس : النفخات اثنتان : نفخة الفزع وهي نفخة الصعق ، ثم الأُخرى التي هي للقيام . ومَلَك الصُّور هو إسرافيل عليه السلام . وقالت فرقة : الصُّور جمع صورة ، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيها الروح . والأَول أَبْيَن وأكثر في الشريعة .

وقوله : ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ معناه : أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم ، ثم أَكَّد بالمصدر عبارةً عن شدة الحال ، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمنه أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب ، فيقال لهم : هل لكم في الماءِ حاجة ؟ فيقولون : نعم ، ونحو هذا مما لا صحة له .

---

(١) الحديث في الطبري ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو وضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر) ، قال أبو هريرة : يا رسول الله ، ما الصور ؟ قال : (قَرْن) ، قال: وكيف هو ؟ قال: (قَرْن عظيم يُنفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين) . وفي حديث عن الدجال أخرجه البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه ينفخ في الصُّور المرة الأولى فيصعق من في السموات والأرض ، ثم ينفخ فيه أُخرى) .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [أَعْيُنُهُمْ] كناية عن البصائر ؛ لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذِّكْر ، والمعنى : الذين فِكْرهم بينها وبين ذكْري والنَّظَرِ في شرعي حجابٌ وعليها غطاءٌ ، ثم قال : إنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً ، يريد : لإعراضهم ونِفارهم عن دعوة الحق .

وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾ بكسر السين، بمعنى : أظنُّوا ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والحسن البصري ، وابن يَعْمَر ، ومجاهد ، وابن كثير - بخلاف عنه - ﴿ أَفَحَسْبُ ٱلَّذِينَ ﴾

بسكون السين وضم الباءِ ، بمعنى : أكافيهم ومنتهى غرضهم ؟ وفي مصحف ابن مسعود : «أَفَظَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا» ، وهذه حجَّة لقراءَة الجمهور . وقال جمهور المفسرين : يريد كلَّ من عُبد من دون الله تبارك وتعالى ، كالملائكة ، وعُزَيْر ، وعيسى ، فيدخل في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعضُ العرب واليهودُ والنصارى ، والمعنى : إن ذلك ليس كظنهم ، بل ليس لهم من ولاية هؤلاءِ المذكورين شيءٌ ، ولا يجدون عندهم منتفعاً .

و [أَعْتَدْنَا] معناه : يَسَّرْنَا ، و «النُّزُلُ» : موضع النزول ، و «النُّزُلُ» أيضاً : مَا يُقَدَّم للضيف والقادم من الطعام عند نزوله ، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى ، إن المُعَدَّ لهم بدل النُّزُل جهنم ، كما قال الشاعر :

. . . . تحيَّة بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ (١)

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ الآية . المعنى : قل لهؤلاءِ الكفرة – على جهة التوبيخ – : هَلْ نخبركم بالذين خسر عملُهم وضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا ، وهم – مع ذلك – يظنون

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ من هذه السورة ص ٢٩٧ هامش ٢ .

أنهم يحسنون فيما يصنعونه ؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ . وقرأ ابن وثاب : «قل سَنُنْبِئُكُمْ» ، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث ، و [حَبِطَتْ] معناه : بطلت ، و [أَعْمَالُهُمْ] يريد : ما كان لهم من عمل خير ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ يحتمل أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة ، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه يقول : لا قَدْر لهم عندنا يومئذ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا معنى الآية عندي ، وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يُؤْتى بالأكول الشروب الطويل فلا يزن جناح بعوضة ، ثم قرأ : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾(١) ، وقالت فرقة :

---

(١) أخرجه ابن عدي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرج البخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ . وقد ذكر الحافظ في (الفتح) هذا الحديث من رواية ابن مردويه .

إن الاستفهام تَمَّ في قوله تعالى : [أَعْمَالاً] ، ثم قال : هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً ، فقال سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه : هم عُبَّاد اليهود والنصارى وأَهل الصوامع والديارات ، وقـال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : هم الخوارج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إن صحَّ عنه فهو على جهة مثال فيمن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه محسن . ورُوي أن ابن الكواءِ سأَله عن « الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً » فقال له : أَنت وأَصحابك ، ويضعف هذا كلَّه قولُه تبارك وتعالى بعد ذلك : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ ، وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاءِ الله تعالى ، وإنما هذه صفة مشركي عَبَدة الأَوثان ، فاتجه بهذا ما قلناه أَوَّلاً ، وعليٌّ وسعدٌ رضي الله عنهما ذكرا قوماً أَخذوا بحظهم من صدر الآية . وقوله : [أَعْمَالاً] نصب على التمييز ، وقرأَ الجمهور : [فَحَبِطَتْ] بكسر الباءِ ، وقرأَ ابن عباس ، وأَبو السَّمَّالِ : [فَحَبَطَتْ] بفتح الباءِ ، وقرأَ كعب بن

عُجْرَة(١) ، والحسن ، وأبو عمرو ، ونافع ، والناس : ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ بنون العظمة ، وقرأ مجاهد : ﴿فَلَا يُقِيمُ﴾ بياءِ الغائب ، يريد : فلا يقيم اللهُ عزَّ وجلَّ ، وقرأ عبيد بن عمير : ﴿فَلَا يَقُومُ﴾ ، ويلزمه أن يقرأ : (وَزْنٌ) ، وكذلك قرأ مجاهد : ﴿فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ﴾ .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارةٌ إلى ترك إقامة الوزن ، و [جَزَاؤُهُمْ] خبر الابتداءِ في قوله : [ذَلِكَ] ، وقوله : [جَهَنَّمُ] بَدَلٌ منه ، و [مَا] في قوله : ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ مصدرية . و «الْهُزْءُ» : الاستخفاف والسخرية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

---

(١) هو كعب بن عُجرة الأنصاري ، المدني ، أبو محمد . صحابي مشهور ، مات بعد الخمسين ، وله نيف وسبعون حديثاً . (تقريب التهذيب) .

لما فرغ من ذكر الكفرة والأَخسرين أَعمالاً عقَّب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين ، وفي هذا بعث النفوس على اتِّباع الحَسَن القويم .

واختلف المفسرون في [ٱلْفِرْدَوْسِ] – فقال قتادة : إنه أَعلى الجنة وربوتها ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : إنه جبل تتفجر منه أَنهار الجنة ، وقال أَبو أُمامة : إنه سُرَّة الجنة ووسطها ، وروى أَبو سعيد الخدري رضي الله عنه أَنه يتفجر منه أَنهارُ الجنة ، وقال عبد الله ابن الحارث بن كعب : إنه جنات الكروم والأَعناب خاصة من الثمار ، وقاله كعب الأَحبار ، واستشهد قومٌ لذلك بقول أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْت :

كانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِــرَةً   فيها الْفَرَادِيسُ والْفُومَانُ والْبَصَلُ (١)

وقال الزجاج : قيل : إن الفردوس سريانية ، وقيل : رومية ، ولم

(١) البيت في اللسان (فوم) ، قال : «وقال أُمَيَّةُ في جمع الفوم : (كانتْ لَهُمْ جنَّةٌ إذْ ذاكَ ظَاهِرَةٌ ... البيت) ، ويروى : (الفراريس) – بالراء – ، قال أبو الإصبع : الفراريس : البصل ، وقال ابن دُرَيْد : الفُومةُ : السنبلة» ، وقال في مكان آخر : «قال ابن جنِّي : ذهب بعض أهل التفسير في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا﴾ إلى أنه أراد الثَّوْمَ ، فالفاءُ – على هذا – عنده بدلٌ من الثاءِ ، والصواب عندنا أن الفوم : الحِنطة وما يُخْتبز من الحبوب . وجمعوا الجمع فقالوا : فُومان» . وقال في (فَرْدَسَ) : «الفِرْدوس : البستان ، قال الفراءُ : هو عربي ، وقال ابن سِيدَة : الفِرْدوس : الوادي الخصيب عند العرب كالبستان ، والفِرْدوس : الروضة (عن السيرافي) ، وقال الزجاج : حقيقته أنه البستان الذي يجمع ما يكون في البساتين» .

يسمع بالفردوس في كلام العرب إلّا في بيت حسّان بن ثابت :

وإنَّ ثَوَابَ اللهِ كُلَّ مُوَحِّدٍ جِنَانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ(١)

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) (٢) ، وقالت فرقة : الفردوس : البستان بالرومية . وهذا اقتضابُ القول في [ٱلْفِرْدَوْس] وعيونُ ما قيل فيه .

وقوله تعالى : [نُزُلاً] يحتمل الوجهين اللّذيْن قدمناهما قَبْلُ .

و «الحِوَلُ» بمعنى : التحول . وقال مجاهد : مُتَحَوَّلاً ، ومنه قول الشاعر :

لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَجَلْ ثُمَّ يُتَاح لَهَا حِوَل (٣)

---

(١) وهذا البيت أيضاً في اللسان والتاج واستشهدا به على أن الفردوس عربية ، ففي اللسان : « قال أبو بكر : ومما يدلّ أن الفردوس بالعربية قول حسّان : (وإن ثواب الله ...... البيت) ، وقال الزجاج ، الفردوس أصله رومي ولكن عرِّب » .

(٢) أخرج البخاري ، ومسلم ، وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة) . والحديث في تفسير الطبري ، قال : « عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، أو أبي سعيد الخدري » ، ثم ذكر الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ .

(٣) البيت شاهد على أن الحِوَل بمعنى : التحوُّل ، قال في اللسان (حول) : « والحِوَل : يجري مجرى التحويل ، يقال : حوَّلُوا عنه تحويلاً وحِوَلاً ، والتحويل مصدر حقيقي من حوَّلت ، والحِوَل اسم يقوم مقام المصدر ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ ، أي تحويلاً ، وقال الزجاج : لا يريدون عنها تَحَوُّلاً ، يقال : قد حال من مكانه حِوَلاً ، كما قالوا في المصادر : صَغُرَ صِغَراً ، وعادني حبُّهَا عِوَداً » .

وكأنه اسم جمع ، وكأنَّ واحده حِوَالَة ، وفي هذا نظر . وقال الزجاج عن قوم : هو بمعنى الحِيلَةِ في الشغل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف متكلف .

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً﴾ الآية ، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف تزعم أنك نبيُّ الأُمم كلِّها ومبعوث إليها ، وأنك أُعطيت ما يحتاجه الناسُ من العلم ، وأنت مُقَصِّرٌ قد سُئِلْتَ في الرُّوح ولم تجب فيه ، ونحو هذا من القول ، فنزلت الآية مُعْلِمة باتساع معلومات الله عزَّ وجلَّ ، وأنها غير متناهية ، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكرٍ ، فعبَّر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ . و «ٱلْكَلِمَاتُ» هي المعاني القائمة بالنفس ، وهي المعلومات ، ومعلومات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى ، والبحر متناه ضرورةً.

وقرأ الجمهور : [تَنْفَدَ] بالتاءِ من فوق ، وقرأ عمرو بن عبيد : [يَنْفَدَ] بالياءِ ، وقرأ عبد الله بن مسعود ، وطلحة بن مصرف : «قَبْلَ أن تُقْضَى كلماتُ رَبِّي» .

وقوله : [مِدَاداً] أي : زيادة ، وقرأ الجمهور : [مِدَاداً] ، وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، والأعمش ، ومجاهد ، والأعرج : [مَدَداً] ، فالمعنى : لو كان البحر مِداداً تكتب به معلومات الله عزَّ وجلَّ لنفد قبل أن يستوفِيها ، وكذلك إلى ما شِئت من العدد ؛ لأن مالا يتناهى أكثر منه ، فليس ببِدْعٍ أن أجهل شيئاً من معلوماته تعالى ، وإنَّما أنا بشرٌ مثلكم لمْ أُعْطَ إلَّا ما أُوحي إليَّ وكُشف لي . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَنْفَدَ] بالياء من تحت ، وقرأ الباقون بالتاء من فوق [1] .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الآية . المعنى : إنما أنا بشر ينتهي علمي إلى حيث يُوحَى إليَّ ، وَمُهِمٌّ مَا يوحَى إلي أنَّما إلٰهُكم إلٰهٌ واحد ، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أُوحي إليه ، ثم أخـذ في الموعظة والوصايا البَيِّنَة الرُّشد . و [يَرْجُو] على بابها ، وقالت فرقة : [يَرْجُو] : يخاف ، وقد

(١) قد يسأل سائل : لماذا قال الله تبارك وتعالى في أول الآية : [مِدَاداً] ، وقال في آخرها : [مَدَداً] ، والمعنى واحد ، والاشتقاق غير مختلف ؟ أجاب ابن الأنباري عن ذلك فقال : أواخر الآيات السابقة على فُعُلٍ وفِعَل ، كقوله : [نُزُلاً] ، [هُزُواً] ، [حِوَلاً] ، ولهذا فإن الأشبه بها هو [مَدَداً] لأنه يحقق اتفاق المقاطع ، وتمام السجع مما يجعل الكلام أخف على الألسن ، وأحلى في الأسماع .

تقدم القول في هذا إذ المقصد : ممّنْ كان يؤمن بلقــاءِ ربه ، وكلٌّ مؤمن بلقاءِ ربِّه فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاءٍ ، فلو عبَّر بالخوف كان المعنى تامًّا على جهة التخويف والتحذير ، وإذا عبَّر بالرجاءِ فعلى جهة الإطماع وبَسْط النفوس إلى إحسان الله سبحانه وتعالى . أي : من كان يرجو النعيم المؤبد من ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ، وباقي الآية بيِّن في الشِّرك بالله تبارك وتعالى . وقال سعيد بن جبير في تفسيرها : لا يرائي في عمله ، وقد رُوي حديث أنها نزلت في الرياءِ حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّن يجاهد ويحمده الناس(١) . وقال معاوية ابن أبي سفيان : هذه آخر آية نزلت من القرآن(٢) .

كمل تفسير سورة الكهف ، والحمد لله ربِّ العالمين

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في الإخلاص ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم عن طاوس قال : قال رجل : يا نبي الله ، إني أقف مواقف أبتغي وجه الله وأحبُّ أن يرى موطني ، فلم يردَّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ . قال في (الدر المنثور) : « وأخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقي موصولاً ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ».

(٢) أخرج هذا الخبر ابن جرير ، وابن مردويه ، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : « وهذا أثَرٌ مُشْكل ، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكيَّة . ولعلَّ معاويةُ أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيِّر حكمها ، بل هي مُثْبَتَة مُحْكَمَة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على ما فهمه ، والله أعلم » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على البشير النذير
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَتِسْعُونَ

هذه السُّورة مكِّيَّة بإِجماع ، إِلَّا السجدة منها ، فقالت فرقة : هي مكيَّة ، وقالت فرقة : هي مدنية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

اختلف الناس في الحروف التي في أَوائل السُّور على قولين : فقالت فرقة : هي سرُّ الله تبارك وتعالى في القرآن ، لا ينبغي أَن يُعرض له ،

(١) آية السجدة هي الآية رقم (٥٨)

يُؤمن بظاهره ويُترك باطنه . وقال الجمهور : بل ينبغي أن يُتَكَلَّم فيها وتطلب معانيها ؛ فإن العرب قد تأْتي بالحرف الواحد دالاًّ على كلمة ، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى مالا يُفهم ، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة ، ونذكر الآن ما يختص بهذه السُّورة .

قال ابن عباس ، وابن جبير ، والضحاك : هي حروف دالَّةٌ على أَسماءٍ من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ ، الكافُ من (كبير) ، وقال ابن جبير أَيضاً : هي من (كافٍ) ، وقال أيضاً : هي من (كريم) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فمقتضى أقواله أنها دالة على كل اسم فيه كافٌ من أسماءِ الله تبارك وتعالى . قالوا : والهاءُ من (هادٍ) ، والياءُ من (عليٍّ) ، وقيل : من (حكيم) ، وقال الربيع بن أنس : هي من : « يا من يُجير ولا يُجارُ عليه » . قال ابن عباس رضي الله عنهما : والعين من (عزيز) ، وقيل : من (عليم) ، وقيل : من (عدْل) ، والصاد من (صادق) . وقال قتادة : بل [كٓهيعٓصٓ] بجملتـه اسم السورة ، وقالت فرقة : بل هي اسم من أسماءِ الله تبارك وتعالى ، وروي عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول : « يا كٓهيعٓصٓ اغفر لي » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا يحتمل أن تكون الجملة اسماً من أسماء الله تعالى ، ويحتمل أن يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمَّنها [كٓهيعٓصٓ] ، كأنه أراد أن يقول : يا كريم يا هادي يا عليُّ يا عزيز يا صادق اغفر لي ، فجمع هذا كله باختصار في قوله : «يا كٓهيعٓصٓ» . وقال ابن المستنير وغيره : [كٓهيعٓصٓ] عبارة عن حروف المعجم ، ونسبه الزجاج إلى أكثر هذه اللغات ، أي : هذه الحروف منها ذِكْرُ رحمة ربك عبده زكريَّا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى هذا يتركب قول من يقول : ارتفع [ذِكْرُ] بأنه خبر عن [كٓهيعٓصٓ] ، وهي حروف تهجٍّ يوقف عليها بالسكون .

وقرأ الجميع : (كَافْ) بإثبات الألف والفاء ، وقرأ نافع (الهاءَ والياءَ) بين الكسر والفتح ، ولا تدغم الدال في الذال(١) ، وقرأ ابن كثير ، ونافع أيضاً بفتح الهاءِ والياءِ ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الهاءِ وفتح الياءِ ، وقد رُوي عنه بضم الياءِ ، ورُوي عنه أنه

(١) يريد الدال من (صادْ) والذال من (ذكْر) .

قرأ : [كافُ] بضم الفاء ، قال أبو عمرو الداني : معنى الضم في الهاءِ والياءِ إشباع التفخيم ، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب . وقرأ أبو عمرٍو بكسر الهاءِ وفتح الياءِ ، وقرأ عاصم بكسرهما (١) ، وقرأت فرقة بإظهار النون من [عَيِينْ] ، وهي قراءة حفص عن عاصم ، وهو القياس ؛ إذ هي حروف منفصلة ، وقرأ الجميع : [عَيِين] بإخفاءِ النون ، جعلوها في حكم الاتصال ، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من (صاد) ، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله : [ذِكْرُ] ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخْليصِ بعضها من بعض .

وارتفع قوله : [ذِكْرُ] – فيما قالت فرقة – بقوله : [كٓهيعٓصٓ] ، وقد تقدم وجه ذلك . وقالت فرقة : ارتفع على خبر مبتدإٍ تقديره : هذا ذكر . وقالت فرقة : ارتفع بالابتداءِ والخبر مُقدَّر ، تقديره : «فيما أُوحي إليك ذكْرُ» . وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وابن يَعْمَر : «ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ» ، بفتح الذال والكاف [المشددة] (٢) والراءِ ، على معنى : هذا المَتْلُوُّ ذَكَّرَ رحمةَ ربك عبده ، ومن قال «في الكلام تقديمٌ وتأْخير» فقد تعسَّف . وقرأ الجمهور : [زَكَرِيَّاءَ] بالمدِّ ، وقرأ

(١) قراءة عاصم – في رواية حفص – بفتح الهاء والياء .
(٢) ما بين العلامتين [......] زيادة عن ابن جني في (المحتسب) .

الأَعمش ، ويحي ، وطلحة : [زَكَرِيًّا] بالقصر ، وهما لغتان ، وفيه لغات غيرهما .

وقوله تعالى : [نَادَى] معناه : بالدعاءِ والرغبة . واختلف في معنى إخفائه هذا النداءَ ـ فقال ابن جريج : ذلك لأَن الأَعمال الخفية أَفضل وأَبعد من الرياءِ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (خيرُ الذِّكْر الخفيُّ)(١) ، وقال غيره : يستحب الإِخفاءُ بين العبد ومولاه في الدعاءِ الذي هو في معنى القبول والمغفرة ، لأَنه يدل من الإِنسان على أَنه خير ، فإِخفاؤُه أَبعد من الرياءِ ، وأَما دعاءُ زكريا وطلبه فكان في أَمر دنيا وهو طلب الولد فإِنما أَخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك ، وليكون على أَوَّل أَمره ، إن أُجيب نال بُغيته ، وإن لم يُجَب لم يعرف أَحد بذلك . ويقال : وصف بالخفاءِ لأَنه كان في جوف الليل .

و [وَهنَ] معناه : ضَعُف ، والوَهَنُ في الشخص والأَمر : الضَّعْفُ . وقرأَ الأَعمش : [وَهِنَ] بكسر الهاءِ . [وَٱشْتَعَلَ] مستعارٌ للشيب من اشتعال النار ، على التشبيه به ، و [شَيْباً] نصب على المصدر في قول من رأَى [ٱشْتَعَلَ] في معنى شابَ ، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك ، بل رآه فعلا آخر ، فالأَمر عنده كقولهم : امتلأْتُ غيظاً .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سعد بن أبي وقاص ، ولفظه : (خير الذكْر الخفيُّ ، وخير الرزق ما يكفي) ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في (الجامع الصغير) .

وقوله : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ شُكْرٌ لله تعالى على سالف أَياديه عنده ، معناه : قد أَحسَنْتَ إليَّ فيما سلف ، وسعدتُ بدعائي إيَّاكَ ، فالإنعام يقتضي أَن يشفع آخره أَوله .

قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِـي﴾ . الآية . اختلف الناسُ في المعنى الذي من أَجله خاف الموالي – فقال ابن عامر ، ومجاهد ، وقتادة ، وأَبو صالح : خاف أَن يَرِثُوا ماله وأَن تَرِثَه الكلالة ، فأَشفق من ذلك ، وروى قتادة ، والحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنه قال : (يرحم الله أَخي زكريا ، ما كان عليه مِمَّن يرث ماله) (١) ، وقالت فرقة : إنما كان مواليه مهملين للدِّين ، فخاف بموته أَن يضيع الدِّين فطلب وليًّا يقوم بالدِّين بعده ، حكى هذا القول الزجاج ، وفيه أَنه لا يجوز أَن يسأَل زكريا من يرث مالَه إذ الأَنبياءُ لا تورث .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا يؤيده قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّا معشر الأَنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة) (٢) ، ويوهنه ذكر العاقِر ، والأَكثر

(١) أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ، قال : نُبُوَّته وعِلْمه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أخي زكريا ، ما كان عليه من ورثة ، ويرحم الله لوطاً إن كان لَيَأوي إلى ركن شديد) . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، عن أبي هريرة ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركتُ بعد مُؤنَة عاملي ونفقة نسائي صدقة) . =

من المفسرين على أنه أراد وراثة المال ، ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّا معشر الأَنبياءِ لا نورث) ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم ، فتأمله . والأَظهر الأَليق بزكريًّا عليه السلام أنه يريد وراثة العلم والدين ، فتكون الوراثة مستعارة ، ألا ترى أنه إنما طلب وليًّا ولم يخصص ولداً فبلَّغه اللهُ أمله على أكمل الوجوه ؟ وقال أبو صالح وغيره : قوله : [يَرِثُنِـي] يريد المالَ ، وقوله : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به العلم والنبوة ، وقال السدي : رغب زكريا في الولد .

و [خِفْتُ] من الخوف ، وهي قراءَة الجمهور ، وعليه هو هذا التفسير ، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، وسعيد بن العاص ، وابن يَعْمَر ، وابن جُبيْر ، وعليٌّ ابن الحسين ، وغيرهم : [خَفَّتِ] بفتح الخاءِ وفتح الفاءِ وشدِّها وكسر التاءِ ، وعلى إسناد الفعل إلى [ٱلْمَوَالي] ، والمعنى — على هذا — : انقطع أَوليائي وماتوا ، وعلى هذه القراءَة فإنما طلب وليًّا يقوم بالدِّين . و [ٱلْمَوَالي] : بنو العَمِّ والقرابة الذين يَلُون بالنسب . وقوله : ﴿مِنْ

= ورواه البخاري ومسلم بلفظ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة) ، ورواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وَرَائِــي﴾ أي : من بعْدي في الزمن ، فهم الوراءُ على ما بيَّناه في سورة الكهف (١) ، وقال أبو عبيدة في هذه الآية : أي من بين يديَّ ومِنْ أمامِي ، وهذا قِلَّة تحرير . وقرأ ابن كثير : ﴿مِنْ وَرَائِـيَ﴾ بالمدِّ والهمز وفتح الياءِ ، وقرأ أيضاً ابن كثير : ﴿مِنْ وَرَايَ﴾ بالياءِ المفتوحة مثل (عَصَايَ) ، والباقون همزوا ومدُّوا وسكَّنوا الياءَ .

و «العَاقِرُ» من النساءِ التي لا تلد من غير كِبَر ، وكذلك العاقر من الرجال ، ومنه قول عامر بن الطُّفَيْل :

لَبِئْسَ الْفَتَى إنْ كُنْتُ أَعْوَرَ عَاقِرًا جباناً فَمَا عُذْري لدَى كُلِّ مَحْضَرِ؟(٢)

وزكريَّا عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب وليًّا ، ولم يصرح

---

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٩) : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ .

(٢) البيت في الديوان ، وفي الشعر والشعراء ، وهو من المفضَّليَّة ١٠٦ ، وقد فخر فيها بنفسه ، وكان فارساً مغواراً ، وفي يوم من أيامهم يُسَمَّى (فيف الريح) كان بين بني عامر وبين بني الحارث حدث قتال شديد ، وخرج عامر يتفقد أصحابه في المعركة ، ويقول : من أبْلى شيئاً فليرني سيفه أو رمحه ، فخدعه رجل اسمه مُسْهَرٌ ، وكان من أعدائه واندسَّ في صفوف قومه ، وقال : انظر يا أبا عليٍّ ما فعلت برمحي ، فلما أقبل عامر لينظر إلى الرمح وَجَأه به في وجنته ففلقها وانشقَّت عين عامر ، وكان النصر مع ذلك لبني عامر ، وقال القصيدة ، وقبل هذا البيت يقول مشيراً إلى حادثة مُسْهَرٍ هذا :

لَعَمْرِي وما عَمْـري عَلَيَّ بِهَيِّـنٍ لَقَدْ شَانَ حُرَّ الْوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهَـرِ

والرواية في الديوان والمفضليات : (فبئس الفتى) ، والشاهد أن الرجل الذي لا يولد له يقال له : عاقر ، وفي اللسان : «وَرَجُلٌ عَاقِرٌ وَعَقِيرٌ : لا يولد له» .

[بالولد](١) لِبُعْدِ ذلك بسبب المرأة ، ثم وصف الوليَّ بالصفة التي هي قصده ، وهي أن يكون وارثاً ، وقالت فرقة : بل طلب الولد ، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه ، تحفُّظاً من أن تقع الإجابة في الولد ثم يُخْتَرم(٢) فلا يتحصل منه الغرض المقصود .

وقرأ الجمهور : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفع الفعلين على معنى الصفة لِلْوَلِيِّ ، وقرأ أبو عمرو ، والكسائي : ﴿يَرِثْنِي وَيَرِثْ﴾ بجزم الفعلين ، وهذا على مذهب سيبويه ليس هو جواب [هَبْ] ، إنما تقديره : إنْ تَهَبْهُ يَرِثْنِي ، والأول أصوب في المعنى ؛ لأنه طلب وارثاً موصوفاً ، ويضعف الجزم أنه ليس كلُّ موهوب يرث . وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما ، وغيرهما : «يَرِثُنِي وارثٌ من آل يعقوب» ، قال أبو الفتح : وهذا معناه التجريد ، والتقدير : يَرِثُنِي منه أَوْ بِهِ وارثٌ(٣) ، وقرأ مجاهد : «يَرِثُنِي أُوَيْرِثٌ» على التصغير ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد : يرث منهم الحكمة والعلم والنبوة ، والميراث في هذا كله استعارة . و «رَضِيٌّ» معناه : مَرْضِيٌّ ، فهو فعيل بمعنى مفعول .

---

(١) زيادة من كتب التفسير لتوضيح المراد .

(٢) اخْتَرمته المَنِيَّةُ : أخذته . وَخَرَم الوباءُ القوم واخترمهم : استأصلهم وأفناهم .

(٣) قال أبو الفتح : «وهو الوارثُ نفسه ، فكأنه جرَّد منه وارثاً ، ومثله قوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ ، فهي نفسها دار الخُلْد ، فكأنه جرَّد من الدَّار داراً» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

المعنى : قيل له بـأثر دعائه : إنَّا نبشِّرك بغلام يولد لك اسمه يحيي ، وقرأ الجمهور : [نُبَشِّرُكَ] بفتح الباء وكسر الشِّين مشددة ، وقرأ أصحاب ابن مسعود : [نَبْشُرُكَ] بسكون الباء وضم الشين .

قال قتادة : سُمِّي يحيي لأَن الله تعالى أَحياه بالنبوة والإِيمان ، وقال بعضهم : سُمِّي لأَن الله أَحيا به الناس بالتدين ، وقوله : [سَمِيًّا] معناه في اللغة : لم نجعل له مشاركاً في هذا الاسم ، أَيْ : لم يُسَمَّ قبل بيحيي ، وهذا قول قتادة ، وابن عباس ، وابن أَسلم ، والسدي ، وقال مجاهد وغيره : [سَمِيًّا] معناه : مثْلًا ونظيراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا كأَنه من المساماة والسمُوِّ ، وفي هذا بُعْدٌ ؛ لأَنه لا يفضل على إبراهيم وموسى عليهما السلام إِلَّا أن يفضل في السؤدد والحصر ،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : لم تلد العواقر مثله .

وقول زكريا : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ اختلف النـاسُ فيه فقالت فرقة : إنما طلب الوليَّ دون تخصيص وَلَد ، فلما بُشِّر بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه ، وقالت فرقة : إنما كان طلب الولد وهو بحال يوجد الولد فيها بزواج غير العاقر ، أَوْ بُشِّرَ ولم تقع إجابته إلَّا بعد مُدَّة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له ، فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكِبَر والعُتُوِّ فيه ، وقالت فرقة : بل طلب الولد فلما بُشِّر به لحين الدعوة استفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك . كيف طريق الوصول إلى هذا ؟ وكيف نفذ القدر به ؟ لَا أنه بَعُد عنده هذا في قدرة الله .

والعِتِـيُّ والعِسِـيُّ : المبالغة في الكِبَر ويبْسُ العود أو شيب الرأْس ونحو هذا ، وقرأ حمزة ، والكسائي(١) : [عِتِيًّا] بكسر العين ، والباقون بضمها ، وقرأ ابن مسعود : [عَتِيًّا] بفتح العين ، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ : «عُسِيًّا» بضم العين وبالسين ، وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا أدري ، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ في الظهر والعصر ، ولا أدري أكان يقرأُ : [عِتِيًّا] أو [عِسِيًّا] بالسين ، وحكى الطبري عن السدي أنه قال : نادى جبريل زكريًا «إِنَّ ٱللَّهَ

(١) وكذلك قرأ عاصم كما هو ثابت في المصحف ، وابن وثاب كما قال القرطبي .

يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى» ، فلقيه الشيطان فقال له : إن ذلك الصوت لم يكن لِمَلَك وإنما كان لشيطان ، فحينئذ قال زكريا : ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ؟ ليَتَثَبَّت أن ذلك من عند الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وزكريًا هو من ذرية هارون عليه السلام ، وقال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة ، وقيل : ابن سبعين ، وقال الزجاج : ابن خمس وستين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فقد كان غلب على ظنه أَلَّا يولد له .

وقوله : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ ، قيل : إن المعنى : قال له المَلَك : كذلك فليكن الوجود ، كما قيل لك : قال رَبُّك : خَلْقُ الغُلَام عليَّ هَيِّنٌ ، أيْ : غَيْرُ بِدْعٍ ، وكما خلقتك قَبْلُ وأخرجتك من عدم إلى وجودٍ كذلك أفعل الآن . وقال الطبري : معنى قوله : [كَذَٰلِكَ] أي : الأَمران اللذان ذكرتَ من المرأة العاقر والكِبَر هو كذلك ولكن قال ربُّك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى عندي : قال الملك كذلك ، أي : على هذه الحال قال ربك هو عليَّ هَيِّنٌ .

وقرأ الجمهور : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ ، أي : موجوداً . قال زكريَّا : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ، أي : علامةً أعرف بها صِحَّة هذا وكونه من عندك ، وروي أن زكريَّا عليه السلام لما عَرَفَ ثمَّ طَلَبَ الآية بعد ذلك عاقبه الله بأن أصابه بذلك السكوت عن كلام الناس ، وذلك وإنْ لم يكن عن مرض - خرسٍ أو نحوه - ففيه على كل حال عقابٌ مَّا ، ورُوي عن ابن زَيْدٍ أن زكريا عليه السلام لما حملت زوجُه منه بيحيي أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ، ويذكر الله ، فإذا أراد مناداة أحد لم يُطقه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل مع هذا أن يكون قوله : ﴿ٱجْعَلْ لِي آيَةً﴾ معناه : علامةً أعرف بها أن الحمل قد وقع ، وبذلك فسَّر الزجاج .

ومعنى قوله : [سَوِيًّا] فيما قال الجمهور : صحيحاً من غير علَّة ولا خَرَسٍ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - أيضاً : ذلك عائد على الليالي ، أراد : كاملاتٍ مستوياتٍ .

وقوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ، المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكريًّا من محرابه وهو موضع الصلاة ، و «المحْرابُ»

أرفع المواضع والمباني ؛ إذ هي تحارب من ناوأها ، ثم خصَّ بهذا الاسم مبنى الصلاة ، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض ، واختلف الناس في اشتقاقه – فقالت فرقة : هو مأْخوذ من الْحَرْب ، كأَن مُلازِمه يحارب الشيطان والشهوات ، وقالت فرقة : هو مأْخوذ من الْحَرَب – بفتح الراءِ – ، كأَن مُلازِمه يلقَى فيه حرباً وتعباً ونصباً ، وفي اللفظ بعد هذا نظر .

وقوله : [فَأَوْحَى] ، قال قتادة ، وابن منبه : كان ذلك بإشارة ، وقال مجاهد : بل بأَن كتبه في التراب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكلا القولين وحْيٌ . وقوله : ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ ، [أَنْ] مُفَسِّرة ، بمعنى أَيْ [1] ، و [سَبِّحُوا] قال قتادة : معناه : صلُّوا ، والسبحة : الصلاة ، وقالت فرقة : بل أَمرهم بذكْر الله وقَوْل : سبحان الله . وقرأ طلحة : ﴿أَنْ سَبِّحُوهُ﴾ بضمير ، وباقي الآية بيِّن .

---

(١) وهذا أيضاً رأي الزمخشري ، وقال أبو البقاء : يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون بمعنى (أي) ، وقال الحوفي : ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ ، [أَنْ] نصب بـ [أَوْحَى] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

المعنى : «فَوُلِدَ لَهُ ، وقال الله للمولود : يا يَحْيَى» . وهذا اختصار ما يدلُّ الكلامُ عليه . و «ٱلْكِتَاب» : التوراة بلا خلاف ؛ لأنه وُلد قبل عيسى عليه السلام ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس ، وقوله : [بِقُوَّةٍ] ، أي : العلم به ، والحفظ له ، والعملُ به ، والالتزام للوازمه .

ثم أخبر الله تعالى فقال : ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ، واختلف في «الحكم» - فقالت فرقة : الأَحكام والمعرفة بها ، و [صَبِيًّا] يريد : شابًّا لم يبلغ حدَّ الكهولة ، وقال الحسن رحمه الله : الحُكْمُ : النُّبوة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي لفظة (صَبِـيٍّ) - على هذا - تجوُّز واستصحابُ حال . وقالت فرقة : الحُكْمُ : الحِكْمَة ، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دَعَوْهُ وهو طفل إلى اللعب فقال لهم : إني لم أُخلق للَّعب ، فتلك

الحِكْمَة التي آتاه الله عزّ وجلّ وهو صبي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أُوتي الحُكْمَ صبيًّا .

وقوله تعالى : ﴿وَحنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ عطف على قوله : [ٱلْحُكْمَ] ، و [زَكَاةً] عطف عليه ، أُعمل في جميع ذلك [آتَيْنَا] ، ويجوز أن يكون [وَحَنَاناً] عطف على [صَبِيًّا] ، أَي : وبحال حنانٍ مّا وتزكية له . و «الحَنَانُ» : الرحمة والشفقة والمحبة ، قاله جمهور المفسرين ، وهو تفسير اللغة ، وهو فعل من أفعال النفس ، ويقال : حنانك وجنانك ، قيل : هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل : حنانيك تثنية الحنان ، وقال عطاءُ بن أبي رباح : ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ : تعظيماً من لدنا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأُمور في ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح رضي الله عنه : «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتّخذنّ فيه حناناً» ، وقد روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «والله ما أَدري ما الحنان» . و «الزّكاةُ» التّطهير والتنمية في وجوه الخير والبر ، و «التَّقِـي» فعيل من تقوى الله عزّ وجلّ ، وروي في تفسير هذه الآية من طريق

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (كلُّ ابن آدم يأْتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ ؛ إلَّا ما كان من يحيي بن زكريَّا صلوات الله عليه) (١) ، وقال قتادة رحمه الله : «إن يحيي بن زكريَّا عليه السلام لم يعص الله قطُّ بكبيرة ولا صغيرة ولا همَّ بامرأَة» ، قال قتادة : وكان طعامه صلوات الله عليه العُشب ، وكان للدمع في خدِّه مجارٍ ثابتة . ومن الشواهد في الحنان قول امرئ القيس :

وَيمْنحها بَنو شَمَجَى بنِ جَـرْمٍ مَعيزَهُمُ ، حَنَانَكَ ذَا الْحَنَـانِ (٢)

---

(١) أخرجه ابن إسحق ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، عن عمرو بن العاص . وأخرج نحوه أحمد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . وأخرج نحوه عبد الرزاق ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، وبنفس السند عن قتادة رفع الخبر الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك عن قتادة ، عن الحسن إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) البيت في الديوان ، وفي اللسان والتاج (حنن) ، ومختار الشعر الجاهلي ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط . وهو واحد من ثلاثة أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الزمان وتقلبه ، وفي الشكوى من بني شَمَجَى بن جرم ، وكان في غاية الألم منهم والزِّراية عليهم ، وقبله يقول :

مُجَاوَرَةَ بَني شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ هَوَاناً ما أُتيحَ مِنَ الْهَـوَانِ

وقوله : (وَيَمْنَحُهَا) هي رواية الأصمعي ، أما رواية ابن الأعرابي فهي (وَيَمْنَعُهَا) ، والمعنى على رواية الأصمعي : يعطيها ، وفسر قوله : (حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ) فقال : رَحْمَتَكَ يا رَحمن ، أي : أَنزلْ عليهم رحمتكَ ورِزْقَك ، أما رواية ابن الأعرابي وهي =

وقول النابغة :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(١)

وقول الآخر :

فقالت: حنانٌ ما أَتَى بِكَ هَا هُنَا؟ أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بالْحَيِّ عَارِفُ؟(٢)

= التي في الديوان وفي اللسان والتاج فقد فسرها بقوله: (حَنَانَكَ ذا الحنَانِ) معناه : رحْمَتَكَ يا رَحمن ، فأَغْنِنِي عنهم ، قال صاحبُ اللسان : « فرواية ابن الأعرابي تسخُّطٌ وذَمٌّ ، وكذلك تفسيره ، ورواية الأصمعي تَشَكُّرٌ وحَمْدٌ ودعاءٌ لهم ، وكذلك تفسيره » . ونقطع بأن رواية ابن الأعرابي هي الأصح لأنها تتفق في المعنى مع الأبيات السابقة التي جعلت جيرة بني شَمَجَى بن جرم لامرئ القيس وقومه هواناً ما أُتيح من قبل .

(١) البيت لطرفة بن العبد لا للنابغة ، ولعل الخطأ من النساخ ، وهو في الديوان واحد من ثمانية أبيات نسبت إلى طرفة ، وقيل إنه أنشدها وهو في السجن يخاطب عمرو بن هند ، والبيت أيضاً في (مجاز القرآن) ، و (الكتاب) ، و (الكامل) ، و (الطبري) ، و (الجمهرة) ، و (القرطبي) ، و (الشنتمري) ، و (البحر المحيط) ، وفي اللسان ، والتاج (حَنَنَ) ، وفي (الهَمْع) و (ابن يعيش) ، ويستشهد به النحويون على أن (حَنَانَيْكَ) نصبت على المصدر النائب عن الفعل ، وقد ثني (حنانيك) لإرادة التكثير ؛ لأن التثنية أول مراتب التكثير ، وأبو مُنْذر هو عمرو بن هند ، وقد اشتهرت قصة طرفة مع هذا الملك ، والنصف الثاني من البيت مثل يضرب عند ظهور شَرَّيْن أحدهما أقْسَى من الثاني .

(٢) البيت للمنذر بن درهم الكلبي ، قال ذلك في خزانة الأدب وفي معجم البلدان ، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب على أن (حنانٌ) رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : أَمْرُنَا حنان ، قال : « لم تُرِدْ : تَحَنَّنْ ، ولكنها قالت : أَمْرُنَا حنانٌ ، أو ما يُصيبنا حنانٌ » ، والحنان : الرحمة والتَّحَنُّن بالعطف والمودة والرقَّة . والبيت في اللسان ، والتاج (حَنَنَ) ، وفي (الكامل) ، و (ابن يعيش) ، وهي تسأله عن سبب مجيئه ، هلْ جاء لأن له قرابة أم لأنه يعرف الحيَّ وأهله ؟ وقد قالت ذلك حين فاجأها فأنكرته أو تظاهرت بأنها لا تعرفه .

قوله تعالى : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ ، البَرُّ : الكثير البِرِّ ، و الجبَّار : المتكبِّر ، كأَنه يجبر الناس على أخلاقه ، والجَبَّارَةُ : النخلة العالية العظيمة ، والعَصِيُّ أَصْلُه عَصُويٌ ، فعولٌ بمعنى فاعل ، وروي أن يحي عليه السلام لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة .

قوله تعالى : ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ ، قال الطبري وغيره : معناه : أَمانٌ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَظهر عندي أَنها التحية المتعارفة ، فهي أَشرف وأَشبه من الأَمان ؛ لأَن الأَمان متحصل له فيبقى العصيان عنه ، وهي أَقلُّ درجاته ، وإنما الشرف في أَن سلَّم الله عليه وحيَّاهُ في المَواطن التي الإِنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله وعظيم الهول . وذكر الطبري عن الحسن رحمه الله أَن عيسى بن مريم ويحي بن زكريَّا صلوات الله عليهما التقيا ، وهما أَبناءُ الخالة ، فقال يحي لعيسى : ادْعُ لي فأَنت خير منِّي ، فقال له عيسى : بل أَنت ادْعُ لي فأَنت خير منِّي ، سلَّمَ الله عليك وأَنا سلَّمت على نفسي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال لي أَبي رحمه الله : انتزع بعضُ العلماءِ من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأَن قال : إِدْلالُه في التسليم على نفسه ومكانته من الله

تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يُسَلَّم عليه . ولكُلٍّ وَجْهٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا ابتداءُ قصة ليست من الأُولى ، والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . و «ٱلْكِتَاب» : القرآن ، و «مريم» ابنة عمران أُمُّ عيسى أُخْتُ أُمِّ يحيى . واختلف الناس ، لم انْتَبَذَت ، والانتباذ : التَّنَحِّي — فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض ، وقال غيره : لتعبد الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أحسن ؛ وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت عن الناس لذلك ، وقوله : ﴿مَكَاناً شَرْقيًّا﴾

يريد جهةَ الشرق من مساكن أهلها ، وسبب كونه في الشرق أَنهم كانوا يُعَظِّمُون جهة الشرق من حيث تطلع الأَنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شيءٍ أفضل من سواها ، حكاه الطبري رحمه الله .
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إني لأَعْلَم الناس لِمَ اتَّخذ النصارى المشرق قبلة ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا﴾ ، فاتخذوا ميلاد عيسى قِبلة . وقال بعض الناس : الحجابُ هي اتَّخذته لِتَسْتَتِر به عن الناس لعبادتها ، وقال السدي : كان من جُدْران ، وقيل : من ثياب ، وقال بعض المفسرين : اتخذت المكان بشرقي المحراب .

و «الرُّوحُ» : جبريل عليه السلام ، وقيل : عيسى ، حَكَى الزجاج القولين ، فمن قال إنه جبريل قدَّر الكلام : فتمثل هو لها ، ومن قال إنه عيسى قدَّر الكلام : فتمثَّل لها المَلَك . قال النقاش : ومن قرأ : «روحَنَّا» بتشديد النون جعله اسمَ مَلَك من الملائكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولم أَر هذه القراءة لغيره .

واختلف الناس في نُبُوَّة مريم – فقيل : كانت نَبِيَّةً بهذا الإرسال وبالمحاورة مع الملك ، وقيل : لم تكن نبيَّةً ، وإنما كلَّمها مِثالُ بَشَرٍ ،

ورُؤْيتها للمَلَك كما رُئي جبريل في صفة دحية ، وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام ، والأَول أَظهر .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ، المعنى : قالت مريم للملك الذي تمثَّل لها بشراً لمَّا رأَتهُ قد خرق الحجاب الذي اتخذته فأَساءَتْ به الظن ، قالت : إنِّي أَعوذ بالرحمن منك إن كُنْتَ ذا تُقَى ، قال أَبو وائل : علمت أَن التَّقِيَّ ذو نُهْية ، وقال وهب بن منبه رضي الله عنه : تعني اسم رجل فاجر كان في ذلك الزمان في قومها ، فلما رأَته مُتَسَوِّراً عليها ظنته إياه فاستعاذت بالرحمن منه ، حَكَى هذا مكيٌّ رحمه الله وغيره . وهو ضعيف ذاهب مع التَّخرص . قال لها جبريل عليه السلام : ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ ، جعل الْهِبَةَ من قِبَله لمَّا كان الإعلام بها من قبله .

وقرأَ الجمهور : ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كما تقدم ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو : ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾ بالياءِ ، أَي : لِيَهَبَ لَكِ الله ، واختلف عن نافع رحمه الله ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «لِيَهَبَ ٱللهُ لَكِ» .

فلما سمعت مريم بذلك واستشعرت ما طرأَ عليها ، استفهمت عن طريقه ، وهي لم يمسسها بشَر بنكاح ولم تك زانية . و «الْبَغِـيُّ» :

المجاهرة المشتهرة في الزِّنى ، فهي طالبة له ، أَصله بَغُوي على وزن فعُول كَبتُول ، ولو كانت فعيلاً لقويَ أن تلحقها هاءُ التأْنيث فيقال : بَغِيَّة (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

قال لها المَلَك : كذلك هو كما وصَفْتِ ، ولكن قال ربُّك ، ويحتمل أن يريد : على هذه الحال قال ربُّك ، والمعنى متقارب ، و «الآيَةُ» : العِبْرة المعرضة للنظر ، والضمير في قوله : [وَلِنَجْعَلَهُ] للغلام ، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ، أَي : طريق هُدًى لعالم كثير ، فينالون

(١) الذي قال بأن الأصل في بَغِيٌّ : (بَغُوي) هو المبرد ، قال : اجتمعت الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ ، وكسر ما قبلها لأجل الياءِ كما كسرت في عِصِي . وقال ابن جني : هي فعيلٌ ، ولو كانت فعولا لقيل : بَغُوٌّ ، كما قيل : فلانٌ نَهُوٌّ عن المنكر ، وقيل : لمَّا كان هذا اللفظ خاصّاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة تأنيث ، فصار مثل حائض وطالق ، والرَّجل يقال له : باغٍ ، وقيل : (بَغِيٌّ) فعيل بمعنى : مفعول ، كما قيل : عينٌ كَحِيلٌ بمعنى : مكحولٌ .

الرحمة بذلك . ثم أَعلمها بأَن الأَمر قد قُضي وانتجز ، و « الأَمر » هنا واحدُ الأُمور ، وليس بمصدر : أَمَرَ يَأْمُرُ ، وروي أَن جبريل عليه السلام ـ حين قال لها هذه المقالة ـ نفخ في جيب دِرْعها ، فَسَرَت النفخة بإذن الله تعالى حتَّى حملتْ منها ، قاله وهب بن منبه وغيره . وقال ابن جُرَيْج : نفخ في جيب دِرْعها وكفِّها ، وقال أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه : دخل الرُّوحُ المنفوخ من فمها ، فذلك قوله : [فَحَمَلَتْهُ] ، أي : **فحملت الغلام** .

ويُذكر أَنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة ، فلمَّا أَحسَّت بذلك وخافت تعنيف الناس وأَن يَظُنَّ بهــا البشر انتبذت به ، أَي : تَنَحَّت مكاناً بعيداً حياءً وفِرَاراً على وجهها ، وروي في هذا أَنها فرَّت إلى بلاد مصر ونحوها ، قاله وهب بن منبه ، ويُروى أَيضاً أَنها خرجت إلى موضع يعرف ببيت لَحْم ، بينه وبين إيلياءَ أَربعة أَميالٍ .

و [أَجَاءَهَا] معناه : اضطرها ، و (أَجَاءَ) هو تعدية (جاءَ) بالهمزة ، وقرأَ شُبيْلُ بنُ عَزْرَةَ (١) ـ ورويت عن عاصم ـ : [فَاجَأَهَا] ، من المفاجأة ،

(١) في الأصل : شِبْلُ بن عَزْرة ، والتصويب عن كتب القراءات ، قال في تقريب التهذيب : « شُبَيْل ـ بالتصغير ـ ابن عَزْرَةَ ـ بفتح المهملة بعدها زايٌ ساكنة ثم راءٌ ـ الضُّبَعِيُّ ، أبو عمرو البصري النحوي ، صدوق ، من الخامسة » ، وفي الأصول أن القراءة [فَاجأهَا] بفاءٍ فألف ممدودة بدون همز ، ولكن قال أبو الفتح ابن جنِّي في المحتَسَب : « [فَأَجأَهَا] مثل فَأَلْجَأَهَا ، ورواها ابن مجاهد أيضاً أنها من المفاجأة ، إلا أن ترك همزها =

وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ» ، وقال زهير :

وجارٍ سَارَ مُعْتَمِـــداً إِلَيْكُمْ   أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ والرَّجَــاءُ (١)

وقرأ الجمهور : [ٱلْمَخَاضُ] بفتح الميم ، وقرأ ابن كثير – فيما رُوي عنه – بكسرها ، وهو الطَّلْقُ وشدَّةُ الولادة وأوجاعها ، وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جزع نخلة بالٍ يابسٌ في أصله مدود بقرة على جرية ماءٍ ، فاشتد بها الأمر هنالك ، واحتضنت الجذع لشدة الوجع ، فولدت عيسى عليه السلام ، وقالت عند ولادته – لما رأته من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وَجْه – : يا ليتني متُّ ولم يجْر عليَّ هذا القَدَر .

= إنما هو بدلٌ لا تخفيف قياسي ، وقد يجوز أن تكون القراءة على التخفيف القياسي ، إلاّ أنه لطفت لضعف الهمزة بعد الألف ، فظنها القراءُ ألفاً ساكنةً مَدّةً ، إلاّ أن قوله : مثل (ألجأها) يشهد لقراءة الجماعة (فَأَجاءَهَا) وقد يمكن أن يكون المراد : مثل أجاءَها إذا أبدلت همزته ألفاً ، فيكون التشبيه لفظيًّا لا معنويا » .

(١) البيت من قصيدة له معروفة ، قالها في هجاء (آل حِصْن) ، ومنها بيته المشهور :

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَــاءُ ؟

وسببها أنهم أجاروا رجلا يحب القمار ، فنهوه عنه ولكنه خالفهم ثلاث مرات ، فتركوه لشأنه دون جوار بعد أن خسر زوجته وابنه في الرهان ، فخرج عنهم وشكاهم إلى زهير ، فقال هذه القصيدة ، ثم لما علم الحقيقة ندم على هجائه ، وقال : ما خرجتُ في ليلة ظلماء إلاّ خفتُ أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتهم ، وفي هذا البيت يتحدث عن هذا الجار الذي سارَ إليهم معتمداً عليهم بعد أن ألجأته إليهم المخافة والرجاءُ . والشاهد هنا أن (أجاءَتْهُ) بمعنى : ألجأته واضطرته .

وقرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعاصم (١) ، وأبو عمرو ، وجماعة : [مُتُّ] بضم الميم ، وقرأ الأعرج ، وطلحة ، ويحيى ، والأعمش بكسرها ، واختلف عن نافع . وتمنت مريم الموت من جهة الدِّين ؛ إذ خافت أن يُظن بها الشَّرُّ في دينها ، وتُعَيَّر فيفتنها ذلك ، وعلى هذا الحدِّ تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين ، ونَهْيُ النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموْتِ إنما هو لِضُرٍّ نزل بالبدن (٢) ، وقد أباحه صلى الله عليه وسلم في قوله : (يأتي على الناس زمان يمُرُّ الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه) (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأنه زمن فِتَن تتصل بالدِّين .

---

(١) في رواية أبي بكر ، أمّا قراءة عاصم – في رواية حفص – فهي [مِتُّ] بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف .

(٢) نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت في حديث أخرجه البخاري في المرضى ، والدعوات ، والتمني ، ومسلم في الذكر ، وأبو داود والنسائي في الجنائز ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه في البخاري كما جاء في كتاب التمني ، باب ما يُكْرَهُ من التمني ، قال أنس رضي الله عنه : لولا أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا تَتَمَنَّوُا المَوْتَ) لتَمَنَّيْتُ ، وفي رواية عن سعد بن عبيد مولى عبد الرحمن بن أزهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يَتَمَنَّى أحدكم الموتَ ، إمّا محسناً فلعله أن يزداد ، وإمّا مُسيئاً فلعلَّه يستعتب) ، وعن خالد بن قيس قال : أتينا خبّاب ابن الأرَتِّ نعوده وقد اكتوى سبعاً فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن .

وقالت : ﴿ وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾ ، أي : شيئاً متروكاً محتقراً ، والنِّسْيُ في كلام العرب : الشيءُ الحقير الذي من شأْنه أَن يُنْسى فلا يُتَأَلَّم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه ، يقال : نَسْيٌ ونِسْيٌ بفتح النون وكسرها ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرأ حمزة وحده بالفتح ، واختلف عن عاصم ، وكقراءة حمزة قرأ طلحة ، والأَعمش ، ويحيى ، وقرأ محمد بن كعب القُرظي : [نِسْئاً] بالهمز وكسر النون ، وقرأ نوف البكالي : [نَسْئاً] بفتح النون ، وحكاه أبو الفتح ، وأبو عمرو الداني عن محمد بن كعب القُرظي ، وقرأ بكر بن حبيب : [نَسًّا] بشد السِّين وفتح النون دون همز ، وقال الشَّنْفَرَى :

كأَنَّ لها في الأَرض نِسْياً تَقُصُّـهُ ... إذا ما غَدَتْ وإنْ تُحَدِّثْكَ تَبْلَتِ (١)

وحكى الطبري رحمه الله في قصصها أنها لمَّا حملت بعيسى حملتْ أَيضاً أُختها بيحيى ، فجاءَتها أُختها زائرة فقالت : يا مريم ، أَشعرت

(١) البيت للشَّنْفَرَى الأزدي ، ومعنى الشَّنْفَرَى : عظيم الشَّفه ، وهو ابن أُخت تابَّط شرّاً ، والبيت من المفضلية العشرين ، قالها حين علم أن القوم الذين تربَّى فيهم وهم بنو سلامان ابن مفرج قد قتلوا أباه وأخذوه أسيراً ، فتوعدهم بقتل مائة منهم ، وفي القصيدة تحدث عن شدة بأسه وقوته ، وفخر باستهانته بالحياة ومجازاته الخير والشرَّ بمثلهما . والبيت أيضاً في اللسان (نسي) ، والنَّسْيُ : الشيءُ المنسيُّ الذي لا يُذكر ، وقال الأخفش : النسْي : ما أُغفل من شيءٍ حقير ونُسي ، وقال الزجاج : النِّسْي : الشيء المطروح الذي لا يُؤْبَه له ، تقصُّه : تَتَبَّعه ، من القَصِّ وهو اتباع الأثر ، والرواية في المفضليات : (عَلَى أَمِّهَا ،وإنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلَت) والأَمُّ بفتح الهمزة : الشيءُ المقصود الذي تريده . وتَبْلت : تنقطع في كلامها فلا تطيل الحديث ، يقول : كأنها من شدة حيائها إذا مَشَتْ تطلب شيئاً ضاع منها خفضت رأسها فلا ترفعها ولا تلتفت ، وإن حدثتها فإنها لا تستطيع أن تجاريك أو تجاوبك من شدة الخجل .

أني حملتُ ؟ فقالت لها مريم : أَشعرتِ أَنتِ أَني حملتُ ؟ قالت لها : وأَنِّي أَجد ما في بطني يسجد لما في بطنك ، وذلك أَنه رُوي أَنها أَحسَّت جنينها يخرُّ برأْسه إلى ناحية بطن مريم ، قال السُّدِّي : فذلك قوله تعالى : ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللهِ﴾(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا كلِّه ضعف ، فتأَمله . وكذلك ذكر الطبري في قصصها أَنها خرجت فارَّة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد ، وطوَّل الطبري في ذلك فاختصرته لضعفه ، وهذه القصة تقتضي أَنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر ، واستحيت من ذلك وفرَّت بسببه وهي حامل ، وهو قول جمهور المتأَولين ، وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أَنه قال : ليس إلَّا أَن حملت فوضعت في ساعة واحدة ، والله أَعلم . وظاهر قوله تعالى : ﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ يقتضي أَنها كانت على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات أَنها ولدته لثمانية أَشهر ؛ ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أَشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام ، وقيل : ولدته لسبعة أَشهر ، وقيل : لِسِتَّة أَشهر .

(١) من الآية (٣٩) من سورة (آل عمران) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم (١) ، وابن عامر ، وابن عباسٍ ، والحسن ، وزِرّ بن حبيش ، ومجاهد ، والجحدري ، وجماعة : ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾ على أن [مَنْ] فاعلٌ بِـ [نَادَى] ، والمراد بـ [مَنْ] عيسى ، أي : ناداها المولود ، قاله مجاهد ، والحسن ، وابن جُبَيْر ، وأُبَيُّ بن كعب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد جبريل عليه السلام ، ولم يتكلم عيسى حتّى أتت به قومها ، وقال علقمة ، والضحاك ، وقتادة : ففي هذا آية لها وأمارة أن هذا من الأُمور الخارقة للعادة التي لله فيها مرادٌ عظيم ، لا سيَّما والمنادي عيسى ، فإنه يتبين به عذر مريم ، ولا تبقى به استرابة ، فلذلك كان النداءُ ألّا يقع حُزْن .

(١) أي في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص فبكسر الميم من [مِنْ] .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، والبراءُ ابن عازب ، والضحاك ، وعمرو بن ميمون ، وأهل المدينة ، وأهل الكوفة ، وعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً ، والحسن : ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم على أنها لابتداءِ الغاية ، واختلفوا – فقال بعضهم : هو عيسى عليه السلام ، وقالت فرقة : المراد جبريل المجاور لها قَبْلُ ، قالوا : وكان في بقعة من الأَرض أَخفض من البقعة التي كانت هي عليها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأَول أَظهر ، وعليه كان الحسن بن أَبي الحسن يقسم .

وقرأ علقمة ، وزِرٌّ بن حبيش : «فَخَاطَبَهَا من تحتها» (١) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «فَنَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا» .

وقوله : ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير للنداءِ ، فـ [أَنْ] مفسِّرة بمعنى : أَيْ ، و «السَّرِيُّ» من الرجال : العظيمُ الخصال السَّيِّدُ ، و «السَّرِيُّ» أَيضاً : الجدولُ من الماءِ ، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية – فقال قتادة ، وابن زيد : أَراد : جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأْن ،

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : «وينبغي أن يكون ذلك تفسيراً لا قراءة ؛ لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه» .

وقال الجمهور : أَشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع النخلة ، ورُوي أن الحسن فسَّر الآية فقال : أَجل ، لقد جعله الله سريًّا كريماً ، فقال حميد بن عبد الرحمن الحميري : يا أَبا سعيد ، إنما نعني بالسَّري الجدولَ ، فقال : لهذه وأَشباهِها أُحبُّ قربك ، ولكن غلبتنا عليك الأُمراءُ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومن الشاهد في السَّرِيِّ قول لبيد :

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاَّمُهَا (١)

ثم أَمرها بهزِّ الجذع اليابس لترى آية أُخرى في إحياءِ موات الجذع ، فقالت فرقة : كانت النخلة مطعمة رطباً ، وقال السدي : كان الجذع مقطوعاً ، وأُجري تحتها النهر لحينه .

---

(١) البيت من معلقة لبيد ، والضمير في (فتوسَّطَا) يعود على العَيْر والأتان اللتين سبق الحديث عنهما ، ويُرْوى : (فرمى بها عُرض السَّرِيِّ) وعليه فالضمير يعود على ناقته ، والعُرْضُ : النَّاحية ، ورُوي (عَرْضَ) بفتح العين ، والسَّرِيُّ : جدول الماءِ ، وصدَّعَا : شَقَّقَا وحطَّمَا النبت الذي على الماء ، والمسجورة : المملوءة ، والقُلاَّمُ : نَبْتٌ يَنْبُتُ على الأنهار وجداول الماء ، وقيل : هو نوع من الحمض ، وقُلاَّمُها فاعل مُتَجاوِراً ، ومُتَجاوِراً نعتٌ لمسجورةٍ لأنه يراد بها العين المملوءة . والشاهد في قوله : (السَّرِيّ) ، إذْ أنه النهر الصغير ، أو جدول الماء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلِّمُ لها ، وأن الجذع كان يابساً ، وعلى هذا تكون آية تُسَلِّيها وتسْكُن إليها ، والباءُ في قوله : [بِجِذْعِ] زائدة مؤكدة ، قال أبو علي : كما يقال : أَلْقى بيده ، أي : أَلْقى يَدَه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا المثال نظر ، وأنشد الطبري رحمه الله :

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بالْمَرْخِ والشَّبَهَانِ (١)

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، والجمهور من الناس : [تَسَّاقطْ] بفتح التاءِ وشدِّ السين ،

---

(١) البيت في التاج واللسان (شبه) ، وقد نقلا عن ابن دريد أنه لرجل من عبد القيس، ونقلا عن ابن بري أن أبا عبيدة قال : « البيت للأحْول اليشكري، واسمه يَعْلَى » . أما السِّدْر فهو شجر النَّبْق ، والمفرد : سِدْرة، والمَرْخ : شجر سريعُ الوَرْي كثيرُه ، والشَّبَهان — ويقال أيضاً الشُّبُهان بضم الشين والباء — : نَبْت يشبه الثُّمَام ، أوهو الثُّمام — والثُّمَام : عُشْب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً ، فروعه مزدحمة متجمعة ، والنَّوْرة سُنْبلةٌ مُدَلاَّة ، ومنه الثُّمام السنبلي وهو الدُّخن كما يسمَّى في السودان — يقول الشاعر : إن هذا الوادي ينبت الأصناف الثلاثة : السِّدْرَ ، والمَرْخَ ، والشَّبَهان . لكن السِّدْر ينبت في أعلاهُ ، أما المرخُ والشَّبَهان فينبتان في أسفله . والشاهد في البيت أن الباءَ في (بالمرخ) زائدة . والتقدير : ويُنْبِتُ أسْفَلُه المرخَ . وقال في اللسان : « وإن شئتَ قدَّرتَه : وينبُتُ أسْفَلُه بالمرْخِ ، فتكون الباء للتعدية لمَّا قدَّرتَ الفعل ثلاثيّاً » . هذا وقد قال ابن بري وحكاه في اللسان : « إن الشَّبَه كالسَّمُرِ كثير الشوك » .

يريد النخلةَ ، وقرأ البراءُ بن عازب رضي الله عنه ، والأعمش رحمه الله : [يَسَّاقَطْ] يريد الجذع ، وقرأ حمزة وحده : [تَسَاقط] بفتح التاءِ وتخفيف السين ، وهي قراءة مسروق ، ويحي بن وثاب ، وطلحة ابن مصرف ، وأبي عمرٍو - بخلاف - وقرأت فرقة : [يُسَاقِطْ] بالياءِ على ما تقدم من إرادة النخلة أو الجذع ، وقرأ عاصم - في رواية حفص - : [تُسَاقِطْ] بضم التاءِ وفتح السين وتخفيفها ، وقرأ أبو حيوة : [يُسْقِطْ] بضم الياءِ ، وحكى أبو علي في الحجة أنه قرئ : [يَتَسَاقَطْ] بياءٍ وتاءٍ ، وروي عن مسروق : [تُسْقِطْ] بضم التاءِ وكسر القاف ، وكذلك عن أبي حيوة ، وقرأ أبو حيوة أيضاً : [يَسْقُطْ] بفتح الياءِ وضم القاف ﴿رُطَبٌ جَنِـيًّ﴾ . ونصب [رُطَباً] يختلف بحسب معاني القراءات المذكورة ، فمرة يستند الفعل إلى الجذع ، ومرة إلى الهزّ ، ومرة إلى النخلة ، و [جَنِيًّا] معناه : قد طابَ وصلح (١) للاجتناءِ ، وهو من جنيتُ الثمرةَ ، وقرأ طلحة بن سليمان (٢) : [جِنِيًّا] بكسر الجيم ، وقال عمرو بن ميمون : ما من شيءٍ خير للنُّفَسَاءِ من التمر والرطب ، وقال محمد بن كعب : [رُطَباً] : عجوة .

(١) في الأصل : « قد طابت وصلحت للاجتناء » .
(٢) في الأصل : « وقرأ طلحة ابن سليم » ، والتصويب عن كتب التفسير والقراءات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واستدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعيٍ مّا فيه ؛ لأنه أمر مريم بهَزِّ الجذع لترى آية ، وكانت الآية تكون بألَّا تهزّ .

وحكى الطبريُّ عن ابن زيد أنه قال لها عيسى : «لا تَحْزَنِـي» ، فقالت : وكيف لا أَحزنُ وأنت معي ، لا ذات زوج [فَأَقول من زوج ، ولا مملوكة فأقول من سيدي ، أيُّ شيءٍ عذري عند الناس ؟ ﴿يَا لَيْتَنِـي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾ ، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام] (١) .

قوله تعالى : ﴿فَكُلِـي وَٱشْرَبِـي وَقَرِّي عَيْناً﴾ الآية . قرأ الجمهور : [وَقَرِّي] بفتح القاف ، وحكي الطبري قراءة [وَقِرِّي] بكسر القاف ، وقُرَّة العين مأْخوذة من القَرِّ ، وذلك أنه يحكى أن دمع الفرح بارد ودمع الحزن سخن ، وضعَّفت فرقة هذا وقالت : الدمع كله سخن ، وإنما معنى قُرة العين أن البكاء الذي يسخن ارتفع ، أيْ : لا حُزْن من الأمر الذي قرت به العين ، وقال الشيباني : ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ معناه :

(١) ما بين العلامتين [......] هو تتمة الخبر ، وقد أخذناه عن المصدر الأصلي الذي ذكره المؤلف وهو الطبري .

نامي ، حضَّها على الأَكل والشرب والنوم ، وقوله : [عيْناً] نصب على التمييز ، والفعل في الحقيقة إنما هو للعين ، فنقل ذلك إلى ذي العين ، وينصب الذي كان فاعلا في الحقيقة على التفسير ، ومثله : طبتُ نفْساً ، وتفقَّأْتُ شحماً ، وتصبَّبْتُ عرقاً ، وهذا كثير .

وقرأ الجمهور : [تَرَيِنَّ] ، وأَصْلُه : (تَرْأَيِينَ)(١) ، حذفت النون للجزم ، ثم نقلت حركة الهمزة إلى الراءِ ، ثم قلبت الياءُ الأُولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان ، الأَلف [المنقلبة عن الياءِ](٢) ، والياءُ ، فحذفت الأَلف فصار (تَرَيْ) ، وعلى هذا النحو قول الأَفوه :

إِمَّا تَرَيْ رَأْسي أَزْرَى بِهِ البيت . . . . (٣)

---

(١) أي قبل دخول الجازم والتأكيد بالنون .

(٢) زيادة لتوضيح المراد ، أما الياءُ التي التقت مع هذه الألف فهي ياءُ التأنيث .

(٣) هذا صدر بيت للأفوه الأوْدي ، والبيت بتمامه :

إمَّا تَرَيْ رَأْسِي أَزْرَى بِهِ مَأْسُ زمانٍ ذِي انْتِكاسٍ مئُوسِ

وأزْرَى به إزراءً : قَصَّرَ به وحقَّرَه وهوَّنه ، وفي اللسان : «وقد مَسَأَ ومَأَس ـ كمنع وفرح ـ بينهم يَمْأَسُ : أَفْسَدَ ... ورجُلٌ مائِسٌ ومَئُوسٌ ومِمْأَسٌ : نمَّامٌ ، وقيل : هو الذي يسعى بين الناس بالفساد» . يقول : إنَّ رأسي قد قصَّر به وحقَّره وهَوَّنَ من شأنه هذا الزمان الفاسد ، وابن عطية يستشهد بالبيت على أن (تَرَى) فيه كانت (تَرأَيِينَ) ثم بالحذف والإعلال صارت كما هي ، ومثل هذا أيضاً (تَرَيْ) في قول الشاعر :

إما تَرَيْ رَأْسِي حاكَى لَوْنُهُ طُرَّة صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالَ الدُّجَى

والأفوه الأوْدي هو صلاءةُ بن عمرو ، من مذحج ، ويكنى أبا ربيعة ، وهو القائل للبيت المشهور :

لاَ يَصْلح النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لهُم وَلاَ سَرَاة إذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

ثم دخلت النون الثقيلة ، وكسرت الياءُ لاجتماع ساكنين منها ومن النون ، وإنما دخلت النون هنا توطئة ، كما توطئ لدخولها أيضاً لام القسم . وقرأ أبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ : [تَرَئِنَّ] بالهمزة (١) ، وقرأ طلحة ، وأبو جعفر ، وشيبة : [تَرَيْنَ] بسكون الياء وفتح النون خفيفة ، قال أبو الفتح : «وهي شاذة» (٢) .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها ـ على لسان جبريل أو ابنها عليهما السلام ، على الخلاف المتقدم ـ بأن تمسك عن مخاطبة البشر ، وتُحيل على ابنها في ذلك ، ليرتفع عنها خجلها وتَتَبَيَّنَ الآية فيقوم عُذرها ، وظاهر الآية أنها أُبيح لها أن تقول هذه الكلمات التي في الآية ، وهو قول الجمهور ، وقالت فرقة : معنى [قُولي] بالإشارة لا بالكلام ، وإلَّا كان التناقض بَيِّناً في أمرها .

---

(١) قال ابن جنِّي في (المحتسَب) : «الهمز هنا ضعيف ؛ وذلك لأن الياء مفتوح ما قبلها ، والكسرة فيها لالتقاء الساكنين ، فليست محتسبة أصلاً ، ولا يكثر مُسْتَثْقَلُه ، وعليه قراءة الجماعة [تَرَيِنَّ] بالياء .

(٢) وقال في بقية كلامه : «ولستُ أقول إنها لحنٌ لثبات علَم الرفع ، وهو النون في حالة الجزم ، ولكن تلك لغةٌ أن تثبت هذه النون في الجزم ، وأنشد أبو الحسن :

لَوْلا فَوَارِسُ مِنْ ذُهْلٍ وَأُسْرَتِهِـم ... يَوْمَ الصُّلَيْفَاءِ لَمْ يُوفُونَ بِالْجَـارِ

هكذا بالنون ، وقد يكون على تشبيه (لم) بـ (لا)» .

وقرأ ابن عباس ، وأنس بن مالك : « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ وصُمْتُ »(١) ، وقال قومٌ : معناه : صوماً عن الكلام ؛ إذْ أصل الصيام الإمساكُ ، ومنه قول الشاعر :

خَيْلٌ صِيَامٌ . . . . (٢)

وقال ابن زيد ، والسدي : كانت سُنَّة الصيام عندهم الإمساكُ عن الأكل والكلام ، وقرأت فرقة : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد صوماً ، ولقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق والكلام ، وقالت فرقة : أُمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى الاحتجاج .

---

(١) الذي في كتب التفسير يختلف عن ذلك ، وأوْضحُه وأصحُّه ما في القرطبي ، ونصُّه : « ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ أي : صمتاً ، قاله ابن عباس ، وأنس بن مالك » ، ونعتقد أن صحة العبارة : وقرأ ابن عباس ، وأنس بن مالك : « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً وَصَمْتاً » ، قال القرطبي : واختلاف اللفظين ــ الصوم والصوت ــ يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قراءة . وكلام الطبري يؤكد أن ذلك كان قولا من ابن عباس ومن أنس رضي الله عنهما ، وليس قراءة .

(٢) هذا جزءٌ من بيتٍ للنابغة الذُّبْياني ، وهو من ميميَّته المشهورة : (بانتْ سعادُ وأمْسى حَبْلُهَا انْصَرَمَا) ، وهو في اللسان (صوم) ، قال : « وصام الفرسُ صوماً أي قام على غير اعتلاف ، وقيل : الصائم من الخيل : القائم الساكن الذي لا يطعم شيئاً ، قال النابغة الذبياني :

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

والعجاج : الغُبَارُ ودخان المعركة ، وتَعْلُكُ اللُّجُمَا : تلوكُها وتُحَرِّكها في فيها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

رُوي أن مريم عليها السلام لمَّا اطمأنت بما رأت من الآية ، وعلمت أن الله تعالى سيبيِّن عذرها ، أتت به تحمله من المكان القَصِي الذي انتبذت فيه ، وروي أن قومها خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة . و «الفَرِيُّ» : العظيم الشَّنيع ، قاله مجاهد والسدي ، وافتراه : اختلقه ، وهو من الفِرْيَة ، وفَرَاه يفْرِيه : شقَّه وأفْسَدَه ، وأفْراهُ : أصلحه ، من قولهم : فريت الأديم : قطعته على جهة الإصلاح ، وأما قولهم في المثل : «فلان يَفْري الْفَرِيَّ» فمعناه : جاء بعمل عظيم من العمل ، أو ...... (١) قصد ضرب المثل له ، وهو مستعمل فيما يختلق ويفعل ، والفَرِيُّ من الأسقية الجـديد ، وقرأ أبو حيوة : ﴿شَيْئاً فَرْياً﴾ بسكون الراء .

واختلف المفسرون في معنى قوله عزَّ وجلَّ : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ فقالت فرقة : كان لها أَخٌ اسمه هارون ؛ لأن هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسم هارون أخي موسى عليهما السلام ، وروى

(١) النقاط مكان كلمة غير واضحة .

المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى نجران في أمر من الأُمور ، فقالوا : إن صاحبك يزعم أن مريم هي أُخت هارون ، وبينهما في المدة ستمائة سنة ، قال المغيرة : فلم أدر ما أقول ، فلما قدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرتُ ذلك له ، فقال : (ألم يعلموا أنهم كانوا يُسمُّون بأَسماءِ الأَنبياءِ والصالحين) ؟ (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالمعنى أنه اسمٌ وافق اسماً ، وقال السدي وغيره : بل نسبوها إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من نسله ، وهو كما تقول لرجل من قبيلة : يا أخا فلانة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن أخا صداءٍ أذَّن ، ومن أذَّن فهو يقيم) (٢) ، وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها : «لَيْسَت بأُخت هارون أخي موسى » ،

(١) حديث المغيرة بن شعبة أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة ، وابن ماجه في الأذان ، وأحمد في مسنده (٤-١٦٩) ، ولفظه كما في مُسْند أحمد ، عن زياد بن الحارث الصدائي أنه أذّن ، فأراد بلال أن يقيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا أخا صداءٍ ، إن الذي أذّن فهو يقيم) ، وفي رواية أخرى ذكرها أيضاً الإمام أحمد ، عن زياد بن الحارث الصدائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أذّن يا أخا صداءٍ) ، قال : فأذّنت ، وذلك حين أضاء الفجر ، قال : فلما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قام إلى الصلاة ، فأراد بلالٌ أن يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُقيم أخو صداءٍ ، فإن من أذّن فهو يقيم) .

فقالت عائشة : كذبت ، فقال لها : يا أُمَّ المؤمنين ، إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أَصدق وأَخبر ، وإلَّا فإني أَجد بينهما من المدة ستمائة سنة ، قال : فسكتت (١) ، وقال قتادة : كان في ذلك الزَّمَن في بني إسرائيل رجلٌ عابد منقطع إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمى هارون ، فنسبوها إلى أُخُوَّته من حيث كانت على طريقته ، قيل : إذْ كانت موقوفة على خدمة البِيَع ، أي : يا هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما أَتيت به ، وقالت فرقة : بل كان في ذلك الزَّمن فاجر اسمه هارون ، فنسبوها إليه على جهة التَّعْيير والتوبيخ ، ذكره الطبري ولم يُسَمِّ قائله ، والمعنى : ما كان أَبوك ولا أُمُّك أَهلاً لهذه الفعلة ، فكيف جئت بها أنتِ ؟ و «البَغِــيُّ» : التي تبغي الزِّنى ، أيْ تطلبه ، أَصْلُها : بغوي ، فعول ، وقد تقدم ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، عن ابن سيرين . (الدر المنثور) .

الْتَزَمَت مريم عليها السلام ما أُمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ ، وإنما ورد أنها أشارت ، فيقوى بهذا قولُ من قال : إن أَمْرها في [فَقُولِي] إنما أُريد به الإشارة ، ويُرْوى أنهم — لمَّا أشارت إلى الطفل — قالوا : استخفافها بنا أشد علينا من زناها ، ثم قالوا لها — على جهة التقرير — ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ؟

و [كَانَ] هنا ليس يرادُ بها المضيُّ (١) ؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبيًّا ، وإنما هي في معنى : هو [الآن] (٢) ، ويحتمل أن تكون الناقصة ، والأَظهر أنها التَّامة ، وقد قال أَبو عبيدة : [كَانَ] هنا لغْوٌ (٣). وقال الزَّجَّاج والفراءُ : [مَنْ] شرطية في قوله تبارك وتعالى : ﴿مَنْ كَانَ﴾ (٤) .

---

(١) في بعض النسخ : « ليس يُراد بها الماضي » .

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى ، إذ المرادُ أن المعنى : «كيف نُكلِّم من هو الآن صَبِيٌّ في مهده » ؟

(٣) أي : زائدة ، والمعنى على ذلك : «كيف نُكلِّم صَبِيّاً في المهد » ؟ وهي في هذا كقول الشاعر :

فَكَيْفَ إِذَا رَأَيْتَ دِيَارَ قَوْمٍ وَجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامٍ ؟

(٤) يقولان : إن [مَنْ] شرطية ، و [كَانَ] بمعنى (يَكُنْ) ، والتقدير : « من يكُنْ في المهد صَبِيّاً فكيف نُكلِّمه » ؟ قال ابن الأنباري : وهذا كما تقول : كيف أُعطي من كان لا يقبل عَطِيَّةً ؟ أي : من يكن لا يقبل العطية ؟ ، والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونظير « كان » هذه قول رؤبة :

والرَّأْسُ قَدْ كَانَ لَهُ قَتِيرُ (١)

و [صَبِيًّا] إمَّا خبر [كَانَ] على تجوُّز وتخيل في كونها ناقصة ، وإمَّا حالٌ [إذَا قُدِّرَت زائدةً أَو تامَّةً] (٢) للاستقرار المقدر في الكلام (٣).

= كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ ، أي : إنْ يَشَأ يجعل ، وتقول : مَنْ كَانَ إليَّ منه إحسانٌ كان إليه مني مثلُه ، أي : من يكن منه إليَّ إحسانٌ يَكُنْ إليه مِنِّي مثلُه .

(١) هذا البيت من الشعر المنسوب إلى رؤبة ، وقد وجدته في ديوانه المسمَّى « مجموع أشعار العرب » المشتمل على ديوان رؤبة ، وهو ضمن أبيات مفردة منسوبة إلى رؤبة بن العجاج . والْقَتِيرُ : الشيبُ ، وقيل : هو أوَّل ما يظهر منه ، وفي الحديث أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن امرأة أراد نكاحها ، قال : وبقَدْرِ أيِّ النساءِ هي ؟ قال : قد رأت القَتِير ، قال : دعها ، والقتير : المشيب ، وأصله رُءُوس مسامير حَلَق الدروع تلوح فيها ، شُبِّه بها الشيب إذا نَقَب في سواد الشعر . (راجع اللسان – قتر) ، و (كان) في البيت بمعنى وقع وحدث ، وابن عطية يرى أنها في الآية الكريمة بهذا المعنى . وبهذا يتضح أن في [كان] أربعة أقوال – (١) أن تكون زائدة (٢) أن تكون بمعنى : وقع وحدث (٣) أن تكون بمعنى المضارع ، على أن [مَنْ] شرطية (٤) أن تكون ناقصة بمعنى : (صار) ، وهذا الأخير قاله قُطْرب . وقال ابن الأنباري : « لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت [صَبِيًّا] ، ولا أن يقال إن [كَانَ] بمعنى حدث ووقع ؛ لأنها لو كانت كذلك لاستغني عن الخبر ، تقول : كان الحرُّ ، وتكتفي بذلك » . ا.هـ بتصرف ، وقد ناقشه أبو حيان في ذلك .

(٢) ما بين العلامتين [....] زيادة للتوضيح قالها أبو حيان في البحر .

(٣) أي أن العامل في الحال هو الاستقرار المقدر في الكلام .

ورُوي أن المَهْدَ يُرادُ به حِجْر أُمِّه ، قال لهم عيسى من مرقده : ﴿إنِّي عَبْدُ ٱللهِ﴾ الآية ، ورُوي أنه قام متَّكئاً على يساره ، وأشار إليهم بِسَبَّابته اليمنى . و [ٱلْكِتَابَ] : التوراة ، ويحتمل التوراة والإنجيل ، و [آتَانِـي] معناه : قضى بذلك وأنفذه في سابق حكمه ، وهذا نحو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿أَتَى أَمْرُ ٱللهِ﴾(١) وغير هذا ، وأمال الكسائي [آتَانِي] و [أَوْصَانِـي] ، والباقون لا يُميلون ، قال أبو علي : الإمالةُ في [آتَانِـيَ] أحسن لا في [أَوْصَانِـي] . و [مُبَـارَكاً] قال مجاهد : معناه : نفَّاعاً ، وقال سفيان الثوري : معناه : معلم خَيْر(٢) ، وقيل : آمِراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، قال رجلٌ لبعض العلماء : ما الذي أُعْلِنُ من علمي ؟ قال : الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإنه دِين الله الذي بعث به أنبياءَه ، وأسند النقاشُ عن الضحاك أنه قال : [مُبَارَكاً] معناه : قضَّاءً للحوائج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى : [مُبَارَكاً] يعُمُّ هذه الوجوه وغيرها .

---

(١) من الآية (١) من سورة (النحل) .

(٢) في بعض النسخ : «معلم غيره» .

و «الصَّلاةُ والزَّكاةُ» قيل: هما المشروعتان في البَدَن والمال ، وقيل: زكاة البدن(١) في الفِطْر ، وقيل: الصلاةُ الدعاءُ ، والزكاةُ التَّطهر من كل عيب وتقصير ومعصية . وقرأ [دُمْتُ] بضم الدالِ عاصمٌ وجماعة ، وقرأ [دِمْتُ] بكسرها أهلُ المدينة ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وجماعة .

وقرأ الجمهور [وَبَرًّا] بفتح الباءِ - وهو الكثير البِرِّ - ونصبه عطفاً على قوله: [مُبَارَكاً] ، وقرأ أبو نهيك ، وأبو مجلز ، وجماعة [وَبِرًّا] بكسر الباءِ ، فقال بعضهم: نصبه على العطف على قوله: [مُبَارَكاً] ، كأنه قال: ذا بِرٍّ ، فاتصف بالمصدر كعَدْلٍ ونحوه ، وقال بعضهم: نصبه بقوله: [وَأَوْصَانِي] ، أي: وأَوْصَاني بِرًّا بوالدتي ، حذف الجار ، يريد: وأوصاني بِبِرِّ والدتي(٢) ، وحكى الزهراوي في هذه القراءة [وَبِرٍّ] بالخفض عطفاً على [ٱلزَّكاةِ] ، وقوله: [بِوَالِدَتِي] بيانٌ لأنه لا والِد لَهُ ، وبهذا القول برَّأها قومها .

---

(١) في بعض النسخ: «زكاة الرُّءوس في الفطر» .

(٢) ومثل هذا قول لبيد:

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِداً وَدُونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ الْعَوَاذِلُ

فقد عطف (دُون) الثانية على موضع (من دون) الأولى .

و «ٱلجَبَّارُ» : المتعظم ، وهي خلق مقرونة بالشقاء لأَنها مناقضة لجميع الناس فلا يلقى صاحبها من أَحد إلَّا مكروهاً ، وكان عيسى صلوات الله عليه في غاية التواضع ، يأْكل الشجر ، ويلبس الشَّعْر ، ويجلس على التراب ، ويأْوي حيث جنه الليل إذْ لا مسْكَنَ له ، قال قتادة : وكان عيسى عليه السلام يقول : سلُوني فإني ليِّن القلب صغير في نفسي ، وقد تقدم ذكر تسليمه على نفسه وإدلاله في ذلك ، وذَكَر المواطن التي خصَّها لأَنها أَوقات حاجة الإنسان إلى رحمة الله .

وقال مالك بن أَنس رضي الله عنه في هذه الآية : ما أَشدها على أَهل القدر ، أَخبر عيسى بما قضي من أَمره وبما هو كائن إلى أَن يموت ، وفي قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أَنهم لما سمعوا كلام عيسى وهو في المهد أَذعنوا وقالوا : إن هذا لأَمرٌ عظيم ، ورُوي أَن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأَطفال حتى نشأَ على عادة البشر ، وقالت فرقة : إن عيسى عليه السلام كان أُوتي ذلك الكتاب وهو في ذلك السن ، وكان يصلي ويصوم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا في غاية الضعف ، مُصَرِّح بجهالة قائله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

المعنى : قلْ يا محمد لمعاصريك من اليهود والنصارى : ذلك الذي هذه قصته عيسى بن مريم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قدَّرنا في الكلام «قُلْ» لأنه يجيءُ في الآية بعْدُ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ ، وهذه مقالة بشر ، وليس يقتضي ظاهر الآية قائلاً من البشر سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد يحتمل أن يكون قوله : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ﴾ إلى قوله : [فَيَكُونُ] إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم واعتراضاً أثناءَ كلام عيسى ، ويكون قوله : [وَأَنَّ] بفتح الأَلف عطفاً على قوله : [ٱلْكِتَابَ] ، وقال وهب بن منبه : عهد عيسى عليه السلام إليهم أنَّ الله ربِّي وربكم ، ومن كسر الأَلف عطف على قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وعامة الناس : ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ (١) ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وابن أبي إسحق : ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بنصب « القول » على المصدر (٢) ، وقال أبو عبد الرحمن المقري (٣) : كان يجالسني ضرير ثقة ، فقال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقرأ : ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصباً ، قال أبو عبد الرحمن : وكنت أقرأ بالرفع فحسب ، فصرتُ أقرأُ بهما جميعاً ، وقرأ عبد الله ابن مسعود : « قالُ اللهِ »(٤) بمعنى : كلمةُ اللهِ ، وقرأ عيسى : « قالُ ٱلْحَقِّ » (٥) .

---

(١) أي : بالرفع ، قال الكسائي : ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ نعت لِعيسى ، أي : ذلك عيسى ابن مريم قولُ الحق ، سُمِّي [قولُ الحق] كما سُمِّي [كلمةُ الله] ، والحقُّ هو الله عزَّ وجلَّ . وقال أبو حاتم : المعنى : هُو قولُ الحق . وقيل : التقدير : هذا الكلامُ قولُ الحق .

(٢) فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، أي : هذه الأخبارُ عن عيسى بأنه ابن مريم أمرٌ ثابت صدق ، أي : أقولُ الحقَّ ، فيكون « الحق » هنا هو الصدق ، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، أي : القول الحق ، كما قال تعالى : ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ ، أي : الوعد الصدق .

(٣) اسمه عبد الله بن يزيد . قاله ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب .

(٤) أي : بالألف مع رفع اللام ، وفي القرطبي أن قراءة عبد الله بن مسعود هي : « قالُ ٱلْحَقِّ » ، وهي التي ذكرها ابن عطية هنا منسوبة إلى عيسى .

(٥) هكذا ضبطت في الأصول ، وفي البحر المحيط قال أبو حيان : « وقرأ طلحة والأعمش — في رواية زائدة — : [قالَ] بألف ، جعله فعلاً ماضياً [ٱلْحَقُّ] برفع القاف على الفاعلية ، والمعنى : قال الحقُّ — وهو الله — : ذلك الناطق الموصوف بتلك الصفات هو عيسى بن مريم » ، ولسنا ندري : هل هذه القراءة هي المنسوبة هنا إلى عيسى أم هي قراءة أخرى لم يذكرها ابن عطية ؟

وقرأ نافع والجمهور : [يَمْتَرُونَ] بالياءِ على الكناية عنهم ، وقرأ نافع أيضاً وأبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وداود بن أبي هند : [تَمْتَرُونَ] بالتاءِ على الخطاب لهم ، والمعنى : تختلفون أيها اليهود والنصارى ، فيقول بعضهم : هو لِزَنْيَة ونحو هذا ، ويقول بعضهم : هو ابن الله تعالى ، فهذا هو امتراؤُهم ، وسيأْتي شرح ذلك من بعد هذا .

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ معناه النفي ، وهذا هو معنى هذه الأَلفاظ حيث وقعت ، ثم يضاف إلى ذلك بحسب المذكور فيها ، إمَّا زجرٌ ونهي كقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾(١)، وإمَّا تعجيزٌ كقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾(٢)، وإمَّا تبرئة كهذه الآية ، وقوله : ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ دخلت [مِنْ] مؤكدة للجَحْد ، لينفى الواحد فما فوقه مما يحتمله نظير هذه العبارة إذا لم تدخل (مِنْ) ، وقوله : [أَمْراً] أيْ : واحداً من الأُمور، وليس بمصدر «أَمَرَ يأْمُرُ»، فمعنى قَضَى وأَوجد وأَخرج من العدم وهذه التصاريف في هذه الأَفعال من مُضِيٍّ واستقبال هي بحسب تجوُّز العرب واتِّساعها ، وقد تقدم القول في قوله تعالى : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾(٣) .

---

(١) من الآية (١٢٠) من سورة (التوبة) .

(٢) من الآية (٦٠) من سورة (النمل) .

(٣) تكررت في أكثر من آية ، فهي في الآيات : (١١٧) من سورة (البقرة) ، و (٤٧) =

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتح الألف ، وذلك عطف على قوله : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ و ﴿أَنَّ ٱللَّهَ رَبِّي﴾ كذلك ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بكسر الألف ، وذلك بَيِّنٌ على الاستئناف ، وقرأ أُبَيُّ ابن كعب رضي الله عنه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف دون واو .

وقوله : [فَاعْبُدُوهُ] ، وقف ثم ابتدأ : ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ، أي : ما أعلمتكم به عن الله تعالى من وحدانية ، ونَفْي الولد عنه ، وغير ذلك مما يتنزه عنه ، طريقٌ واضح مُفْضٍ إلى النجاة ورحمة الله تعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا ابتداءُ خبر من الله عزَّ وجلَّ لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً ، أي : فِرَقاً ، وقوله : ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾

= و(٥٩) من سورة (آل عمران) ، و (٧٣) من سورة (الأنعام) ، و (٤٠) من سورة (النحل)، و (٨٢) من سورة (يسن) ، و (٦٨) من سورة (غافر) ، وهي في آيتنا هذه من سورة (مريم).

معناه أَن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا المختلفين ، وروي في هذا عن قتادة أَن بني إسرائيل جمعوا من أَنفسهم أَربعة أَحبار غاية في المكانة والجلالة عندهم ، وطالبوهم بأَن يُبَيِّنُوا أَمر عيسى عليه السلام ، فقال أَحدهم : عيسى هو الله نزل إلى الأَرض فأَحيا من أَحْيا وأَمات من أَمات ثم صعد ، فقال له الثلاثة : كذَبْتَ ، واتَّبعه اليعقوبية ، ثم قيل للثلاثة ، فقال أَحدهم : عيسى هو ابن الله ، فقال له الاثنان : كذبْتَ ، واتَّبعه النسطورية ، ثم قيل للاثنين ، فقال أَحدهما : عيسى أَحد ثلاثة ، عيسى إلٰه ، ومريم إلٰه ، والله إلٰه ، فقال له الرابع : كَذَبْتَ ، واتَّبعه الإسرائيلية ، فقيل للرابع ، فقال : عيسى روح الله وكلمته أَلقاها إلى مريم ، فاتَّبع كلَّ واحد من الأَربعة فريق من بني إسرائيل ، ثم اقتتلوا فغُلب المؤمنون وقُتلوا ، وظهرت اليعقوبية على الجميع . وروي أَن في ذلك نزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

و «الْوَيْلُ» : الحُزْن والثُّبور ، وقيل : الْوَيْلُ وادٍ في جهنم . ومَشْهَد اليوم العظيم هو مشهد يوم القيامة ، ويحتمل أَن يريد بـ ﴿ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأَحزاب ، وقد أَشار إلى هذا المعنى قتادة رحمه الله .

(١) الآية (٢١) من سورة (آل عمران) .

وقوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي : ما أسمعهم وأبصرهم يوم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب ، فإنَّ إعراضهم حينئذ يزول ، ويقبلون على الحقيقة حيث لا ينفعهم الإقبال عَلَيْها وهم في الدنيا صمٌّ عُمْيٌ ؛ إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم ، ثم قال : لكنهم اليوم في الدنيا في ضلال ، وهو جهل المسلك ، و «الْمُبِينُ» : البَيِّن في نفسه وإنْ لم يَتَبيَّن لهم ، ، وحكى الطبريُّ عن أَبي العالية أنه قال : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ بمعنى الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : أَسْمِع الناسَ اليوم وأبصرهم بهم وبحديثهم ، ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أَتَوْا محشورين مغلولين .

واختلف في ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ فقال الجمهور : هو يوم ذبح الموت ، وفي هذا حديث صحيح ، وقع في البخاري وغيره أن الموت يجاءُ به في صورة كبش أملح ، وقال عبيد بن عمير : كأنه دابَّة ، فيذبح على الصراط بين الجنة والنار ، وينادى : يأَهل الجنة خلود لا موت ، ويأَهل النار خلود لا موت . ويروى أن أَهل النار يشرئبون إليه رجاءَ أن يُخرجوا مما هم فيه ، وأن أَهل الجنة يشرئبون خوفاً على ما هم فيه (١) ،

(١) حديث ذبح الموت أخرجه البخاري ، عن ابن عمر ، ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، والترمذي عن أبي سعيد يرفعه ، وقال فيه : حديث حسنٌ صحيح ، ولفظه كما في صحيح مسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل أهل الجنةِ الجنّةَ وأهل النارِ النّارَ يجاءُ بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ــ أيْ نقيُّ البياض ،=

و «الأمر المقضي» هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت ، وهذا عند حذاق العلماء كما يقال : تدين العوامل ويجعل التراب تحت القدم ونحو ذلك ، وعند ذلك تصيب أهل النار حسرةٌ لا حسرة مثلها .

وقال ابن زيد وغيره : يومُ الحسرة هو يوم القيامة ، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته ، فهم في حال حسرة ، والأمر المقضي – على هذا – هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يومُ الحسرة حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون يومُ الحسرة اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عِدَّة ، ومنها يوم القيامة ، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال ، وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ في غَفْلَةٍ﴾ يريد : في الدنيا الآن وهم لا يؤمنون كذلك .

= أو بياضه أكثر من سواده – فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يأهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا الموت – قال – ثم يقال : يأهْل النار ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبُّون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيُذْبح ، ثم يقال : يأهل الجنة خلود فلا موت ، ويأهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ تجوزٌ وعبارةٌ عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق ، فكأنها وراثة ، وقرأ عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، والحسن ، والأعمش : [يُرْجَعُونَ] بالياء ، وقرأ الأعرج : [تُرْجَعُونَ] بالتاء من فوق ، وقرأ أبو عبد الرحمن ، وابن أبي إسحق ، وعيسى : [يَرْجِعُونَ] بالياء مفتوحة وكسر الجيم ، وحكى عنهم أبو عمرو : [تَرْجِعُونَ] بالتاء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾

قوله تعالى : [وَٱذْكُرْ] معناه : واتْلُ وَبَلِّغْ ، لأن الله تعالى هو الذاكر ، و « الكِتَابُ » هو القرآن ، وهذا وما أشبهه من لسان الصدق الذي ألقاه

الله عليهم ، و «الصِّدِّيق» فِعِّيل ، بناءُ مبالغة من الصدق ، وقرأ أبو البَرَهْسَم (١) : ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقاً﴾ ، والصِّدْق عُرفه في اللسان ، وهو مُطَّرِدٌ في الأَفعال والخُلُق إِلَّا أَنَّه يُسْتعار لما لا يعقل ، يقال : صدقني الطعام كذا وكذا قفيزاً (٢) ، ويقال : «عُودٌ صَدْقٌ» للصلْب الجيِّد . فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصِّدْق على العموم في أقواله وأفعاله ، وبذلك يفترق صدق اللسان الذي يضاد الكذب ، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه وُصف بصدِّيق لكثرة ما صَدَقَ في تصديقه بالحقائق ، وصدق في مبادرته إلى الإيمان وما يُقَرِّب من الله تبارك وتعالى . وللصِّدِّيق مراتب ، ألا ترى أن المؤمنين صِدِّيقون لقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿يَا أَبَتِ﴾ ، اختلف النحاة في التاء من [أَبَتِ] - فذهب سيبويه إلى أنها عِوَض من ياء الإضافة ، فالوقوف عليها عنده بالهاء ، ومذهبُ الفراء أن يوقف عليها بالتاء لأَن الياءَ التي للإضافة عنده

---

(١) اختلفت النسخ الأصلية في كتابة هذا الاسم ، ففي بعضها : البرهسيم » ، وفي بعضها : « أبو إبراهيم » ، واخترنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط .

(٢) القَفِيزُ : مِكْيَال كان يكال به قديماً ، ويختلف مقداره باختلاف البلاد ، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجراماً . (المعجم الوسيط) .

(٣) من الآية (١٩) من سورة (الحديد) .

مُنَوَّنة ، وجمهور القراء على كسر التاء ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «وَا أَبَتِ» بواو النداء ، وقرأ ابن عامر ، والأعرج ، وأبو جعفر : ﴿ يَا أَبَتَ ﴾ بفتح التاء ، ووجهها أنه (١) أراد : «يَا أَبَتا» فحذف الأَلف وترك الفتحة دالَّةً عليها ، ووَجْه آخر أن تكون التاءُ المقحمة كالتي في قولهم : «يا طلحَة أقبل» ، وفي هذا نظر ، وقد لَحَّنَ هارون هذه القراءة . و «الَّذي لا يُبصر ولا يَسْمع» هو الصنم ، ولو سمع وأبصر كما هي حال الملائكة وغيرهم مِمَّن عُبِد لم تحسن عبادتها ، ولكن بيَّن إبراهيم عليه السلام بِنَفْي السمع والبصر شُنْعَةَ الرأي في عبادتها وفَسَادَه .

وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَنِي ﴾ يدلُّ أن هذه المقالة بعد أن نُبِّئَ ، و «الصِّرَاطُ السَّوِيُّ» معناه : المستقيم ، وهو طريق الإيمان .

وقوله : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ ﴾ مخاطبة بِرٍّ واستعطاف على حالة كفره ، وقوله : ﴿ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ ﴾ يحتمل أن يكون أبوه مِمَّن عَبد الجِن ، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان الْمُغْوي في عبادة الأَوثان والكفر بالله عبادَةً له . و «العَصِيُّ» فَعِيلٌ من عَصَى يعصي إذا خالف الأَمر .

(١) يريد : ووجهها أن القارئ أراد ... الخ .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ ، قال الطبري وغيره : [أَخَافُ] بمعنى : أعلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر عندي أنه خوفٌ (١) على بابه ؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقالة آيساً من أبيه ، فكان يرجو ذلك ، وكان يخاف أَلَّا يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسُّه العذاب . و «الْوَلِيُّ» : الخالِص المصاحب القريب بنسب أو مَوَدَّة .

قال آزَر ـ وهو تارخ ـ : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِـي ﴾ ، والرغبة : مَيْلُ النفس ، فقد تكون الرغبة في الشيء ، وقد تكون عنه . وقوله : [أَرَاغِبٌ] رفع بالابتداء ، و [أَنْتَ] فاعل يسد مَسَدَّ الخبر ، وحسَّن ذلك وقرَّبه اعتمادُ [رَاغِبٌ] على ألف الاستفهام ، ويجوز أن يكون [رَاغِبٌ] خبراً مقدماً ، و [أَنْتَ] مبتدأً ، والأول أصوب ، وهو مذهب سيبويه (٢) . وقوله : ﴿ عَنْ آلِهَتِـي ﴾ يريد الأَصنام ، وكان ـ

---

(١) في بعض النسخ : « أنه حرف على بابه » .

(٢) وجه الصواب أمران : الأول أنه لا تقديم فيه ولا تأخير ؛ إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدإ ، والثاني أنه ليس فيه فصل بين العامل الذي هو [أَرَاغِبٌ] وبين معموله الذي هو ﴿ عَنْ آلِهَتِي ﴾ بما ليس بمعمول للعامل ؛ لأن الخبر ليس عاملاً في المبتدإ ، بخلاف كون [أَنْتَ] فاعلاً ، فإنه معمولٌ لـ [أَرَاغِبٌ] ، فلم يفصل بين [أَرَاغِبٌ] وبين ﴿ عَنْ آلِهَتِي ﴾ بأجنبي ، إنما فصل بمعمول له . (قاله في البحر المحيط) .

فيما رُوي – ينحتها وينجزها بيده ويبيعها ويحضُّ عليها ، فقَرَّر ابنه إبراهيم عليه السلام على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه ، ثم أخذ يتوعده .

وقوله : [لَأَرْجُمَنَّكَ] اختلف فيه المتأولون – فقال السدي ، وابن جريج ، والضحاك : معناه : بالقول ، أي : لأَشتمنك واهجرني أنت إذا شئت مدة من الدهر ، أو سالِماً ، حسب الخلاف الذي سنذكره ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله : معناه : لأَرجمنك بالحجارة ، وقالت فرقة : معناه : لأَقتلنَّك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان بمعنى واحد ، وقوله : [وَٱهْجُرْنِـي] – على هذا التأْويل – إنما يترتب على أنه أمر على حياته ، كأَنه قال : إن لم تنته قتلتك بالرجم ، ثم قال له : واهجرني ، أي : مع انتهائك ، كأَنه جزم الأَمر بالهجرة ، وإلَّا فمع الرجم لا تترتب الهجرة . و [مَلِيًّا] معناه : دهراً طويلاً ، مأْخوذ من الملوَيْن ، وهما الليل والنهار ، هذا هو قول الجمهور : الحسن ، ومجاهد ، وغيرهما ، فهو ظرفٌ[1] ،

---

(١) وعليه قول الشاعر :

نَهارٌ ولَيْلٌ دائِمٌ مَلَوَاهُمَـا على كُلِّ حالِ الْمَرْءِ يَخْتَلِفَـانِ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [مَلِيًّا] معناه : سليماً سوِيًّا ، فهو حالٌ من [إبْرَاهِيم] عليه السلام (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله : مُسْتَبِدًّا بحالك عنِّي غنيًّا ، مَلِيًّا بالاكتفاء (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

قرأ أبو البرهسم : [سَلَاماً] بالنصب . واختلف أهل العلم في معنى تسليمه عليه ـ فقال بعضهم : هي تحية مُفارق ، وجوَّزوا تحية

(١) والمعنى : اهجرني سالماً بعرضك ، لا تصيبنَّك مِنِّي مَعَرَّة ، وقد اختار الطبري هذا المعنى .

(٢) ومن استعمال [مَلِيّاً] في الدهر الطويل قول المهلهل :

فتَصَدَّعَتْ صُمُّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ ... وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرْمِلاتُ مَلِيّاً

الكافر ، وأن يُبدأ بها ، وقال الجمهور : ذلك التسليم بمعنى المُسالمة لا بمعنى التحية ، وقال الطبري : معناه : أَمَنَةً منّي لك ، وهذا قول الجمهور ، وهم لا يرون ابتداءَ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيهاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴾ (١) ، ورفع « السلام » بالابتداءِ ، وجاز ذلك مع كونه نكرة لأنها نكرة مُخَصَّصة ، فقربت من المعرفة ، ولأنه في موضع المنصوب الذي هو : سلمت سلاماً ، وهذا كما يجوز ذلك فيما هو في معنى الفاعل ، كقولهم : « شرٌّ ما أَهَرَّ ذا ناب » (٢) ، وهذا مثال سيبويه رحمه الله .

وقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ﴾ معناه : سأدعو الله تعالى في أن يهديك ، فيغفر لك بإيمانك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا أظهر من أن يُتأَوَّل على إبراهيم الخليل صلوات الله عليه أنه لم يعلم أن الله تعالى لا يغفر لكافر ، وقد يجوز أن يكون إبراهيم

(١) من الآية (٦٣) من سورة (الفرقان) .

(٢) هذا مَثَل يضرب في ظهور أمارات الشر ومخايله ، ويقال : أهَرَّه ، إذا حمله على الهرير . والهرير : صوت الكلب دون النباح ، وصوت القوس وغيرها ، وذو النَّاب : السَّبُع . و (شَرٌّ) هنا رفع بالابتداء وهو نكرة ، وشرط النكرة ألا يُبتدأ بها حتى تُخَصَّص بصفة ، كقولنا : « رجلٌ من بني تميم فارسٌ » ، ولكنهم ابتدؤا بالنكرة هنا من غير صفة لأن المعنى : ما أهر ذا نابٍ إلاَّ شَرٌّ .

عليه السلام أَول نبي أَوحى الله إليه أَن الله لا يغفر لكافر ؛ لأَن هذه العقيدة إنما طريقها السمع ، فكانت هذه المقالة منه لأَبيه قبل أَن يوحى إليه ذلك ، وإبراهيم عليه السلام إنما تبيَّن له في أَبيه أَنه عدوٌّ لله بأَحد وجهين : إمَّا بموته على الكفر كما رُوي ، وإمَّا بأَن أَوحى الله إليه الحتم عليه . وقال مكيٌّ عن السدي : أَخره بالاستغفار إلى السَّحر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا تَعَسُّفٌ ، وإنما ذكر ذلك في أَمر يعقوب وبنيه ، وأَما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتنف ، فالسن متمكنة .

و «الْحَفِـيُّ» : المهتبل (١) المتلطف ، وهذا شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى عليه . ثم أَخبره أَنه يعتزلهم ، أَي : يصير عنهم بمعزل ، ويروى أَنهم كانوا بأَرض كوثا ، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى الشام ، وفي هجرته تلك لقي الجبار الذي أَخدم هاجر لسارة ... الحديث بطوله . و [تَدْعُونَ] : تعبدون . وقوله : [عَسَى] تَرَجٍّ وفي ضمنه خوف شديد .

(١) هكذا في الأصول ، ومعاني الاهتبال هي : الاغتنام للفرصة ، والكذب ، والثكل ، والاحتيال والاستعداد ، واهتبال الصيد : تكسُّبه ، وليس في هذه المعاني ما يناسب التعبير هنا ، ولعلَّ الصواب : «المحْتَفِلُ» من الاحتفال بالشيء بمعنى الاهتمام به والمبالغة في بِرِّه .

وقوله : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية إخبارٌ من الله تبارك وتعالى لنَبِيِّه محمد صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم عليه السلام لما رحل عن بلد أَبيه وبلد قومه عوَّضه الله من ذلك ابنه إسحق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام ، وجعل له الولد تسلية وشدًّا لعضده ، وإسحق أَصغر من إسماعيل عليهما السلام ، ولمَّا حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة فحملت بإسحق فيما رُوي .

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ ، يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة ، كل ذلك من رحمة الله ، و «لِسَانُ الصِّدْقِ» هو الثناءُ الباقي عليهم آخر الأَبد ، قاله عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما . واللسان في كلام العرب القالة الذائعة كانت في خيرٍ أو شرٍّ ، ومنه قول الشاعر :

إنِّي أَتَتْنِـي لِسَانٌ لا أُسَـرُّ بِهَا   مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيها وَلَا سَخَرُ (١)

---

(١) البيت لأعشى باهلة ، وهو في اللسان (لَسَنَ) ، قال : «اللسان : جارحة الكلام ، وقد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ ، قال أعشى باهلة : إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ ... البيت» ، ورواية البيت في الأصمعيات ، وفي موسوعة الشعر العربي :

قَدْ جاءَ مِنْ عَـلُـِ أَنْباءٌ أُنَبَّؤُهـا   إليَّ لا عَجَبٌ مِنْهَا وَلا سَخَرُ

و (عَـلُـِ) بالحركات الثلاث في اللام ، والمعنى : من فوق ، أي من أعْلَى نَجْد ، والسَّخَرُ بفتحتين وبضمتين : السخرية ، يريد أنه لا يعجب من هذه الأنباء ولا يسخر ، وقد ذكر النحاة أن (عَلُ) بني على الضم لأنه علَمٌ مفرد ، وإذا جعل نكرة نُوِّنَ وصُرِفَ فقيل : (من عَلٍ) ، وإن شئت رددتَ إليه ما ذهب منه وهي أَلفٌ منقلبة من واو فقلت : (مِنْ عَلْوَ) .

وقال آخر :

نَدِمْتُ عَلَى لِسَانٍ فَاتَ مِنِّي . . . . (١)

وإبراهيم عليه السلام - وذريته - مُعَظَّم في جميع الأُمم والممالك ، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

= يقول : وصلتني أنباءٌ من أعلى نجد لم أستغربها ، ولم أسخر منها ، وهذه الأنباءُ خاصة بنعي أخي .

هذا والبيت في (المؤتلف والمختلف) : إني أتتني لسانٌ ما أُسَرُّ بها ... مِنْ عُلْوَ » وفي الكامل للمبرد : (من عَلُ) ، وفي أمالي المرتضي : إنِّي أُتيتُ بشيءٍ لا أُسَرُّ به ... مِنْ عَلْوَ لا عجب منه » .

(١) هذا صدر بيت للحطيئة ، وهو في اللسان (لَسَن) و (عَكَمَ) ، وقد استشهد به على أن (اللسان) يُذَكَّر ، قال : « وقد يُذَكَّر على معنى الكلام ، قال الحطيئة :

نَدِمْتُ عَلَى لِسانٍ فاتَ مِنِّي فَلَيْتَ بِأَنَّهُ في جَوْفِ عِكْمِ =

هذا أَمرٌ من الله تعالى بذكر موسى بن عمران صلوات الله عليه على جهة التشريف ، وأعلمه بأنه كان مُخْلَصاً ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم(١) : [مُخْلِصاً] بكسر اللام ، وهي قراءة الجمهور ، أي : أخلص نفسه لله تعالى ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم(٢) : [مُخْلَصاً] بفتح اللام ، وهي قراءة أبي رزين ، ويحيى ، وقتادة ، أي : أخلصه الله تعالى للنبُوَّة والقيادة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾(٣) ، والرسول من الأنبياء : الذي يكلف تبليغ أُمته ، وقد يكون نبيٌّ غير رسول .

وقوله تعالى : ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ هو تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام ، و «الطُّور» : الجبل المعروف بالشام ، وقوله : [ٱلْأَيْمَنِ] صفة للجانب ، وكان على يمين موسى عند وقوفه ، وإلَّا فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة ، ولا يوصف بشيءٍ من ذلك إلَّا بالإضافة إلى ذي يمين ويسار .

= واستشهد به على أن العِكْمَ داخلُ الجَنْب ، قال: «والعِكْمُ : النَّمَطُ تجعله المرأة كالوعاء تدَّخِر فيه متاعها ، والعِكْمُ : داخلُ الجَنْب على المثل بالعِكْم النَّمط ، قال الحطيئة : ندِمتُ على لسانٍ ... البيت» على أنه رواه هنا : «وَدِدْتُ بأنَّه» بدلا من «فَلَيْتَ بأنَّه» .

(١) أي في رواية أبي بكر عنه .

(٢) وذلك في رواية حَفْص عنه .

(٣) من الآية (٤٦) من سورة (ص) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون [ٱلْأَيْمَنِ] مأخوذُ من اليُمْن ، كأنه قال : الأَبْرك والأَسْعد ، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملته . وقوله : ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : بل أُدني موسى للملكوت ، ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأَقلام ، وقاله ميسرة رحمه الله ، وقال سعيد : أَردفه جبريل عليه السلام ، والنَّجِــيُّ . قيل : من المناجاة وهي المسارة بالقول ، وقال قتادة : معناه : نجا بصدقه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا محتمل ، وإنما النَّجِــيُّ المنفردُ بالمناجاة ، وكان هارون أَسنَّ من موسى عليهما السلام فطلب من الله أَن يشُدَّ أَزْره بنُبوَّته ومعونته فأَجابه الله إلى ذلك ، وعدَّها في نعمه عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ هو أَيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام . وإسماعيل عليه السلام هو أَبُ العرب اليوم ، وذلك أن اليمنية والمضرية ترجع إلى ولد إسماعيل عليه السلام ، وهو الذي

أسكنه أبوه بوادٍ غير ذي زرع ، وهو الذبيح في قول الجمهور ، وقالت فرقة : الذبيح إسحق عليه السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأوَّلُ يترجح بجهات : منها قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (١) ، فَوَلَدٌ قد بُشِّر أبواه أنه سيكون منه وَلَدٌ هو حفيد لهم كيف يؤمر بعد ذلك بذبحه وهذه العِدَةُ قد تقدمت ؟ وجهة أُخرى هي أن أمر الذبح لا خلافَ بين العلماءِ أنه كان بمنى عند مكة ، وما رُوي قطُّ أن إسحق دخل تلك البلاد ، وإسماعيل بها نشأ ، وكان أبوه يزوره بها مراراً كثيرة يأْتي من الشام على البراق ويرجع من يومه ، والبراق هو مركب الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ، وجهة أُخرى وهي قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أنا ابن الذبيحين) (٢) ، وهما

(١) من الآية (٧١) من سورة (هود) .

(٢) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن الصنابحي ، قال : «كنّا عند معاوية ابن أبي سفيان ، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحق ، فقال : على الخبير سقطتم ، كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، عُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يابن الذبيحَيْن ، فضحك عليه الصلاة والسلام ، فقلنا له : يا أمير المؤمنين ، وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم نذر لله لئن سَهُلَ عليه أَمْرُها ليذبحن أحدَ ولده ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله ، وقالوا : افدِ ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، وإسماعيل الثاني» .

أبوه عبد الله بن عبد المطلب ، لأنه فُدي بالإبل من الذبح ، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل عليه السلام ، وجهة أُخرى وهي الآيات في سورة (الصَّافَّات) ، وذلك أنه لما فرغ من ذكْر الذبح وحاله قال : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ﴾(١) ، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحق عليه السلام .

ووصف الله تعالى إسماعيل بصدق الدعوة لأَنه كان مبالغاً في ذلك ، رُوي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع ، فجاء إسماعيل عليه السلام وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان في اليوم الآخر جاء الرجل ، فقال له : ما زلتُ في انتظارك هنا منذ أمس ، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد غير صحيح ، والأَول أصح ، وقد فعل مثله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه ، ذكره النقاش ، وخرجه الترمذي ، وغيره ، وذلك في مبايعة وتجارة (٢) ، وقيل : وصفه بصدق الدعوة

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (الصَّافات) .

(٢) خرَّجه الترمذي عن عبد الله بن الحَمْساء ورواه أبو داود في سُنَنه ، وأخرجه الخرائطي في كتابه (مكارم الأخلاق) عن ابن الحَمْساء ، قال : بايعت النبي صلى الله عليه =

لوفائه بنفسه في أمر الذبح ؛ إذ قال : ﴿سَتَجِدُنِـي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾(١). قال سفيان بن عيينة رحمه الله : أَسْوَأُ الكذب إخلاف الوعد ورَمْيُ الأَبرياءِ بالتُّهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (العِدَةُ دَيْنٌ)(٢) ، فناهيك بفضيلة الصدق في هذا .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ ، يريد قومه وأُمّته ، قاله الحسن ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «وكان يأْمر قومه» ، وقوله : [مَرْضِيًّا] أصله : مرْضُوي ، لقيت الواو وهي ساكنةٌ الياءَ فأُبدلت ياءً ، وأُدغمت ، ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات ، وقرأ ابن أبي عبلة : «وكَانَ عِنْدَ ربِّهِ مَرْضُوًّا» .

وسلم بِبَيْعٍ قبل أن يُبْعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ، ثم ذكرتُ بعد ثلاثة أيام فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال : «يا فتى لقد شققْتَ علي ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك» ، واللفظ لأبي داود .

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (الصَّافات) .

(٢) العِدَةُ : الوَعْد ، والهاءُ عوض عن الواو ، ويجمع على عِدَات ، ولا يجمع الوعد ، وفي معنى العِدَة ٱلوَأْي ، وفي الأثر (وَأْيُ المؤمن واجب) ، أي في أخلاق المؤمنين ، ومما يؤيد ما ذكره ابن عطية الحديث الذي أخرجه البخاري في (الكفالة) ، عن جابر رضي الله عنه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو جاءَ مالُ البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا) ، فلم يجئْ مال البحرين حتى قُبِض النبي صلى الله عليه وسلم . فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى : من كان له عند النبي صلى الله عليه وسلم عِدَةٌ أو دَيْن فليأتنا ، فأتيتهُ فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لي كذا وكذا . فحثا لي حَثْيَةً فعددتها فإذا هي خمسمائة ، وقال : خذ مِثْلَيْهَا . وحديث (العِدَةُ دَيْن) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عليٍّ وعن ابن مسعود ، وقد رمز له الإمام السيوطي «في الجامع الصغير» بأنه حديث ضعيف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۩ ﴾

إدريس عليه السلام هو من أجداد نوح ، وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض فيما رُوي بعد آدم صلوات الله عليه ، وهو أول من خطَّ بالقلم ، وكان خيَّاطاً ، ووصفه الله تعالى بالصدق ، والوجه أن يُحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : هو إلياس ، بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلَّا الله ، ويعملوا ما شاءُوا ، فأَبَوْا فأُهلكوا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأشهر أنه لم يبعث بإهلاك أُمة ، وأنه نبيٌّ فقط .

واختلف الناس في قوله : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾ ـ فقال جماعة من العلماء : هذا هو رفع النبوة والتشريف والمنزلة ، وهو في السماءِ

كسائر الأنبياءِ . وقالت فرقة : بل رُفع إلى السماءِ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان ذلك بأَمر الله كما رفع عيسى عليه السلام ، وهنالك مات إدريس عليه السلام ، وكذلك قال مجاهد إلَّا أنه قال : ولم يمت ، وكذلك قال وهب بن منبه ، وقال كعب الأَحبار لابن عباس : كان له خليل من الملائكة فحمله على جناحه وصعد به حتى بلغ السماءَ الرابعة ، فلقي هناك مَلَك الموت . فقال له : إنه قيل لي : اهْبط إلى السماءِ الرابعة فاقبض روح إدريس ، وإنِّي لأَعجب كيف يكون هذا ، فقال له الملَك الصاعد : هذا إدريس معي ، فقبض روحه . وروي أن هذا كله كان في السماءِ السادسة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراءِ في بعض الروايات ، وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما في الإسراءِ يقتضي أنه في السماءِ الرابعة .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ الآية . الإشارة بـ [أُولَئِكَ] إلى من تقدم ذكره ، وقوله : ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس ونوحاً عليهما السلام ، و ﴿مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام ، و ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب عايهم السلام ، و [إِسْرَائِيلَ] يريد موسى

وهارون وزكريا ويحي ومريم عليهم السلام . وقوله : ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا﴾ معناه : اخترنا واصطفينا ، وكأنه من : «جَبَيْتُ الماءَ» إذا جمعته ، ومنه جباية المال ، وكأن جابيه يصطفيه . وقرأ الجمهور : ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ بالتاء من فوق ، وقرأ نافع ، وشيبة ، وأبو جعفر : ﴿إِذَا يُتْلَى﴾ بالياء . و «الآياتُ» هنا الكُتُب المنزلة ، و [سُجَّداً] نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والجمهور : [وَبُكِيًّا] ، قالت فرقة : هو جمع باكٍ ، كما يُجْمَع عاتٍ وجاثٍ عَلَى : عُتِـيٍّ وجُثِـيٍّ ، وقالت فرقة : هو مصدرٌ بمعنى البكاء ، والتقدير : وَبَكوْا بُكِيًّا ، واحتج الطبريُّ ومكيٌّ لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رُوي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال : هذا السجود فأين البُكِـيُّ ؟ يعني البكاءَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واحتجاجهما بهذا فاسد ؛ لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه : فأين الباكون ؟ فلا حجة فيه لهذا ، وهذا الذي ذكروه عن عمر رضي الله عنه ذكره أبو حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ويحي ، والأعمش : [وَبِكِيًّا] بكسر الباءِ ، وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

«الخَلَف» ـ بفتح اللام ـ : القَرْن يأْتي بعد آخر يمضي ، والابن بعد الأَب ، وقد يستعمل في سائر الأُمور ، و «الْخَلْفُ» ـ بسكون اللام ـ إذا كان الآتي مذموماً ، وهذا مشهور كلام العرب ، وقد ذكر عن بعضهم أن الخَلَف والخَلْف بمعنى واحد ، وحجة ذلك قول الشاعر :

لَنَا الْقَدَمُ الأُولى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا ... لِأَوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تابِعُ (١)

(١) البَيْت لحسَّان بن ثابت الأنصاري . وهو في اللسان شاهد على أنَّ (الخَلْف) ـ بسكون اللام ـ هو الآتي بعد الماضي ويكون محموداً ، قال : «والخَلْف : الباقي بعد الهالك ، والتابعُ له ، هو في الأصل أيضاً من خَلَف يَخْلُفُ خَلْفاً ، ويكون محموداً ومذموماً ، فشاهد المحمود قول حسَّان بن ثابت الأنصاري : لنا القدم الأولى ... البيت ... فالخَلْف ها هنا هو التابع لمن مضى ، وليس من معنى الخَلَف الذي هو البدل» ، ثم قال صاحب =

وقرأ الجمهور : ﴿أَضَاعُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ بالإفراد ، وقرأ الحسن : ﴿أَضَاعُوا ٱلصَّلَوَاتِ﴾ بالجمع ، وهو كذلك في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، والمراد بـ «الخَلْفِ» من كفر وعصى بَعْدُ من بني إسرائيل ، وقال مجاهد : المراد النصارى ، خلفوا بعد اليهود ، وقال محمد بن كعب القرظي ، ومجاهد ، وعطاءٌ : هم قوم من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الزمن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

أي : يكون في هذه الأُمَّة مَنْ هذه صفته ، لا أنهم المراد بهذه الآية ، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يكون الخلف بعد ستين سنة) (١) .

= اللسان : «وقيل : الخَلْف هنا المتخلفون عن الأولين ، أي الباقون ، وعليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ، فسمي بالمصدر ، فهذا قول ثعلب ، قال الأزهري : وهو الصحيح» .

(١) أخرجه أحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه كما رواه الإمام السيوطي في الدر المنثور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا هذه الآية : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ، فقال : (يكون خَلْف من بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيّاً ، ثم يكون خَلْف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عرف إلى يوم القيامة .

واختلف الناس في «إضاعةِ الصَّلاةِ» منهم ، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره : كانت إضاعةَ كُفْرٍ وجَحْدٍ بها ، وقال القاسم ابن مخيمرة (١) ، وعبد الله بن مسعود : كانت إضاعة أوقاتها ، و [عدم] (٢) المحافظة على أوانها ، وذكره الطبري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و «الشَّهَوَاتُ» عمومٌ ، وكل ما ذُكر من ذلك فمثال.

و «الغَيُّ» : الخُسْران والحصول في الورطات ، ومنه قول الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لائِماً (٤)

وبه فسَّر ابن زيد رحمه الله هذه الآية . وقد يكون الغَيُّ أيضاً الضَّلال ، فيكون هذا هنا على حذف مضاف تقديره : «يلقون جزاءَ الغيِّ» ،

(١) القاسمُ بن مُخَيْمِرة — بالخاء المعجمة — مُصَغّراً ، أبو عروة الهَمْداني — بالسكون — الكوفي ، نزيل الشام ، ثقة ، فاضل ، من الثالثة ، مات سنة مائة . (تقريب التهذيب) .

(٢) زيادة تقتضيها سلامة التعبير .

(٣) البيت للمرقّش الأصغر ، وهو ربيعة بن سفيان بن سعد ، وهو ابن أخٍ للمرقّش الأكبر ، وعمُّ طرفة بن العبد ، وقد عشِق فاطمة بنت المنذر ، وعرف بأنه من عشاق العرب ، وهو أشعر المرقشيْن وأطولهما عُمْراً ، والبيت من قصيدة له يصف فيها حبه لفاطمة ، ويتحدث عن قصة ترويها كتب الأدب ، ويمكن الرجوع إليها في المفضليات . واستشهد بهذا البيت في اللسان على أن الغي هو الضلال .

وبه فسَّر الزجاج . وقال عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن مسعود : الغَيُّ وادٍ في جهنم ، وبه وقع التوعُّد في هذه الآية . وقيل : الغَيُّ [والآثام](١) نهران في جهنم ، رواه أبو أُمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢) .

قوله : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ استثناءٌ يحتمل الاتصال والانفصال ، وقوله : [وَآمَنَ] يقتضي أن الإضاعة أوَّلاً هي إضاعةُ كفر ، هذا مع اتصال الاستثناء ، وعليه فسَّر الطبري . وقرأ الجمهور : [يُدْخَلُونَ] بضم الياءِ وفتح الخاءِ ، وقرأ الحسن كلَّ ما في القرآن [يَدْخُلُونَ] بفتح الياءِ وضم الخاءِ .

قوله تعالى : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قرأ جمهور الناس : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بنصب الجنَّات على البدل من ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ ، وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر ، وأبو حيوة برفعها على تقدير : ذلك ، وقرأ علي

---

(١) زيادة ليست في الأصول ولكنها في حديث أمامة ، ويقتضيها التعبير .

(٢) أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي أُمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن صخرة زنة عشر أواقٍ قُذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وآثام ، قلت : وما غيٌّ وآثام ؟ قال : نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكر الله في كتابه : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ . (الدر المنثور) .

ابن أَبي طالب رضي الله عنه : [جَنَّةَ] على الإفراد والنصب ، وكذلك في مصحف عبد الله بن مسعود ، وقرأها الأعمش . و «العَدْنُ» : الإقامة المستمرة ، وقوله : [بِالْغَيْبِ] أي : أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم ، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعاينوا ، و «الْمَأْتِـيُّ» مفعول على بابه ، والأَتِـيُّ هو الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد ، وكان إتيانه إنما يقصد به الوعد الذي تقدمه ، وقالت جماعة من المفسرين : هو مفعول في اللفظ بمعنى : آتٍ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، والنظر الأول أصوب .

و «اللَّغْوُ» : السَّقط من القول ، وهو أنواع مختلفة كلُّها ليست في الجنة ، وقوله : ﴿إِلَّا سَلَاماً﴾ استثناءٌ منقطع ، والمعنى : لكن يسمعون سلاماً ، وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات ، وقوله : ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريد في التقدير ، أيْ : يأْتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمان ، ويروى أن أَهل الجنة تنْسَدُّ لهم الأَبواب بقدر الليل في الدنيا ، فهم يعرفون البُكْرة عند انفتاحها والعَشِيَّ عند انسدادها ، وقال مجاهد رحمه الله : ليس بُكْرَةً ولا عَشِيًّا ، ولكن يُؤْتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقد ذكر نحوه قتادة ، أَن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاهة العيش ، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأْتي على أكمل وجوهه . قال الحسن : خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أَفضل العيش ، وذلك أَن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرَّة في اليوم ، وهي غايته ، وكان أَكثر عيشهم من شجر البَرِّيَّة ، ومن الحيوان ، ونحوه ، أَلا ترى قول الشاعر :

أَوْ وَجْبَـةٌ مِنْ جَناةِ أَشْـكَلَةٍ ... إنْ لَمْ يُرِغْهَا بالْقَوْسِ لَمْ تُنَلِ (١)

الوجبة : الأَكْلَة في اليوم .

---

(١) الوَجْبَةُ : الأَكْلَة في اليوم والليلة ، وفي حديث الحسن : «يطعم عشرة مساكين وجْبَةً واحدةً» ، والأَشْكَلَةُ : واحدة الأَشْكَل وهو السِّدْرُ الجبلي ، وفي اللسان (شكل) : «قال أبو حنيفة : أخبرني بعض العرب أن الأشكل شجر مثلُ شجر العُنَّاب في شوكه وعَقَفِ أغصانه ، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً ، وهو صُلْب جداً ، وله نُبَيْقَة حامضة شديدة الحموضة ، منابته شواهق الجبال ، تُتَّخذ منه القِسِيُّ ، وإذا لم تكن شجرته عتيقة متقادمة كان عودها أصفر شديد الصفرة ، وإذا تقادمت شجرته جاء عودها نصفين ، نصف شديد الصفرة ، ونصف شديد السواد» . ويُرِغْها : يطلبها ويريدها ، من أراغ بمعنى أراد وطلب . والنصف الأول من البيت شاهد في اللسان على أن الأشكلة هي السِّدرة الجبلية ، وهو غير منسوب . والشاعر يصف أكلة العربي في البادية بأنها مرة واحدة في اليوم ، وأنها من شجر البرية ، ولا يحصل عليها إلا ببحث ومشقة وتعب .

وقرأ الجمهور : [نُورِثُ] بسكون الواو ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة : [نُوَرِّثُ] بفتح الواو وشدِّ الراءِ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ بالنون ، كأن جبريل عليه السلام عنى نفسه والملائكة ، وقرأ الأعرج : ﴿وَمَا يَتَنَزَّلُ﴾ بالياءِ على أنه خبر من الله تعالى أن جبريل لا يتنزّل ، قال هذا التأْويل بعضُ المفسرين ، ويردُّه قوله : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ لأنه لا يطَّرد معه ، وإنما يتَّجه أن يكون خبراً من جبريل عليه السلام أنَّ القرآن لا يتنزّل إلَّا بأَمر الله تبارك وتعالى في الأَوقات التي يقدرها ، ورُويت قراءة الأعرج بضم الياءِ ، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه : «إلَّا بقول رَبِّكَ» .

(١) وهي أيضاً قراءة رُوَيس ، وحُمَيْد ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، وقرأ الأعمش : [نُورِثُهَا] بإبراز الضمير العائد على الموصول .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : سبب هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطأ عنه جبريل مرة ، فلمّا جاءه قال له : (يا جبريل قد اشتقت إليك ، أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا) ؟(١) فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد ، والضحاك : سببها أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم عند قوله في الأسئلة المتقدمة في سورة الكهف(٢): (غداً أُخبركم) حتى فرح بذلك المشركون ، واهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءه جبريل عليه السلام ، فنزلت هذه الآية في ذلك المعنى ، فهي كالتي في الضُّحى (٣) .

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : حديث حسن غريب ، ورواه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وجاء في روايته أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية ، وذكرالسيوطي في « الدر المنثور » أن هذا الحديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في الدلائل .

(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إلاَّ أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ﴾ .

(٣) يعني قوله تعالى : ﴿وَٱلضُّحَى وَٱللَّيْلِ إذَا سَجَى مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ . وهذا الحديث أخرجه ابن جرير عن مجاهد ، وأخرج نحوه سعيدُ بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد . (راجع الدر المنثور) ، قال الإمام السيوطي : إن هذا القول قال به أيضاً عكرمة ، ومقاتل ، والكلبي . ولكنهم اختلفوا في المدة التي تأخرها جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذه الواو التي في قوله : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أُخرى ، وواصلةٌ بين القولين ، وإن لم يكن معناهما واحداً ، وحكى النقاش عن قوم أن قوله تعالى : ﴿وَمَا نَتنزَّلُ﴾ متصل بقوله : ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لفظٌ يحتاج إلى ثلاث مراتب ، واختلف المفسرون فيها - فقال أبو العالية : ما بين الأَيدي : الدنيا بـأَسرها إلى النَّفخة الأُولى ، وما خَلْفُ : الآخرة إلى وقت البعث ، وما بين ذلك : ما بين النفختين . وقال ابن جريج : ما بين الأَيدي هو ما مرَّ من الزمن قبل إيجاد من في الضمير ، وما خَلْفُ هو ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة ، وما بين ذلك هو مدَّة الحياة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكته ، وأنَّ قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بـأَمره ، وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو لخدمته ؛ إذ الأَمكنة له وهُمْ له ، فلو ذُهب بالآية إلى أن المراد

بما بين الأَيدي وما خلف الأَمْكِنَةُ التي تصرُّفهم فيها ، وأن المراد بما بين ذلك هُمْ أنفسهم ومقاماتهم – لكان وجهاً ، كأنه قال : نحن مُقَيَّدُون بالقدرة ، لا ننتقل ولا نتنزَّل إلَّا بأَمر ربك (١) .

وقال ابن عباس ، وقتادة – فيما رُوي وما أراه صحيحاً عنهما – : ما بين الأَيدي هي الآخرة ، وما خَلْف هي الدنيا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا محتمل المعنى إلَّا على التشبيه بالمكان ، كأَن ما بين اليد إنما هو ما تقدم وجوده في الزمان بمثابة التوراة والإنجيل من القرآن ، وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم ، وهذه المقالة هي للملائكة ، فتأَمَّلْـــه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أَيْ ممَّن يلحقه نسيان لِبَعْثِنا إليك في وقت المصلحة به ، فإنما ذلك عن قدَرٍ له ، أي : فلا تطلب أنت يا محمد من الزيارة أكثر مما شاءَ الله ، هذا على ما تقتضيه قوة

(١) قال أبو حيان في البحر : «وما قاله ابن عطية ذهب إلى نحوه الزمخشري ، قال : له ما قدامنا وما خلفنا من الجهــات والأماكن ، وما نحن فيه ، فلا نملك إلا أن ننتقل من جهة إلى جهة ، ومن مكان إلى مكان إلاَّ بأمر المليك ومشيئته ، والمعنى أنه محيط بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية» .

الكلام على التأْويل الواحد ، أَو فلا تهتم يا محمد بتأَخري ، ولا تلتفت إلى فرح المشركين بذلك على التأْويل الثاني . و [نَسِيًّا] فعيلٌ من النسيان والذهول عن الأُمور ، وقالت فرقة : [نَسِيًّا] معناه : تاركاً .

قال القاضي أَبو محمد رحمة الله :

وفي هذا ضعف لأَنه إنما نفى النسيان مطلقاً ، فيتمكن ذلك في النسيان الذي هو نص ، وأَما التَّرْكُ فلا ينْتفي مطلقاً ، أَلَا تَرى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ (٢) ، فلو قال : نَسِيَكَ ، أَو نحوه من التَّقْييد لم يصح حمله على الترك ، ولا حاجة بنا إلى أَن نقول : إن التَّقْييد في النِّيَّة لأَن المعنى الآخر أَظهر . وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه : «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا نَسِيكَ رَبُّكَ» ، وروى أَبو الدرداءِ أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حرام ، وما سكت عنه فهو عافيته فاقبلوا) ، ثم تلا هذه الآية (٣).

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة (البقرة) : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .

(٢) من الآية (٩٩) من سورة (الكهف) .

(٣) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبزار ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، والحاكم وصححه ، عن أبي الدرداء ، وذكر الإمام السيوطي في « الدر المنثور » أن =

قوله تعالى : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية . [رَبُّ] بدل من قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ ، وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أَمْرٌ بحمل تكاليف الشرع وإشعارٌ مَّا بصعوبتها ، كالجهاد والحج والصدقات ، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار ، أعاننا الله عليها .

وقرأ الجمهور : ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ بإظهار اللام ، وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء ، وهي قراءة عيسى ، والأعمش ، والحسن ، وابن محيصن . قال أبو عليٍّ : سيبويه يجيز إدغام اللام في الطاء والتَّاء والذال والثاء والصاد والزاي والسين ، وقرأ أبو عمرو : ﴿هَل ثُّوِّبٌ﴾(١) بإدغامها في الثاء وإدغامها في التَّاء أحق لأنها أدخل معها في الفم ، ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي :

فَـــذَرْ ذا وَلَكِنْ هَتُّعِينُ مُتَيَّمـــاً ... عَلَى ضَوْءِ بَرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ نَاصِبِ؟(٢)

= أبا الدرداء رفع الحديث ، قال : (ما أَحَلَّ الله في كتابه فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ .)

(١) من الآية (٣٦) من سورة (المطففين) ، وفي البحر المحيط أن الجمهور قرأ : ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ بإظهار لام هَلْ ، والنحويان ، وحمزة ، وابن محيصن بإدغامها في الثاء . والنحويان هما أبو عمرو بن العلاء ، وعليُّ بن حمزة الكسائي .

(٢) مُزاحم بن الحارث العقيلي شاعر إسلامي ، كان بدويّاً فصيحاً ، وكان في زمن جرير والفرزدق ، وكان جرير يقرظه ويقدمه ، والبيت في الكتاب لسيبويه ، والرواية فيه : «فَدَعْ ذا» ، والمُتَيَّم : الذي تَيَّمه الحبُّ واستعبده ، والنَّاصب : المُنْصِب المُتْعِب ، وهو غير جار على فعله ؛ لأن الفعل (أنصب) فهو منصب ، وإنما هو على النسب كتامرٍ ولابنٍ . وقد جعل البرقَ مُتْعِباً له لما يعانيه من مراعاته وتعرف المكان الذي ينزل فيه مطره ، هل يكون =

وقوله : [سَمِيًّا] قال قومٌ ـ وهو ظاهر اللفظ ـ : معناه : موافقاً في الاسم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، أي : هل تعلم من يُسَمَّى بهذا ويُوصف بهذه الصفة ؟ وذلك أن الأُمم (١) لا يُسَمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى ، وأما الأُلوهية والقدرة فقد يوجد السميُّ فيها ، وذلك باشتراك لا بمعنى واحد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [سَمِيًّا] معناه : مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ حسن ، وكأن السَّمِـيَّ بمعنى المسامي والمضاهي ، فهو من السُّمُوِّ ، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدَّم في ذكر يحيى عليه السلام (٢) .

في مكان المحبوب أم في غيره ، ولهذا سأل أن يُعَانَ على مراعاته ، أو طلب من يعينه على السهر معه لما يحدثه البرق من شجو وحنين . والشاهد فيه إدغام اللام في التاء ، أي : لام (هل) في تاء (تُعينُ) لأنهما متقاربان في المخرج ، إذ هما من حروف طرف اللسان الصعبة في النطق ، فهي أحوج إلى الإدغام من غيرها ، ولهذا فإن بعض القراء أدغم اللام في التاء في قوله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فقرأ : [بَتُّؤْثِرُونَ] .

(١) في بعض النسخ : «وذلك أن الأمم والفرَق» .

(٢) أي في قوله تعالى قبل ذلك : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾

[ٱلْإِنْسَانُ] اسم للجنس يُراد به الكافرون ، ورُوي أن سبب هذه الآية هو أن رجالاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه ، ورُوي أن القائل هو أُبيٌّ بن خلف ، جاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رفات ونفخ فيه وقال : أَيبعث هذا ؟ وكذَّب وسخر ، وقيل : إن القائل هو العاصي بن وائل ، وقرأ الأَعرج ، وأبو عمرو : [أَئِذَا] بالاستفهام الظاهر ، وقرأت فرقة : [إِذَا] دون ألف استفهام ، وقد تقدم هذا مستوعَباً (١) . وقرأت فرقة : [مِتُّ] بكسر الميم ، وقرأت فرقة بضمها . واللام في قوله : [لَسَوْفَ] مجلوبة على الحكاية لكلام معلَّم بهذا المعنى ،

(١) قرأ الجمهور [أَئِذَا] ، وقرأ ابن زكوان وجماعة [إِذَا] على الخبر ، وقد تقرر ذلك في كثير من الآيات ، وقد قال أبو حيان في البحر المحيط : « ومن قرأ من القراء على صورة الخبر فلا يريد الخبر حقيقة لأن ذلك يكون تصديقاً بما هو موضع الاستفهام والإنكار ، لكنه يحذف همزة الاستفهام لدلالة المعنى عليه » .

كأَن قائلاً قال لكافر : إذا مِتَّ يا فلان لسوف تخرج حَيًّا ، فقرَّره الكافر على جهة الاستبعاد ، وكرر الكلام حكاية للقول الأَول (١).

وقرأَ جمهور الناس : [أُخْرَجُ] بضم الهمزة ، وقرأَ الحسن - بخلاف - وأَبو حيوة : [أَخرُجُ] بفتح الهمزة وضم الراءِ .

وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ﴾ الآيَةَ احتجاجٌ ، خاطب الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم رادًّا على مقالة الكافر . وقرأَ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ﴾ ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿أَوَ لَا يَذَّكَّرُ﴾ بشد الذال والكاف ، وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه : ﴿أَوَ لَا يَتَذَكَّرُ﴾ ، والنشأَة الأُولى والإخراج من العدم إلى الوجود أَوضح دليل على جواز البعث من القبور ، ثم قرَّرَ ذلك وأَوجبه السمعُ ، وفي قوله سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ دليلٌ على أَن المعدوم لا يُسَمَّى شيئاً ، قال أَبو علي الفارسي : أَراد شيئاً موجوداً .

---

(١) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام في البحر المحيط ، ثم عقب عليه بقوله : « ولا يُحتاج إلى هذا التقدير ، ولا إلى أن هذا حكاية لقول تقدم ، بل هذا من الكافر استفهام فيه معنى الجحد والإنكار ، ومن قرأ : ﴿إذَا مَا مِتُّ﴾ تكون الهمزة قد حذفت لدلالة المعنى عليها ، وقد يكون إخباراً على سبيل الهُزْءِ والسُّخْرِية بمن يقول ذلك إذ لم يرد به مطابقة اللفظ للمعنى » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه نزعة اعتزالية فتأملها .

وقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ الآيَةَ وعيدٌ يكون ما بعده على أصعب وجوهه ، والضمير في قوله : [لَنَحْشُرَنَّهُمْ] ، عائد على الكفار القائلين ما تقدم ، ثم أخبر أنه يقرن بهم الشياطين المُغْوِينَ لهم ، وقوله : [جِثِيًّا] جمع جاثٍ كقاعد وقعود وجالس وجلوس ، وأصله : جُثُوواً ، وليس في كلام العرب واوٌ متطرفة قبلها ضمة فوجب أن تُعَلَّ ، ولم يُعتَدَّ ها هنا بالساكن الذي بينهما لِخفَّته وقِلَّة حوله فقلبت ياءً فجاءَ جُثُوياً ، فاجتمع الواو والياءُ وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياءً ، ثم أُدغمت الياءُ في الياءِ ثم كسرت الثاءُ للتناسب بين الكسر والياءِ . وقرأ الجمهور [جُثُيًّا] و [صُلِيًّا](1) بضم الجيم والصاد ، وقرأ ابن وثاب والأعمش : [جِثِيًّا] و [صِلِيًّا] بكسر الجيم والصاد . وأخبر الله تعالى أنه يُحضر هؤلاءِ المنكرين للبعث مع الشياطين فيجثون حول جهنم ، وهي قعدة الخائف الذليل على ركبتيه كالأسير ونحوه ، وقال قتادة : [جِثِيًّا] معناه : على ركبهم ، وقال ابن زيد : الجثي شرُّ الجلوس .

---

(1) في قوله تعالى بعد ذلك بآية واحدة : ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً﴾ ، ونُعَقِّب على كلام المؤلف بأن قراءة عاصم في رواية حفص بالكسر في الكلمتين.

و «ٱلشِّيَعَةُ» : الفرقة المرتبطة بمذهب واحد ، المتعاونة فيه ، كأن بعضهم يشيع بعضاً ، أيْ ينَبِّه منه ، ومنه تشييع النار بالحطب ، وهو وَقْدُهَا بالحطب شيئاً بعد شيء ، ومنه قيل للشجاع : مشيع القلب ، فأخبر الله تعالى أنه ينزع من كل شيعة أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار ، وقال أبو الأحوص : المعنى : نبدأُ بالأكابر جُرْماً . ثم أخبر تعالى في الآية بَعْدُ أنه أعلم بمستحقِّي ذلك وأبصر ؛ لأنه لم يَخْف عليه حالهم من أولها إلى آخرها .

وقرأ بعض الكوفيين ، ومعاذ بن مسلم ، وهارون القارئ : [أَيَّهُمْ] بالنصب ، وقرأ الجمهور : [أَيُّهُمْ] بالضم ، إلَّا أن طلحة والأعمش سكَّنا ميم [أَيُّهُمْ] ، واختلف الناس في وجه رفع (أَيٌّ) - فقال الخليل : رَفْعُه على الحكاية بتقدير : الذي يُقال فيه من أجل عُتُوِّه : أَيُّهُمْ أَشَدُّ ، وقرنه بقول الشاعر :

ولَقَدْ أَبيتُ منَ الْفَتَاةِ بِمَنْزِلٍ فَأَبِيتُ لَا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ (١)

أي : فأَبيتُ يقال فيَّ : لا حرِجٌ ولا محروم ، ورجَّح الزجاج قول

---

(١) البيت للأخطل ، وهو في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، والخزانة ، والإنصاف ، وروح المعاني ، والقرطبي ، و «بمنزلٍ» : في مكان قريب مكين ، لا حرجٌ : لا أتحرج من لذة ، ولا محروم : لا أُحرَم ما اشتهي ، والشاهد فيه أنه رفع «حرجٌ ومحرومٌ» ، وكان وجه الكلام أن ينصبا على الحال . وفي البيت من الخلاف مثل ما في إعراب الآية الكريمة .

الخليل ، وذكر عنه النحاسُ أنه غَلَّط سيبويه في هذه المسألة (١) ، قال سيبويه : ويلزم على هذا أن يجوز : «اضرب السارق الخبيثُ» ، أي الذي يقال له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس بلازم ؛ من حيث هذه أسماءٌ مفردة والآية جملة ، وتسلُّط الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة ، ومذهب سيبويه أن [أَيُّهُمْ] مبني على الضمِّ ؛ إذ هي أُخت لـ «الذي» ولـ «ما» ، وخَالَفَتْهُما في جواز الإضافة فيها فأُعربت لذلك ، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت إلى البناء ، وكان التقدير : أَيُّهُمْ أَشَدُّ . وقال أبو علي : حُذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناءُ ، وقال يونس : عُلِّق عنها الفعل فارتفعت بالابتداء ، قال أبو علي : معنى ذلك أنه يعمل في موضع ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ إلَّا أنه ملغى لأنه تعلق جملة ، إلَّا أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه . وقال الكسائي : [لَنَنْزِعَنَّ] معناه : لَنُنَادِيَنَّ ، فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعمل في [أي] . وقال المبرد : [أَيُّهُمْ] متعلق بـ [شِيعَةٍ] فلذلك ارتفع ، والمعنى : من الذين تشايعوا أَيُّهم أَشد ، كأَنهم يتبارون إلى هذا .

---

(١) نقل عنه القرطبي أنه قال : «وما علمتُ أحداً من النحويين إلا وقد خطّأ سيبويه في هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يَتَبينُ لي أن سيبويه غلط في كتابه إلاّ في موضعين هذا أحدهما ، قال : وقد علمنا أن سيبويه أعرب (أيّاً) مُفْرِدة لأنها تضاف ، فكيف يبنيها وهي مضافة ؟» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويلزمه أن يقدر مفعولاً لـ [نَنْزِعَنَّ] محذوفاً .

وقرأ طلحة بن مصرف : «أَيُّهُمْ أكبر» . و [عِتِيًّا] مصدر ، وأصله : عتووا ، أُعِلَّ بما أُعل به [جِثِيًّا] ، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : ينذلقُ عُنُقٌ من النار فيقول : إنِّي أُمرت بكل جبَّار عنيد ، فتلفظهم ... الحديث (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

أي : نحن في ذلك النَّزع لا نضع شيئاً في غير موضعه ؛ لأننا قد أحطنا علماً بكل أحد ، والأَوْلى بصلي النار نعرفه ، و «الصِّلِــيُّ»

---

(١) أخرجه الترمذي ، والإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه في رواية ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في رواية أخرى . ولفظه كما رواه عن أبي سعيد (٣-٤٠) : (عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يخرج عنق من النار يتكلم ، يقول : وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة : بكل جبار ، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر ، وبمن قتل نفساً بغير نفس ، فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم) .

مصدرُ صَلِـــيَ يَصْلَى إذا باشر . قال ابن جريج : المعنى : أَوْلى بالخلود .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ حَتْمٌ ، والواو تقتضيه ، ويفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من ماتَ له ثلاثة من الولد لم تمسَّه النَّارُ إلَّا تحِلَّة القَسَم)(١) . وقرأَ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعكرمة ، وجماعة : ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ﴾ بالهاءِ ، على إرادة الكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فلا شَغْب في هذه القراءَة .

وقالت فرقة من الجمهـور القارئين [مِنْكُمْ] : المعنى : قلْ لهم يا محمد ، فإنما المخاطب بـ [مِنْكُمْ] الكفرةُ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتـأْويل هؤلاءِ أيضاً سهل التناول .

وقال الأَكثر : المخاطبُ العالَمُ كلُّه ، ولا بُدَّ من ورود الجميع ، واختلفوا في كيفية ورود المؤمنين ـ فقال عبد الله بن مسعود ،

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرج الطبراني نحوه عن عبد الرحمن بن بشير الأنصاري رضي الله عنه . (الدر المنثور) . والحديث يدل على أنه أيضاً يرد النار ، والورود له معان سيذكرها ابن عطية ، وأقربها أنها ستكون برداً وسلاماً على المؤمنين .

وعبد الله بن عباس ، وخالد بن معدان ، وابن جريج ، وغيرهم : وُرود دخولٍ ، لكنها لا تعدو على المؤمنين ، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَوْا منه . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي : أَمَّا أنا وأنت فلابُدَّ أَن نردها ، أَما أَنا فينجيني الله منها ، وأَما أَنت فما أَظنه يُنجيك ، وقالوا : في القرآن أَربعة أَوْراد معناها الدخول ، هذا أَحدها ، وقوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(٣) ، وقالوا : كان دعاءُ بعض السَّلَف : «اللَّهم أدخلني النَّار سالماً ، وأَخرجني منها غانماً» ، وروى جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (الورود في هذه الآية هو الدخول)(٤) ،

(١) من الآية (٩٨) من سورة (هود) .

(٢) الآية (٨٦) من هذه السورة (مريم) .

(٣) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء) .

(٤) أخرجه أحمد ، وعَبْد بن حميد ، والحكيم الترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين =

وأشفق كثير من العلماء من تحقيق الورود والجهل بالصدور (١) .

وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب ، كما تقول : «وردت الماء» إذا جئته ، وليس يلزم أن تدخل فيه ، قالوا : وحَسْبُ المؤمنين بهذا هوْلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ (٢) .

وروت فرقة أن الله تعالى يجعل النار يوم القيامة خامدة الأَعْلَى كأَنها إهالة ، فيأْتي الخلق كلهم بَرُّهم وفاجرهم ، فيقعون عليها ، ثم تسوخ بأَهلها ، ويخرج المؤمنون الفائزون ولم ينلهم ضر ، فقالوا : هذا هو الورود .

= اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله ، فذكرت له ، فقال – وأَهْوَى بإصبعيه إلى أذنيه صمتاً – إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيّاً) .

(١) روي أن ابن رواحة أراد الخروج إلى الشام ، فأتاه المسلمون يودعونه ، فبكى ، فقال : والله ما بي حب الدنيا ، ولا صبابة لكم ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ ، فقد علمت أنّي وارد النار ، ولا أدري كيف الصدور بعد الورود ، وعن الحسن أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه : هل أتاك أنّكَ وارد ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هل أتاك أنّك خارج ؟ فيقول : لا ، فيقول : ففيم الضّحك إذاً ؟

(٢) من الآية (٢٣) من سورة (القصص) .

وروت حفصة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية) ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأين قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فَمَه ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ (١)) ، ورجَّح الزَّجاج هذا القول بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (٢) .

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نُسخ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، وليس هذا موضع نسخ .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : وُرودُهُم هو جوازهم على الصراط ، وذلك أن الحديث الصحيح تضمن أن الصراط مضروب

---

(١) أخرجه مسلم ، من حديث أمّ مُبَشِّر ، قالت : سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة الحديث ، وزاد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن سعد ، وأحمد ، وهناد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، والطبراني ، وابن مردويه . هذا وأمُّ مُبَشِّر هي امرأة زيد بن حارثة .

(٢) الآية (١٠١) من سورة (الأنبياء) .

على جسر جهنم ، فيمر الناس كالبرق الخاطف ، وكالرِّيح ، وكالجواد من الخيل ، وعلى مراتب ، ثم يسقط الكفار في جهنم وتأْخذهم كلاليب [١] ، قالوا : فالجواز على الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية .

وقال مجاهد : وُرودُ المؤمنين هو الْحُمَّى التي تصيبهم في دار الدنيا ، وفي الحديث (الحُمَّى من فَيْح جهنم ، فَأَبْرِدوها بالماء) [٢] ، وفي الحديث أيضاً (الحُمَّى حظ كل مُؤمِنٍ من النار) [٣] ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل عاده من الحُمَّى :

---

(١) أخرجه أحمد ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، والترمذي ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود أيضاً ، وأخرج نحوه عن ابن مسعود أيضاً ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه . (ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور) .

(٢) أخرجه مسلم في السلام ، وابن ماجه في الطب ، وأحمد (٥–٢١٦ ، ٦–٣٤٦) ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن رافع بن خديج ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الحمَّى فورٌ من جهنم فأبردوها بالماء) .

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد ، قال : (الحمَّى حظ كل مؤمن من النار) ، ثم قرأ : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ ، هكذا ذكر في «الدر المنثور» ، وهو غير مرفوع .

(إن الله يقول : هي ناري أُسَلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة)(١) ، فهذا هو الورود .

و «الْحَتْمُ» : الأمر المنفذ المجذوم (٢) ، وقرأ أُبَيٌّ بن كعب ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : [ثَمَّ] بفتح الثاء على الظرف ، وقرأ ابن أبي ليلى : [ثَمَّه] بفتح الثاء وهاء السكت ، وقرأ نافع وابن كثير ، وجمهور الناس : [نُنَجِّي] بفتح النون الثانية وشد الجيم ، وقرأ يحي ، والأعمش : [نُنْجِـي] بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم ، وقرأت فرقة : [نُجِّي] بضم النون الواحدة وشد الجيم وكسرها ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [ثَمَّ] بفتح الثاء [نُحِّيَ] بالحاء غير منقوطة .

و ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ معناه : اتقوا الكفر . وقال بعض العلماء : «لا يضيع أَحدٌ بين الإيمان والشفاعة» ، و [نَذَرُ] دالَّة على أنهم كانوا فيها ، و «الظُّلْمُ» هنا هو ظُلْم الكفر . وقد تقدم القول في قوله : [جِثِيًّا] ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مِنْهَا وَنَتْرُكُ ٱلظَّالِمِينَ» .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) هذا رأي مجاهد وآخرين ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الحَتْمُ الْمَقْضيُّ : القَسَم الواجب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾

قرأ الأعرج ، وابن محيصن ، وأبو حيوة : ﴿وَإِذَا يُتْلَى﴾ بالياء من تحت .

وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأ المؤمن عليه القرآن ، ويبهره بآيات النبي صلى الله عليه وسلم ، كان الكافر منهم يقول : إن الله إنما يُحسْن لأحب الخلق إليه ، وإنما يُنْعم على أهل الحق ، ونحن قد أنعم علينا دونكم ، فنحن أغنياءُ وأنتم فقراءُ ، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارةً ، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله تعالى : ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ ؟

وقرأ نافع ، وابن عباس رضي الله عنهما : [مَقَاماً] بفتح الميم ، و ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ (١) بالفتح أيضاً ، وهو المصدر من قام ، أو الظرف

---

(١) من قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة (الأحزاب) : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ .

منه في (١) موضع القيام . وهذا يقتضي لفظ المَقَامِ ، إلَّا أن المعنى في هذه الآية يجوز أنه واقع على الظرف فقط ، وقرأ أُبَيٌّ رضي الله عنه : «في مُقَام أمين» (٢) ، بضم الميم ، وقرأ ابن كثير : [مُقَاماً] بضم الميم ، وهو ظرف من أقام ، وكذلك أيضاً في المصدر منه مثل ﴿مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (٣) ، وقرأ : ﴿في مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ و ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ بالفتح ، وقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم جميعَهُنَّ بالفتح ، وروى حفصٌ عن عاصم ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم .

و «النَّدِيُّ» والنَّادي : المجلس فيه الجماعة ، ومنه قول حاتم الطائي :

وَدُعِيتُ في أُولى النَّـــدِيِّ وَلَمْ يُنْظَرْ إليَّ بِأَعْيُنٍ خُـــزْرِ (٤)

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ مخاطبة من الله تبارك وتعالى لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم ، خبر يتضمن كسر حُجَّتهم واحتقار

---

(١) في بعض النسخ «أي» بدلا من «في» وهى أشبه .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٥١) من سورة (الدخان) : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ .

(٣) من الآية (٤١) من سورة (هود) .

(٤) البيت من أبيات قالها حاتم يمدح بني بدر ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (خزر) ، والنَّدِيُّ : المجلسُ ما دام القوم مجتمعين فيه ، والجمع : الأندية . والخُزْرُ : جمع خَزْراء ، وهو ضيق العين ، وقيل : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظر بمؤخرها . والبيت هنا شاهد على أن النَّدِيَّ هو المجلس فيه الجماعة

أمرهم ؛ لأن التقدير : هذا الذي افتخروا به لا قَدْر له عند الله ، وليس بِمُنْجٍ لهم ، فكم أهلك الله من الأُمم لمَّا كفروا وهم أَشَدُّ من هؤلاءِ وأكثر أموالاً وأجمل منظراً . و « القَرْنُ » : الأُمَّة يجمعها العصر الواحد ، واختلف الناس في قدر المُدَّة التي إذا اجتمعت أُمة سُمِّيت تلك الأُمة قرناً – فقيل : مائة سنة ، وقيل : ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقد تقدم القول في هذا غير مرة . و « الأَثاثُ » : المالُ العَيْن والعَرَض والحيوان ، وهو اسمٌ عام ، واختلف ، هل هو جمع أو إفراد ؟ فقال الفراءُ : هو اسمٌ جَمْع لا واحد له من لفظة كالمتاع ، وقال خلف الأحمر ، هو جَمْعٌ واحده أثاثة ، كحمامَةٍ وحمامٍ ، ومنه قول الشاعر :

أَشَاقَتْكَ الظَّعـائِنُ يَـوْمَ بانُوا بِذِي الرِّئْي الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ ؟[1]

---

(١) البيت لمحمد بن نمير الثقفي ، وأنشده أبو عبيدة ، وهو في ، القرطبي والطبري ، واللسان ، والكامل ، وقد قاله الشاعر من أبياتٍ يُشبب فيها بزينب أُخْتِ الحجاج بن يوسف الثقفي ، فتوعَّده فهرب منه ، والقصة في الكامل للمبرد ، والظَّعائن : جمع ظعينة ، وهي الزوجة في الهودج عند الرحيل ، وبانُوا : سافروا وابتعدوا ، والرِّئْيُ : المنظر ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ، هذا إذا كانت الكلمة مهموزة ، قال الفراءُ في الآية : « أهلُ المدينة يقرؤونها : [رِيّاً] بغير همز ، قال : وهو وجه جيِّدٌ من رأيت » . والبيت هنا شاهد =

وأنشد أبو العباس :

لَقَدْ عَلِمَتْ عُرَيْنَةُ حَيْثُ كانُوا بِأَنَّا نَحْنُ أَكْثَرُهُمْ أَثَاثاً (١)

وقرأ نافع ـ بخلاف ـ وأهل المدينة : [وَرِيًّا] بياءٍ مشددة ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه ، وطلحة : [وَرِياً] بياءٍ مخففة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [وَرِئْياً] بهمزة بعدها ياءٌ ، على وزن رِعْياً ، ورويت عن نافع ، وابن عامر ، رواها أشهب عن نافع ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : [وَرِيْئًا] بياءٍ ساكنة بعدها همزة ، وهو على القلب ، وزنها فِلْعًا ، وكأنه من راءَ(٢) ، وقال الشاعر :

= على أن الأثاث هو المتاع وما كان من مالٍ ، وقيل: هو كثرة المال ، أو هو المال كله : الإبل والغنم والعبيد والمتاع .

(١) عُرَيْنَةُ حيٌّ من اليمن ، وعَرِين حيٌّ من تميم ، ولهم يقول جرير :

عَرِينٌ مِنْ عُرَيْنَةَ لَيْسَ مِنَّا بَرِئْتُ إلى عُرَيْنَةَ مِنْ عَرِين

والأثاث في الأصل : الكثرةُ والعِظَمُ من كلِّ شيءٍ ، وهو هنا الكثير من المال ، بل قيل : هو المالُ كله ، وما كان من لِباسٍ وحشو للفراش فاسْمُه المتاع ، وواحدته أثاثةٌ . يفخر الشاعر على عُرينة في كل مكان بأنهم أكثر منهم مالاً ومتاعاً .

(٢) في بعض النسخ : « وكأنه من وراء » ، وما اخترناه هو الصواب .

وكُلُّ خَليلٍ راءَني فَهْوَ قائِلٌ مِنَ ٱجْلِكِ: هذا هامَةُ الْيوْمِ أَوْ غَدِ(١)

فأَما القراءَتان المهموزتان فهما من رؤْية العين ، الرِّئْيُ اسمُ المَرْئي الظاهر للعين كالطِّحْن والسِّقي ، قال ابن عباس : الرِّئي : المنظر ، قال الحسن : ورياً بمعناه ، وأما المشدَّدة الياء فقيل : هي بمعنى المهموزة إلا أن الهمزة خففت لتستــوي رءُوس الآي . وذكر منذر بن سعيد عن بعض أَهل العلم أنه من الــرِّي في السُّقْيا ، كأَنه أَراد أَنهم خيــر منهم بــلاداً وأَطيب أَرضــاً وأَكثر نعماً ؛ إذْ جمــلة النِّعم إنما هي من المطــر ، وأَما القــراءَة المخففة الياء فضعيفة الوجــه ، وقد قيل : هي لحنٌ . وقــرأ سعيــد بن جبير ، ويزيد البربري ، وابن عباس أَيضاً : [وَزِيًّا]

(١) البيت لكثيِّر ، وهو في اللسان (رأى) و (هوم) ، قال : «ويقال : رَاءَهُ في رَآهُ ، قال كُثَيِّر : وكلُّ خليل ... البيت» فهو شاهد على أن رَاءَ لغة في رَأَى ، ووزنه فَلَعَ ، ومثله في ذلك قول قيس بن الخطيم:

فَلَيْتَ سُوَيْداً راءَ مَنْ فَرَّ مِنْهُــــمُ ومَنْ جَرَّ إذْ يَحْدُونَهُمْ بالرَّكَائِبِ

وفي التهذيب : «ومن قلب الهمزة من رَأَى قال : راءَ ، كقولك : نأَى وناءَ» . والهامة أعْلَى الرأس ، وفيه الناصية والقصة ، وفيه المفرق ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُؤخذ بثأره تصير هامةً فتزقو عند قبره ، تقول : اسقوني اسقوني ، ويقال : هذا هامَةُ اليوم أو غدٍ ، أيْ يموت اليومَ أو غداً . فهو قد صار عليلاً بسبب حبها حتى يحسب الرائي أنه سيموت قريباً .

بالزاي ، وهي بمعنى الملبس وهيئته ، تقـول : زَيَّيْتُ بمعنى : زَيَّنْتُ (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ﴾ فقولٌ يحتمل معنيَيْن : أحدهما أن يكون بمعنى الدعاءِ والابتهال ، كأنه يقـول : الأَضَلُّ منا ومنكم مدَّ اللهُ له حتى يـؤُول ذلك إلى عـذابه . والمعنى الآخـر أن يكون بمعنى الخبر كأنه يقـول : من كان ضَـالاً من الأُمم فعـادة الله فيه أن يمد له ولا يعـاجله حتى يُفْـضي ذلك إلى عذابه في الآخرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فاللام في قوله تعالى : [فَلْيَمْدُدْ] على المعنى الأَول لَامُ رغبة في صيغة أمر ، وعلى المعنى الثاني لَامُ أَمر دخلت على معنى الخبر ليكون أَوكد وأقوى ، وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها .

---

(١) وقيل : يجوز أن يكون من زويت بمعنى جمعْتُ ، فيكون أصلها : زوْيًا ، فقلبت الواو ياءً ، قال صلى الله عليه وسلم : زُوِيَتْ لي الأرض ، أيْ جُمِعَت ؛ وقال الأعشى :

يَزِيدُ يَغُضُّ الطَّرْفَ دُوني كَأَنَّمَـا زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ الْمَحَاجِمِ

قوله عزّ وجلّ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا
وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾
كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

[حَتَّى] في هذه الآية حرف ابتداءٍ دخلت على جملة ، وفيها معنى الغاية ، و [إِذَا] شرط ، وجوابها في قوله تعالى : [فَسَيَعْلَمُونَ] ، و «الرُّؤْيَةُ» رُؤْيَة العين ، و [ٱلْعَذَاب] و [ٱلسَّاعَةَ] بدلٌ من [مَا] التي وقعت عليها [رَأَوْا] . و [إِمَّا] هي المدخلة للشك في أول الكلام ، والثانية عطف عليها . و [ٱلْعَذَابَ] يريد به عذاب الدنيا ونُصْرَةَ المؤمنين عليهم ، و «الْجُنْدُ» النُّصْرةُ والقائمون بأَمر الحرب ، و ﴿شَرٌّ مَكَاناً﴾ بإزاءِ قولهم : ﴿خَيْرٌ مَقَاماً﴾ ، و ﴿أَضْعَفُ جُنْداً﴾ بإزاءِ قولهم : ﴿أَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ .

ولما ذكر ضلالة الكفرة ، وارتباكهم في الامتحان بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم ، عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين ، في أنه يزيدهم هدى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة ، والمعرفة بالدلائل الواضحة ، وزيادة العلم دأباً ، قال الطبري عن بعضهم : المعنى : بناسخ القرآن ومنسوخه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا مثـــالٌ .

و ﴿ٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ﴾ إشارةٌ إلى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله ، وهذه النعم على هؤلاءِ خيرٌ عند الله ثواباً وخير مرجعاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول في زيادة الهُدَى سهلٌ بَيِّنُ الوجوه[1] .

و ﴿ٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ﴾ كلُّ عملٍ صالح يرفع الله به درجة عامله ، وقال الحسن : هي الفرائض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

---

(١) سبق بيان ذلك في مواضع مختلفة ، وخلاصة الآراء خمسة : (١) ويزيد الله الذين اهتدوا بالتوحيد إيماناً ، (٢) يزيدهم بصيرة في دينهم ، (٣) يزيدهم إيماناً بزيادة الوحي ، كلما نزلت سـورة زادتهم إيماناً ، (٤) يزيدهم إيماناً بالناسخ والمنسوخ ، (٥) يزيد الذين اهتدوا بالمنسوخ هدىً بالناسخ .

هي الصلوات الخمس ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات المشهورات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلَّا الله ، والله أكبر ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداءِ رضي الله عنه : (خُذْهُنَّ قبل أن يحال بينك وبينهن ، فهُنَّ الباقيات الصالحات ، وهُنَّ من كُنوز الجنَّة)(١) ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً : (خُذُوا جُنَّتكم) ، قالوا : يا رسول الله ، أَمِنْ عدوٍّ حضر ؟ قال : (من النار) ، قالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلَّا الله ، والله أكبر ، هنَّ الباقيات الصالحات)(٢) ، وكان أبو الدرداءِ رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يقول : «لأُهَلِّلَنَّ ولأُكبِّرَنَّ الله ولأُسبِّحَنَّهُ حتى إذا رآني الجاهل ظَنَّني مجنوناً» .

---

(١) أخرج الطبراني ، وابن شاهين في الترغيب في الذكر ، وابن مردويه ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله هُنَّ الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن من كنوز الجنة) . (الدر المنثور) ، وفي رواية لقتادة ذكر نحو ذلك ، ثم زاد عليه أنه قال صلوات الله وسلامه عليه : (خُذْهن إليك يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ، فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام ، وهن الباقيات الصالحات) ، قال القرطبي : ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء ، وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الصغير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كفرَ بِآيَاتِنَا﴾ . الفاءُ في قوله : [أَفَرَأَيْتَ] عاطفة بعد ألف الاستفهام ، وهي عاطفة جملة على جملة ، و ﴿ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ يعني به العاصي بن وائل السهمي ، قاله جمهور المفسرين ، وخبره أن خَبَّاب بن الأَرَتِّ كان قَيْناً (١) في الجاهلية ، فعمل له عملاً ، فاجتمع له عنده دين ، فجاءه يتقاضاه ، فقال له العاصي بن وائل : لا أُنصفك حتى تكفر بمحمد ، فقال خَبَّاب : لا أكفر بمحمد – عليه الصلاة والسلام – حتى يميتك الله ثم يبعثك ، قال العاصي : أَوَ مبعوثٌ أنا بعد الموت ؟ قال خبَّاب : نعم ، قال : فإذا كان ذلك فسيكون لي مالٌ وولد ، وعند ذلك أقضيك دينك ، فنزلت الآية في ذلك (٢) .

وقال الحسن : نزلت في الوليد بن المغيرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد كانت للوليد أيضاً أقوالٌ تشبه هذا الغرض .

---

(١) القَيْن : الحدّاد .

(٢) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والبيهقي في الدلائل ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، عن خبّاب بن الأرتّ ، قال : كنتُ رجلاً قيْناً ... الحديث . (الدر المنثور) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [وَوَلَداً] على معنى اسم الجنس ، بفتح الواو واللام ، وكذلك كل ما في سائر القرآن ، إلَّا في سورة نوح (١) فإنهما قرآ بضم الواو وسكون اللام . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [وَوُلْداً] بضم الواو وسكون اللام ، وكذلك في جميع القرآن ، وقرأ ابن مسعود : «وِلْداً» بكسر الواو وسكون اللام ، واختُلِف مع ضم الواو ـ فقال بعضهم : هو جَمْع وَلَد كأَسَدٍ وأُسْد ، واحتجوا بقول الشاعر :

فَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَــــاشِراً قَدْ ثَمَّرُوا مالاً وَوُلْــداً (٢)

وقال بعضهم : هو مفرد ، واحتجوا بقول الشاعر :

فَلَيْتَ فُــلاناً كانَ في بَطْنِ أُمِّــهِ وَلَيْتَ فُلاناً كانَ وُلْدَ حِمَــارِ (٣)

---

(١) يعني قوله تعالى في الآية (٢١) : ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾ .

(٢) قال هذا البيت الحارثُ بن حِلِّزة ، وهو سابع أبيات قالها يصف غدْر الدهر ، ويُنَدِّد بمن يكنز الأموال ، وهو في اللسان (ولد) ، واستشهد به الفراءُ في (معاني القرآن) ، وقال : والوَلَدُ والوُلْدُ لغتان مثل ما قالوا : العَدَمُ والعُدْمُ .

(٣) هذا البيت في اللسان (ولد) غير منسوب ، وقد استشهد به على أن الوُلْدَ مفرد ، وقد اختلفت الأقوال في الوَلَد والوُلْد ، وذكرها صاحب اللسان ، قال ابن سيدة: الوَلَدُ =

قال أبو عليٍّ رحمه الله : وفي قراءة حمزة والكسائي ما كان مفرداً قصد به المفرد ، وما كان جمعاً قصد به الجمع ، وقال الأخفش : الوَلد : الابن ، والوُلْد : الأهل والوالد ، وقال غيره : الوَلَد : بطن الرجل الذي هو منه ، حكاه أبو علي في الحجة .

وقوله تعالى : ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ توقيف ، والألف للاستفهام ، وحذفت في الوصل للاستغناء عنها (١) . و «اتِّخاذُ العهد» معناه : بالإيمان والأعمال الصالحة . و [كَلَّا] زجرٌ وردعٌ ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب ، على معنى حِفْظه عليه ومعاقبته به ، وقرأ عاصم (٢) ، والأعمش : [سَيُكْتَبُ] بياءٍ مضمومة ، وقرأ : [سَنَكْتُبُ] بالنون أبو عمرو ، والحسن ، وعيسى (٣) . و «مَدُّ العذاب»

= والوُلْدُ : ما وُلد أيّاً كان ، وهو يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى ، وقد يجوز أن يكون الوُلْد جمع وَلَد كوُثْن ووَثَن ، وقال الزجاج : الوَلَدُ والوُلْد واحد ، مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم ... الخ ، وقيل : إن قيساً تجعل الوُلْد بالضم جميعاً ، والوَلَد بالفتح واحد .

(١) يفهم من هذا الكلام أن الألف التي للاستفهام حذفت في الوصل ، وهذا غير صحيح ، فهي موجودة ، ولكن أصل الكلمة (أَأَطَّلَع) فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . ونُرَجِّح أن أصل الكلام «وحذفت ألفه في الوصل للاستغناء عنها» فسقطت كلمة (أَلِفهُ) .

(٢) يعني في رواية أبي بكر عنه .

(٣) وكذلك قرأها عاصم في رواية حفص عنه .

هو إطالته وتعظيمه ، وقوله تعالى : ﴿مَا يَقُولُ﴾ ، أي : هذه الأَشياءُ التي سمَّاها وقالَ إنه يُؤتاها في الآخرة يَرِثُ الله ماله منها في الدنيا بإهلاكه وتركه لها ، فالوراثة مستعارة ، ويحتمل أَن تكون خيبته في الآخرة كوراثة ما أَمَّل . وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه : «ونرثه ما عنده» ، وقال النحاس : ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ معناه : نَحْفَظُه عليه فنعاقبه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (العلماءُ ورثة الأَنبياءِ) (١) ، أَي حفظة ما قالوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فكأَن هذا الجُرْم (٢) يورث هذه المقالة . وقوله تعالى : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ يتضمن ذلَّته .

(١) أخرجه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما في الجامع الصغير : (العلماءُ ورثة الأنبياء ، يحبهم أهل السماء ، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة) ، ورمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف ، وفي رواية أُخرى عن علي رضي الله عنه أخرجها ابن عدي في الكامل ، قال صلى الله عليه وسلم : (العلماءُ مصابيح الأرض ، وخلفاء الأنبياء ، وورثتي وورثة الأنبياء) ، وقد رمز له الإمام السيوطي أيضاً في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف .

(٢) في بعض النسخ : «فكأن هذا المجرم» .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

« اتَّخَذَ » افتعل من (أخذ) لكنه يتضمن إعْداداً من المتَّخِذ للمُتَّخَذ ، وليس ذلك في (أَخَذَ) ، والضمير في [ٱتَّخَذُوا] لِعَبَدَة الأَوثان ، و « الآلِهةُ » : الأَصنامُ وكُلُّ من عُبِدَ من دون الله تبارك وتعالى ، ومعنى [عِزًّا] العموم في النُّصْرة والمنفعة وغير ذلك من أوجه الخير .

وقوله تعالى : [كَلَّا] زجْرٌ وردٌّ ، وهذا المعنى لازم لـ (كَلَّا) ، فإنْ كان القول المردود منصوصاً عليه بان المعنى ، وإن لم يكن منصوصاً عليه فلا بدَّ من أمر مردود يتضمنه القول كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾(١) ، فإن قوله : ﴿ عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١)

(١) الآية (٦) من سورة (العَلَق) ، وقوله تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ هو الآية (٥) من سورة (العَلَق) .

يتضمن مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حوْلاً مَّا ولا يتفكَّر جدًّا في أن الله علَّمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك .

وقرأ الجمهور : [كَلَّا] على ما فَسَّرْناه ، وقرأ أَبو نهيك : [كَلاًّ] بفتح الكاف والتنوين ، حكاه عنه أَبو الفتح ، وهو نعت للآلهة (١). وحكى عنه أَبو عمرو الداني [كُلاًّ] بضم الكاف والتنوين ، وهو منصوب بفعل مضمر يدلُّ عليه [سَيَكْفُرُونَ] ، تقديره : يرفضون أَو يتركون أَو يجحدون ونحوه .

واختلف المفسرون في الضمير الذي في [سَيَكْفُرُونَ] وفي [بِعِبَادَتِهِمْ] — فقالت فرقة : الأَول للكفار والثاني للمعبودين ، والمعنى أَنه سيجيءُ يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم إلى جحد الكفر وعبادةِ الأَوثان ، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا

---

(١) هكذا في جميع النسخ ، والذي ذكره أبو الفتح ابن جني في كتابه « المحتَسَب » هو أنه ينبغي أن تكون (كَلاًّ) هذه مصدراً ، كقولك : كَلَّ السيفُ كَلاًّ ، فهو إذاً منصوب بفعل مضمر ، فكأنه سبحانه لمّا قال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ قال : [كَلاًّ] ، أي : كلَّ هذا الرأي والاعتقادُ كلاًّ ، كما يقال : ضَعْفاً لهذا الرأي وفَيَالَةً (أيْ ضعفاً وخطأً). وتم الكلام ، ثم استأنف سبحانه وتعالى الكلام بقوله : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ ، فالوقْفُ إذاً علَى [عِزًّا] ، ثم استأنف تعالى فقال : كلَّ رأيُهُم كَلاًّ ، ووقف ، ثم قال من بعد : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ .

مُشْرِكِينَ ﴾ (١) . وقالت فرقة : الأَول للمعبودين والثاني للكفار ، والمعنى أن الله تعالى يجعل للأَصنام حياةً تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها هي من ذلك ذنب ، وأما المعبودون من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بَيِّنٌ . وقوله تعالى : [ضِدًّا] معناه : يجيئُهم منه خلاف ما أَمَّلُوه فيؤول بهم ذلك إلى ذِلَّةٍ ضدَّ ما أَمَّلُوه من العز ، ــ وهذه صفة عامة ، وقال قتادة : معناه : قُرَنَاءَ (٢) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : أَعواناً ، وقال الضحاك : أعداءً ، وقال ابن زيد : بلاءً ، وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أَعم منه وأَجمع للمعنى المقصود ، و « الضِّدُّ » هنا مصدرٌ يوصف به الجمع كما يوصف به الواحد .

وحكى الطبري عن ابن نهيك أنه قرأ : [كُلٌّ] بالرفع ، ورفعت بالابتداءِ (٣) .

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الأنعام) .

(٢) في الأصول كلها : فِرَقاً ــ والتصويب عن الطبري وغيره من المفسرين الذين نقلوا قول قتادة .

(٣) ذكر المفسرون أن [كَلاَّ] لم تذكر في النصف الأول من القرآن ، وقال الألوسي : وأول موضع ذكرت فيه في القرآن هو قوله تبارك وتعالى في هذه السورة : ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ ، ثم تكررت في النصف الثاني فذكرت في ثلاثة وثلاثين موضعاً . قيل : وتأتي بمعنيين : الأول بمعنى : حَقّاً ، والثاني بمعنى : لا .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ﴾ الآية . الرُّؤْيةُ رؤيةُ قلب ، و [أَرْسَلْنَا] معناه : سَلَّطنا ، أو لم نَحُل بينهم وبينهم فهو تسليط ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ (١) ، وتعديته بـ [عَلَى] دالَّة على أنه تسليط . و [تَؤُزُّهُمْ] معناه : تُقْلقهم وتحركهم إلى الكفر والضلال ، وقال قتادة : تزعجهم إزعاجاً ، وقال ابن زيد : تُشْليهم إشلاءً (٢) ، ومنه أَزيز القِدْر ، وهو غَلَيَانه ، ومنه ما في الحديث : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته يصلي وهو يبكي ، ولصدره أزيز كأَزيز المرجل (٣) .

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ، أي : فلا تستبطئْ عذابهم وتُحب تعجيله ، وقوله : ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي مُدَّة نعمتهم وقبيح أعمالهم لنصير بهم إلى العذاب إمَّا في الدنيا ، وإلَّا ففي الآخرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نعدُّ أنفاسهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في قوله تعالى : [يَوْمَ] ، ويحتمل أن يعمل فيه فعل مقدر ، تقديره :

(١) من الآية (٣٦) من سورة (الزخرف) .
(٢) أي : تُغْويهم وتدفعهم . يقال : أشْلَى الكلبَ على الصيد بمعنى أغراه .
(٣) الحديث في تفسير الطبري ، قال : «ومنه حديث مُطَرِّف عن أبيه ، أنه انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل» .

واذكر ، أو احْذَر ، ونحو هذا . و «الْحَشْرُ» : الجمعُ ، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع : البعث من القبور ، وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُحْشَرُ ٱلْمُتَّقُونَ وَيُسَاقُ ٱلْمُجْرِمُونَ » ، وروي عنه : «ويسوقُ الْمُجْرِمين» ، و «المُتَّقُونَ» : المؤمنون الذين غفر لهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر هذه الوِفادة أنها بعد انقضاءِ الحساب ، وإنما هي النهوض إلى الجنة ، وكذلك «سَوْقُ المجرمين» إنما هو لدخول النار . و [وَفْداً] قال المفسرون : معناه : رُكْبَاناً ، وهي عادة الوفود ؛ لأنهم سَراة الناسِ (١) وأحسنهم شكلا ، فشبَّه أهل الجنة بأُولئك ، لا أنهم في معنى الوفادة إذ هو مُضَمَّن الانصراف ، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون رُكْباناً على النُّوق المُحَلَّاة بحلية الجنة ، خُطُمها (٢) من ياقوت وزبرجد ونحو هذا . وروى عمرو بن قيس المُلَائيّ (٣) أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم

(١) سَرَاةُ : جمع سَرِيّ ، وهو الشريف .

(٢) الخُطُم : جمع خِطام ، وهو ما وضع على خَطْم الجمل ليقاد به .

(٣) عمرو بن قيس المُلَائِيّ — بضم الميم وتخفيف اللام والمد — أبو عبد الله ، الكوفي ، قال عنه في « تقريب التهذيب » : ثقة متقن عابد ، من السادسة ، مات سنة بضع وأربعين .

الصالحة هي في غاية الحُسْن ، ورُوي أنهم يركب كل واحد منهم ما أَحبَّ ، فمنهم من يركب الإبل ، ومنهم من يركب الخيل ، ومنهم من يركب السُّفُن فتجيءُ عائمة بهم ، وقد وَرَد في الضحايا (إنها مطاياكم إلى الجنة) ، وفي أكثر هذا بُعْدٌ لكن ذكرناه بحسب الجمع للأَقوال .

و «السَّوْقُ» يتضمن هواناً لأَنهم يُحْفَزُون (١) من ورائهم . و «الْوِرْدُ» : العِطاش ، قاله ابن عباس ، وأبو هريرة ، والحسن ، رضي الله عنهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم القوم الذين ينحفزون من عطشهم لورود الماء ، ويحتمل أن يكون المصدر ، والمعنى : نوردهم وِرْداً ، وهكذا يجعله من رأى أن في القرآن أربعة أوراد ، وقد تقدم ذكر ذلك (٢) .

واختلف المتأَولون في الضمير في قوله تعالى : ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ — فقالت فرقة : هو عائد على [ٱلْمُجْرِمِينَ] ، أي : لا يملكون أن يُشْفَع لهم ولا سبيل لهم إليها ، وعلى هذا التأْويل فهم مشركون خاصة ، ويكون قوله سبحانه ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾ استثناءً

---

(١) حَفَزَه حفْزاً : دفعه مِنْ خَلْفه بالسَّوق أو بغيره .

(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧١) من هذه السورة : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ .

منقطعاً ، أي : لكن من اتَّخَذ عهداً يُشفع له ، و «العَهْدُ» ـ على هذا ـ الإيمانُ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : العهدُ لا إلٰه إلَّا الله ، وفي الحديث : (يقول الله تعالى يوم القيامة : من كان له عندي عهد فليقم) (١) ، وفي الحديث : (خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاءَ بهن تامَّات كان له عند الله عهدٌ أن يُدخله الجنة) (٢) ، و «العَهْدُ» أيضاً الأَمان ، وبه فُسِّر قوله تبارك وتعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ (٣) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويحتمل أن يكون «المجرمون» يعُمُّ الكفرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشَّفاعة إلَّا العصاةَ من المؤمنين فإنه يُشفع فيهم ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في «الدرالمنثور» أنه قرأ : ﴿إلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾ ، قال : إن الله يقول يوم القيامة : من كان له عندي عهد فَلْيَقُم ، فلا يقوم إلاَّ من قال هذا في الدنيا ، قولوا : اللَّهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلاَّ برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . وذكره بهذا النص أيضاً الإمام الشوكاني في فتح القدير .

(٢) أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من جاءَ بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً جاءَ وله عند الله عهدٌ ألاَّ يعذبه ، ومن جاءَ قد انتقص منهن شيئاً فليس له عند الله عهد ، إن شاءَ رحمه وإن شاءَ عذبه) ، (الدر المنثور وفتح القدير) .

(٣) من الآية (١٢٤) من سورة (البقرة) .

فيكون الاستثناءُ متصلاً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا أَزال أَشفع حتى أَقول : يا رب شفِّعني فيمن قال لا إِلٰه إِلَّا الله ، فيقول الله : يا محمد ليست لك ، ولكنها لي) (١) .

وقالت فرقة : الضمير في قوله تعالى : ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ للمتقين ، وقوله : ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً﴾ أَي : إِلَّا من كان له عمل صالح مُبَرِّز يحصل به في حيِّز من يشفع ، وقد تظاهرت الأَحاديث أَن أَهل العلم والفضل والصلاح يَشْفَعون فَيُشَفَّعُون ، رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (في أُمتي رجل يُدخل الله بشفاعته الجنة أَكثر من بني تميم) (٢) ، قال قتادة رحمه الله : وكنا نحدث أَن الشهيد يشفع في سبعين .

---

(١) خرَّجه مسلم بمعناه ، واستشهد به القرطبي في تفسير هذه الآية .

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤–٢١٢) عن عبد الله بن قيس قال : سمعت الحارث ابن أُقيش يحدث أن أبا بَرْزَة قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن من أمتي لَمَن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر ، وإن من أُمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركناً من أركانها) ، وأخرج أيضاً الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (قد أُعطي كل نبي عطية ، فكلٌّ قد تعجَّلها ، وإني قد أخرت عطيتي شفاعةً لأمتي ، وإن الرجل من أُمتي ليشفع للفئام من الناس فيدخلون الجنة ، وإن الرجل ليشفع للقبيلة ، وإن الرجل ليشفع للعُصْبة ، وإن الرجـل ليشفع للثلاثة وللرجلين وللرجل) ، (المسند ٣–٢٠) .

وقال بعض هذه الفرقة : معنى الكلام : إلَّا لمن اتَّخذ عند الرحمن عهداً ، أي : لا يملك المتقون الشفاعة إلَّا لهذه الصنيعة فتجيءُ [مَنْ] في التأويل الواحد للشافعين ، وفي الثاني للمشفوع فيهم (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحتمل الآية أن يراد بـ [مَنْ] محمد صلى الله عليه وسلم وبـ (الشفاعة) الخاصة له صلى الله عليه وسلم لعامة الناس ، ويكون الضمير في [يَمْلِكُونَ] لجميع أهل الموقف ، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها صلى الله عليه وسلم ، فالعهد ـ على هذا ـ النصُّ على أمر الشفاعة (٢) في قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (٣) .

---

(١) وضَّح الطبري هذا الرأي فقال : « ومَن نصب [مَنْ] على أن معناه : إلاَّ لِمَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ، فإنه ينبغي أن يجعل قوله ﴿ لا يَمْلِكُونَ ﴾ للمتقين ، فيكون معنى الكلام حينئذ : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، لا يملكون الشفاعة إلاَّ من اتَّخَذَ عِند الرَّحْمن عَهْداً ، فيكون معناه عند ذلك : إلاَّ لمن اتَّخَذَ عندَ الرَّحْمن عهْداً ، فأمَّا إذا جعل ﴿ لا يَمْلِكُونَ ... ﴾ خبراً عن المجرمين فإن [مَنْ] تكون حينئذ نصباً على أنه استثناءٌ منقطع ، فيكون معنى الكلام : لا يملكون الشفاعة ، لكن من اتَّخَذ عندَ الرَّحمن عهداً يملكه » .

(٢) اضطربت الأصول في كتابة هذه العبارة ، واخترنا أقربها إلى الصواب في نظرنا ، والعصمة لله وحده .

(٣) من الآية (٧٩) من سورة (الإسراء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ
ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ
وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] للكفار من العرب في قولهم : الملائكة بنات الله ، وللنصارى ، ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر ، وقوله : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ ـ بعد الكناية عنهم ـ بمعنى : قل لهم يا محمد ، و «الإِدُّ» : الأَمر الشنيع الصعب ، وهي الدواهي والشُّنع العظيمة ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه المقالة أَوَّلَ ما قيلت في العالم شاكَ الشَّجَرُ واستعرت جهنمُ وغضبت الملائكة (١) . وقرأ

(١) نقل ابن جرير في تفسيره هذا الخبر ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : «ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول ... الخ» ، ولم يرفعه .

الجمهور : [إِدًّا] بكسر الهمزة ، وقرأ أبو عبد الرحمن : [أَدًّا] بفتح الهمزة ، ويقال : إِدٌّ ، وأَدٌّ ، وآدٌّ (١) ، وقرأ ابن كثير هنا ، وفي [عٓسٓقٓ] (٢) : [تَكَادُ] بالتاء [يَتَفَطَّرْنَ] بياءٍ وتاءٍ وفتح الطَّاءِ وشدِّها ، ورواها حفصٌ عن عاصم ، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم - في رواية أبي بكر : [تَكَادُ] بالتاءِ [يَنْفَطِرْنَ] بياءٍ ونون وكسر الطاءِ ، وقرأ نافع ، والكسائي : [يَكَادُ] بالياءِ وإزالة علامة التأْنيث [يَتَفَطَّرْنَ] بالياءِ والتاءِ وشدِّ الطاءِ وفتحها في الموضعين ، وقرأ حمزة ، وابن عامر في مريم مثل أبي عمرٍو ، وفي [عٓسٓقٓ] مثل ابن كثير ، وقال أبو الحسن ، والأَخفش : [يَكَادُ] بمعنى : يريد ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ (٣) ، وأنشد على أن (كاد) بمعنى (أراد) قولَ الشاعر :

كَادَتْ وكِدْتُ وتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى (٤)

---

(١) الأولى هي قراءة الجمهور ، والثانية قراءة أبو عبد الرحمن السلمي - كما قال المؤلف - والثالثة هي قراءة ابن عباس ، وأبي العالية ، فقد قرأ : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً آدّاً﴾ ، مثل مادّاً ، ذكر ذلك الشوكاني في (فتح القدير) .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٥) : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ .

(٣) من الآية (١٥) من سورة (طه) .

(٤) البيت في اللسان (كيد) غير منسوب ، وقد استشهد به على أن (كاد) تكون بمعنى : طلب وأراد ، قال : « بلغوا الأمر الذي كادوا ، يريد : طلبوا أو أرادوا ، وأنشد أبو بكر =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا حجَّة في هذا البيت ، وهذا قول قَلِقٌ .

وقال الجمهور : إنها استعارة لشُنْعَة الأَمر ، أَيْ : هذا حقُّه لو فهمت الجماداتُ قَدْره ، وهذا المعنى مَهْيَع (١) العرب ، فمنه قول جرير :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْر تَوَاضَعَتْ سُورُ المدينة والجِبَالُ الخُشَّعُ (٢)

ومنه قول الآخر :

أَلَمْ تَرَ صَدْعاً في السَّمَاءِ مُبينا عَلَى ابْن لُبَيْنَى الحارث بْن هشام ؟(٣)

= في (كاد) بمعنى (أراد) : كادتْ وكدتُ وتلك ... البيت . قال : معناه: أرادتْ وأردْتُ » . وابن عطية يرى أن المعنى هنا هو أنني وإياها قاربنا الفعل ولم نفعل ، وهو المعنى الأساسي في (كاد) ، أما المعنى الذي ذكره أبو بكر ، والحسن ، والأخفش فهو قلقٌ في نظره .

(١) المَهْيَع : الطريق الواسع المنبسط ، والمراد هنا أنه أُسلوب مألوف اتبعه العرب .

(٢) البيت من قصيدة طويلة تجاوزت أبياتها المائة والعشرين بيتاً ، وهي من النقائض ، وقد قالها جرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء ومطلعها :

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوَ كُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ ؟

والشاهد فيه أنه أخبر عن الجبال بأنها أصبحت خاشعة خاضعة حين جاءها خبر الزبير ، وهو في القصيدة يذم مجاشعاً قوم الفرزدق ويتهمهم بأنهم غَرُّوا الزبير وضيعوه .

(٣) الصَّدْع : الشَّقُّ في الشيء الصُّلْب كالزجاجة والحائط وغيرهما ، وجمعه صدوع ، والمُبين : الواضح الظاهر ، والحارث بن هشام صحابي جليل ، أسلم يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه ، ومات في طاعون عمواس ، وقيل : بل استشهد يوم اليرموك ، وهو أخو أبي جهل ،=

وقال الآخر :

وأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقْشَعِـرّاً كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بها هِشَامُ (١)

و «الانْفِطَارُ» : الانشقاق على رتبة غير مقصودة ، و «الهَدُّ» : الانهدام والتفرُّق في سرعة ، قال محمد بن كعب : كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْبَغِـي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ نفيٌ على جهة التنزيه له عن ذلك ، وقد تقدم ذكر هذا المعنى وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة .

وقوله : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية . [إِنْ] نافيةٌ بمعنى (ما) ، وقرأ الجمهور : ﴿آتِـي ٱلرَّحْمَنِ﴾ بالإضافة ، وقرأ

= وابن عم خالد بن الوليد، وقد شهد بدراً مع المشركين وكان ممن فرُّوا فعيَّره حسَّان بن ثابت بقولـه :

إنْ كنْتِ كاذبَةَ الّذي حَدّثْتِنِـي فَنَجَوْتِ مَنْجى الحارث بن هِشَـام

ترك الأحبَّـةَ أنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ونَجَـا برأسِ طَمِرَّةٍ ولِجَـامِ

واعتذر الحارث عن فراره بأبيات مشهورة ، والشاهد هو استعمال الصدع الواضح في السماء حزناً على الحارث بن هشام .

(١) اقْشَعَرَّ فهو مُقْشَعِرٌّ: تَقَبَّضَ وتجمَّعَ ، وفي حديث عمر رضي الله عنه : «قالت له هند لما ضرب أبا سفيان بالدِّرَّة : لرُبَّ يومٍ لو ضربتَه لاقْشَعَرَّ بطن مكة ، فقال : أجل» ، وبطن مكة : وسَطُها ، ولم نقف على قائل البيت ، والشاهد فيه استعارة القشعريرة والتَّقَبُّض لمكة .

طلحة : ﴿آتٍ ٱلرَّحْمَنَ﴾ بتنوين [آتٍ] والنصب في النون ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «لَمَّا أَتَى ٱلرَّحْمَن» ، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا انتزاعٌ بعيد ، و [عَبْداً] حالٌ .

ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبيده ، فذكر «الإحصاءَ» ، ثم كرر المعنى بغير اللفظ ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «لَقَدْ كَتَبَهُمْ وَعَدَّهُم» ، وفي مصحف أُبَيٍّ رضي الله عنه : «لَقَد أَحصَاهم فَأَجْمَلهم عدداً» . وقوله : [عَدًّا] توكيد للفعل وتحقيقٌ له . وقوله : [فَرْداً] يتضمن معنى قلَّة النصير والحول والقوة ، فلا مُجير له مِمَّا يريده الله به .

قوله تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ . ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحبه من عباده حسب ما في الحديث المأْثور (١) ، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه : إنها

---

(١) هو الحديث المشهور الذي خرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله =

بمنزلة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من أَسَرَّ سريرةً أَلْبسه اللهُ رداءَها) (١) ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما من عبد إلَّا وله في السماءِ صيت ، فإن كان حسناً وُضع في الأَرض حسناً ، وإن كانَ سيِّئاً وُضع كذلك) (٢) .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : إنَّ الآية نزلت فيه ، وذلك أنه لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة ، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية في ذلك (٣) ، أي : ستستقر نفوس المؤمنين ويوَدُّون حالهم ومنزلتهم ، وذكر النقَّاش أنها نزلت في علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه (٤) ، قال ابن الحنفية : «لا يوجد

= صلى الله عليه وسلم قال: إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله : ﴿إنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل : إني قد أبغضت فلاناً ، فينادي في أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاءَ في أهل الأرض .

(١) في تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير أن قتادة روى هذا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجهابن جرير الطبري في تفسيره ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وفي «الدر المنثور» أنَّه عن عبد الله بن عوف ، وصوابه : عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه .

(٤) أخرج ذلك ابن مردويه ، والديلمي عن البراء ، وأخرجه الطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه الحكيم الترمذي ، وابن مردويه ، عن علي رضي الله تعالى عنه .

مؤمن إلَّا وهو يحب عليَّ بن أبي طالب وأهل بيته رضي الله عنهم » .

وقرأ الجمهور : [وُدًّا] بضم الواو ، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتح الواو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتحتمل الآية أن تكون متَّصلة بما قبلها في المعنى ، أيْ أن الله تبارك وتعالى لمَّا أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد ، آنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وُدًّا وهو ما يظهر عليهم من كرامته ؛ لأن محبة الله للعبد هي ما يظهر عليه من نِعَمه وأمارات غُفرانه له .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الضمير في [يَسَّرْنَاهُ] للقرآن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) ؛ لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدَّم ذكره ،

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

ووقع التَّيسير في كونه بلسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وبلُغته المفهومة المبينة . وبشارةُ المتَّقين هي بالجَنَّة والنَّعيم الدائم والعزِّ في الدنيا .

و «القومُ اللُّدُّ» هم قريش ، ومعناه : مجادلين ومخاصمين بباطل ، والأَلَدُّ : المُخَاصم المبالغ في ذلك . وقال مجاهد : [لُدًّا] معناه : فُجَّاراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي فجور الخصومة ، ولا يلد إلَّا المبطل . وفي الحديث : (أَبْغَضُ الرجال إلى الله الأَلَدُّ الْخَصم)(١) .

ثم لما وصفهم تعالى بأَنهم لُدٌّ - وهي صفة سُوءٍ بحكم الشرع والحق - وجب أَن يَقْسو عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أَشد منهم وأَلَدَّ وأَعظم قَدْرَ ما كان يسرُّهم في أَنفسهم من الوصف بـ [لُدّ] ، فإن العرب بجهالتها وعتُوِّها وكفرها كانت تتمدَّح باللَّدَد ، وتراه إِدْراكاً وشهامة ، فمن ذلك قول الشاعر :

إنَّ تَحْتَ التُّرَاب عَزْماً وحَــزْماً وَخَصيماً أَلَدَّ ذا مِغْــلَاقِ (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، عن عائشة رضي الله عنها ، وقال القرطبي : هو في صحيح مسلم .

(٢) الخَصيم هو الخَصْمُ الذي يخاصمك ، وجمعه خُصَمَاءُ وخُصْمان ، والخُصُومة : الجدل ، والمِغْلاق في أحد معاونيه : السهم السابع من قداح الميسر ، يكون لصاحبه الفوز ، =

فمثَّل لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم ويتَبيَّن صغَر شأْنهم ، وعبَّرَ المفسرون عن « اللُّدِّ » بالْفَجَرة وبالظَّلمة ، وتلخيص معناها ما ذكرناه.

و « الْقَرْنُ » : الأُمَّة ، و « الرِّكْزُ » : الصوتُ الخفي دون نُطْق بحروف ولا فم ، وإنما هو صوت الحركات وخَشْفُهَا (١) ، ومنه قول لبيد :

وتَوَجَّسَتْ ركْزَ الأَنيس فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْب والأَنيسُ سَقَامُها (٢)

= ولعله المراد هنا ، والشاعر قد قرن بين العَزْم والحزم واللَّدد في الخصومة مع الفوز في الميسر ، وجعل ذلك كله من الصفات التي يعتز بها العربي ، وموضع الاستشهاد هنا التمدح باللدد في الخصومة .

(١) الخَشْفُ والخَشْفَةُ والخَشَفَةُ : الحركةُ والحس ، وقيل : الحِسُّ الخفيُّ ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما دخلت مكاناً إلا سمعتُ خَشْفَةً ، فالتفتُّ فإذا بلالٌ) .

(٢) البيت من مُعلَّقه لبيد ، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها بقرة وحشية ، فالضمير في (تَوَجَّسَتْ) يعود عليها ، ومعنى تَوَجَّسَتْ : تسَمَّعَتْ إلى صوت خفيٍّ ، وفيها معنى الخوف عند التَّسَمُّع ، والرِّكْز : الصوتُ الخفيُّ ، ويروى البيت : « وتوجست رِزَّ الأنيس » ، كما يُروى : « وتَسَمَّعَت رِزَّ الأنيس » ، والأنيس : الإنْس ، ورَاعَها : من الروع وهو الخوف والفزع ، و « عَنْ ظَهْرِ غيب » : من وراء حجاب ، و « الأنيس سَقَامُهَا » : أي الإنسان سبب مرضها وهلاكها لأنه يصيدها . يقول : إن البقرة الوحشية تسمعت الصوت الخفي الذي يحدثه الإنسان من وراء حجاب ، والإنسان هو السبب في هلاك هذه البقرة .

وقد طرق الشعراءُ هذا المعنى بكثرة ، ومن ذلك قول ذو الرُّمَّة يصف ثوراً تسَمَّع إلى صوت صائد وكلابه :

إذا تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدِسٌ بنَبْأَةِ الصَّوْتِ ما في سَمْعِهِ كَذِبُ

فهو نَدِسٌ أي حاذق ما في سمعه كذب ، أي هو صادق الاستماع بهذه النَّبْأَة ، وهي الصوتُ الخفي .

فكأنه قال : أو تسمع من أخبارهم قليلاً أو كثيراً ، أو طرفاً خفيًّا ضعيفاً ، وهذا يُرادُ به من تقدم أمره من الأُمم ودَرَس خَبَرُه ، وقد يحتمل أن يريد : هل بقي لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه ؟ فيدخل في هذا من عُرف هلاكه من الأُمم .

تمَّ تفسير سورة مريم والحمد لله ربِّ العالمين

انتهى الجزءُ التاسع بعون الله وتوفيقه والحمد لله ربِّ العالمين ، ويليه الجزءُ العاشر بمشيئة الله تعالى ، ويبدأُ بقوله تبارك وتعالى :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ : ﴿ طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَوَاتِ ٱلْعُلَى ، ٱلرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة للمحققين
فضيلة الشيخ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبدالعال السيد إبراهيم

فهـــرس الآيـات

الآيـــــة	رقم الصفحة
تفســير ســورة الإسراء	١
قوله عزَّ وجلَّ : (سبحان ٱلذي أَسْرى بعبده ليلاً من ٱلمسجد ٱلحرام إلى ٱلمسجد ٱلأقصى ٱلذي باركنا حوله لِنُريه من آياتنا إنه هو ٱلسميع ٱلبصير) إلى آخر الآية ١	٢
قوله عزَّ وجلَّ : (وآتينا موسى ٱلكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل ألاَّ تتَّخذوا من دوني وكيلاً) إلى آخر الآية ٤	١١
قوله عزَّ وجلَّ : (فإذا جاءَ وَعْد أُولاهُما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولِي بأسٍ شديد فجاسوا خلال ٱلديار وكان وعداً مفعولاً) إلى آخر الآية ٧	١٦
قوله عزَّ وجلَّ : (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عُدتم عُدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) إلى آخر الآية ١١	٢٤
قوله عزَّ وجلَّ : (وجعلنا ٱلليل وٱلنهار آيتين فمحونا آية ٱلليل وجعلنا آية ٱلنهار مُبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد ٱلسنين وٱلحساب) إلى آخر الآية ١٤	٢٩
قوله عزَّ وجلَّ : (من ٱهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولاَ تزرُ وازرة وِزْر أُخرى) إلى آخر الآية ١٧	٣٦
قوله عزَّ وجلَّ : (من كان يريد ٱلعاجلة عَجَّلْنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً) إلى آخر الآية ٢٢	٤٦
قوله عزَّ وجلَّ : (وقضى ربُّك ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه وبالوالدين إحساناً) إلى آخر الآية ٢٥	٥١

الآيـــــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وآتِ ذا ٱلقربى حقه وٱلمسكين وٱبن ٱلسبيل ولا تُبذر تبذيراً) إلى آخر الآية ٣٠	٦٠
قوله عزّ وجلّ : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإيّاكم) إلى آخر الآية ٣٣	٦٦
قوله عزّ وجلّ : (ولا تقربوا مال ٱليتيم إلاّ بالّتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدَّه) إلى آخر الآية ٣٦	٧٦
قوله عزّ وجلّ : (ولا تمش في ٱلأرضِ مرَحاً إنّك لن تخرق ٱلأرض ولن تبلغ ٱلجبال طولاً) إلى آخر الآية ٤٠	٨٧
قوله عزّ وجلّ : (ولقد صرّفنا في هذا ٱلقرآن ليذّكّروا وما يزيدهم إلاّ نفوراً) إلى آخر الآية ٤٤	٩٣
قوله عزّ وجلّ : (وإذا قرأتَ ٱلقرآن جعلنا بينك وبين ٱلذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) إلى آخر الآية ٤٧	٩٨
قوله عزّ وجلّ : (ٱنظر كيف ضربوا لك ٱلأمثال فضَلّوا فلا يستطيعون سبيلاً) إلى آخر الآية ٥١	١٠٤
قوله عزّ وجلّ : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلاّ قليلاً) إلى آخر الآية ٥٥	١٠٩
قوله عزّ وجلّ : (قل ٱدعوا ٱلذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف ٱلضُّر عنكم ولا تحويلاً) إلى آخر الآية ٥٩	١١٨
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قلنا لك إنّ ربّك أحاط بالنّاس وما جعلنا ٱلرؤيا ٱلّتي أريناك إلاّ فتنة للناس) إلى آخر الآية ٦٠	١٢٥

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وإذ قُلنا للملائكة ٱسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجد لمن خلَقْتَ طيناً) إلى آخر الآية ٦٥	١٣١
قوله عزّ وجلّ : (ربكم ٱلذي يُزجي لكم ٱلفلك في ٱلبحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً) إلى آخر الآية ٦٩	١٣٩
قوله عزّ وجلّ : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في ٱلبر وٱلبحر ورزقناهم من ٱلطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) إلى آخر الآية ٧٥	١٤٤
قوله عزّ وجلّ : (وإن كادوا لَيَسْتفزّونك من ٱلأرض ليُخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلاّ قليلاً) إلى آخر الآية ٧٩...	١٥٦
قوله عزّ وجلّ : (وقل ربّ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق وٱجعل لي من لدُنكَ سُلْطاناً نصيراً) إلى آخر الآية ٨٤	١٧٢
قوله عزّ وجلّ : (ويسألونك عن ٱلرُّوح قل ٱلرُّوح مِن أمر ربّي وما أوتيتم مِن ٱلعلم إلاّ قليلاً) إلى آخر الآية ٨٨	١٧٨
قوله عزّ وجلّ : (ولقد صرّفنا للناس في هذا ٱلقرآن من كل مثلٍ فأبى أكثرُ ٱلناسِ إلاّ كُفُوراً) إلى آخر الآية ٩٢	١٩٢
قوله عزّ وجلّ : (أو يكونَ لك بيتٌ مِن زُخرف أو تَرْقَى في ٱلسماءِ ولن نؤمن لرقيِّك حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نقرؤه) إلى آخر الآية ٩٥	١٩٧
قوله عزّ وجلّ : (قُل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) إلى آخر الآية ٩٨	١٩٩
قوله عزّ وجلّ : (أوَ لَم يَرَوْا أن ٱلله ٱلذي خلق ٱلسموات وٱلأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم) إلى آخر الآية ١٠١	٢٠٤

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ ربُّ السموات والأرض بَصَائِرَ وإني لأظُنُّك يافرعون مثبوراً) إلى آخر الآية ١٠٤	٢١١
قوله عزّ وجلّ : (وبالحق أنزلناه وبالحق نَزَلَ وما أرسلناك إلاّ مُبشراً ونذيراً) إلى آخر الآية ١٠٨	٢١٤
قوله عزّ وجلّ : (ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) إلى آخر الآية ١١١ ...	٢١٩
تفسير سورة الكهف	٢٢٥
قوله عزّ وجلّ : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجَا) إلى آخر الآية ٥	٢٢٦
قوله عزّ وجلّ : (فَلَعَلَّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) إلى آخر الآية ٩	٢٣٢
قوله عزّ وجلّ : (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمة وهيئْ لنا من أمرنا رشَداً) إلى آخر الآية ١٢	٢٣٩
قوله عزّ وجلّ : (نحن نَقُصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدىً) إلى آخر الآية ١٦	٢٤٩
قوله عزّ وجلّ : (وترى الشمس إذا طلعت تزَاوَرُ عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) إلى آخر الآية ١٨	٢٥٤
قوله عزّ وجلّ : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) إلى آخر الآية ٢٠	٢٦٥
قوله عزّ وجلّ : (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقٌّ وأنّ الساعة لا ريب فيها) إلى آخر الآية ٢١	٢٧٠

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) إلى آخر الآية ٢٤	٢٧٢
قوله عزّ وجلّ : (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وٱزدادوا تسعاً) إلى آخر الآية ٢٧	٢٨٢
قوله عزّ وجلّ : (وٱصبر نفسك مع ٱلذين يدعون ربهم بالغداة وٱلعشي يريدون وجهه) إلى آخر الآية ٢٩	٢٨٩
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلذين آمنوا وعملوا ٱلصالحات إنّا لا نضيع أجر من أَحسن عملاً) إلى آخر الآية ٣١	٣٠٠
قوله عزّ وجلّ : (وٱضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعنابٍ وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً) إلى آخر الآية ٣٤	٣٠٤
قوله عزّ وجلّ : (ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً) إلى آخر الآية ٣٩	٣١٠
قوله عزّ وجلّ : (فعسى ربّي أن يُؤتيَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حُسْباناً من ٱلسماء فتصبح صعيداً زَلَقاً) إلى آخر الآية ٤٤	٣١٤
قوله عزّ وجلّ : (وٱضرب لهم مثل ٱلحياة ٱلدنيا كماءٍ أنزلناه من ٱلسماء فاختلط به نبات ٱلأرض فأصبح هشيماً تذروه ٱلرياح) إلى آخر الآية ٤٨	٣١٩
قوله عزّ وجلّ : (ووُضع ٱلكتابُ فترى ٱلمجرمين مُشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالِ هذا ٱلكتابِ لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها) إلى آخر الآية ٥٠	٣٢٥
قوله عزّ وجلّ : (ما أشهدتهم خَلْق ٱلسموات والأرض ولا خَلْق أنفسهم وما كنت مُتّخذ ٱلمضلين عَضُداً) إلى آخر الآية ٥٤	٣٣٢

رقم الصفحة	الآيـــــة
٣٣٩	قوله عزّ وجلّ : (وما منع ٱلناس أن يؤمنوا إذ جاءهم ٱلهدى ويستغفروا ربهم) إلى آخر الآية ٥٧ ... ...
٣٤٣	قوله عزّ وجلّ : (وربُّك ٱلغفور ذو ٱلرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لَعَجَّل لهم ٱلعذاب) إلى آخر الآية ٦٠ ... ...
٣٥١	قوله عزّ وجلّ : (فلما بَلَغا مجمع بينِهما نسيا حوتهما فاتَّخَذَ سبيله في ٱلبحر سربا) إلى آخر الآية ٦٥ ... ...
٣٥٨	قوله عزّ وجلّ : (قال له موسى هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً) إلى آخر الآية ٧٣ ... ...
٣٦٤	قوله عزّ وجلّ : (فانطلقا حتى إذا لَقِيا غُلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكيَّة بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً) إلى آخر الآية ٧٨ ... ...
٣٧٦	قوله عزّ وجلّ : (أما ٱلسفينة فكانت لمساكين يعملون في ٱلبحر) إلى آخر الآية ٧٩ ... ...
٣٨١	قوله عزّ وجلّ : (وأما ٱلغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طُغياناً وكفراً) إلى آخر الآية ٨٢ ... ...
٣٨٧	قوله عزّ وجلّ : (ويسألونك عن ذي ٱلقرنين قل سأتلوا عليكم منه ذِكْراً) إلى آخر الآية ٨٦ ... ...
٣٩٦	قوله عزّ وجلّ : (قال أمَّا من ظَلَم فسوف نعذبه ثمّ يُرَدُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكْراً) إلى آخر الآية ٩١ ... ...
٣٩٩	قوله عزّ وجلّ : (ثم أتبع سبباً ، حتى إذا بَلَغ بين ٱلسدَّين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) إلى آخر الآية ٩٥ ... ...

الآيـــــــة	رقم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (آتوني زُبَرَ ٱلحديد حتى إذا ساوى بين ٱلصدفين قال ٱنفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قِطْراً) إلى آخر الآية ١٠٠ ... ٤٠٥

قوله عزَّ وجلَّ : (ٱلذين كانت أَعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً) إلى آخر الآية ١٠٦ ... ... ٤١٢

قوله عزَّ وجلَّ : (إن ٱلذين آمنوا وعملوا ٱلصالحات كانت لهم جنَّات الفردوس نُزُلاً) إلى آخر الآية ١١٠ ... ... ٤١٦

تفسـير سـورة مريم ٤٢٢

قوله عزَّ وجلَّ : (كٓهيعٓصٓ ، ذِكْر رحمة ربك عبده زكريَّا ، إذ نادى ربه نِداءً خفِيًّا) إلى آخر الآية ٦... ... ... ٤٢٢

قوله عزَّ وجلَّ : (يا زكريَّا إنَّا نُبشِّرك بغلام ٱسمه يَحْيَى لم نجعل له من قبلُ سَمِيًّا) إلى آخر الآية ١١ ... ... ٤٣١

قوله عزَّ وجلَّ : (يا يحيى خُذ ٱلكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا) إلى آخر الآية ١٥ ... ... ٤٣٦

قوله عزَّ وجلَّ : (وٱذكر في ٱلكتاب مريم إذ ٱنتَبَذت مِن أهلها مكاناً شرقيًّا) إلى آخر الآية ٢٠ ... ... ٤٤١

قوله عزَّ وجلَّ : (قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آيةً للنَّاس ورحمةً مِنَّا وكان أمراً مقضيًّا) إلى آخر الآية ٢٣ ... ... ٤٤٤

قوله عزَّ وجلَّ : (فناداها مِن تحتها ألاَّ تحزني قد جعل ربك تحتك سريًّا) إلى آخر الآية ٢٦ ... ... ٤٥٠

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا) إلى آخر الآية ٢٨	٤٥٩
قوله عزّ وجلّ : (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في ٱلمهد صبيًّا) إلى آخر الآية ٣٣	٤٦١
قوله عزّ وجلّ : (ذلك عيسى ٱبن مريم قول الحق ٱلذي فيه يمترون) إلى آخر الآية ٣٦	٤٦٧
قوله عزّ وجلّ : (فاختلف ٱلأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) إلى آخر الآية ٤٠	٤٧٠
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكر في ٱلكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيًّا) إلى آخر الآية ٩٦	٤٧٤
قوله عزّ وجلّ : (قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيًّا) إلى آخر الآية ٥٠	٤٧٩
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكر في ٱلكتاب موسى إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولاً نبيًّا) إلى آخر الآية ٥٥	٤٨٣
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكر في ٱلكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبيًّا) إلى آخر الآية ٥٨	٤٨٩
قوله عزّ وجلّ : (فخلف مِن بعدهم خَلْف أضاعوا ٱلصلاة وٱتّبعوا ٱلشهوات فسوف يلقون غيًّا) إلى آخر الآية ٦٣	٤٩٢
قوله عزّ وجلّ : (وما نَتَنَزَّل إلاّ بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًّا) إلى آخر الآية ٦٥	٤٩٨

رقم الصفحة | الآيـــــة

قوله عزّ وجلّ : (ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُخرج حيًّا) إلى آخر الآية ٦٩ ... ... ٥٠٥

قوله عزّ وجلّ : (ثم لنَحْنُ أعلم بالذين هُم أولى بها صِلِيًّا) إلى آخر الآية ٧٢ ... ... ٥١٠

قوله عزّ وجلّ : (وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّنات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نَدِيًّا) إلى قوله تبارك وتعالى : (فلْيَمدد له الرحمن مَدًّا) من الآية ٧٥... ... ... ٥١٧

قوله عزّ وجلّ : (حتى إذا رأوا ما يوعدون إمّا العذاب وإمّا الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جُنداً) إلى آخر الآية ٨٠ ... ... ٥٢٣

قوله عزّ وجلّ : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزًّا) إلى آخر الآية ٨٧ ... ٥٣٠

قوله عزّ وجلّ : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدًّا) إلى آخر الآية ٩٦ ... ... ٥٣٩

قوله عزّ وجلّ : (فإنما يسّرناه بلسانك لِتبَشِّر به المتقين وتُنذر به قوماً لُدًّا) إلى آخر الآية ٩٨ ... ... ٥٤٥

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٤٤٧ لسنة ١٩٨٧ م

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
ص ب ١٦٧١ – الدوحة – قطر